ختان الذكور والإناث

عند اليهود والمسيحيّين والمسلمين
الجدل الديني والطبّي والاجتماعي والقانوني

د. سامي عوض الذيب أبو ساحلية

تقديم الدكتورة نوال السعداوي

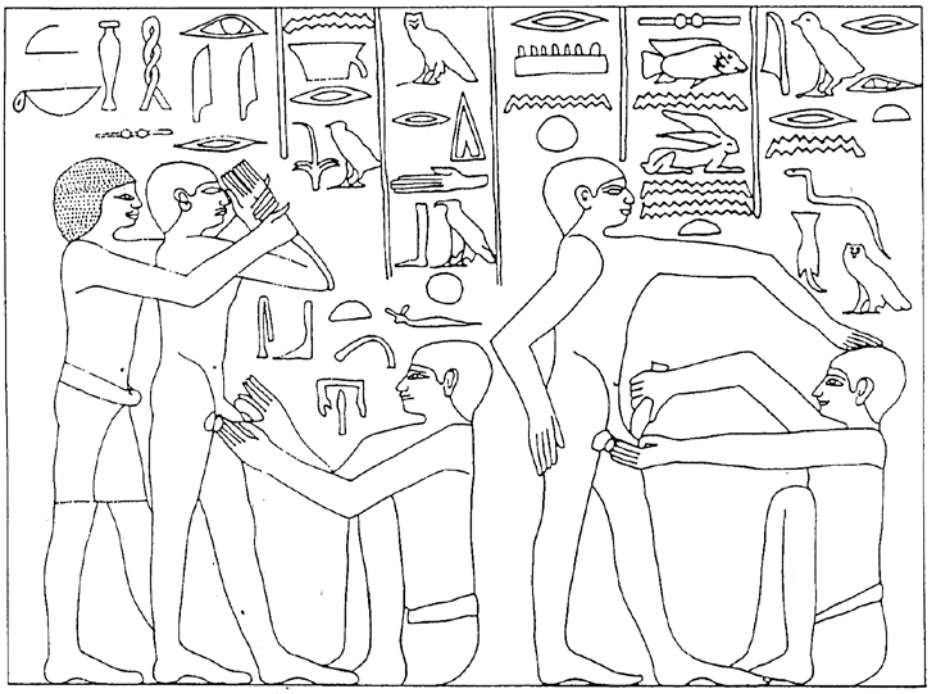

2003

ختان الذكور والإناث

عند اليهود والمسيحيّين والمسلمين
الجدل الديني والطبّي والاجتماعي والقانوني

د. سامي عوض الذيب أبو ساحلية

تقديم الدكتورة نوال السعداوي

نبذة عن المؤلف

سامي عوض الذيب أبو ساحلية، مسيحي من أصل فلسطيني وحامل الجنسيّة السويسريّة. ولد عام 1949 في الزبابدة، فلسطين.

أتم دراسته الجامعيّة في سويسرا حيث حصل على ليسانس ودكتوراه في القانون من جامعة فريبورغ، ودبلوم في العلوم السياسيّة من معهد الدراسات الجامعيّة العليا في جنيف. يعمل في المعهد السويسري للقانون المقارن في لوزان كمستشار قانوني مسئول عن القسم العربي والإسلامي منذ عام 1980. له عدة مؤلفات ومقالات في الشريعة والقانون العربي والسياسة في عدّة لغات. وألقى محاضرات عدّة في جامعات ومراكز عربيّة وغربيّة. ويجد القارئ قائمة منشوراته وبعض مقالاته على موقعه على الانترنيتwww.sami-aldeeb.com

من بين كتبه

- أثر الدين على النظام القانوني في مصر: غير المسلمين في بلاد الإسلام، 1997 (بالفرنسيّة).
- التمييز ضد غير اليهود مسيحيّين ومسلمين في إسرائيل، 1992 (بالفرنسيّة).
- المسلمون وحقوق الإنسان: الدين والقانون والسياسة، دراسة ووثائق، 1994 (بالفرنسيّة).
- ختان الذكور والإناث عند اليهود والمسيحيّين والمسلمين، 2001 (بالفرنسيّة والإنكليزيّة).
- المقبرة الإسلاميّة في الغرب: النظم اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة، 2002 (بالفرنسيّة).
- المسلمون في الغرب بين الحقوق والواجبات، 2002 (بالفرنسيّة والإنكليزيّة).

الكتاب الذي بين يديك

هذا الكتاب مختصر لكتاب مطول يجده القارئ في موقعي على الانترنيت. وقد أصدرت دار رياض الريس في بيروت عام 2000 الجزء الأول من الكتاب المطول تحت عنوان: ختان الذكور والإناث عند اليهود والمسيحيين والمسلمين: الجدل الديني. كما صدر الكتاب كاملاً، دون الملاحق، باللغة الفرنسيّة والإنكليزيّة.

ختان الذكور والإناث

عند اليهود والمسيحيّين والمسلمين
الجدل الديني والطبّي والاجتماعي والقانوني

د. سامي عوض الذيب أبو ساحلية

تقديم الدكتورة نوال السعداوي

مختصر محتويات الكتاب

يجد القارئ المحتويات كاملة في آخر الكتاب

مختصر محتويات الكتاب **7**
تقديم الدكتورة نوال السعداوي **11**
المقدّمة **17**
الجزء الأول: تعريف الختان وأهمّيته العدديّة وتوزيعه **21**
الفصل الأول: تعريف الختان 21
الفصل الثاني: الأهمّية العدديّة والتوزيع الجغرافي 24
الجزء الثاني: الختان والجدل الديني **27**
الفصل الأول: الختان في الفكر الديني اليهودي 27
الفصل الثاني: الختان في الفكر الديني المسيحي 54
الفصل الثالث: الختان في الفكر الديني الإسلامي 71
الجزء الثالث: الختان والجدل الطبّي **105**
الفصل الأول الآلام الناتجة عن ختان الذكور والإناث 105
الفصل الثاني: الأضرار الصحّية لختان الذكور والإناث 109
الفصل الثالث: المضار الجنسيّة لختان الذكور والإناث 119
الفصل الرابع: الفوائد الصحّية المزعومة لختان الذكور والإناث 131
الفصل الخامس: المعالجة الطبّية لآثار الختان الضارّة 152
الجزء الرابع: الختان والجدل الاجتماعي **157**
الفصل الأول: الختان من بتر الذات الشاذ إلى التصرّف الجماعي الثقافي 157
الفصل الثاني: الختان وتأثير المحيط 162
الفصل الثالث: الختان والدين 165
الفصل الرابع: الختان وكبح النزوات الجنسيّة والأعداد للزواج 167
الفصل الخامس: الختان والنظام القَبلي والطائفي 171
الفصل السادس: الختان وغريزة التسلط 175
الفصل السابع: الختان والعوامل الاقتصادية 178
الفصل الثامن: الختان والدوافع السياسيّة 183

الفصل التاسع: النتائج النفسيّة والاجتماعية للختان 189
الفصل العاشر: الوسائل التربويّة والنفسيّة للقضاء على الختان 198
الجزء الخامس: الختان والجدل القانوني 205
الفصل الأول: منع ختان الذكور عبر التاريخ 205
الفصل الثاني: إدانة المشرّع الدولي لختان الإناث 208
الفصل الثالث: الختان وحقوق الإنسان 219
الفصل الرابع: ختان الذكور والإناث والإباحة الطبّية 226
الفصل الخامس: منع الختان بين المُثُل والإمكانيّات 232
الفصل السادس: الختان واللجوء السياسي 238
خاتمة الكتاب 243
كامل محتويات الكتاب 245

تقديم الدكتورة نوال السعداوي

منحني هذا الكتاب لذّة المعرفة. أدركت منذ الطفولة أنها أكثر أهمّية من لذّة الحلوى في العيد أو الفستان الجديد، رغم أنها لم ترد في كتب الله الثلاثة ضمن ملذّات الدنيا والآخرة. كنت أتساءل دائماً لماذا تغيب في جنّة عدن. لم أنبهر كثيراً بالجنّة وما فيها من لبن وعسل وخمر وحور وغلمان. كانت لذّة المعرفة تبدو لي أكثر أهمّية من كل ذلك. منذ تعلمت القراءة انفتح عالم الكلمات أمامي على نحو مبهر. إلاّ أن اللذّة كان يصاحبها الإثم دائماً. ربّما بسبب خطيئة حوّاء (كما شرحها لنا المدرّسون) لأنها أكلت الثمرة المحرّمة. لم يذكر الله اسم الشجرة في القرآن، لكنّه ذكر اسمها في كتابه الأوّل التوراة، وقال إنها شجرة المعرفة. عرفت منذ المدرسة الابتدائية أن التوراة والإنجيل أنزلهما الله نوراً وهدى للناس كما أنزل كتابه الثالث القرآن. اقترن الإيمان بالإثم منذ قرأت الكتب السماويّة. يتزايد الإثم في أعماقي مع تزايد المعرفة، حتى قرّرت في مرحلة المراهقة الأولى أن أكف عن القراءة.

كنت في مدرسة تجمع التلميذات من الأديان الثلاثة المسلمات والقبطيّات واليهوديّات، وكم تصارعنا حول أيها الدين الصحيح، وكم تنافسنا في اصطياد الآيات غير المنطقيّة في الكتاب الذي لا نؤمن به. عانيت كثيراً لأني كنت مسلمة ورثت الإسلام عن أبي الذي قال لي إنني يجب أن أومن بكتب الله الثلاثة. عانيت وحدي وأنا أقرأ هذه الكتب. أتوقّف عند آيات لا يقبلها عقلي. وأسأل أبي وأمي والمدرّسين إلاّ أن أحداً لم يكن يرد على تساؤلاتي.

لا زلت حتى اليوم وبعد أن تجاوزت الستين عاماً أحاول الإجابة على كثير من الأسئلة الطفوليّة التي دارت في رأسي وأنا في العاشرة من العمر دون أن أجد لها جواباً. إن النشاط الهرموني المتزايد في سن المراهقة الأولى يزيد نشاط الخلايا العقليّة، ويصاحب رغبة الاستطلاع الجنسيّة رغبة استطلاع فكريّة. وفي هذا العمر تزيد الضغوط العائليّة والاجتماعية على المراهقين والمراهقات تحت اسم الحماية أو العفة. وتسعى السلطة في الدولة أو العائلة لمصادرة الكتب. هكذا يصاحب التعفف الجنسي تعفف فكري، ويتم تحريم الأفكار الأخرى بمثل ما يتم تحريم الاختلاط بالجنس أو الأجناس الأخرى.

في بلادنا العربيّة لا أظن أننا تخلصنا من داء مصادرة الكتب التي تفتح عقول الشبان والشابّات على أفكار مختلفة لم ترد للأسلاف من الأجداد أو الأنبياء. منذ أيّام قليلة (خلال شهر أبريل 1999) منعت الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة عدداً من الكتب، ومنها

سيرتي الذاتيّة المترجمة إلى الإنكليزيّة، رغم أنها نشرت بالعربيّة منذ عامين. وهذا يدلنا على أن الرقابة على الكتب أو على المعرفة لا تزال موجودة في بلادنا، بل إنها تشتد تحت اسم حماية الشباب من الأفكار التي قد تهز إيمانهم الديني! فهل الإيمان قشة يمكن أن يذروها الهواء؟ هل لا بد من غلق النوافذ حتى تظل هذه القشة ملتصقة بقشرة المخ؟ وإن انفتحت نافذة واحدة طارت القشرة ومعها القشة؟!

في العاشرة من عمري في قريتي في مصر كنت ألتهم أي كتاب يقع في يدي، وأقرأ القراطيس التي يلف فيها اللب أو الفول السوداني. كانت صفحات من كتب قديمة يبيعها المفكرون الفقراء بالأقة لأصحاب الدكاكين. تخيّلت وأنا أقرأ هذا الكتاب لو أنه وقع في يدي منذ أربعين عاماً، هل كان يوفر عليَّ السنين الطوال التي أنفقتها في البحث والتنقيب عن الحقيقة؟ التي كانت تتسرّب كالماء من بين أصابعي، ما أن أمسكها حتى تفلت منّي كالسمكة في البحر، وأعود أدراجي إلى الصلاة والتوبة عن الإثم.

هذا الكتاب من الكتب الضروريّة للمكتبة العربيّة. لهذا أود أن يُنشر هذا الكتاب في بلادنا العربيّة، وأن يكون في متناول الشبان والشابّات والتلاميذ والتلميذات في المدارس والجامعات.

أحد الأسلحة في مجال الثقافة العامّة، حيث تحرّم الأغلبيّة الساحقة من الثقافة الحقيقيّة، حيث يفشل نظام التعليم في تدريب الشبان والشابّات على تشغيل عقولهم. تؤدّي الهزيمة العقليّة إلى هزيمة سياسيّة وعسكريّة واقتصاديّة. إن الثقافة غير منفصلة عن السياسة أو الدين أو الحرب، والعقل هو الذي يوجّه اليد التي تمسك السيف أو البندقيّة.

لا أظن أن بلادنا يمكن أن تنهض من كبوتها أو هزائمها المتتالية أمام الغزو الخارجي أو البطش الداخلي دون نهضة عقليّة، دون حرّية فكريّة بحيث يكون الشك هو خادم المعرفة كما يقول مؤلف هذا الكتاب، الحقيقة إذا كانت حقيقة فإنها تقوى أمام كل امتحان.

الشك أوّل الخطوات نحو المعرفة وليس الإيمان. فالإيمان موروث يطمس العقل ويمنعه من التفكير بحرّية. حتى في كليات الطب لم تكن المعرفة واردة، بل التدريب على إجراء عمليّات موروثة عن الآباء والأجداد. أود أن يُدرّس هذا الكتاب للأطبّاء والطبيبات في بلادنا حتى يكفوا عن إجراء عمليّات الختان للذكور والإناث على حد سواء.

يبدأ الدكتور سامي أبو ساحلية كتابه بأنه تألم حين سمع طفلاً يصرخ من شدّة الألم أثناء عمليّة ختان. بقي هذا الصراخ يدوّي في أعماقه رغم أنه هو نفسه لم يتعرّض لعمليّة الختان. فلماذا لا يسمع الأطبّاء هذا الصراخ أثناء إجرائهم هذه العمليّة؟ أليس للأطبّاء آذان وقلوب تتألم مثل البشر؟ أليس للآباء والأمّهات الذين يسمعون صراخ أطفالهم آذان وقلوب؟!

الجهل يطمس القلوب والآذان فلا تسمع ولا تحس. الجهل يقلب الأمور رأساً على عقب فيصبح الألم فرحاً وسفك الدم مبعث السرور والبهجة. ألم يبتهج إله موسى في التوراة حين رأى الدم يسيل من ابنه حين أمسكت زوجته صفورة حجر صوّان وقطعت غرلته؟! إذا كان الإله (الذي هو المثل الأعلى للبشر) يبتهج لمنظر الدم فماذا يفعل البشر؟!

الله هو العدل كما عَرفت من جدّتي الفلاّحة الفقيرة: «ربّنا هو العدل عرفوه بالعقل» هي عبارتها. رسخت في ذهني منذ السادسة من عمري، مع الألم الذي أشعر به إثر عمليّة الختان، وصراخ أختي لا يزال في أذني رغم مرور ستين عاماً. وقد توالى الصراخ في بيتنا إثر ختان تسعة من الأطفال الذكور والإناث. آلمني صراخ أخي الصغير بمثل ما آلمني صراخ أختي الصغرى، وبعد كل صرخة تتزايد شكوكي في عدالة الله، ويتزايد معها الإحساس بالإثم.

فرحت بهذا الكتاب، لأنه قد يحرّر الناس من الإحساس بالإثم الدفين منذ طفولتهم، ولأنه قد يلعب دوراً كبيراً في إقناع الكثيرين بالامتناع عن ختان أطفالهم الذكور والإناث. لقد بذل المؤلف الدكتور أبو ساحلية جهداً كبيراً في المقارنة بين الأديان السماويّة الثلاثة إزاء موقفها من الختان، ومتابعة الآراء المعارضة والمؤيّدة بروح علميّة وإنسانيّة. وهناك نقص كبير في الدراسات المقارنة بين الأديان في معظم الجامعات في العالم. وقد اكتشفت أن الأقسام التي تدرس الدين في الجامعات الأمريكيّة والأوروبيّة لا تهتم بالدراسات المقارنة بين الإسلام والمسيحيّة واليهوديّة، بل إنها تدرّس الإسلام فقط لمن يختص في الإسلام، ويصبح أستاذاً في الدين الإسلامي، دون أن يعرف التشابه أو الاختلاف بين الإسلام والمسيحيّة واليهوديّة. قابلت كثيراً من الأساتذة الأمريكيّين والأوروبيين الذين تخصّصوا في الإسلام، والذين يعتقدون أن حجاب المرأة وختانها يرتبط بالإسلام فقط وليس له وجود في المسيحيّة واليهوديّة.

هذا الكتاب يكشف عن هذه الأفكار الخاطئة والشائعة في الغرب. فإن عمليّات الختان للذكور كانت تمارس قبل ظهور الأديان السماويّة. وقد مورست في ظل هذه الأديان الثلاثة. ويتميّز القرآن عن التوراة في أنه صمت تماماً عن ختان الذكور، كما أن

القرآن لم يذكر شيئاً عن ختان الإناث. فلماذا هذه الشائعات السياسيّة الغربيّة عن الإسلام وحده دون الأديان الأخرى؟ أذكر أنني في إحدى المحاضرات في بداية الثمانينات في مؤتمر بمونتريال بكندا، تعرّضت للأديان الثلاثة فيما يخص الحجاب وختان الذكور والإناث. وتقبّل الحاضرون من النساء والرجال كلامي بفهم كبير، خاصّة وأنني قرأت بعض الآيات من التوراة والإنجيل والقرآن. إلاّ أن الغضب الشديد استولى على بعض النساء اليهوديّات الأمريكيات والإسرائيليّات على حد سواء. أصابهن هستيريا الغضب ولجأن إلى الصراخ والشتائم والاتهامات أقلها الاتهام بالعداء للساميّة. إلاّ أنني واجهت هذا الغضب بقوّة المنطق، لأن الغضب كثيراً ما يكون غطاءاً للزيف وبطلان المنطق. وقلت إننا العرب من أهل سام وليس اليهود فقط. وأن العداء للساميّة هو عداء للعرب أيضاً. لذلك لا يمكن تخويفنا بهذه الحجّة الواهية (العداء للساميّة). ثم أثبت بحقائق التاريخ أن اليهوديّة والمسيحيّة فرضتا الحجاب على النساء. ولا يختلف زي الراهبات في الكنائس عن زي النساء المسلمات اللاتي يرتدين الحجاب. وفي يومنا هذا لا يمكن لامرأة مسيحيّة (وإن كانت زوجة الرئيس الأمريكي) أن تقف أمام البابا في الفاتيكان دون أن تغطي رأسها بحجاب. ثم قرأت بعض ما يكتبه التيّار اليهودي الأصولي في إسرائيل عن عزل النساء من الحياة العامّة ممّا هو أشد قهراً للنساء ممّا يكتبه التيّار الإسلامي الأصولي في مصر أو الباكستان.

تأتي أهمّية هذا الكتاب من الدراسة المقارنة بين الأديان الثلاثة. وهي تكشف عن الصراعات السياسيّة والاقتصادية بين الفرق المختلفة تحت اسم الله.

يقول المؤلف عن العهد القديم بين الله والنبي إبراهيم، إنه «تسييس عمليّة جراحيّة». وهذا صحيح. وإلاّ فلماذا وعد الله شعبه المختار بأرض كنعان، وما علاقة الاستيلاء على أرض الغير بختان الذكور؟

في مقال لي بمجلة روز اليوسف في 1998/12/21 تحت عنوان: «أوقفوا ختان الذكور»، تساءلت عن سر العلاقة بين الاستيلاء بالقوّة عن أرض فلسطين وبين قطع غرلة الأطفال الذكور؟! الغريب أن غضب بعض الرجال المسلمين عليّ لم يكن أقل من غضب النساء اليهوديّات في مؤتمر مونتريال منذ خمسة عشر عاماً. ممّا يدل على أن الإسرائيليّات قد تسرّبت إلى الإسلام فيما يخص ختان الذكور، كما وضّح لنا هذا الكتاب.

لقد تم استخدام القوّة لإخفاء الحق منذ نشوء العبوديّة أو النظام الطبقي الأبوي في التاريخ البشري، ولإخفاء السلطة السياسيّة تحت غطاء السلطة الدينيّة. كان الإله الحاكم يجلس على عرش الأرض والسماء ويقدّم له العبيد القرابين من الفراخ والحمام

واللحم البشري فيأكل ويشرب ويغسل قدميه ويطالب عبيده بأن يبنوا له بيتاً يعيش فيه يسمّونه المعبد المقدّس.

رغم مرور آلاف السنين منذ نشوء النظام الطبقي الأبوي لم تنفصل السلطة السياسيّة عن السلطة الدينيّة حتى يومنا، في الشرق والغرب والشمال والجنوب. إن الرأسماليّة العالميّة أو النظام الطبقي الأبوي الدولي لا يمكن أن يستمر في الوجود دون الارتكاز على قوّة غامضة غير مرئيّة، يستطيع باسمها أن يخدع الناس ويقهرهم ويحتل أراضيهم ويقطع في أجسادهم وعقولهم كما يشاء تحت اسم المقدّس.

يكشف هذا الكتاب عن دور السياسة في موضوع الختان. حدثت عام 1871 قفزة إلى الأمام بسبب ما كان ينتج عن الختان من وفيّات ونزيف وقرّر المجمع اليهودي أن ختان الذكور ليس واجباً مفروضاً على اليهود. إلاّ أن الردّة السياسيّة والثقافيّة حدثت مع تزايد قوّة الاستعمار وبعد إنشاء دولة إسرائيل. تضاعفت القوى السياسيّة والدينيّة المحافظة، إلى أن جاء قرار الجمعيّة العموميّة لحاخامات اليهود عام 1979 بفرض ختان الذكور.

يوضّح الكتاب أن الختان عمليّة عبوديّة أو علامة العبيد كما يقول المؤلف. هناك آية في الدين اليهودي تؤكد ذلك، وهي: (يختن المولود في بيتك والمشترى بفضّتك) كما يوضّح الصراع الذي دار على الدوام حتى عصرنا هذا بين الذين يتمسّكون بحرفيّة كتاب الله (من أجل مصالح مادّية في الدنيا) وبين الذين ينشدون جوهر الدين الصحيح وهو العدل واحترام كرامة الإنسان وجسده. كما يوضّح التشابه بين عمليّات الختان وعمليّات اخصاء العبيد، حتى يتفرغوا للخدمة في البيوت أو للغناء في الملاهي مثل النساء.

لا تختلف عمليّات الختان عن عمليّات القتل الجماعي في حروب الاستعمار القديم والجديد، ولا تكف الآلة العسكريّة الرأسماليّة الاستعمارية عن قتل الآلاف والملايين من الشعوب البريئة حتى يومنا هذا، دون رحمة أو شفقة. بل إنهم يقتلون تحت اسم الله أو العدل أو الحرّية أو الديموقراطيّة أو السلام، كما يختنون الملايين ويقطعون في أجسامهم باسم الله.

الدول، وإن أعلنت أنها علمانيّة (تفصل بين الدين والسياسة)، إلاّ أنها لا تستطيع أبداً التخلي عن الدين، لأنها لا تستطيع تحمّل مسؤوليّة القتل أو الختان، ولا بد لها من إلقاء المسؤوليّة على الله. ويكشف الكتاب عن ختان الذكور. هو بقايا الضحايا الدمويّة في اليهوديّة القديمة. ولا بد من إسالة نقطة دم وإن أصبح الختان رمزياً فقط (دون قطع

الغرلة)، لأن الدم علامة العبوديّة (دم العهد) وتصاحب عمليّة الختان صلوات رجال الدين لإدخال الله رمزياً في العمليّة، وإذا تم بعيداً عن رجال الدين لا يعترفون به، ولا بد من وجودهم ليكون ختاناً شرعيّاً.

ألا يشبه ذلك عقد الزواج؟ إن الزواج لا يكون شرعيّاً إلاّ بحضور المأذون أو رجل الدين. وهذا يؤكد سلطة رجال الدين الاجتماعية، رغم اضمحلال قوّتهم في المجال السياسي والاقتصادي والعسكري. لقد أصبحت جميع القوانين في بلادنا مدنيّة ما عدا قانون الزواج والطلاق فهو لا يزال قانوناً دينيّاً يسيطر عليه رجال الدين، يمسكونه بالمخالب والأنياب كأنما هو آخر قلاعهم أو معاقلهم، ولأن قانون الزواج مثل الختان يمس حياة الشرائح الأضعف في المجتمع، وهم الأطفال والنساء.

ويكشف الكتاب كيف يتنصّل كثير من اليهود اليوم من عمليّات ختان الذكور، يحاولون إلصاقها بالمصريّين القدماء، كما حاولوا إلصاق عمليّات ختان الإناث بالعرب والإسلام لأسباب سياسيّة، ولإثبات أن العرب أمّة بربريّة متخلفة تقطع بظور النساء.

دهشت عندما سمعت وزير الصحّة في مصر يردّد أن ختان الإناث عادة أفريقيّة. وسمعت بعض الأطبّاء يردّدون هذه العبارة ذاتها، في محاولة لإبعاد العار عن مصر وإلصاقه بالأفارقة السود. لكن هذا الكتاب يوضّح هذه النظرة الخاطئة، ويشرح كيف انتشرت عمليّات ختان الذكور والإناث في المجتمعات المختلفة منها: اليهود والمسيحيّين والمسلمين والسود والبيض في الشرق والغرب.

إن تقدّم البشريّة وتخلصها من هذه العادات العبوديّة يرتبطان بالنظم السياسيّة والاقتصادية. أمّا الأديان فهي خادمة لهذه النظم، ويمكن للدين أن يتطوّر ويتقدّم مع التقدّم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للنساء والرجال والشاب والأطفال.

يتخفى الحكام في عصرنا هذا تحت اسم الله كما يتخفى الكهنة في الأزمنة القديمة. تذكرت وأنا أقرأ في هذا الكتاب عن بطرس وكيف برّر قبوله لدعوة قرنيليوس برؤيا رآها قبل أن يصله المبعوث بالدعوة، وأصبح ذهاب بطرس إلى قرنيليوس (الأغلف. النجس. العدو) ليس خيانة لعهد الله بل طاعة للروح القدس التي جاءته في الرؤيا. تذكرت كيف برّر الرئيس المصري أنور السادات (توفى عام 1981) ذهابه إلى إسرائيل عام 1979 بأنه رأى الله في المنام وأن الله قال له اذهب إلى إسرائيل. هكذا أصبحت رحلة السادات إلى تل أبيب شرعيّة.

كذلك وجدت تشابهاً كبيراً بين أقوال «إتيوس» الطبيب في البلاط البيزنطي (في القرن السادس الميلادي) بأقوال الشيخ متولي الشعراوي (توفى عام 1998) في مصر عام 1977. كلاهما كان يؤيّد ختان الإناث لأن «بظر المرأة يحتك بملابسها ويثير شهوتها».

ومن أطرف الحكايات في هذا الكتاب قصّة البعثة الطبّية الكاثوليكيّة إلى مصر في القرن الثامن عشر التي عادت إلى روما وفي جعبتها تقرير عن بظر المرأة المصريّة، فحواه أن هذا البظر أكبر من بظور النساء في العالم أجمع ولا بد من قطعه لأنه يمنع ما لأجله شرّع الزواج.

لعّل أهم ما في الكتاب هو النظرة العلميّة المحايدة التي لا تتعصّب لدين دون الدين الآخر، وتعرض الآراء على نحو عادل. يترك للقراء والقارئات أن يحكموا بأنفسهم على الأمور. رأينا كيف أن الأديان تتشابه خاصّة في نظرتها إلى الأعضاء الجنسيّة وفرض الطاعة على العبيد والجواري، ونجاسة المرأة التي تظهر في التوراة أكثر من أي كتاب آخر، وكيف مُنعت المرأة في المسيحيّة من الترانيم الروحيّة بالكنيسة بمثل ما منعت في الإسلام من الأذان للصلاة. وهناك كثير من المشايخ في الإسلام في يومنا هذا يردّدون عبارة بولس الشهيرة: «ولتصمت النساء في الجماعات شأنها في جميع كنائس القدّيسين فإنه لا يؤذن لهن بالتكلم». أصبح صوت المرأة عورة عند الكثيرين من المسيحيّين والمسلمين، بمثل ما أصبح شعر المرأة عورة منذ أن جاءت هذه العبارة الشهيرة في التلمود: «شعر المرأة العاري مثل جسدها العاري». وتشمل صلاة اليهودي كل يوم هذه العبارة الشهيرة: «أشكرك يا رب لأنك لم تخلقني امرأة».

ومن أهم الأجزاء في الكتاب تلك التي تكشف عن صمت الأمم المتحدة عن ختان الذكور وعدم تحريمه كما حرّمت ختان الإناث، بسبب الخوف من اللوبي اليهودي السياسي في أمريكا وأوروبا.

أتفق تماماً مع الدكتور سامي أبو ساحلية مؤلف هذا الكتاب في أن الحملة ضد الختان يجب أن تشمل الذكور والإناث ولا تقتصر فقط على الإناث، ذلك أن الجريمة واحدة وإن اختلفت درجتها أو شكلها.

المقدّمة

من خلف جدار دار الجيران يرتفع صريخ أطفال يتألمون ممزوج بزغاريد النساء مع أغاني فرح ما زلت أحفظ منها جملة تقول: «زَينُه يا شلبي وسلمُه لامُه».

كان الجيران يحتفلون بختان أطفالهم وبهذه المناسبة اجتمعوا مع الأقارب في ساحة البيت وفي الشارع المجاور ووزّعوا الحلوى على المارة. وكانت عمليّة الختان تتم داخل البيت، يقوم بها «الشلبي». ولصغر سني حين ذاك ولكوني من عائلة مسيحيّة لا تمارس الختان لم أستوعب ما هو الختان ولماذا يصيح الأطفال من الألم بينما الجمع من حولهم يفرحون ويمرحون. لقد بقي هذا الحدث الغريب المتناقض عالقاً بذاكرتي بعد أكثر من أربعين عاماً من انقضائه ورغم المسافة التي تفصلني عن مكان حدوثه

في عام 1993، أعطيت أول محاضرة عن ختان الذكور والإناث بناء على طلب المنظمة الليبية (شمال جنوب 21) ضمن مؤتمر عن حقوق الطفل عقدته في جامعة جنيف يومي 30 و 31 يناير عام 1993. وما إن انتهيت من إلقاء المحاضرة حتى انهالت علي الانتقادات من منظمي المؤتمر، وكان بينهم مسلمون وصفوني بالإلحاد. أمّا الحاضرون فقد صفقوا لي واستغربوا الاتهام. فدافعت عن نفسي موضّحاً أن ما جاء في محاضرتي ليس تهجّماً على الديانات بل دفاعاً عن الأطفال الأبرياء.

في 7 سبتمبر 1994، عندما كانت تنعقد في القاهرة أعمال المؤتمر العالمي للسكان والتنمية، عرضت شبكة التلفزيون الأمريكيّة «سي إن إن» فيلماً وثائقياً عن ختان طفلة مصريّة اسمها نجلا في العاشرة من عمرها في العاصمة المصريّة بيد حلاّق. وكانت الطفلة تصرخ من الألم. فاهتزت على أثر هذا الفيلم كل الأوساط المصريّة، الرسميّة والشعبيّة. هناك من اعتبر الفيلم إهانة لمصر وللإسلام وهناك من اغتنم هذا الفيلم للتصدّي لعادة ختان البنات في مصر. وتدخّل رجال الدين الإسلامي فأعلنوا رأيهم في هذا الخصوص، فتعارضت الآراء بين مفتي الجمهوريّة وشيخ الأزهر، ولكل منهما سنده وحجّته وأتباعه. وهذا التباين جعلني أتساءل ما هي الأسباب التي من أجلها عرضت الشبكة المذكورة فلمها؟ هل كان ذلك دفاعاً عن حقوق الإنسان أم تشهيراً بمصر وبالإسلام؟ وإن كان ذلك دفاعاً عن حقوق الإنسان، فلماذا تسكت هذه الشبكة عمّا يجري في الولايات المتحدة حيث يختن يومياً ما يناهز 3,300 طفل أمريكي في المستشفيات الأمريكيّة يصيحون من الألم؟ ولماذا ينتقد الغرب ختان البنات ويُصدر ضد فاعليه الأحكام القضائيّة القاسيّة بينما ختان الصبيان يمر مرور الكرام دون سؤال

أو استفسار؟ وقد توصّلت إلى أن أحد الأسباب، إن لم يكن أهمّها، هو الخوف من اليهود الذين يمارسون ختان الذكور.

في شهر يوليو 2002 زرت جامعة بريسبان في أستراليا في يوليو 2002 واجتمعت مع رئيس قسم الدراسات الخاصّة بأهل أستراليا الأصليين، ميكائيل ويليمز، وسألته عن الختان عند الأستراليين الأصليين وكان رده بأنه لا يحق له التكلم في هذا الموضوع لأنه يخاف أن يصاب بالمرض. وعندما سألته عن معنى الحرّية العلميّة إذا كان يرفض الإجابة فرد بأن القانون الديني يعلو على القانون العلمي. وفي ردّه على سؤال حول ختان الإناث قال لي بأنه لا يحق للرجال التكلم عن مواضيع النساء واقترح علي مناقشة الأمر مع نائبته الأستاذة جاكي هيجنز. وقد أرسلت رسالة إليكترونية لها مع بعض الأسئلة عن ختان الذكور والإناث فردّت عليها جميعاً بجملة واحدة تقول فيها بأنها تأسف لعدم الإجابة على أسئلتي لأنها لا تملك إذناً بالبوح بما تعرف.

في 28 و 29 أكتوبر 2002 قمت بإلقاء محاضرتين عن ختان الذكور والإناث في باريس. وفي اليوم الأول انسحبت ثلاث يهوديات من القاعة احتجاجاً على عرضي ممارسة الختان في الطائفة اليهودية. وفي اليوم الثاني حضرت مع رجلين نبهاني بأنهما جاءا لمراقبتي.

في كل مكان من العالم هناك قانون الصمت الذي يخيم على ممارسات ختان الذكور والإناث التي يروح ضحيتها سنوياً ما لا يقل عن 13 مليون صبي ومليوني صبية. وما زلت منذ عام 1993 أحاول كسر هذا القانون من خلال كتاباتي ومحاضراتي ومداخلاتي في الراديو والتلفزيون. وها أنا اليوم أقدم هذا الكتاب لتأليب الرأي العام ضد هذه الممارسات البدائية والهمجية.

وبعد شكري للمولى على فضله، أود أن أشكر كل من شجّعني لكتابة هذه الدراسة. كما أشكر كل من قام بمراجعتها وأبدى ملاحظاته على الشكل والمحتوى. ولكني وحدي الذي أتحمّل تبعة ما يحتويه هذا الكتاب من آراء أو أغلاط.

هذا أرجو القارئ الكتابة لي على عنواني التالي لإبداء آرائه وملاحظاته البنّاءة:

Dr. Sami Aldeeb

Ochettaz 17

1025 St-Sulpice, Switzerland

عنواني الإلكتروني saldeeb@bluewin.ch

تنبيه

ارتكزنا في كتابنا هذا على «الكتاب المقدّس»، الطبعة الثالثة للترجمة العربيّة الصادرة عن دار المشرق في بيروت عام 1986. وإذا جاء نص من هذه الكتب المقدّسة ضمن فقرة نقلناها عن مؤلف بالعربيّة بترجمة غير التي بين أيدينا أو مرقمة بغير أرقامنا الحاليّة، استبدلنا تلك الترجمة والأرقام بالترجمة والأرقام الحاليّة. وقد وضعنا أرقام الآيات في بدايتها بين قوسين (...) لتسهيل عمليّة الرجوع لهذه النصوص. وعند ترك آية داخل النص لا علاقة لها بموضوعنا نشير إلى ذلك بعلامة [...]. كما أننا نستعمل نفس الإشارة عندما نضيف كلمة لتوضيح النص.

حتى لا نثقل على القارئ قرّرنا حذف جميع هوامش ومراجع الكتاب إلا ما جاء في داخل النص ونحيل القارئ للكتاب العربي المطول على الانترنيت لمن تهمه تلك الهوامش والمراجع. هذا وقد أشرنا إلى تاريخ وفاة المؤلفين، خاصّة القدامى منهم، بعد ذكر اسمهم لأوّل مرّة. والتواريخ المذكورة هنا كما في الكتاب هي حسب التقويم الميلادي (م = بعد المسيح؛ ق.م = قَبل المسيح). وقد أخذنا بالاختصارات الآتية فيما يخص أسفار الكتب المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة:

الكتب المقدّسة اليهوديّة

التكوين: سفر التكوين

الخروج: سفر الخروج

الأحبار: سفر الأحبار

العدد: سفر العدد

تثنية: سفر تثنية الإشتراع

يشوع: سفر يشوع

القضاة: سفر القضاة

1 صموئيل: سفر صموئيل الأوّل

2 صموئيل: سفر صموئيل الثاني

1 ملوك: سفر الملوك الأوّل

2 ملوك: سفر الملوك الثاني

عزرا: سفر عزرا

أستير: سفر أستير

1 المكابيين: سفر المكابيين الأوّل

2 المكابيين: سفر المكابيين الثاني

المزامير: سفر المزامير

الأمثال: سفر الأمثال

أشعيا: سفر أشعيا

أرميا: سفر أرميا

حزقيال: سفر حزقيال

ملاخي: سفر ملاخي

الكتب المقدّسة المسيحيّة

متى: الإنجيل كما رواه متى

مرقس: الإنجيل كما رواه مرقس

لوقا: الإنجيل كما رواه لوقا

يوحنّا: الإنجيل كما رواه يوحنّا

أعمال: سفر أعمال الرسل

رومية: رسالة بولس إلى أهل رومية

1 قورنتس: رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس

2 قورنتس: رسالة بولس الثانية إلى أهل قورنتس

غلاطية: رسالة بولس إلى أهل غلاطية

فيليبي: رسالة بولس إلى أهل فيليبي

قولسي: رسالة بولس إلى أهل قولسي

طيطوس: رسالة بولس إلى طيطوس

الجزء الأوّل
تعريف الختان وأهمّيته العدديّة وتوزيعه

الفصل الأوّل
تعريف الختان

1) الختان أحد أساليب التصرّف بالجسد

منذ قديم العصور حتى يومنا هذا، حاول ويحاول الإنسان التصرّف بأعضاء جسده وجسد غيره، من أعلى رأسه حتى أصابع رجليه مروراً بأعضائه الجنسيّة، مدّاً أو ضغطاً أو وشماً أو كيّاً أو شقّاً أو ثقباً أو بتراً. ولم يستطع تقدم المجتمع التخلص من هذه التصرفات التي قد تصيب الفقير والغني. ومن بين الحالات المشهورة الأميرة «ديانا» (توفت عام 1997). ففي إحدى مناقشاتها الحادّة مع الأمير «شارلز» التقطت سكين جيب وجرّحت صدرها وفخذيها.

وقد حظيت الأعضاء الجنسيّة بنصيب كبير من نكد الإنسان على نفسه. فقد مثّل بها كيفما شاء خصياً أو جبّاً أو شقّاً أو ثقباً. وفي كتابنا هذا سوف نتوقّف عند نوع واحد من أنواع التعدّي على الأعضاء الجنسيّة وهو ختان الذكور والإناث الذي يعتبر من ظواهر المساس بسلامة الجسد الأكثر غموضاً والأوسع انتشاراً. وكان من ضحايا هذه الظاهرة أبو الأنبياء إبراهيم الذي ختن نفسه عندما كان عمره 99 سنة حسب التوراة، أو 80 أو 120 سنة حسب المصادر الإسلامية. واتباعاً لمثاله ملايين الأطفال ختنوا وما زالوا يختنون.

2) الكلمة ومدلولها الاجتماعي والسياسي

أصل الختان عند اليهود والمسيحيّين والمسلمين هو التوراة. ويستعمل اليهود في العبريّة كلمة «ميلا» التي تعني القطع. وهذه الكلمة تستعمل ضمن عبارة «بريت ميلا» أي «عهد القطع» التي تُذَكرنا بالعبارة العربيّة «قطع عهداً». وهذه العبارة كما سنرى لاحقاً إشارة للفصل السابع عشر من سفر التكوين الذي يَدَّعِي أن الله قطع عهداً لإبراهيم بأن يعطيه ونسله الأرض الموعودة، أي «أرض كنعان». ومقابل ذلك العهد، أمر الله إبراهيم بأن يقطع غلفته وغلفة كل ذكر من نسله وعبيده. هناك إذاً تلاعب بالكلمات وتسييس لعمليّة جراحيّة. وتستعمل التوراة أيضاً كلمة «تبر» (الخروج

4:25)، ونفس الكلمة في العربيّة تعني هلك أو أهلك، وتُذَكرنا بكلمة «بتر» مع قلب الأحرف التي تعني قطع. والجزء الذي يقطع يسمّى في العبريّة «غرلة». وغير المختون يسمّى بالعبريّة «أغرل». ولا يوجد في التوراة ذكر لختان الإناث.

يستعمل علماء اللغة العربيّة كلمات عدّة للإشارة إلى الختان مثل الخفض والخفاض والإعذار. والعامّة هي كلمة ختان أو طهور أو طهار أو طهارة للذكر والأنثى. وهذه الكلمة الأخيرة تبيّن أن الختان في فكر الناس يُطهِّر من تُمارَس عليه هذه العادة. والقطعة التي تقطع عند الذكر تسمّى «الغرلة» كما في العبريّة، أو «الغلفة» أو «القلفة». وغير المختون يسمّى «أغرل» أو «أغلف» أو «أقلف».

وكلمة «الختان» التي تشير إلى عمليّة القطع لها معان ذات صلة بالزواج. يقول ابن منظور (توفى عام 1131): «الختن أبو امرأة الرجل وأخو امرأته وكل من كان من قِبَل امرأته، والجمع أختان، والأنثى ختنة. وخاتن الرجلُ الرجلَ إذا تزوّج إليه. وفي الحديث: علي ختن رسول الله (ص) أي زوج ابنته. والاسم الختونة [...] والختن: زوج فتاة القوم، ومن كان من قِبَله من رجل أو امرأة فهم كلهم أختان لأهل المرأة. وأم المرأة وأبوها: ختنان للزوج». وسوف نرى لاحقاً كيف أن الختان كان يسبق الزواج وشرطاً له في بعض المجتمعات. وقد يكون لكلمة «ختن» صلة بكلمة «ختم» مع انقلاب الميم نوناً كما هو معرف في اللغات الساميّة. فيكون معناها وضع علامة للتعرّف على العبد الآبق.

وفي اللغات الأوروبيّة يمكن استعمال كلمة واحدة للدلالة على ختان الذكور والإناث وهي بالإنكليزيّة circumcision. وهذه الكلمة من أصل لاتيني وتعني «القطع دائرياً». ولكن بعض الكتاب يستعمل هذه الكلمة فقط لختان الذكور. وأمّا ختان الإناث فإنهم يستعملون لها كلمة excision وهي كلمة أيضاً من أصل لاتيني وتعني «استئصال».

ومنذ عام 1990 قررت منظمة الصحّة العالميّة استخدام تعبير «بتر الأعضاء الجنسيّة للإناث» والاحتفاظ بكلمة الختان فقط للعملية التي تتم على الذكور والهدف من ذلك تفادي الخلط بين الختانين. فهذا الخلط يعتبره اليهود إهانة لهم. ففي نظرهم ختان الذكور كما تأمر به التوراة جزء هام جدّاً من اعتقادهم الديني، ولا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنته بختان الإناث. وقد أخذ معارضو ختان الذكور مصطلح منظمة الصحّة العالميّة وحوّروه لصالحهم فسمّوا ختان الذكور «البتر الجنسي للذكور».

وسوف نستعمل في كتابنا هذا مصطلح «الختان» لكل من ختان الذكور وختان الإناث. فهو المصطلح الأكثر شيوعاً عند الفقهاء المسلمين وفي اللغة العاميّة. وهذا المصطلح «الختان» يعني في كل الأحوال بتر جزء من العضو التناسلي للذكر أو الأنثى.

3) أنواع عمليّة ختان الذكور

يمكن تصنيف أنواع ختان الذكور كما يلي:

الدرجة الأولى: يتم في هذه العمليّة بتر غلفة القضيب، جزئيّاً أو كلياً. وقد تصل نسبة الجلدة المقطوعة من ربع إلى أكثر من نصف جلد الذكر حسب مهارة الخاتن وعادات الختان.

الدرجة الثانية: يتم في هذه العمليّة بتر غلفة القضيب وسلخ بطانتها وهي تجرى عند اليهود. ويطلق على المرحلة الأولى اسم «ميلا» وعلى المرحلة الثانية اسم «بيريا». ويتبع هذه المرحلة، حسب التعاليم اليهوديّة التقليديّة، مص الخاتن قضيب الطفل (بالعبريّة: مزيزا).

الدرجة الثالثة: يتم في هذه العمليّة سلخ جلد الذكر حتى كيس الصفن أو حتى الساق. وتتم هذه العملية عند قبائل «النمشي» شمال الكمرون وعند بعض قبائل الجزيرة العربية. وقد تعرّضت لهذا النوع فتوى سعوديّة لابن باز (توفى عام 1999) اعتبرته من تشريع الشيطان.

الدرجة الرابعة: شق مجرى البول الخلفي لجعله يشبه فرج المرأة، كما يتم عند القبائل البدائيّة في أستراليا.

أسلوب الختان عند بعض القبائل البدائيّة في أستراليا
المصدر: Bryk: Circumcision in man and woman

سوف نقتصر في كتابنا على الدرجتين الأوليتين من الختان لأنهما الأوسع انتشاراً بين اليهود والمسيحيين والمسلمين.

والختان قد يتم بوسائل بدائيّة. وسوف نرى أن صفورة، زوجة موسى، ختنت أبنها بصوّان، وكذلك ختن يشوع اليهود بصوّان. ويذكر حديث منسوب للنبي محمد (توفى عام 632) أن إبراهيم قد ختن نفسه «بقدوم»، أي بآلة النجارة. وفي الروايات اليهوديّة، تم ختان إبراهيم بسيفه أو بقرصة عقرب. وقد تفنّن المخترعون في تصميم آلات عدّة لإجراء عمليّة الختان.

4) أنواع عمليّة ختان الإناث

يمكن تصنيف أنواع ختان الإناث كما يلي:

الدرجة الأولى: في هذه العلميّة يتم إزالة غلفة البظر أو جزء منها.

الدرجة الثانية: تشمل قطع البظر وغلفته، مع الشفرين الصغيرين أو جزء منهما.

الدرجة الثالثة: في هذه العمليّة يتم قطع البظر وغلفته والشفرين الصغيرين. ثم يلي ذلك شق الشفرين الكبيرين ويتم إخاطتهما معاً أو ابقائهما متماسين عن طريق ربط الرجلين معاً حتى يلتئما مكوّنين غطاء من الجلد يغطي فتحة البول والجانب الأكبر من المهبل. وتترك فتحة صغيرة في حجم رأس عود الثقاب أو طرف إصبع اليد الصغير لتسمح بنزول البول ودم الحيض. ويطلق على هذه العملية في مصر اسم «الطهارة السودانيّة»، وفي السودان، اسم «الطهارة الفرعونيّة» أو «الخفاض الفرعوني». وللجماع يتم عادة فتح المرأة بخنجر. كما أنه يتم توسيع الفتحة للولادة. وقد يعاد إخاطتها بعد الولادة أو في حالة سفر الزوج أو الطلاق.

الدرجة الرابعة: تضم أصناف مختلفة من التشويه الجنسي مثل شق الجدار الخلفي للمهبل؛ كي البظر والأنسجة المحيطة به بواسطة أداة صلبة محماة؛ وخز البظر أو الشفرين الصغيرين أو شقّهما؛ كحت بطانة المهبل أو عمل شقوق بها؛ مط البظر أو الشفرين الصغيرين؛ وضع مواد أو أعشاب كاوية في المهبل؛ فض بكارة العروس ليلة الزفاف بإصبع داية تطيل ظفرها من أجل هذه المناسبة. وهذه العادة معروفة خاصّة في الريف المصري.

هناك عدّة وسائل لإجراء ختان الإناث، منها البدائيّة ومنها المتقدّمة. وقد ابتكر طبيب أمريكي يهودي اسمه «راثمان» عام 1959 آلة مثل الكمّاشة لبتر غلفة بظر المرأة.

الفصل الثاني
الأهمّية العدديّة والتوزيع الجغرافي

1) إحصائيّات ختان الذكور

لا توجد إحصائيّات أكيدة تبيّن مدى انتشار ختان الذكور. ويشير مصدر أنه يتم في العالم ختان قرابة 13.300.000 طفل سنوياً، أي بمعدّل 25 طفل كل دقيقة. ويشير مصدر آخر أن نسبة المختونين من الذكور في العالم تبلغ 23%، أي بمجموع 650 مليون ذكر.

يُمارس ختان الذكور عادة في أيّامنا على جميع ذكور اليهود والمسلمين مع بعض الاستثناءات القليلة. وهناك عدد من المسيحيّين الذين يختنون أطفالهم. فالمسيحيون في مصر والسودان والحبشة مثلاً يمارسون ختان الذكور بصورة تكاد تكون شاملة، على خلاف اخوتهم المسيحيّين في دول المشرق العربي حيث ختان الذكور نادر. وهناك

مؤشرات تفيد بأن ختان الذكور في تزايد في تلك الدول. وقد يكون السبب هو انتشار الثقافة الطبّية الأمريكيّة وزيادة عدد الولادات في المستشفيات حيث يمارس الأطبّاء سلطتهم في إقناع الأهل لإجراء تلك العمليّة.

وهناك ظاهرة غريبة وهي انتشار ختان الذكور في الدول الغربيّة الناطقة بالإنكليزيّة: إنكلترا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا والولايات المتحدة. وهناك صعوبة كبيرة للحصول على إحصائيّات في هذا الخصوص ولكن تقدر نسبة الختان قبل الحرب العالمية الثانية في إنكلترا بـ 50% وقد هبطت هذه النسبة إلى قرابة الصفر بعد تعديل نظام التأمين الاجتماعي. وكانت نسبة الختان في الولايات المتحدة 85% عام 1979 ولكنها انخفضت في العقدين الأخيرين حتى أصبحت توازي اليوم 60% بسبب تزايد معارضي الختان. ولكن هذه النسبة تصل إلى 95% في بعض المستشفيات الأمريكيّة. واليوم نسبة الختان في أستراليا تقدّر بـ 10% وفي كندا بـ 25%. أمّا في الدول الغربيّة الأوروبيّة الأخرى، فنسبة ختان الذكور ضئيلة قد لا تزيد عن 2%. وهنا تنقصنا الإحصائيّات الموثوقة. ويشار هنا إلى أن نسبة الختان في كوريا الجنوبية تصل إلى 90% بسبب تأثير الجيش الأمريكي.

2) إحصائيّات ختان الإناث

يقول الفقيه ابن الحاج (توفى عام 1336): «والسُنّة في ختان الذكر إظهاره وفي ختان النساء إخفاؤه». هذا القول يصوّر الواقع حتى في أيّامنا. لذلك لم تنكشف حقيقة ممارسة ختان الإناث إلاّ في العقدين الأخيرين. وحتى الآن ما زال الكثير من الناس يجهل حتى معنى ختان الإناث ويستغربون وجوده في دولة إسلاميّة مثل مصر. والإحصائيّات المتوفرة في هذا الخصوص غير وافية ولا تُعرف بصورة مؤكدة الدول التي تنتشر بها هذه العادة. والحملة الحاليّة ضد ختان الإناث قد يساعد على كشف هذه الدول، ولكن قد يكون أيضاً عائقاً خوفاً من الدعاية السيّئة التي تنتج عن ذلك.

يشير مصدر أنه يتم في العالم ختان قرابة 2.000.000 طفلة سنوياً. أي بمعدّل 3,8 طفلة كل دقيقة. ويشير مصدر آخر أن نسبة المختونات من الإناث في العالم تبلغ 5%، أي بمجموع 100 مليون أنثى.

وقد نشرت منظمة الصحّة العالميّة عام 1994 و 1996 و 1998 أرقاماً بخصوص النساء المختونات في 28 دولة أفريقية تمارس ختان الإناث، من بينها 17 دولة عضو في منظمة المؤتمر الإسلامي. ويتبين من هذه الأرقام أن عدد المختونات هو كما يلي:

1994	114.296.900
1996	132.490.000
1998	136.797.440

ويشير هذا المصدر أن 15% إلى 20% من عدد النساء المختونات ختن حسب الدرجة الثالثة (الختان الفرعوني). وأن كل سنة يتم ختان مليوني فتاة. وفيما يخص مصر، ذكرت الإحصائيّات التي أصدرتها منظمة الصحّة العالميّة عام 1994 أن نسبة المختونات هناك تبلغ 50% أي ما يوازي 13.625.000 امرأة. ثم قدرت نسبة المختونات عام 1996 بـ 80% أي ما يوازي 24.710.000 امرأة. ثم قدرت نسبة المختونات عام 1998 بـ 97% أي ما يوازي 27.905.930 امرأة. هذا الاختلاف بين الإحصاء الأوّل والثالث لا يعني أن ختان الإناث قد ارتفع في مصر خلال السنين الأربعة الأخيرة بمعدّل 47%، بل إن المعلومات أصبحت أكثر دقّة بخصوصه. وهذا يبيّن مدى التعتيم الذي يسيطر على موضوع ختان الإناث وصعوبة الحصول على معلومات أكيدة بخصوصه. ونشير إلى أن منظمة الصحة العالمية لا تهتم بدول غير أفريقية تمارس ختان الإناث مثل إندونيسيا واليمن والإمارات وعُمان والسعودية.

الجزء الثاني
الختان والجدل الديني

كل جدل حول الختان يبدأ بالدين. فاليهود والمسيحيّون والمسلمون يعتقدون أن الله أنزل للبشريّة شرائع تنظم علاقة الإنسان بأخيه وبالله، وأن هذه الشرائع جاءت ضمن رسالات أؤتمن عليها الأنبياء والمرسلون وتم توثيقها في «الكتب المقدّسة» أو «الكتب السماويّة». وهذه الشرائع نهائيّة لا تقبل التبديل، وإن أمكن تفسيرها في بعض الأحيان. وأول سؤال يدور حول ما إذا كانت تلك الشرائع قد سنّت على الختان أم لا. وتفادياً للتكرار، نشير هنا إلى أن الكتب المقدّسة للطوائف الثلاث لم تذكر بتاتاً ختان الإناث، فكل ما جاء فيها يخص ختان الذكور.

الفصل الأوّل
الختان في الفكر الديني اليهودي

1) نصوص الكتب المقدّسة اليهوديّة عن الختان

تضم التوراة عدة نصوص عن ختان الذكور أهما نصّان في سفر التكوين وسفر الأحبار هما:

التكوين: الفصل 17

(1) ولمّا كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة، تراءى له الرب وقال له: أنا الله القدير، فسِر أمامي وكن كاملاً. (2) سأجعل عهدي بيني وبينك وسأكثرك جدّاً جدّاً. (3) فسقط أبرام على وجهه. وخاطبه الله قائلاً: (4) ها أنا أجعل عهدي معك فتصير أبا عدد كبير من الأمم (5) ولا يكون اسمك أبرام بعد اليوم، بل يكون اسمك إبراهيم، لأني جعلتك أبا عدد كبير من الأمم. (6) وسأنميك جدّاً جدّاً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون. (7) وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم، عهداً أبديّاً، لأكون لك إلهاً ولنسلك من بعدك. (8) وأعطيك الأرض التي أنت نازل فيها، لك ولنسلك من بعدك، كل أرض كنعان، ملكاً مؤبّداً، وأكون لهم إلهاً. (9) وقال الله لإبراهيم: وأنت فاحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك مدى أجيالهم. (10) هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يختتن كل ذكر منكم. (11) فتختنون في لحم غلفتكم، ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم. (12) وابن ثمانية أيّام يختن كل ذكر

منكم من جيل إلى جيل، سواء أكان مولوداً في البيت أم مشترى بالفضّة من كل غريب ليس من نسلك. (13) يختن المولود في بيتك والمشترى بفضّتك، فيكون عهدي في أجسادكم عهداً أبديّاً. (14) وأي أغلف من الذكور لم يختن في لحم غلفته، تفصل تلك النفس من ذويها، لأنه قد نقض عهدي. (15) وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تسمها ساراي، بل سمها سارة. (16) وأنا أباركها وأرزقك منها ابناً وأباركها فتصير أمماً، وملوك شعوب منها يخرجون [...] (22) فلمّا فرغ من مخاطبته ارتفع الله عن إبراهيم. (23) فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع مواليد بيته وجميع المشترين بفضّته، كل ذكر من أهل بيته، فختن لحم غلفتهم في ذلك اليوم عينه، بحسب ما أمره الله به. (24) وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ختن لحم غلفته. (25) وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن لحم غلفته. (26) في ذلك اليوم عينه خُتن إبراهيم وإسماعيل ابنه (27) وجميع رجال بيته، سواء أكانوا مواليد بيته أم مشترين بالفضّة من الغريب، خُتنوا معه.

الأحبار: الفصل 12

(1) وخاطب الرب موسى قائلاً: (2) كلم بني إسرائيل وقل لهم: أيّة امرأة حبلت فولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيّام، كأيّام طمثها تكون أيّام نجاستها. (3) وفي اليوم الثامن تختن غلفة المولود. (4) وثلاثة وثلاثين يوماً تظل في تطهير دمها. لا تلامس شيئاً من الأقداس ولا تدخل المقدس، حتى تتم أيّام تطهيرها. (5) فإن ولدت أنثى، تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها، وستة وستين يوماً تظل في تطهير دمها. (6) وعند إكمال أيّام طهرها، لذكر كان أو لأنثى، تأتي بحمل حولي محرقة، وبفرخ حمام أو بيمامة ذبيحة خطيئة، إلى باب خيمة الموعد، إلى الكاهن. (7) فيقرّبهما أمام الرب ويكفر عن المرأة، فتطهر من سيلان دمها. هذه شريعة الولادة ذكراً وأنثى. (8) فإن لم يكن في يدها ثمن حمل، فلتأخذ زوجي يمام أو فرخي حمام: أحدهما محرقة والآخر ذبيحة خطيئة، فليكفر عنها الكاهن فتطهر.

2) وجوب ختان الذكور عند اليهود

قبل أن نخوض في مفهوم الختان عند اليهود، نود أن نلقي نظرة تاريخيّة سريعة على تلك العادة في الشرق الأوسط وهو المحيط الجغرافي الذي عاش فيه اليهود لنرى مدى تأثير ذلك المحيط على الفكر اليهودي.

أ) ختان الذكور في الشرق الأوسط قديماً

عرفت مصر القديمة كل من ختان الذكور والإناث. والذي يهمنا هنا هو ختان الذكور. وسوف نعود إلى ختان الإناث عند تكلمنا عنه عند اليهود.

هناك مسلة من القرن الثالث والعشرين قَبل المسيح كتب عليها أحد موظفي الملك أنه ختن ضمن 120 رجل. وفي القرن العشرين قَبل المسيح ذكر الملك سينوسيرت الأوّل أن الإله الشمس قد عينه سيّد البشر عندما كان طفلاً لم يفقد غلفته بعد. وتقريباً في القرن التاسع عشر يقول الحاكم خنوبهوتيم الثاني أن أباه كان قد عُيّن حاكماً قبل أن يختن. وهناك بعض النقوش والصور التي تبيّن إجراء عمليّة الختان منذ زمن قديم في مصر. ففي إحدى صور من قبر يرجع للسلالة السادسة (2300 ق.م) نرى صبيين ما بين السادسة والثامنة وهما يختنان. ففي نقش نرى شخصاً واقفاً وقد جلس على الأرض أمامه الجرّاح ممسكاً بيده اليمنى آلة مستطيلة في وضع عمودي على العضو وفي اتجاه طوله. ونلاحظ أنه لا تبدوا على أسارير وجه المختتن ما ينم عن تألمه. أمّا الجزء الأيسر فيظهر فيه الجرّاح ممسكاً بآلة أو بشيء آخر بيضوي الشكل (قد يكون صوّاناً) يلمس به العضو التناسلي الذي يسنده بيده اليسرى. وفي هذا الجزء تدل ملامح المريض على شعوره بالألم. ونلاحظ كذلك وجود مساعد الجرّاح خلف المريض وقد امسك بذراعيه على ارتفاع وجهه في عنف ونقرأ قول الطبيب: «امسكه كيلا يقع»، والإجابة: «سأفعل وفق إشارتك». وقد حفظ لنا متحف الآثار المصريّة بالقاهرة عدداً من التماثيل الحجريّة والخشبيّة لرجال عراة مختونين يبان منها أن الختان كان يمارس في مصر، إمّا بقطع كامل للغلفة أو بشق الغلفة على شكل V لإظهار الحشفة. وقد أوضح الكشف عن الموميات أن الختان بشكليه كان يمارس ولكن ليس بصورة عامّة على الجميع.

وهناك مسلة تخلد انتصار الملك النوبي «بيي» عام 728 ق.م على تحالف من أمراء الدلتا وارتقائه عرش مصر. كُتب على هذه المسلة أن حكاماً ذهبوا إلى الملك ليعربوا عن ولائهم له ولكنّهم لم يدخلوا القصر لأنهم كانوا غير مختونين وأكلة سمك، عدا «نمرود» لأنه كان طاهراً ولا يأكل السمك. وكان للقصر في ذاك الزمن صبغة دينيّة إذ إن الملك يمثل الآلهة على الأرض. وقد كُتب على هيكل الإلهة إيزيس في جزيرة «فيلي» تعليمات تحرِّم دخول الهيكل على غير المختون ومن يأكل السمك.

وقد زار هيرودوت (توفى عام 424 ق.م) منطقة الشرق الأوسط وسجّل في كتابه إشارة إلى عادة الختان في مصر. فهو يقول: «بينما كل شعوب الأرض تُبقي على الأعضاء التناسليّة كما هي، فإن المصريّين ومن تعلم منهم يمارسون عادة الختان».

ويضيف «بأنهم يمارسون الختان حفظاً للنظافة، لأن النظافة عندهم أولى من الجمال». ثم يشرح كيف أنهم كانوا مثابرين على النظافة. فهم يشربون بأكواب من النحاس يغسلونها جميعهم كل يوم ويلبسون ثياباً من الكتان نظيفة. والكهنة منهم كانوا يحلقون أجسادهم كل يومين حتى لا يبقى عليهم قمل أو نجاسات أخرى. ثم ذكر هيرودوت إن عادة الختان قديمة جدّاً عند المصريّين والإثيوبيين لدرجة عدم تمكنه معرفة من أخذ عن الآخر عادة الختان. ولكنّه يُرجِّح أن يكون الإثيوبيون قد أخذوها عن المصريّين.

وعندما يتكلم سترابو، عالم الجغرافيا والمؤرّخ اليوناني الذي زار مصر بين 25-23 ق.م، عن الختان في مصر، يربط بين هذه العادة عند المصرين والعادة عند اليهود، وهو يُرجع اليهود إلى أصل مصري. فهو يقول: «هناك عادة يلاحظها الإنسان في دهشة بين المصريّين، ذلك أنهم يُربّون باهتمام كل طفل يولد لهم وانهم يختنون الأولاد ويخفضون البنات، كما هي العادة أيضاً بين اليهود، الذين هم من أصل مصري».

ويؤكد المؤلف اليهودي «فيلون» (توفى عام 54) أن المصريّين كانوا يمارسون الختان. فيختنون كل من الذكر والأنثى عندما يبلغون سن الرابعة عشر، أي عندما يبدأ «الخطيب» بالإمناء و «الخطيبة» بالعادة الشهريّة. وهنا نرى ارتباط الختان بالزواج.

بالإضافة إلى مصر، هناك شواهد على ممارسة الختان في مناطق أخرى من الشرق الأوسط. فقد وُجد في سوريا ثلاثة تماثيل معدنيّة صغيرة لرجال عراة ترجع إلى القرن الثامن والعشرين قَبل المسيح. ويظهر على اثنين منهم انهما ختنا ختاناً كاملاً، والثالث ختن ختاناً جزئيّاً. ويذكر هيرودوت أن الفينيقيّين والفلسطينيين قد أخذوا عادة الختان عن المصريّين وأن الفينيقيّين قد ألغوا عادة الختان منذ أن تاجروا مع الإغريقيّين. وتعتبر التوراة العرب شعباً غير مختون. وكذلك الأمر بخصوص الفلسطينيين. ويذكر المؤرّخ اليهودي «يوسيفوس» (توفى قرابة عام 100) أن العرب كانوا يختنون أطفالهم عندما يبلغون سن الثالثة عشر لأن إسماعيل خُتن في هذا العمر، بينما اليهود يختنون في اليوم الثامن لأن إسحاق ختن في اليوم الثامن. ولكنّه يضيف أن اليهود كانوا السكان الوحيدين الذين يمارسون الختان في فلسطين.

ب) الختان وأسطورة العهد بين الله واليهود

توحي لنا التوراة أن الختان بدأ بأمر أعطاه الله لإبراهيم الأب الأسطوري للعرب واليهود. ولكن هناك شاهد في التوراة ذاتها يبيّن أن الختان كان يمارس منذ عهود

قديمة قد تعود إلى العصر الحجري. ويثبت هذا استعمال الصوّان كآلة للختان (الخروج 25:4؛ يشوع 2:5-3).

والمؤرّخون لم يتفقوا على تاريخ ميلاد إبراهيم. وبعضهم يرى أنه عاش في القرن التاسع عشر قَبل المسيح، أي عشرة قرون قَبل صياغة سفر التكوين في صورته الحاليّة، إذا افترضنا أن النص صيغ في القرن التاسع قَبل المسيح. كما أن المؤرّخين يرون أن سفر التكوين في صورته الحاليّة، بما فيه النصوص الخاصّة بالختان في الفصل السابع عشر، هو تجميع لروايات وحكايات وأساطير تنتمي إلى عصور متباعدة لمجتمع مر بأطوار مختلفة من البداوة إلى الزراعة إلى حُكم ملك. فالآية 6 تقول: «وسأنميك جدّاً جدّاً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون» وهذه الآية والآية 16 من نفس الفصل تبيّنان أن كاتب هذه الرواية هو كاهن مجهول الهويّة كان يعيش في عصر حَكمه ملك حوالي القرن التاسع قَبل المسيح. ومنهم من يظن أن النص الخاص بالختان في الفصل 17 من سفر التكوين والفصل 12 من سفر الأحبار أضيف في القرن السادس بعد رجوع اليهود من المنفى من قِبَل رجال الدين للسيطرة على الشعب.

وإذا عدنا إلى محتوى الفصل 17 من سفر التكوين، نجد أنه يحكي لنا قصّة فحواها أن الله ظهر لإبراهيم عندما كان عمره 99 سنة وعمر ابنه إسماعيل 13 سنة، فسقط على وجهه، أي أغمي عليه. وبعد أن أفاق قطع الله له عهداً على نفسه لإبراهيم وذرّيته بأن يكثر ذرّيته ويعطيه أرض الميعاد، أي «أرض كنعان»، ويطالب إبراهيم مقابل ذلك أن يختتن وأن يجرى هذه العمليّة على جميع أفراد عائلته وعلى عبيده الذكور. وهذا الفصل أساس لثلاثة مبادئ يهوديّة مترابطة ما زالت حتى يومنا هذا تطرح مشاكل سياسيّة وأخلاقيّة جمّة:

- مبدأ «شعب الله المختار»، وهي فكرة عنصريّة.

- مبدأ «أرض الميعاد» التي يرتكز عليها اليهود في مطالبتهم بأرض فلسطين وحرمان أهلها منها.

- مبدأ وجوب ختان الذكور القاصرين.

ويستعمل اليهود كلمتي «بريت ميلا» للتعبير عن الختان. وهذه تعني حرفيّاً «عهد القطع». وهي إشارة واضحة إلى العهد بين الله وإبراهيم. والعرب يستعملون عبارة «قطع عهداً» لتعني أخذ عهداً على نفسه. فالختان هو علامة (اوت بالعبريّة: آية بالعربيّة) لإظهار العهد: عهد الله مع إبراهيم بتكثير نسله وإعطائه أرض الميعاد.

ج) الختان علامة انتماء وتمييز وخلاص

أول مرّة تتكلم التوراة عن الختان تعتبره علامة عهد. وهو بمثابة ورقة الهوية في أيامنا. يعرّف بأفراد مجموعة ويحدّد حقوقهم أي امتلاك أرض كنعان إلى الأبد. والتوراة تفرّق بين اليهود وغير اليهود على أساس الختان. ففي الفصل 9 من سفر أرميا نقرأ: «ها إنها تأتي أيّام، يقول الرب، أعاقب فيها كل المختونين في أجسادهم. مصر ويهوذا أدوم وبني عمون وموآب، وكل مقصوصي السوالف الساكنين في البرّية، لأن كل الأمم غلف، وكل بيت إسرائيل غلف القلوب». وكلمة «مقصوصي السوالف» تعني العرب الذين كان لهم عادات خاصّة في قص الشعر حرّمتها الشريعة: «ولا تحلقوا رؤوسكم حلقا مستديرا، ولا تقص أطراف لحيتك» (الأحبار 27:19). وفي الفصل 4 من سفر يهوديت نقرأ: «ورأى أحيور كل ما فعل إله إسرائيل فآمن بالله إيماناً راسخاً وختن لحم غلفته فضُم إلى بيت إسرائيل إلى اليوم». كما في الفصل 56 من سفر أشعيا إشارة إلى أن الغرباء الذين يحترمون السبت والختان ينضمّون للشعب.

ونحن نجد ممارسة الختان كعلامة انتماء للشعب اليهودي عند كثير من اليهود الذين لا يمارسون شعائر ديانتهم، وحتى بين الملحدين منهم. وما زال المؤلفون اليهود في يومنا يعتبرون الختان «علامة لا تمحى» لليهودي وأنه واحد من أقوى المساعدين للبقاء اليهودي.

د) الأغلف يقطع من الشعب اليهودي

يرى رجال الدين اليهود أن الكتب المقدّسة هي التي تقرّر ما هو شر وما هو خير ومن يخالفها يتعرّض لعواقب خطيرة. فالتوراة تقول:

«والآن يا إسرائيل، اسمع الفرائض والأحكام التي أعلمكم إيّاها لتعملوا بها، لكي تحيوا وترثوا الأرض التي يعطيكم الرب إله آبائكم إيّاها. لا تزيدوا كلمة على ما آمركم به ولا تنقصوا منه، حافظين وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها» (تثنية 4:1-2).

«بكل ما أنا آمركم به تحرسون أن تعملوه، لا تزد عليه ولا تنقص منه» (تثنية 13:1).

«فريضة أبديّة مدى أجيالكم في جميع مساكنكم» (الأحبار 23:24).

معتمداً على هذه النصوص، يرى ابن ميمون (توفى عام 1204)، أكبر لاهوتي وفيلسوف يهودي، أن أوامر الكتب المقدّسة اليهوديّة أوامر أبديّة ولا يحق لأحد أن يغيّرها وكل من تخوّل له نفسه أن يغيّرها أو يلغيها أو يفسّرها بخلاف ما فسّرت به سابقاً يجب قتله خنقاً.

والختان أحد تلك الأوامر التي نصت التوراة على عقوبة لمن يخالفها: «أي أغلف من الذكور لم يختن في لحم غلفته، تفصل تلك النفس من ذويها، لأنه قد نقض عهدي» (تكوين 14:17).

وهناك من يربط بين هذا الجزاء وبين ما حدث لموسى الذي أهمل ختان ابنه وهو في طريقه إلى مصر. فقد لاقاه الرب وهمّ قتله، فأنقذته زوجته صفورة بقيامها بتلك المُهمّة (الخروج 20:4-26). أي أن عدم الختان يعرّض غير المختون للموت. ويبيّن هذا النص أن موسى لم يكن قد ختن ابنه في يومه الثامن وأن الختان لم يتم إلاّ على الابن البكر. ويعني أيضاً أن موسى نفسه لم يُختن وقد اكتفت زوجته بمس رجليه (وهذا ربّما تعبير مؤدّب عن مس عضوه التناسلي) بيديها الملطختين بدم ابنها البكر.

هـ) الأغلف نجس

وإذا كان الختان في سفر التكوين هو علامة عهد، فإنه في الفصل 21 من سفر الأحبار قد جاء ضمن القواعد الخاصّة بتطهير المرأة من نجاستها بعد ولادتها. فلا يحق للام أن «تلامس شيئاً من الأقداس ولا تدخل المقدس، حتى تتم أيّام تطهيرها». ومدّة تطهير الأم تختلف حسب المولود. فإن كان ذكراً، تكون نجسة لمدّة 7 أيّام ومن بعدها تختن غلفة المولود وتظل 33 يوماً في تطهير دمها. أمّا إذا ولدت أنثى، فإن الأم تكون نجسة أسبوعين، و66 يوماً تظل في تطهير دمها. وفي الآية الثالثة من هذا النص، هناك أمر بختان المولود الذكر تقول: «في اليوم الثامن تختن غلفة المولود». فيرى البعض أن الطفل أعتبر نجساً بسبب ملامسته أمّه النجسة بسبب الولادة، فيكون الختان أسلوباً لتطهيره من نجاسة أمّه.

ونصوص التوراة تعتبر الأغلف (أي غير المختون) نجساً. فهي تطلق كلمة الأغلف على غير اليهودي وهي تعني الرجل غير الطاهر الذي لا يحمل علامة الانتماء لشعب الله المختار. وفي سفر يشوع نقرأ أن يشوع ختن اليهود قَبل دخولهم أرض الميعاد. وهكذا رفع عار المصريّين عن اليهود (يشوع 9:5). وتعيد علينا المشنا أن الغلفة نجسة لأن الكتاب المقدّس اليهودي يعيب على الوثنيّين عدم ختانهم، معتمدة في ذلك على آية أرميا 25:9: «مصر ويهوذا أدوم وبني عمون وموآب، وكل مقصوصي السوالف الساكنين في البرّية، لأن كل الأمم غلف، وكل بيت إسرائيل غلف القلوب».

ونجد امتداداً لفكرة عدم طهارة غير المختون في الفصل 12 من سفر الخروج الذي يمنع الأغلف من إقامة فريضة الفصح أو الأكل من ذبيحة الفصح. والتلمود يمنع من هو غير مختون أن يأكل من الأكل المخصّص للكهنة.

وسوف نرى أن الطفل الذي مات بعض اخوته يعفى من الختان. وهذا اليهودي أيضاً لا يسمح له أكل ذبيحة الفصح. وكذلك الأمر بخصوص الأب الذي لا يختن أطفالاً أو عبيداً له كان عليه ختانهم. وكذلك الأمر بخصوص الطفل الذي يولد مختوناً، فلا يحق له أن يأكل من ضحيّة الفصح حتى تنزل نقطة دم منه. وإذا ذبحت ذبيحة الفصح لمثل أولئك فإن المعنى الديني لهذه الذبيحة يفسد. وهناك إعفاء من المنع إذا أُجِّل الختان لأن الطفل مريض أو كان الطفل خنثى أو كان والديه في السجن ولم يتمكنوا من ختانه.

وحزقيال يمنع الأغلف دخول الهيكل (9:44). وأشعيا يمد هذا المنع لكل مدينة أورشليم (1:52).

و) الأغلف لا يُقبل زواجه من يهوديّة ولا يناسب

والختان في التوراة يعتبر شرطاً للزواج. فلا يحق أن يتزوّج الأغلف من يهوديّة. كما أنه لا يحق لليهودي أن يأخذ امرأة من جماعة غير مختونة. فيروي لنا الفصل 24 من سفر التكوين قصّة اغتصاب دينة ابنة يعقوب من رجل غير يهودي. وقد طلب المغتصب الزواج منها، مقترحاً بأن يتم التزاوج بين اليهود وبين أهل مدينته. فوضع أبناء يعقوب شرط الختان، عليه وعلى كل ذكر من أهل مدينته لأن الزواج من أغلف يعتبر عاراً. فوافقوا على ذلك وتم الزواج فعلاً من دينة بعد الختان. ولكن ذلك لم يكن إلاّ حيلة. فبعد الختان، لم يكن باستطاعة رجال المدينة المدافعة عن أنفسهم بسبب الألم. فدخل اخوة دينة عليهم وأخذوا أختهم وقتلوا كل ذكر بحد السيف وسبوا كل ثروتهم وجميع أطفالهم ونسائهم، وسلبوا كل ما في البيت.

ويروي الفصل 14 من سفر القضاة أن شمشون وقع في حب فلسطينيّة. ولكن أبوه وأمّه كانا معارضين لذاك الزواج: «أليس في بنات اخوتك وفي شعبي كله امرأة، حتى تذهب وتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغلف؟» وهذا يبيّن أن الفلسطينيين لم يكونوا يختنون أولادهم.

ومنع الزواج بين اليهود وغير اليهود هو امتداد لفكرة شعب الله المختار التي تضمّنها النص الخاص بالختان. فلا يحق لليهودي أن يختلط بالشعوب الأخرى لإفساد صفاء الدم اليهودي. ونجد هذا الفكر العنصري اليهودي في أجلى صوره في سفر عزرا الكاهن. فهذا الكاهن يهيج غضباً ضد اليهود الذين اتخذوا زوجات من خارج الشعب اليهودي «فاختلط النسل المقدّس بشعوب البلاد» (2:9). ويحكي لنا سفر عزرا كيف أنه مزّق ثيابه ونتف شعره ولحيته غيظاً (3:9) وطلب من جميع الشعب الاجتماع في ساحة الهيكل «وأن كل من لا يأتي في ثلاثة أيّام تحرّم كل أمواله» (7:10). فاجتمعوا

هناك في يوم ممطر فقال لهم: «إنكم خالفتم واتخذتم نساء غريبات، لتزيدوا في إثم إسرائيل. فاحمدوا الآن الرب إله آبائكم وأعملوا بما يرضيه، وانفصلوا عن شعوب الأرض والنساء الغريبات» (11:10). وهذا الجزء من الكتاب المقدّس اليهودي كان قد ألهم القوانين العنصريّة النازية في عصرنا وما زال يلهم رجال الدين اليهود في موقفهم المعادي من الزواج المختلط لأسباب عنصريّة مقيتة. وفي عام 1984 اقترح الحاخام مئير كهانة (توفى عام 1990) مشروع قانون يعاقب الزواج المختلط والعلاقات الجنسية بين اليهود وغير اليهود. وقد قام أحد أعضاء الكنيست بتوزيع مقارنة بين ذاك المشروع والقوانين العنصرية النازية.

ز) الأغلف لا يعاشر لا في الحياة ولا في الموت

يعتبر الأغلف في نظر اليهودي رجلاً نجساً. ولذلك لا يحق معاشرته في مأكله أو مشربه أو دخول بيته أو أكل ذبائحه.

وقد دار جدل في التلمود حول أطفال امرأة عبدة تم ختانهم ولكن لم يغطسوا في الحمّام الطقسي. فهل يدنّسون الخمر إذا مسّوه؟ وكان الجواب نفياً لأن الطفل لا يميّز طبيعة الوثن. أمّا إذا كان من مس الخمر بالغاً فإن الخمر يفسد، فلا يحق شربه.

ويذكر «موشي مينوهين» (توفى عام 1983)، والد عازف الكمان «يهودي مينوهين»(توفى عام 1999)، أن جدّه المتديّن الذي كان يسكن في مستعمرة في فلسطين كان يسكب في المجاري قناني الخمر التي تبقى على مائدته بعد رحيل ضيوفه غير اليهود. وعندما سأله حفيده عن سبب ذلك، كان جوابه بأن الخمر الذي في القناني المفتوحة من قِبَل غير اليهود (الجوييم) تصبح فاسدة وممنوعة من الشرب حسب القواعد اليهوديّة.

وهذه النظرة اليهوديّة للأغلف نجدها في بداية المسيحيّة. فقد عاتب مسيحيّون من أصل يهودي بطرس لقبوله دعوة قرنيليوس، قائد مائة من الكتيبة التي تدعى الكتيبة الإيطاليّة. فقالوا له: «لقد دخلت إلى أناس غلف وأكلت معهم» (أعمال 11:1-3). وبطرس يعرف هذا المنع ويعرف أن الوثنيّين على علم به. ففي مخاطبته لداعيه يقول: «تعلمون أنه حرام على اليهودي أن يعاشر أجنبياً أو يدخل منزله» (أعمال 10:28). وفي رسالته إلى أهل غلاطية، يعلمنا بولس كيف أن بطرس، «قبل أن يقدّم قوم من عند يعقوب، كان يؤاكل الوثنيّين. فلمّا قدموا أخذ يتوارى ويتنحّى خوفاً من أهل الختان» (غلاطية 2:12).

ويمتد الفصل بين اليهود وغير اليهود حتى داخل المقبرة. فلا يحق دفن غير المختون في مقبرة يهودية. وقد تم ختان اليهود البالغين قَبل دفنهم إذا وجدوا غير مختونين كما حدث مع الذين هاجروا من الاتحاد السوفييتي وماتوا في إسرائيل. وقد نشرت جريدة «جيروزليم بوست» عام 1993 خبراً يقول أن جمعيّات الدفن في كل إسرائيل تختن الأموات قَبل دفنهم دون إذن أهل الميّت. وقد دافعت جمعيّات الدفن ورئيس الحاخامات الشرقيّين الحاخام مردخاي الياهو عن هذا التصرّف. بينما أصدر رئيس الحاخامات الغربيّين «إسرائيل لو» تصريحاً يقول فيه إن الحاخامات لا يفرضون الختان لا على حي ولا على ميّت. إلاّ أن الجدل حول هذا الموضوع عاد إلى البرلمان الإسرائيلي في يوليو 1998 حيث صرّح «يوسي سريد»: «أنا وحدي المسئول عن أعضائي الجنسيّة وليس أحد سواي. إن السلطات الدينيّة لا تكتفي بالسيطرة على حياتنا بل تراقب أيضاً موتنا». ووصف «عوفير بينس» ختان الموتى بأنه «انحراف جنسي مرضي». وقد ردَّت وزارة الشؤون الدينيّة بأن هناك حالات قليلة يتم فيها ختان الميّت دون موافقة أهله، ولكن يجب الأخذ بالاعتبار أن من هو غير مختون لا يمكن دفنه في المقابر اليهوديّة. إلاّ أن إحدى الصحف نقلت عن مستشار تلك الوزارة قوله بأن ختان الموتى يتم بصورة روتينية.

ح) المبالغة في أهمّية الختان

هناك رواية يهوديّة تقول إن إبراهيم يقف يوم الدينونة على باب الجحيم فلا يسمح أن يدخل في الجحيم أي شخص يحمل علامة الختان. ورواية أخرى تقول إن الله يغفر لليهود خطايا كثيرة بسبب الختان. وإنه لن يحاكمهم في نفس الوقت الذي يحاكم فيه غيرهم من الأمم. فالأمم تحاكم في ظلمة الليل، واليهود في وضح النهار، وهؤلاء يتمتعون بنعم لا يحصل عليها غيرهم. وهم وحدهم الذين سيتمتعون بالأفراح والسعادة عند مجيء المسيح. وهناك قول لرابي يهودي: إن الدم الذي نزل من الطفل عند الختان يُحفظ أمام الله. وعندما يأتي يوم الدينونة فإن الله ينظر للدم فيخلص العالم.

ولكن ماذا عن الأطفال الذين يموتون قَبل يومهم الثامن دون ختان؟ قال بعض رجال الدين اليهود بأن الطفل حتى وإن بقي في الحياة لحظة واحدة فإن له نصيب في الحياة الأخرى، خُتن أم لم يختن. وأنكر ذلك غيرهم معتبرين الختان هو أساس الخلاص: فمن خُتن يخلص، ومن لم يُختن لا يخلص. وهذا هو السبب الذي من أجله قرّر التلمود ضرورة ختان الطفل الذي يموت قَبل اليوم الثامن.

وإن كان الختان بتلك الأهمّية، فهل هذا يعني أن كل الصالحين الذين سبقوا إبراهيم في الجحيم؟ حتى يحلوا هذه المشكلة، لجأ رجال الدين اليهود إلى القول بأن أولئك

الصالحين قد ولدوا مختونين من أمّهاتهم، دون غلفة، حاملين علامة العهد. وهم يرون أن الله قد أنعم على عدد آخر من الذين ولدوا بعد إبراهيم، فولدوا مختونين، معتبرين ميلادهم هكذا إشارة على اختيار الله لهم وتطهيرهم منذ بداية حياتهم. وتقول إحدى الروايات اليهوديّة أن عدد المختونين يبلغ 13 شخصاً، ولكن هذه القائمة غير ثابتة ونجد في الروايات اليهوديّة الأسماء الآتية: آدم وشيت، وانوخ، ونوح، وشم، وتيره، وملكصادق، ويعقوب، وجاد، ويوسف، وموسى، وبلعام، وصموئيل وداود وأشعيا وأرميا وزروبابل وعوبيد. لا بل أضافوا أن بعض الملائكة خُلقوا مختونين.

اكتسب الختان أهمّية خاصّة وتوسّعاً في القواعد التي تحكمه في ما يدعى العصر التلمودي، أي ما بين القرن الثاني والسابع الميلاديين. ففي التلمود فقرة توضّح سبب أهمّية الختان: إن الختان مهم لأنه يحق إباحة السبت من أجله، ولأن موسى بكل عظمته لم يعفى منه ساعة واحدة (إشارة إلى سفر الخروج الفصل الرابع)، ولأن إبراهيم لم يدعى كاملاً إلاّ بعد أن أتم الختان (إشارة إلى سفر التكوين 1:17)، ولأن لولا الختان لم يكن الله قد خلق العالم. وهذا إشارة إلى أرميا 33:25-26: «هكذا قال الرب: إن لم يكن هناك عهدي مع النهار والليل، ولم أجعل فرائض للسماوات والأرض، فإني أنبذ أيضاً ذرّية يعقوب وداود عبدي». وهم يترجمون هذا النص كما يلي: « هكذا قال الرب: إن لم يكن هناك عهدي نهاراً وليلاً، لم أكن لأجعل فرائض للسماوات والأرض». ويضيف التلمود أن الختان يساوي في قيمته كل أوامر التوراة.

وما زال المؤلفون اليهود المعاصرون يردّدون على مسامعنا هذا الكلام. فالحاخام «آريه كابلان» يقول: «إن الختان قد أعاد إبراهيم وذرّيته إلى وضع آدم قَبل الخطيئة. وقد استطاعت ذرّية إبراهيم أن تكون إناءاً للتوراة بسبب الختان. وهكذا، فإنه من خلال وصيّة الختان أمكن إتمام هدف الخلق». ويرى اليهود أن إتمام الختان له الأولويّة على دفن قريب.

3) التيّار اليهودي الناقد لختان الذكور

أ) لم يمارس اليهود دائماً الختان

توحي لنا نصوص التوراة أن الختان قد بدأ بإبراهيم الذي يُظن أنه عاش في القرن التاسع عشر قَبل المسيح وأن نسله مارس الختان منذ ذاك العهد. ولكن هناك شواهد تبيّن أن يهود مصر لم يكونوا يمارسون الختان بصورة شاملة. فسفر الخروج يخبرنا أن موسى هرب من مصر واتجه إلى مدين حيث تزوّج بصفورة ابنة كاهنها فأنجب منها ولدين، هما جرشوم واليعاز (خروج 2:15-22 و 3:18). ثم رجع مع زوجته

وابنيه إلى مصر. وفي طريقه إلى مصر ظهر له الله فطلب قتله. فأخذت صفورة صوّانة وقطعت غلفة ابنها ومسّت به رجلي موسى وقالت: «إنك لي عريس دم. فانصرف عنه (خروج 4:19-26). وهذا النص يبيّن أن موسى لم يكن مختوناً، وأن ولديه لم يكونا مختونين في الوقت الذي حدّدته التوراة (اليوم الثامن)، وأن صفورة ذات الأصل غير اليهودي ختنت فقط واحداً من ولديها بصوّانة، وقد يكون الابن البكر. فالنص يتكلم عن رجوع موسى مع ابنيه بصيغة المثنى (خروج 4:20)، بينما يتكلم عن ختان صفورة لابنها بصورة المفرد (خروج 4:25).

ويروي لنا سفر يشوع أن اليهود الذين ولدوا في البرّية بعد خروجهم من مصر لم يختنوا في صغرهم. وقد جاء أمر الله ليشوع بختانهم في البرّية (يشوع 5:2-9).

وتذكر التوراة أن الختان قد منع من قِبَل ملك إسرائيل آحاب (875-853 ق.م) وزوجته إيزابيل. وفي هذا الإطار نقرأ قول إيليّا في سفر الملوك الأوّل: «إني غرت غيرة للرب، إله القوات، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك وحطموا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف، وبقيت أنا وحدي، وقد طلبوا نفسي ليأخذوها» (1 ملوك 19:9-10). وإشارة إلى هذا القول، يقوم اليهود بوضع كرسي لإيليّا كشاهد للختان.

ويروي لنا سفر المكابيين الأوّل أنه «خرج من إسرائيل أبناء لا خير فيهم فأغروا كثيرين بقولهم: هلمّوا نعقد عهداً مع الأمم التي حولنا، فإنّنا منذ انفصلنا عنهم لحقتنا شرور كثيرة» (1 المكابيين 1:11). وبناء على طلبهم، تم منع الختان من قِبَل الملك أنطيوخس (توفى عام 164 ق.م). فترك اليهود الختان ومنهم من ألغى علامة الختان بمد جلد الذكر لاسترجاع الغلفة (1 المكابيين 1:15 و48). وقد قاد رجال الدين ثورة على القوانين التي تمنع الختان وختنوا «بالقوّة كل من وجدوه في بلاد إسرائيل من الأولاد الغلف» (1 المكابيين 2:46). ونجد تيّاراً مماثلاً في القرنين اللاحقين للميلاد ممّا جعل رجال الدين اليهود يتشدّدون في الختان حوالي عام 140 ميلادي ويتمادون في القطع حتى يمنعوا استرجاع الغلفة وإخفاء الختان.

ونحن نجد في بعض نصوص التوراة استعمالاً مجازياً للختان. ففي سفر التكوين يرتبط وعد أرض الميعاد لإبراهيم ونسله بختان الذكر، بينما في سفر تثنية الإشتراع يرتبط هذا العهد بختان القلب (تثنية 30:5-6). وفي فصل آخر نقرأ: «والآن يا إسرائيل، ما الذي يطلبه منك الرب إلهك إلاّ أن تتقي الرب إلهك سائراً في جميع طرقه ومحباً إيّاه، وعابداً الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك [...]. فاختنوا غلف قلوبكم، ولا تقسّوا رقابكم بعد اليوم» (تثنية 10:12 و 16). وفي سفر الأحبار يتوعّد بإهلاك وإذلال قلوب اليهود الغلف بسبب إثمهم (الأحبار 26:38-41). وسفر أرميا يقول إن

الله يعاقب على السواء غير المختونين في الجسد من الأمم واليهود المختونين في الجسد ذوي القلوب الغلف (أرميا 24:9-25). وقد استعملت التوراة كلمة «غرلة» متصلة مع كلمة الشفاه. فموسى يقول عن نفسه إنه «عرل شفتيم»، وقد تُرجمت بثقيل اللسان، أي يتعثر بكلامه (الخروج 12:6 و 30). وأرميا يستعمل كلمة «غرلة» متصلة بكلمة الآذان: «من ذا أكلم ومن أشهد عليه فيسمعوا. ها إن آذانهم غلف فلا يستطيعون الإصغاء» (أرميا 10:6).

هناك إذاً بجانب ختان غلفة الذكر ختان الشفتين وختان القلب وختان الآذان. وهو تعبير عن تطهير النفس وعدم اقتراف الإثم بتلك الأعضاء. وقد يكون هذا تطوّراً لاحقاً للختان الجسدي، أو سابقاً له، أو تيّاراً فكريّاً موازياً له يرفض النظر إلى المظاهر الخارجيّة.

ب) الجدل ضد الختان عند المجدّدين اليهود الألمان

بعد الثورة الفرنسيّة عام 1789، كان في أوروبا توجه عام يهدف إلى خلق مجتمع مدني تُلغى فيه الحواجز الطائفيّة وتجعل من الأفراد مواطنين متساوين في الحقوق. فقد أبدت الحكومات استعداداً لدمج الطوائف الدينيّة كاليهود. وكان مطلوباً من تلك الطوائف الدينيّة الخروج من تقوقعها لكي يستفيد أفرادها من الحقوق التي تهبها الحكومات. وكان نابليون شخصياً معادياً لهذا التقوقع الطائفي إذ فرض على اليهود كسر الغيتو اليهودي للانفتاح على الخارج في المناطق التي وقعت تحت سيطرته.

وضمن هذا الاتجاه كان ميلاد التيّار المجدّد اليهودي الذي كان يدعو إلى القبول المتبادل بين اليهود وغير اليهود. ففي خطاب افتتاح أوّل «هيكل يهودي مجدّد» في عام 1810 في مدينة «سيسين» الألمانيّة التي كانت تحت سيطرة الجيش النابليوني، اعتبر «إسرائيل جاكوبسون» أن الطقوس والعادات الدينيّة اليهوديّة معادية للعقل وهي إهانة للإنسان العاقل. وطالب طائفته بالتجديد الديني وبث مبادئ أكثر سلامة. وطالب في نفس الوقت من المسيحيّين أن يتقبّلوا اليهود في مجتمعهم وفي أعمالهم المهنيّة.

وقد قاد هذا الفكر التجديدي عند اليهود إلى التصدّي لتقاليد طائفتهم الدينيّة معتبرين أن كل تقليد لا يتفق مع العقل والتقدّم العلمي يجب إبعاده. ومن بين تلك التقاليد الختان. وكانت هذه العادة ممارسة بصورة عامّة بين اليهود لسببين: الأوّل هو اعتقادهم أن الختان أمر إلهي موحى ومُلزِم، والثاني خضوعهم لنظام الطوائف الذي يسيطر عليه رجال الدين. وكان هؤلاء يفرضون الختان فرضاً، وكل من تساوره نفسه بعدم ختان ابنه كان يستبعد من الطائفة. ومع تزعزع سلطة رجال الدين اليهود، أتيحت الفرصة

لبعض اليهود طرح تساؤلات حول معنى الوحي ولزوم تطبيقه، بما في ذلك الأمر الإلهي بالختان. وقد فُتح النقاش حول الختان فعلاً عام 1842 في مدينة فرانكفورت الألمانيّة من قِبَل مجموعة يهوديّة علمانيّة أطلقت على نفسها «أصدقاء التجديد»، وهو تعبير يوازي تعبير «أصدقاء النور» الذي كان يأخذ به مناصرو التيّار الحر البروتستانتي ذو الصبغة العالميّة. وكان من بين مطالب «أصدقاء التجديد» حذف الختان كعلامة تمييز بين الناس. فوضعوا في برنامجهم اعتبار الختان أمر غير مُلزِم لليهودي. إلاّ أنهم حذفوا هذه النقطة لاحقاً تحت ضغط رجال الدين اليهود. وقد اقترح هؤلاء المجدّدون في منشور دون ذكر اسم المؤلف بأن يُستَبدَل الختان الدموي بطقس ديني للذكر والأنثى أطلق عليه تقديس اليوم الثامن، الهدف منه إدخال كل من الذكر والأنثى في العهد وإعطاؤه اسماً يهوديّاً. وكان بعض المجدّدين لا يخفون بأن قصدهم كان إلغاء الاعتقاد بديانة ذات وحي وإلغاء الفروق بين الأديان.

وبعد هذا بقليل، وعلى أثر حوادث موت أطفال يهود نتيجة للختان، قامت إدارة الصحّة في مدينة فرانكفورت بنشر تعليمات بأنه على «اليهود المحليين الذين يريدون ختان أطفالهم» اللجوء إلى أشخاص مؤهّلين طبّياً وإدارياً. وقد كان القصد من هذه التعليمات ظاهرياً تفادي المشاكل الصحّية للختان، ولكن في حقيقتها أُخِذَت تحت تأثير التيّار المجدّد المعادي للختان بقصد إضعاف سلطة رجال الدين. وقد فُسِّرَت فعلاً من قِبَل هذا التيّار بأن الختان أمر متروك لإرادة أهل الأطفال وليس لإرادة السلطة الدينيّة اليهوديّة، ممّا أدّى إلى ترك بعض اليهود أولادهم دون ختان. وقد حاول الحاخام «سلمون ابراهام تريير» الحصول من حكومة مدينة فرانكفورت على تعديل للتعليمات المذكورة بحيث لا تُفسَّر بالمعني الذي يريده المجدّدون. إلاّ أن الحكومة أجابت بأن القصد من تلك التعليمات لم يكن إلغاء أمر إلهي، رافضة التدخّل في موضوع يخص الحرّية الفرديّة. وبعد أن رفض بعض اليهود ختان أبنائهم، رجع الحاخام للحكومة طالباً الحق في فصلهم من الطائفة اليهوديّة، مبيّناً أن اليهودي الذي يرفض ختان ابنه يعاقب حسب القوانين اليهوديّة بالموت. ولكن الحكومة أجابت بأنها تأسف أن يقوم بعض الأفراد اليهود في الإساءة للطائفة اليهوديّة، ولكنّها في الوقت نفسه تأسف لعدم إمكانيّة أخذ الإجراء الذي يطلبه الحاخام. عندها، أرسل الحاخام المذكور رسالة إلى 80 حاخاماً يهوديّاً أوروبياً طالباً أخذ موقف ضد حركة المجدّدين. وقد جاءت أكثر الأجوبة مؤيّدة لموقف هذا الحاخام، معتبرة اليهود الذين يرفضون الختان مرتدّين يجب إقصائهم عن الطائفة اليهوديّة وقطع كل علاقة معهم ورفض زواجهم أو دفنهم في المقابر اليهوديّة. وهكذا بقي الختان شرطاً أساسياً للانتماء للطائفة اليهوديّة. ولكن ذلك أدّى إلى انشقاق الطائفة اليهوديّة.

وقد امتد نقد الختان من ألمانيا إلى فينا حيث قام ما لا يقل عن 66 طبيباً يهوديّاً في عام 1866 برفع عريضة لمجمع الطائفة اليهوديّة هناك يعارضون فيها ممارسة الختان. ولكن رجال الدين اليهود اختلفوا فيما بينهم بسبب عواقب إلغاء الختان إذ منهم من يعارض تزويج امرأة يهوديّة لرجل غير مختون. وفي عام 1871 جاء القرار الآتي من المجمع اليهودي المنعقد في مدينة «اوجسبورج»: «إذ يقر المجمع أنه لا شك في المعنى السامي والهام للختان في اليهوديّة، إلاّ أنه يقر أيضاً بأن الطفل الذي يولد من أم يهوديّة ولم يختن لأي سبب كان هو طفل يهودي ويجب أن يعامل كذلك في كل المواضيع المتعلقة بالطقوس الدينيّة». وقد جاء هذا الموقف رداً على تزايد عدد الأطفال اليهود غير المختونين في ألمانيا والنمسا.

ج) الجدل الحالي حول الختان في الولايات المتحدة

انتقل هذا التيّار المجدّد من ألمانيا مع المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة حيث اختلف رجال الدين اليهود المجدّدين في فيليديلفيا عام 1869 فيما إذا كان ضرورياً ختان من يتحول لليهودية. فبينما رأي البعض عدم ضرورة الختان، إلاّ أن القرار كان بضرورة ختانه لأنه «يُدخل في اليهوديّة أموراً كثيرة غير طاهرة» ولأن الختان «يحمي اليهوديّة من تلك النجاسات». وقد انقلب الوضع عام 1892 حيث قرّر رجال الدين اليهود المجدّدين عدم فرض الختان على من يتحوّل إلى اليهوديّة.

إلا أن الختان سرعان ما انتشر في الولايات المتحدة بين المسيحيين الأمريكيّين وأصبح يمارس بصورة روتينيّة على الأطفال حديثي الولادة قَبل خروج الأم من قسم الولادة في المستشفيات. وقد خُتن اليهود بين من ختن هنالك. وتدريجيّاً لم يعد سبب للجدل الذي أوجده المجدّدون الألمان ضد الختان ضمن خطتهم في الاندماج مع محيطهم. فقد اختلف الأمر في الولايات المتحدة إذ أصبح الختان هو العادة وعدم الختان هو الشذوذ. وحاول رجال الدين اليهود الاستفادة من تمكن عادة الختان الطبّي لإدخال الختان الديني. فقاموا بتأهيل خاتنين دينيين في مدارس خاصّة لإعطاء الختان الطابع الديني ممّا يساعد على استعادة مركزهم ودورهم الذي فقدوه في القرن الماضي. وقد ساعد على ذلك كون أن الولايات المتحدة تعترف بالزواج الديني. فجعل رجال الدين اليهود عقد زواج أعضائهم مرتبطاً بالختان.

وقد أدّت الأحداث المفجعة التي ألمّت باليهود في الحرب العالميّة الثانية في ألمانيا وخلق دولة إسرائيل على انتعاش الختان. فهناك من يرى فيه رباط مع اليهوديّة. وقد قرّرت الجمعيّة العموميّة لحاخامات أمريكا عام 1979 بأن الختان هو وصيّة واجبة لإدخال الطفل في العهد، وأن الختان وحده لا يكفي لدخول العهد بل يجب أن يصاحبه

الصلوات الطقسيّة وأن تجرى على قدر الإمكان من قِبَل شخص متخصّص عنده معرفة دينيّة وطبّية، أي الخاتن.

غير أن الوضع بدأ يتحول إذ أخذ المسيحيّون يعارضون الختان بسبب مضارّه الطبّية والنفسيّة، ولحق بهم بعض اليهود. ورغم عدم تعرّض المسيحيّين للفكر الديني إلاّ قليلاً، فإن توجيه النقد للختان على أساس مضاره يؤثر أيضاً على ممارسة الختان الديني بين اليهود ذاتهم. فإذا ما فقد الختان أهمّيته كعادة اجتماعيّة، ولم يعد له سبب طبّي يبرّره، ولم تعد شركات التأمين تغطي تكاليف العمليّة الطبّية، فإن عدد غير المختونين بين غير اليهود سينقص. وهذا يؤدّي إلى انخفاض المحيط المشجّع للختان بين اليهود إذ لن يعود هناك ختان لأسباب طبّية بل فقط ختان لأسباب دينيّة. وهذا يعني أن اليهود الذين كانوا يختنون أطفالهم لأسباب طبّية أو اجتماعيّة أكثر ممّا لأسباب دينيّة سوف يفقدون السبب الذي من أجله سيختنون أطفالهم. وإذا ما أغلقت نافذة الختان الطبّي في الولايات المتحدة، فإن ذلك يعني أن رجال الدين سوف يفقدون القاعدة التي كانوا يراهنون عليها كما أنه يعني تجدّد الجدل حول الختان بين اليهود كما كان عليه في بداية عصر المجدّدين اليهود الألمان. وهذا فعلاً ما بدأ يحصل في الولايات المتحدة. فهناك عدد غير قليل من اليهود الذين يشاركون في هذا الجدل. وقد زاد هذا النقد ضد الختان حدّة دخول النساء ساحة المعركة ومطالبتهن بالمساواة مع الرجال. ثم جاء تقدّم علم النفس ليدعم موقف التيّار المعادي. وقد أجمل «هوفمان» في ثلاث نقاط الجدل حول الختان بين اليهود في الولايات المتحدة:

- على المستوى الطقسي، يُعتبر الختان مخالفاً لمبدأ المساواة بين الذكر والأنثى. فالختان هو أحد الطقوس التي تؤهل الطفل الذكر في دخول حلقة الرجال المسيطرين على المجتمع. وفي عصرنا الذي يطالب بالمساواة، أصبحت النظرة إلى ختان الذكور نظرة سلبيّة. ممّا جعل البعض يحاول إيجاد مخرج لهذه المشكلة بخلق نظام ختان رمزي للبنت.

- على المستوى الطبّي، لم يَعد للختان تلك الأهمّية الطبّية التي كانت تظن سابقاً. وبما أنه لا فائدة صحّية له فإنه لا حاجة له.

- على المستوى الأخلاقي، يُنظر حاليّاً للختان كعمليّة تشويه جسديه تجرى على الأعضاء الجنسيّة لطفل لا يستطيع الدفاع عن نفسه. ممّا يعني أن الختان أصبح عملاً منافياً للأخلاق.

د) انتقال نقد الختان إلى إسرائيل

بالإضافة إلى عدد من اليهود غير المختونين القادمين من الاتحاد السوفييتي، هناك في إسرائيل عشرات من أهالي الأطفال اليهود الذين يرفضون ختانهم. فهم يعتقدون بأنه ليس من الضروري بتر غلفة الطفل حتى يصبح يهوديّاً إذ إن اليهودي هو كل من يولد من أم يهوديّة. وقد أسّس بعض نشطاء حقوق الإنسان في إسرائيل جمعيّة تدعى «جمعيّة مكافحة الختان في إسرائيل وفي العالم».

هذه الجمعيّة تعتبر الختان عمليّة بدائيّة وهمجيّة. وقد رد عليهم طبيب ولادة إسرائيلي في مستشفى «شآري تصيديق» في القدس بأن الختان يحمي من الأمراض ومفيد للنظافة. وتجيب الجمعيّة بأن عدد الأطفال الذين يموتون بسبب الختان أكبر من عدد الأطفال الذين قد ينجون من الموت بسبب الأمراض التي قد يحمي منها الختان. والختان ليس ضروريّاً للمحافظة على النظافة، فيكفي غسل الجسم للوصول إلى هذه الغاية. وتضيف بأن موسى ابن ميمون يرى في الختان وسيلة لإضعاف اللذّة الجنسيّة. كما أن الختان عمليّة مؤلمة للأطفال تجرى عليهم دون موافقتهم وتسبّب لهم اضطرابات عقليّة. والذين يقومون بالختان يحتفلون ويفرحون من حول الطفل المختون دون أن يعيروا أي اهتمام لألمه.

ومعارضة الختان في إسرائيل ليس بالأمر البسيط إذ إن غير المختون لا يُدفن في المقابر اليهوديّة. والأهالي الذين يرفضون ختان أطفالهم يلقون عنتاً كبيراً من قِبَل أقاربهم وأصدقائهم الذين يقطعون العلاقات معهم. وهؤلاء الأهالي يلتقون مرّة كل أسبوعين لدراسة كيفيّة تكثيف كفاحهم ضد الختان. هذا وقد انضم لهذه الحملة المغني والناقد الأدبي الإسرائيلي «مناحيم بن» الذي يقول بأنه ختن ابنه على طريقته وذلك من خلال ختان القلب كما جاء في التوراة.

وقد تصدّى لهذه الحملة رئيس الحاخامات الإسرائيلي «الياهو باكشي دورون» الذي قال بأنه كان يعلم أن هذا سوف يحدث في آخر الأمر. فقد استولى بغض الذات على الشعب. وفكرة أن كل ما هو يهودي هو شيء بغيض امتد حتى إلى الختان علامة العهد. ويضيف أن الأضرار التي يدّعيها معارضو الختان لا تسمح بالشك في عادة قديمة. ويتساءل: «من هو الذي يقرّر بأن أمراً ما بدائي وقديم ومؤلم؟ فالحمد لله أن الشعب اليهودي قد عاش على هذه الوتيرة منذ أجيال. وحتى أن كان صحيحاً أن الختان ينقص اللذّة الجنسيّة، فهذا ليس مصيبة كبرى».

وقد حاولت في يناير 1998 جمعيّة يهوديّة معارضة للختان في إسرائيل اسمها «الجمعيّة المعارضة لبتر الأعضاء الجنسيّة للأطفال» الحصول على قرار من المحكمة الإسرائيليّة العليا يجعل من ختان الذكور مخالفاً للقانون الخاص بكرامة الإنسان وحرّيته، ويفرض إجراءه في المستشفيات مثله مثل العمليّات الجراحيّة الأخرى بعد الحصول على موافقة خطية من الأهل. وتطلب الجمعيّة من المحكمة أن تفرض مناقشة هذا الأمر على وزارتي الصحّة والشؤون الدينيّة، والمدّعي العام والهيئة الخاصّة بمراقبة الخاتنين. وقد قَبلت المحكمة دعوى الجمعيّة، ممّا أزعج المدّعي العام الذي اعتبر بأنه من غير المعقول أن تكون إسرائيل هي الدولة والوحيدة في العالم التي تمنع ختان الذكور. غير أن المحكمة عادت ورفضت القضيّة في مايو 1999 دون تقديم أسباب لذلك الرفض، مكتفية برد الحكومة.

4) عمليّة الختان عند اليهود

أ) الأشخاص الذين يخضعون للختان

القاعدة الأساسيّة في التوراة هي أن يتم ختان كل مولود ذكر يهودي في يومه الثامن. وقد طرحت هذه القاعدة البسيطة عدّة مشاكل، أوّلها من هو اليهودي؟ وهل يختن الذكر إذا وقع موعد الختان يوم سبت؟ وهل هناك إمكانيّة لتأخير أو ترك الختان في حالة المرض وخطر الموت؟

من هو الذي يختن؟

الختان علامة انتماء للشعب اليهودي وعلامة عهد بين الله وهذا الشعب. لذا كان لزاماً تعريف من هو اليهودي.

حسب التعاليم اليهوديّة، اليهودي هو من ولد من أم يهوديّة مهما كان دين والده. وإذا أصبحت الأم يهوديّة قَبل ميلاد الطفل، حتى وإن كان في زمن الحبل، فإن طفلها يصبح يهوديّاً بالتبعيّة. أمّا إذا أصبحت يهوديّة بعد ولادته، فيجب أن يحوّل الطفل يهوديّاً قبل أن يختن. والشريعة اليهوديّة لا تعترف بالتبنّي. ولكن في إسرائيل هناك قانون يسمح به. وكذلك الأمر في دول أخرى. فإذا تبنّت عائلة يهوديّة طفلاً غير يهودي، فإنه يصبح يهوديّاً بالتبعيّة ويختن.

وقد كان هناك جدل عام 1864 في «نيو اورليانز» حول ختان أطفال من أب يهودي وأم غير يهوديّة. وقد قرّر أحد الحاخامات اليهود بأن ذلك غير مسموح به. وقد أيّده في ذلك الحاخامات اليهود الأوروبيون. إلاّ أن الحاخام «تسفي هيرش كاليشر» أيّد ختان

الأطفال غير اليهود عموماً، والأطفال من أب يهودي خاصّة، لأن التوراة في رأيه لجميع البشريّة. وقد خص بها اليهود قديماً بسبب حالة الشعوب في ذاك الوقت. وعليه يجب إجراء كل ما يمكن أن يشجّع الآخرين لقبول التوراة. وبما أن الخوف من الختان على كبر قد يكون مانعاً لتحوّل البالغين لليهوديّة، لذلك ينصح بإجراء الختان على الأطفال الذين هم من أب يهودي، إذ إنهم من بذر يهودي. وهكذا يسهّل عليهم التحوّل إلى اليهوديّة عندما يكبرون.

يوم الختان

تفرض التوراة الختان في اليوم الثامن. فإذا تم الختان في اليوم السابع بدلاً من اليوم الثامن لا يعتبر هذا الختان ختاناً بل جرحاً كغيره من الجروح والخاتن يأثم. وقد طُرح هذا الموضوع خاصّة في أيّامنا في الولايات المتحدة إذ إن كثيراً من اليهود يقومون بختان أولادهم قبل أن يتركوا المستشفى إمّا لأسباب اقتصاديّة لأن شركات التأمين تغطي مثل هذه المصاريف بعكس الختان الذي يتم من قِبَل خاتن، وإمّا تهرباً من الطقس الديني الذي فقد معناه عند كثير من اليهود. يؤكد المؤلفون اليهود أن مثل هذا الختان لا قيمة دينيّة له إلاّ إذا تم إنزال نقطة دم من حشفة الذكر لاحقاً. ولكن هناك حالة يختن فيها الطفل يوم ولادته إذا ما ولدت امرأة طفلاً ثم أصبحت يهوديّة في نفس اليوم. حين ذاك يختن الطفل في يوم ولادته. أمّا إذا تحوّلت الأم إلى اليهوديّة ثم ولدت ابنها، فإن ختان الطفل يتم في يومه الثامن كالأطفال اليهود.

وتتشدّد التوراة على ضرورة احترام السبت وتعاقب على استباحته بالقتل. ولكن رجال الدين اعتبروا الختان أكثر أهمّية من السبت باعتبار أن الأمر الإيجابي (يجب أن يختتن) يمر قَبل الأمر السلبي (لا تعمل يوم السبت). فإذا وقع موعد الختان يوم السبت، يحق لليهودي إجراء عمليّة الختان فيه، كما يحق له أن يجري كل التحضيرات اللازمة للختان. فيحق مثلاً غسل الطفل وقطع الخشب لعمل الفحم الضروري لصياغة سكين الختان. ويتم الختان أيضاً في اليوم الثامن حتى وإن وقع في يوم الغفران أو غيره من الأيّام المقدّسة. ولكن ماذا لو وقع اليوم الثامن للختان في يوم سبت، ولكن حتى يتمكن الحاخام من المجيء لبيت الطفل عليه أن يسوق سيّارته. فهل يؤخّر الختان ليوم لاحق حتى لا تخرق حرمة السبت أم نعتبر أمر الختان أهم من السبت ونختن فيه؟ هناك من طلب من الخاتن أن يحضر قَبل السبت، ولكن هناك أيضاً من يسمح للحاخام أن يسوق في يوم السبت وذلك لأن كثيراً من اليهود زاغوا عن احترام أمر الختان في اليوم الثامن.

ورغم وضوح نص الكتب المقدّسة اليهوديّة بضرورة الختان في اليوم الثامن، إلاّ أن رجال الدين اليهود دخلوا في متاهات حسابيّة غريبة. فالمشنا تقول إن الختان يتم في اليوم الثامن أو التاسع أو العاشر أو الحادي عشر أو الثاني عشر بعد الولادة. فالختان في اليوم الثامن هو الوقت الاعتيادي. أمّا إذا ولد الطفل عند الشفق، فإنه يختن في اليوم التاسع. وإذا ولد عند الشفق مساء السبت، فإنه يختن في اليوم العاشر (أي يوم الأحد). وإذا وقع عيد بعد السبت، فإنه يختن في اليوم الحادي عشر (أي يوم الاثنين). وإذا وقع يومي عيد رأس السنة بعد السبت، فإنه يختن في اليوم الثاني عشر (أي يوم الثلاثاء). وسبب تلك الحسابات المعقّدة هو لأنه لا يحق خرق حرمة السبت والأعياد إلاّ إذا وقع اليوم الثامن بصورة أكيدة في ذلك اليوم. ولمعرفة متى يكون الطفل في يومه الثامن ينصح خاتن يهودي تسجيل وقت الميلاد والوقت الرسمي لغروب الشمس في المكان الذي ولد فيه الطفل بدقّة وعرض الأمر على رجل الدين اليهودي لكي يقرّر ذلك. وإذا ولد طفل نتيجة عمليّة قيصريّة، فإن الختان يجرى في اليوم الثامن من ولادته. أمّا إذا وقع هذا اليوم يوم سبت أو عيد، فإن الختان يؤخّر لبعد السبت أو العيد.

ويجادل اليهود حول سبب الختان في اليوم الثامن. والسبب الأوّل الذي يذكرونه هو أن الله أمر بذلك كما رأينا. وتذكر كتب المدراش أسباباً أخرى. منها وجود سبت ضمن هذه الأيّام، فيعيش الطفل سبتاً قبل أن يمر بالختان. ويعتبر اليهود السبت رمزاً للملكة التي تسبق مجيء الملك. فقبل أن تقابل الملك أي الله من خلال عمليّة الختان، عليك أن تمر بالملكة لتسلم عليها. وقد حاول موسى بن ميمون إعطاء أسباب أكثر عقلانيّة:

- لو ترك الصغير حتى يكبر، قد لا يفعل.

- الطفل لا يتألم كتألم الكبير للين جلده، ولضعف خياله، لأن الكبير يستهول ويستصعب الأمر الذي يتخيّل وقوعه قبل أن يقع.

- إن الصغير يتهاون والده بأمره عند ولادته لأنه لم تتمكن إلى الآن الصورة الخياليّة الموجبة لمحبّته عند والديه. فلو ترك سنتين، أو ثلاث، لكان ذلك يوجب تعطيل الختان لشفقة الوالد ومحبّته له.

- كل حيوان عندما يولد ضعيف جدّاً وكأنه إلى الآن في البطن إلى انقضاء سبعة أيّام. وكذلك الأمر في الإنسان.

تأخير وإلغاء الختان في حالة المرض وخوف الموت

تفرض التوراة الختان في اليوم الثامن، ولكن رجال الدين اليهود يسمحون في حالات مرض الطفل بتأخير الختان حتى يشفى. ويوضّح التلمود بأنه حتى وإن كان على الطفل حرارة لحظة، فإن ختان الطفل يؤخّر إلى يومه الثلاثين. وخلال مدّة بقائه غير مختون لا يحق للطفل أن يأكل من فريضة الفصح أو يمسح بزيت الفصح. ولكن هناك من حسب هذا المنع بداية من اليوم الثامن. وهناك من يرى أنه إذا كان المرض شاملاً يجب أن يجرى الختان سبعة أيّام بعد شفائه. أمّا إذا كان المرض بسيطاً، فيجرى حالاً بعد شفائه.

وهناك جدل بين رجال الدين اليهود حول ضرورة ختان طفل توفى أخوه بسبب الختان. فمنهم من يرى بأنه إذا توفى أخوان، فإن الأخ الثالث لا يختن. وبعضهم يرفع هذا العدد إلى ثلاثة. وكذلك الأمر إذا مات أبناء خالة الطفل. ويذكر تلمود أورشليم حادثة موت ثلاثة اخوة متلاحقين. وعندها نصح رابي ناتان بأن يؤخّر ختان الطفل الرابع ثم تم ختانه فبقي على قيد الحياة فسمّي باسمه.

ونشير إلى أن الختان قد يتم في سن متأخّرة أو حتى بعد موتهم كما هو الأمر مع اليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفييتي إلى إسرائيل.

العبيد ومن يعتنق اليهوديّة والعدو

تفرض التوراة على اليهودي أن يختن عبيده. وكانت العادة أن يتم ختان العبيد حالاً بعد شرائهم. ولكن لا يمكن ختانهم يوم السبت إذ إن خرق السبت لا يسمح به إلاّ لختان طفل يكون يومه الثامن يوم سبت.

كما أن من يريد التحوّل إلى اليهوديّة، عليه أن يختتن. نقرأ في سفر يهوديت: «ورأى أحيور كل ما فعل إله إسرائيل فآمن بالله إيماناً راسخاً وختن لحم غلفته فضم إلى بيت إسرائيل إلى اليوم» (يهوديت 10:14). وقد فرض اليهود الختان على الشعوب التي استطاعوا أن يسيطروا عليها. ففي سفر أستير نقرأ أنه بعد تتويج أستير ملكة في فارس تحوّل عدد كبير من الناس إلى اليهوديّة خوفاً من سطوة اليهود (أستير 17:8) الذين انتقموا من أعدائهم بحد السيف (أستير 5:9). ويذكر المؤرّخ اليهودي «يوسيفوس» هذا الحدث قائلاً إن كثيراً من الشعوب ختنوا أنفسهم خوفاً من اليهود وهكذا استطاعوا النجاة. كما يذكر بأن الكاهن الأكبر «هيركانوس» قد فرض على الأدوميين بعد إخضاعهم الختان واحترام القوانين اليهوديّة كشرط لبقائهم في ديارهم.

وبما أنهم كانوا متمسّكين بأرضهم وافقوا على ختانهم. وفي سياق مشابه يذكر بأن «اريستوبولوس» قد فرض نفس الشرط على الإيطوريين. ويسرد هذا المؤرّخ كيف أن نبيلين من رعايا الملك «اغريبا» طلبا اللجوء إلى صف اليهود. وقد أشترط عليهما اليهود لمنحهم حق الإقامة أن يختنا. إلاّ أن «يوسيفوس» ذو الميول الرومانيّة رفض إخضاعهم للختان مبدياً رأيه بأن لكل شخص الحق في أن يعبد الله حسب ضميره.

من ولد أو تهوّد مختوناً

يرى التلمود أن من ولد مختوناً، أي من دون غلفة، يجب أن ينزل منه نقطة دم من حشفته كعلامة عهد. ولكن في هذه الحالة لا يحق التعدّي على السبت. ويقول كاتب يهودي حديث إن ولادة طفل مختوناً من بطن أمّه أمر نادر جدّاً فقد تكون الغلفة ملتصقة بالحشفة. ففي هذه الحالة ينتظر الخاتن أن يكبر الطفل حتى تتطوّر الغلفة. ثم يجري له الختان. وإذا لم تتطوّر الغلفة كالعادة يسلخ الخاتن ما وجد منها. وإذا لم يجد شيئاً، أنزل من الحشفة نقطة دم. وعلى كل حال لا يمكن إجراء مثل تلك العمليّات يوم السبت.

وإنزال نقطة دم من حشفة الذكر تتم أيضاً على من تهوّد مختوناً، أو من تم ختانه في المستشفى قَبل موعد الختان المحدّد في الشريعة، أو بأسلوب غير مقبول مثل الختان بآلة لا تسمح بإنزال الدم، أو من يتم ختانه من قِبَل شخص لا يُعترف به. فمثلاً الأرثوذكس لا يعترفون بختان جرى على يد خاتن غير أرثوذكسي أو غير متديّن.

ختان الخنثى ومن له غلفتان

لقد تكلمت المشنا عن إجراء الختان يوم السبت على من كانت معالم عضوه التناسلي ذات شك أو من كان عنده عضو تناسلي ذكر وعضو تناسلي أنثى. فهناك قول بأنه لا يحق استباحة السبت من أجل ختان مثل هذا الطفل. وهناك قول آخر يسمح بذلك. وقد اعتمد رافضو ختان الخنثى يوم السبت على سفر التكوين 14:17: «وأي أغلف من الذكور، لم يختن في لحم غلفته» وهذا العبارة تعني في نظرهم من هو كامل الذكورة.

ونجد في التلمود ذكراً لمن عنده غلفتان. وهذه العبارة غير واضحة وقد تعني من له ذكران. يقول التلمود إن من له غلفتان يختن فقط في النهار وفي الوقت المحدّد خلال النهار. أمّا إذا فات وقته، فإنه يختن في النهار أو في الليل.

ب) القائمون بالختان ومن يحضره

الخاتن

يرى التلمود أن على الأب مسؤوليّة قرار ختان ابنه اعتماداً على النص التوراتي الذي يقول «فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع مواليد بيته [...] فختن لحم غلفتهم في ذلك اليوم عينه، بحسب ما أمره الله به» (التكوين 23:17). فالأمر موجّه لإبراهيم وليس لأم الطفل. وإذا لا يريد الأب أخذ قرار ختان ابنه، فللأم أن تقرّر ذلك. وإذا لم يقم الأب والأم بواجبهما، فإن المحكمة الحاخاميّة هي التي تقرّر ذلك. وإذا لم يكن هناك أحد، فمسؤوليّة الختان تعود لأي فرد من جماعة اليهود.

وللأب ذاته أن يقوم بإجراء العمليّة. ولكن بإمكانه أن يوكل أحداً بختان ابنه إذا كان لا يعرف كيف يختن. فيقوم بالختان الخاتن. وبعض الخاتنين يسلمون السكين إلى أب الطفل حتى يوضّحوا له أن الختان من مسئوليته، ثم يرجع الأب السكين إلى الخاتن تعبيراً عن توكيله بالختان. ولكن البعض الآخر يوضّح الأمر للأب شفهياً قَبل قيامه بالختان. وهناك أيضاً من يسلم السكين للام لكي تضعها تحت مخدّتها في الليلة التي تسبق الختان. ومن غير الواضح السبب الذي من أجله يتم هذا.

يذكر سفر الخروج أن صفورة، زوجة موسى، أخذت صوّانة وقطعت غلفة ابنها (الخروج 25:4). ولكن رجال الدين اليهود فسّروا هذا النص بأن صفورة لم تقم بعمليّة الختان بل جعلت غيرها يستعمل الصوّانة للختان. وفي أيّامنا يسمح اليهود المجدّدون للنساء بإجراء العمليّة. أمّا اليهود الأرثوذكس فلا يسمحون بذلك إلاّ في حالة عدم وجود أي رجل مؤهّل ومستعد لإجراء العمليّة.

ليس من الضروري أن يكون الخاتن رجل دين. فهناك أطبّاء يهود تدرّبوا علي الختان الديني. وقد دار جدل حول ما إذا كان من المفضّل صحّياً تسليم الطفل إلى طبيب أم إلى خاتن. فقد يكون للخاتن اليهودي خبرة ولكن تنقصه المعرفة الطبّية في حالة حدوث مضاعفات. ولكن هناك أيضاً من يرى أن الطبيب قلما يعير الختان أهمّية كبيرة كما يعيرها الخاتن. فالطبيب يقوم بالختان عامّة في الولايات المتحدة في آخر عمله، فيختن عدّة أطفال بالتوالي في غرفة مغلقة بقصد إضافة ربح إلى ربحه. بينما الخاتن يقوم بتلك العمليّة في حضور الأهل والمدعوّين ممّا يجعله أكثر حرصاً في عمله. ويقول مؤلف يهودي بأنه في حالة عدم وجود خاتن، فإنه يسمح باللجوء إلى طبيب لإجراء الختان. ولكن يجب أن يكون الطبيب يهوديّاً وعلى علم بعمليّة الختان الديني والصلوات المرافقة وعليه أن يتصرّف بالاحترام اللائق بهذا الطقس الديني. والعادة

أن يصاحب الطبيب حاخام يشرف على إجراء العمليّة ولكن إذا وُجد خاتن، فعلى الحاخام أن يؤكد على ضرورة إجراء الختان من قِبَل الخاتن.

هل يحق لغير اليهودي ختان اليهودي؟ يجيب التلمود أنه لا يحق لأحد أن يختن طفلاً إلاّ إذا كان هو مختوناً. وهذا ينطبق على اليهودي وغير اليهودي. ويضيف بأن لليهودي الحق في ختان السامري، أمّا السامري فلا يحق له ختان اليهودي. ويقول مؤلف يهودي حديث إنه لا يحق لغير اليهودي أو لليهودي غير المتديّن أن يقوم بختان الطفل، ومن المفضّل أن يُترك الطفل دون ختان ممّا أن يُختن من قِبَل شخص كهذا. وإذا تم الختان من قِبَلهم، فيجب تصحيح الختان بإنزال نقطة دم من ذكر الطفل.

السندك والعرَّابين والجمع

الختان في الكتاب المقدّس اليهودي هو حدث عائلي يقوم به الأب بحضور أفراد العائلة بما فيهم الأم. ثم أصبح حدثاً جماعيا يتم ضمن «الخفروت»، وهي اجتماعات للأكل والشرب للاحتفاء بالسبت أو بالأعياد والمناسبات الأخرى كالزواج والولادة والوفاة على غرار المآدب في المجتمع الوثني اليوناني والروماني. وهذه الاجتماعات كانت مفتوحة للجميع، رجال الدين والعلمانيين على السواء، ولكنّها ممنوعة «للنساء والعبيد والصغار».

وانتقل بعد ذلك الختان إلى الكنيس (أي المجمع). ولم يكن هذا المكان يلعب دوراً دينيّاً. ممّا سمح بحضور المرأة. وبعد سيطرة رجال الدين على مؤسّسة الكنيس وتحويلها إلى مؤسّسة دينيّة سارعوا باستبعاد المرأة من الختان. وهناك نص لرجل دين يهودي ألماني توفى حوالي عام 1285 يقول فيه إن على كل شخص يخاف الله أن يخرج من المعبد إذا حضر ختان طفل على حضن أمّه، حتى وإن كان الخاتن هو أب الطفل. وهو يعتمد على قول للتلمود: من الأفضل أن تسير خلف أسد ممّا أن تسير خلف امرأة. كما يذكر قول للنبي صموئيل: «إن الطاعة خير من الذبيحة» (1 صموئيل 22:15). ويشير أن النساء كانت تجلس في الهيكل في مكان منفصل حتى لا تشوش فكر الكهنة باستثارتهم جنسيّاً.

وقد سن رجال الدين اليهود في العصور الوسطى إنه لا يحق للام حتى إيصال الطفل إلى الكنيس، بل توكل امرأة بذلك، أطلق عليها اسم «بعلة بريت» (أي خادمة العهد). وهذه لا تدخل الكنيس بل تسلمه إلى «بعل بريت»، أي «خادم العهد». ويتم الختان على حضن هذا الرجل في حال غياب أبيه عن الختان. وقد تحوّل الاسم وأصبح السندك، ويُظن أن هذه الكلمة تحوير لكلمة يونانيّة تعني الضامن أو ما يسمّيه

المسيحيّون «العرَّاب» أو «الشبين». وقد أخذ اليهود هذا النظام من طقس العمّاد عند المسيحيّين. وقد أعتُبر السندك بدرجة أعلى من الخاتن إذ شبّهت ركبتيه التي يجلس عليها الطفل بالهيكل الذي يُقدّم عليه البخور لله. ثم أعتُبر وكأنه كاهن في المعبد.

أضيف السندك لطقس الختان في القرون الوسطى بهدف إبعاد الأم. ولم تدخل المرأة في الكنيس لحضور الختان إلاّ في القرن السادس عشر بجانب زوجها. ولكن دون أن يكون لها الحق في اجلاس الطفل في حضنها كعرَّابة للطفل. فبقي الختان في يد الرجال. وهذا لم يتغيّر إلاّ في عصرنا في الأوساط اليهوديّة المجدّدة. وقد أصبح لها الآن الحق في أن تعمل كخاتن. كما أن العرَّاب عند التيّار المجدّد يمكن أن يكون امرأة. وفي زمننا يُختار رجل وامرأة يدعيان kvatter وهي كلمة من أصل ألماني تعني أيضاً العرَّاب يحضران الختان بالإضافة إلى العرَّاب الذي يحمل الطفل في حضنه وقت الختان.

لا يتطلب الختان حتى يكون صحيحاً إلاّ وجود الخاتن، ولكن من المفضّل أن يكون هناك العرَّاب والأب وعدد من الحضور. ومنهم من يقول بأنه يفضّل وجود عشرة أشخاص أعمارهم فوق سن الثالثة عشرة، أي النصب الضروري لإقامة الصلاة الجماعيّة إكراماً لوجود النبي إيليّا الذي يزعم اليهود إنه يحضر كل ختان. وفي التيّار اليهودي المجدّد يمكن أن يكون هذا النصب من عشرة رجال أو نساء. وهناك اعتقاد بأن حضور ختان طفل هو وسيلة ضد العقم. ففي بعض الحالات يحضر الخاتن معه زوجين لا ينجبان إلى حفل الختان دون إعلام أهل الطفل بذلك. ممّا يسبّب حرجاً.

إيليّا الغائب الحاضر

لإجراء عمليّة الختان يؤتى بكرسيين بجانب بعضهما أو كرسي مع مقعدين: واحد للسندك الذي سيحمل الطفل خلال الختان والآخر للنبي إيليّا. ولذا يدعى هذا الكرسي «كرسي النبي إيليّا». وقد يكون هذا الكرسي مزيّن بعبارة مثل «هذا كرسي النبي إيليّا، يذكره الله بالخير». وقد يكون كرسي عادي. وهو تقليد يهودي نجده في كتب المدراش من القرن التاسع الميلادي مبني على اعتقاد أن النبي إيليّا موجود في كل ختان.

هذا الاعتقاد ذو علاقة بسفر الملوك الأوّل (الفصل 19) الذي يحكي كيف أن إيليّا اشتكى لله ترك اليهود للختان. تقول الرواية إن الله غضب على إيليّا قائلاً: «أحلف بحياتي أنك ستكون حاضراً في كل مكان يضع أبنائي هذه العلامة المقدّسة على جسدهم. والفم الذي ادّعى أن إسرائيل قد نسي هذا العهد سيشهد في المستقبل أن إسرائيل قد أتمّه». وتضيف الرواية إنه عندما يأخذ رجل ابنه للختان، فإن الله يقول

لحاشيته: «أنظروا ماذا يفعل ابني في العالم». حينذاك يُدعى إيليّا فيطير ليحضر الختان ثم يصعد ويقدّم شهادة عن الختان لله. ونقرأ في سفر النبي ملاخي: «هاءنذا مرسل رسولي فيعد الطريق أمامي، ويأتي فجأة إلى هيكله السيّد الذي تلتمسونه، وملاك العهد الذي ترتضون به. ها إنه آت. قال رب القوات» (ملاخي 3:1). ويظن اليهود أن عبارة «ملاك العهد» تعني النبي إيليّا الذي يكون سابقاً لمجيء السيّد المسيح. وكلمة العهد تعني الختان. وإيليّا يعتبر المحامي الخاص للأطفال. وهذا تلميح إلى ما ورد في سفر الملوك الأوّل (17:17-24) الذي يحكي كيف أعاد إيليّا الحياة بأمر الرب إلى طفل أرملة مات في حضرته.

ج) تنفيذ الختان

الإعداد الروحي والمادّي للختان

الختان في اعتقاد اليهود هو أمر إلهي وعلامة عهد بين الله وبينهم. لذا فهو لا يقتصر على عمليّة جراحيّة، بل تصاحبه استعدادات روحيّة دخلت فيها عدّة عادات وأساطير.

هناك اعتقاد سائد بين اليهود بوجود أرواح شرّيرة أهمّها زوجة آدم الأولى والتي يطلقون عليها اسم «ليليت». وهذه الأرواح تحوم حول الإنسان لتطيح به. وهي تحاول إضاعة مني الرجل وخنق الأطفال الذكور خلال الأيّام الثمانية الأولى حتى ختانهم، والأطفال الإناث خلال العشرين يوماً الأولى. فيكون الختان أسلوباً لتخليص الطفل من شرور تلك الأرواح التي تختفي أمام منظر الدم. ويقيم اليهود في الأيّام السابقة للختان سهرات حول الطفل لحمايته من تلك الأرواح يتم فيها قراءة الكتب المقدّسة وإقامة الصلوات. وهناك أهمّية خاصّة لليلة السابقة للختان لأنهم يعتقدون أن تلك الأرواح تحاول منع الطفل من الختان الذي به ينجو من الجحيم. ويطلق اليهود الألمان على هذه الليلة اسم «ليلة اليقظة». وهم يستعملون لنفس الهدف الطلاسم. ومنهم من ينصب مائدة عليها مأكولات حتى تلتهي بها الأرواح وتبعد عن الطفل. ويهود اليمن لا يتركون الطفل والأم وحدهما في الليلة السابقة للختان ويحرقون البخور داخل الغرفة حماية من الأرواح الشرّيرة.

ويحاول اليهود إحاطة الختان بمظاهر البهجة وذلك عملاً بقول التوراة: «هذا إلهي فيه اعجب، إله أبي فيه أشيد» (الخروج 2:15). وهذا الابتهاج يعبّر عنه في عدّة الختان وثياب الطفل والوجبة التي تعد لذلك. وتضاء في حفلة الختان الشموع. ويرى البعض أن ذلك إشارة لنص التوراة: «إن الوصيّة مصباح والتعليم نور» (الأمثال 23:6) أو رمز الابتهاج، أو علامة لإشعار المارّة بأنه في ذاك البيت يُعد لإجراء الختان في زمن

كان الختان ممنوعاً فيتم بالسرّية. ومنهم من يضيء ثلاث عشرة شمعة بعدد المرّات التي ذُكرت فيها كلمة ختان في الفصل 17 من سفر التكوين، أو إشارة إلى أولاد يعقوب الاثني عشر يضاف إليهم الطفل. ومنهم من يرى أن الغاية من تلك الشموع إبعاد الأرواح الشرّيرة عن الطفل.

والخاتن اليهودي يشارك في الاستعداد الروحي والمادّي للختان. يقول كتاب يهودي عن الختان أن على الخاتن أن يعتبر نفسه وسيطاً بين الله والعائلة لتنفيذ وصيّة إلهيّة. فعليه أن يلتقي مع الأهل لإفهامهم معنى الختان وإعدادهم روحيّاً لهذا الحدث ويُحَضِّر معهم النص الذي سوف يقرأه في تلك المناسبة، ويغتنم مناسبة الختان لتثقيف العائلة والمدعوّين دينيّاً حتى يثبّت فيهم المبادئ اليهوديّة.

مراحل الختان

يقول سفر التكوين: «تختتون في لحم غلفتكم» (11:17) ولكن لا يوضّح مقدار الجلدة التي يجب قطعها.

ويعتقد عالم يهودي أن العهد بين الله وإبراهيم لم يكن عهد ختان (بريت ميلا) بل عهد دم الختان (بريت دم ميلا). ثم تحولت تدريجياً إلى عملية جراحية تبتر فيها الجلدة التي تزيد عن الحشفة. وإذ حاول بعض اليهود عبر التاريخ مد جلد الذكر حتى يغطي الحشفة، تشدّد رجال الدين اليهود في ضرورة إبقاء علامة الختان ظاهرة. ونجد هذا التشدّد واضحاً في المشنا التي تعتبر الختان باطلاً إذا بقيت قطعة من لحم الغلفة تغطي الجزء الأكبر من الحشفة. وهذا يعني بأنه يجب إعادة عمليّة الختان مرّة ثانية. فقد أضيف حوالي عام 140 بعد المسيح إلى القطع سلخ بطانة الغلفة بظفر حاد لجعل عمليّة إخفاء علامة الختان بمد الجلد أكثر صعوبة. ثم أضيفت مرحلة المص ويطلق عليها اسم «مزيزا» يضع خلالها الخاتن في فمه شيئاً من الخمر ثم يحتوي بفمه الجزء الذي أُجرِيَت فيه الجراحة ويمصّه ثم يمج مزيج الخمر والدم في وعاء معد لذلك ويُكرّر المص عدّة مرّات.

الحاخام يوسف دافيد فايزبورج يمص القضيب المختون
المصدر: جيروزاليم بوست، 5 نوفمبر 1976
http://www.sexuallymutilatedchild.org/mohel.htm

وكان سابقاً يُظن أن عمليّة المص هذه تساعد على الشفاء. ولكنّه تبيّن أن هذه العمليّة سبب تفشّي أمراض شتى كالزهري والدفتيريا التي تنتقل جراثيمها من فم الخاتن إلى المختون وقد يكون فيه حتفه. وقد حظرت الجمعيّة الطبّية بباريس في عام 1843 هذه العمليّة ممّا أدّى إلى معارضة شديدة من قِبَل الخاتنين. وما زال كثير من الخاتنين في الأوساط التقليديّة حتى يومنا هذا يمصّون الدم بفمهم. ويُقترح عليهم تفادي مثل هذا التصرّف أو على الأقل أن ينظفوا فمهم بالكحول قَبل ذلك. وقد أوجد بعضهم حلاً وسطاً باستعمال شافطة من الزجاج يثبّت طرفها على الذكر ويقوم الخاتن بشفط الدم من الطرف الآخر إمّا بفمه أو بواسطة آلة مطاطيّة. وهناك من يستعمل فقط قطعة من القطن لمص الدم. وعند اليهود المجدّدين لا توجد شروط خاصّة لهذه العمليّة وكل خاتن يقوم بها كما يشاء. ويرى طبيب خاتن أرثوذكسي أمريكي أنه يجب النظر إلى عمليّة المص بالفم نظرة احترام لأن الكتب اليهوديّة القديمة تتكلم عنها بصورة إيجابيّة جدّاً كجزء من عمليّة الختان وكوسيلة للوقاية من الأمراض. وهذا يبيّن مدى تزمّت الأوساط الدينيّة وابتعادها عن منطق العقل.

مصير الغلفة

في بعض الأوساط اليهوديّة يجفف الخاتن غلف الأطفال الذين ختنهم ويحتفظ بها حتى مماته فتقبر معه لتؤمّن خلاصه الأبدي وتبعد عنه الشياطين. وهناك اعتقاد أن العفن والدود لا يمس فم الخاتن. وعند يهود منطقة طرابلس في ليبيا تضع الغلفة في بيضة تشربها امرأة عاقر تيمناً بها. كما أن بعضهم يأخذ تلك الغلفة ويضعها في فم طفل لم يختن بعد لكي تبعد عنه الأرواح الشرّيرة. ومنهم من يقوم بحرق الغلفة معتبرين أنها قرباناً لله. وحرق القرابين عادة معروفة في التوراة. ويكفي هنا ذكر عزم إبراهيم ذبح ابنه وحرقه بأمر من الله قبل أن يُستبدل الابن بكبش. وسوف نرى في الجدل الاجتماعي أن الغلفة أصبحت في أيّامنا سلعة تجاريّة تباع وتشترى. فتدخل في مستحضرات التجميل والاختبارات الطبّية أو توسّع فتستعمل لترقيع الحروق.

د) الانتقال من الطقس الدموي إلى الطقس غير الدموي

عبثاً نبحث في الكتب المقدّسة اليهوديّة عن طقس ديني واحتفالات ترافق عمليّة الختان. والطقس الذي بين أيدينا اليوم وضعه رجال الدين اليهود بعد القرن الأوّل. وهو خليط من رموز وصلوات تراكمت عبر العصور ممّا جعل من الصعب فهمها، حسب اعتراف الكتاب اليهود أنفسهم. وهذا الطقس يتم باللغة العبريّة التي تخفى على كثير من اليهود في عصرنا. إلاّ أن بعض الكتب حول الختان تضم الطقس الديني بالعبريّة مع «ترجمة لمعانيه». ويتمسك اليهود بهذا الطقس كشرط لصحة الختان. فمن دونه يجب إنزال نقطة دم من حشفة المختون حتى يعتبر مختوناً. وتتم خلال هذا الطقس المراحل الثلاث للختان (القطع والسلخ والمص) ويعطى المختون اسماً عبرياً.

ويرى معارضو الختان فيه عملية دموية همجية ولكنهم يعترفون بأنه من غير الممكن حذفه بالكامل بسبب مظاهره الإيجابية مثل الاجتماع العائلي والاحتفال وتبادل الهدايا والشعور بوحدة المصير والتاريخ. ولذا فهم يبقون على الطقس وتوابعه الاجتماعية دون البتر وبدلاً من قراءة الفصل السابع عشر من سفر التكوين الذي يتضمن أمر القطع يقرأون فقرة من الفصل الثاني والعشرين من هذا السفر تقول: «وربط إبراهيم ابنه إسحاق وجعله على المذبح فوق الحطب ومد إبراهيم يده فأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء قائلاً: إبراهيم! قال: هاءنذا. قال: لا تمد يدك إلى الصبي ولا تفعل به شيئاً» (التكوين 11:22). ويعطى المختون اسماً عبرياً. وهناك من يقوم ببتر جزرة بدلاً من بتر الغلفة.

هذا وترفض الأوساط الدينيّة اليهوديّة هذا الطقس البديل. ولكن مؤيّدوه يردّون بأن 80% من عمليّات الختان التي تجرى لليهود في الولايات المتحدة لا تفي بشروط الختان الديني إذ إن كثيراً من اليهود يختنون في المستشفى وليس من قِبَل الخاتن. ويضيفون أن المهم في الختان هو المعنى وليس عمليّة الختان بالذات. وطقس الختان الرمزي أكثر مساواة إذ من الممكن أن يجرى على البنات أيضاً بعكس الختان التقليدي الدموي الذي يجرى فقط على الأولاد.

5) ختان الإناث عند اليهود

أ) ختان الإناث في الشرق الأوسط قديماً

هناك إشارات بأن المصريّين كانوا يمارسون ختان الإناث. وحتى يومنا هذا ما زال يطلق على ختان الإناث في السودان اصطلاح الخفاض الفرعوني. ولكن لا توجد نقوش واضحة لختان الإناث على جدران المعابد والمقابر. ويقول العلماء إن ختان الفتاة لدى المصريّين القدماء كان يتم بإزالة البظر والشفرين الصغيرين. وهناك برديّة كتبها باليونانيّة كاهن مصري يرجع تاريخها إلى عام 163 قَبل المسيح جاء فيها ذكر لختان الإناث. وتتضمّن البرديّة شكوى قدّمها شحاذ معتزل وقع ضحيّة احتيال. فقد أودعت عنده فتاة مبلغ 1.300 درهم. وجاءت أم الفتاة وطالبته بالوديعة لأن ابنتها بلغت عمر يتم فيه ختانها وبحاجة لملابس ومهر لزواج محتمل. وقد وعدته بأنها سوف تعيد المبلغ له إذا لم تجرِ للفتاة عمليّة الختان. وقد نكثت الأم بوعدها فطالبت الفتاة بوديعتها.

ويقول «سترابو» الذي زار مصر عامي 25-23 قَبل المسيح بأن ختان الذكور والإناث كان يمارس على السواء عند المصريّين واليهود. وفي مكان آخر، يعيد علينا القول إن عند اليهود عادة يحرسون عليها جدّاً وهي عادة ختان الإناث، موضّحاً بأنه يتم في هذه العمليّة قطع الشفرين الصغيرين.

ويؤكد المؤلف اليهودي «فيلون» (توفى عام 54) أن المصريّين كانوا يمارسون الختان. فيختنون كل من الذكر والأنثى عندما يبلغون سن الرابعة عشر، أي عندما يبدأ «الخطيب» بالإمناء و «الخطيبة» بالعادة الشهريّة. ويضيف أن الله لم يفرض على اليهود ختان الإناث مكتفياً بختان الذكور لأن شهوة الرجل أكبر من شهوة المرأة والقصد من الختان هو إضعاف تلك الشهوة.

وسوف نعود لعادة ختان الإناث عند المصريين في العصور اللاحقة عندما سنتكلم عن ختان الإناث عند الأقباط.

ب) ممارسة اليهود لختان الإناث وإنكارهم ذلك

لا يوجد أي ذكر في الكتب المقدّسة اليهوديّة لختان الإناث. ولكن هل مارس اليهود ختان الإناث؟ هذا ما يؤكد عليه سترابو كما ذكرنا أعلاه. بينما يظهر أن فيلون ينفي ذلك. ولكن تبين الشواهد بأنهم كانوا يختنون الإناث.

هناك أسطورة يتناقلها الكتاب العرب عن اليهود تقول بأن سارة ختنت هاجر. وسوف نعود لهذه الأسطورة لاحقاً.

واليهود الفلاشة من أصل حبشي يمارسون حتى يومنا هذا ختان الإناث. وقد نقل عنهم الرحّالة الاسكتلندي «جيمس بروس» في القرن الثامن عشر قولهم بأن ختان الإناث كان منتشراً في القدس على زمن الملك سليمان وأنهم كانوا يمارسونه هناك قَبل مجيئهم إلى الحبشة. ويذكر هذا الرحّالة أن المبشّرين الكاثوليك قد منعوا ختان الإناث في مصر بين أتباعهم لاعتقادهم أنها عادة يهوديّة. ولنا عودة إلى هذا الحدث في القسم القادم.

وكتب «ريتشارد بيرتون» في القرن الماضي بأن ختان الإناث كان جارياً بين اليهود الألمان حتى أيّام «رابي جيرشون» (توفى عام 1028) الذي انتقده معتبراً ذلك عملاً مخزياً. وقد أضاف «بيرتون» بأن تلك العادة ما زالت سارية في بعض القبائل اليهوديّة في زمنه.

من جهة أخرى شارك الأطبّاء اليهود مع غيرهم من الأطبّاء الغربيّين في بريطانيا والولايات المتحدة في الدعاية لختان الإناث وممارسته بداية من القرن التاسع عشر، خاصّة تحت شعار مكافحة العادة السرّية التي كان الفكر اليهودي أحد دعائمها كما سنرى في الجدل الطبي. وقد تعرّفت شخصياً على سيّدة أستراليّة عمرها 23 سنة تم ختانها من قِبَل خاتن يهودي عندما كان عمرها 12 سنة بعدما اكتشف والدها، وهو طبيب يهودي، أنها تمارس العادة السرّية.

إلاّ أن اليهود لا يقبلون القول بأن طائفتهم تمارس ختان الإناث معتبرين مثل هذا القول إساءة لهم. وقد حاول أساتذة الجامعات نفي تلك العادة عنهم. فمثلاً كتب أستاذ قانون إسرائيلي: «إن اليهوديّة لم تمارس أبداً ختان الإناث». وواضح أن هذا الأستاذ يتلاعب

بالكلام. صحيح أنه ليس هناك أي ذكر له في التوراة. ولكن ليس كل ما يمارسه اليهود هو في التوراة. فعلى سبيل المثال لا تذكر التوراة سلخ القضيب (المرحلة الثانية من الختان) أو مص القضيب (المرحلة الثالثة من الختان) ولكن اليهود يمارسونهما رغم ذلك. وعلى فرض أن اليهود الفلاشة قد أخذوا ختان الإناث عن الشعوب التي يعيشون معها في الحبشة إلاّ أنّه يمكن القول أيضاً أن اليهود أخذوا ختان الذكور عن المصريين ثم تم السن عليه في التوراة لاحقاً.

ج) إشراك الإناث في طقس الختان الرمزي

وإذا تركنا جانباً محاولات اليهود اليائسة إنكار ممارستهم ختان الإناث في الماضي والحاضر، نجد أن معارضي ختان الذكور قد استبدلوا طقس الختان الدموي الذي يجري على الذكور بطقس ختان غير دموي لا بتر فيه كما رأينا في النقطة السابقة.

ولتفادي الاتهام بعدم المساواة، يقترح أيضاً مؤيّدو ختان الذكور الدموي وغير الدموي إقامة مراسيم دينيّة للإناث أسوة بالمراسيم الدينيّة التي تقام للذكور، ولكن دون أن يتم قطع أعضائها الجنسيّة. وقد برّروا اقتراحهم بالرجوع إلى التوراة. فالفصل السابع عشر من سفر التكوين الذي سن الختان للذكور يذكر أن الله غيّر اسم أبرام إلى إبراهيم (التكوين 5:17) واسم ساراي إلى سارة (التكوين 15:17) ولكن دون أن يسن الختان عليها. وعليه فإن بعض اليهود يقترحون أن يشارك الخاتن في اليوم الثامن من ميلاد الطفلة بمراسيم دينيّة يتم خلالها تسمية الطفلة وإدخالها العهد واعتبار دم حيضها كبديل لدم الطفل الذي يسال عند الختان. ومنهم من يقترح تغطيس البنت كلياً أو جزئيّاً في الماء كعلامة ميلاد جديد وذلك رجوعاً إلى نص من التلمود فُسِّر بأن سارة قد غسلت نفسها بعد حصولها على اسمها الجديد. وهناك أيضاً من يقترح أن تغسل أرجل البنت تعبيراً عمّا فعله إبراهيم مع ضيوفه عندما غسل أرجلهم (التكوين 4:18). ومنهم من يقترح أن يوضع حوض في الوسط ويطلب من الحضور سكب كاس من الماء في هذا الحوض وغسل أرجل الطفلة فيه بينما يرتل الجمع كلام النبي أشعيا: «وتستقون المياه من ينابيع الخلاص مبتهجين» (أشعيا 13:12). وفي هذه المناسبة، يمكن لأهل الطفلة أن يذكروا للجمع معنى الاسم العبري الذي أعطي للطفلة كما هو الأمر عند ختان الطفل.

الفصل الثاني
الختان في الفكر الديني المسيحي

1) الختان في نصوص الكتب المقدّسة المسيحيّة

أ) موقف المسيح من الختان

لقد انفرد لوقا بذكر خبر ختان يوحنّا المعمدان - النبي يحيى حسب القرآن (59:1) وختان المسيح - النبي عيسى حسب القرآن (21:2) كما سنّت عليه التوراة. وهذا الخبر لم يأتِ ذكره في الأناجيل الثلاثة الأخرى.

لا نجد موقفاً واضحاً للمسيح حول الختان ولكن يمكن استشفاف موقفه من خلال نظرته للشريعة اليهوديّة. فهو يقول: «ولا تظنّوا إني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء: ما جئت لأبطل بل لأكمّل» (متى 17:5). ورغم ذلك فإنه قد ألغى شريعة العين بالعين والسن بالسن (متى 38:5-39) ورفض تطبيق حد الرجم على الزانية (يوحنّا 3:8-11). ولم يحترم حرمة السبت (متى 1:12-2) معتبراً أن الله يريد «الرحمة لا الذبيحة» (متى 7:12)، مردّداً بذلك مقولة النبي هوشع (6:6) ومعتبراً أن «ابن الإنسان سيّد السبت» (متى 8:12). وهدم نظام التعالي الذي رافق الختان. فبدأ بالتمرّد على رجال الدين الذين وصفهم بـ«العميان الجهّال» (متى 17:23)، طالباً من تلاميذه: «لا تدَعوا أحداً يدعوكم رابي [...]. وليكن أكبركم خادماً لكم» (متى 8:23-11). وأكل مع الخطاة (متى 10:9-11)، ودخل بيت زكا العشّار (لوقا 7:19)، وتحدّث مع السامريّة (يوحنّا 9:4)، ومدح شكر الأجنبي له (لوقا 18:17)، وعظم إيمان المرأة الكنعانيّة وإيمان قائد المائة الروماني (متى 10:8؛ 28:15). وقد وصل به الأمر إلى سن محبّة الأعداء (متى 44:5). كما أنه غيَّر مفهوم الطهارة في الطعام: «ما من شيء خارج من الإنسان إذا دخل الإنسان ينجّسه، ولكن ما يخرج من الإنسان هو الذي ينجّسه» (مرقس 15:7)، أي ما يقوله وما يسيء به إلى قريبه (مرقص 20:7-22). وعلق مرقس على هذا القول: «وفي قوله ذلك جعل الأطعمة كلها طاهرة» (مرقس 19:7). فليست النجاسة، حسب قوله، ما يدخل الفم بل ما يخرج منه وينبعث من القلب، أي «المقاصد السيّئة والقتل والزنى والفحش والسرقة وشهادة الزور والشتائم. تلك هي الأشياء التي تنجّس الإنسان. أمّا الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجّس الإنسان» (متى 15: 18-20).

هذا الموقف من الشريعة اليهوديّة ورجال الدين اليهود قد يساعدنا في تفسير رد المسيح على من اعترضوا على إبرائه مريضاً يوم السبت بأن اليهود تختن يوم السبت، وطلبه منهم أن يكون حُكمهم ليس بحسب الظاهر (يوحنّا 7:21-22). فالظاهر لا يمكن أن يرتكز عليه للحُكم على أحد. ونحن نجد نفس التعبير لرفض الختان في أعمال الرسل على لسان بطرس عندما دعي إلى بيت قرنيليوس (أعمال الرسل 10:34-35) وفي إحدى رسائل بولس (رومية 2:28).

هذا ونجد قولاً للسيّد المسيح في إنجيل توما يؤكد على رفض المسيح للختان: «فسأله تلاميذه: هل الختان مفيد أم لا؟ فأجابهم: لو كان مفيداً لكان خلقهم أباهم مختونين من أمّهاتهم. ولكن الختان الحقيقي الذي فيه كل الفائدة هو ختان الروح». وإنجيل توما هذا مكتوب باللغة القبطيّة تم اكتشافه في نجع حمادي (مصر). وهو أحد الأناجيل التي لم تعترف بها الكنيسة الرسميّة. ويعتبره بعض الباحثين أحد أصول الأناجيل الحاليّة والبعض الآخر يعتبره من وضع تيّار ديني مسيحي منشق.

وإذا استثنينا ما جاء في إنجيل توما من رفض قاطع للختان، يمكننا القول إن المسيح لم يتعرّض للختان مباشرة إذ لم يطرح الأمر عليه. ولكنّه مهّد الطريق لرسله لكي يلغوا الختان عندما أخذوا بتبشير غير اليهود حسب وصيته لهم (متى 19:28). فعالميّة تعاليم المسيح لم تكن تتماشى مع قبليّة شريعة موسى ومع تسلط رجال الدين اليهود في مواجهة مجتمع تغلغلت فيه الفلسفة اليونانيّة والثقافة الرومانيّة المتوجّهة لخرط جميع الشعوب في بوتقة واحدة. وهذا ما سنراه في النقطة اللاحقة.

ب) موقف رسل المسيح من الختان

نشر رسل المسيح تعاليمه بين اليهود وبين الوثنيّين. وقد أطلق أتباع المسيح من اليهود على أنفسهم لقب «النصارى» نسبة إلى المسيح الذي كان يلقّب بالناصري لأنه من مدينة الناصرة. وهم رغم إتباعهم المسيح يحافظون أيضاً على شرائع موسى، خاصّة شريعة الختان. أمّا أتباع المسيح من الوثنيّين، فقد أطلقوا على أنفسهم لقب «المسيحيّين». وهذه الطائفة ترفض الختان، خاصّة أن القوانين الرومانيّة كانت تعاقب غير اليهود على ممارسة هذه العادة كما سنرى في الجزء القانوني. وقد بقيت الطائفتان منفصلتين ومتخاصمتين حتى تغلبت الطائفة المسيحيّة بتحوّل الإمبراطوريّة الرومانيّة من الوثنيّة إلى المسيحيّة في القرن الرابع.

وقد اصطدم رسل المسيح بموضوع الختان في بداية تبشيرهم كما يبيّنه لنا سفر أعمال الرسل من خلال حدثين:

الحدث الأول (الفصلان 10 و 11) يتعلق بتلبية دعوة وجّهها إلى بطرس رجل روماني، وثني، اسمه قرنيليوس، قائد مائة من الكتيبة الإيطاليّة المتمركزة في مدينة قيصريّة في فلسطين، فعمّده هو وأهل بيته. ولكن أتباع المسيح من اليهود عاتبوا بطرس لأنه دخل في بيت أناس غلف وأكل معهم رغم أنه يعلم بأنه «حرام على اليهودي أن يعاشر أجنبياً أو يدخل منزله». وقد برّر بطرس قبوله دعوة قرنيليوس بسرد رؤيا رآها قَبل وصول مبعوثي قرنيليوس إليه. فقد رأى وعاءاً هابطاً كسماط عظيم يتدلى من السماء بأطرافه الأربعة فيه من جميع أنواع الحيوانات وقد سمع صوتاً يقول له: قم يا بطرس فاذبح وكل. فأجاب: حاش لي يا رب، لم يدخل فمي قط نجس أو دنس. فجاء رد من السماء: ما طهّره الله لا تنجسه أنت. وقد تكرّر هذا الأمر ثلاث مرّات. ثم أضاف بطرس أن ذهابه إلى قرنيليوس كان بأمر من الروح القدس، وأن من دعاه قد نال موهبة الروح القدس، وأنه، أي بطرس، قد سأل مرافقيه من المختونين: أيستطيع أحد أن يمنع هؤلاء من ماء المعموديّة وقد نالوا الروح القدس مثلنا؟ فلم يعارضوه. وقد تعلم بطرس من هذا الحدث مبدأين يختلفان تماماً عن المبادئ اليهودية التي نشأ عليها:

- «قد بيّن الله لي أنه لا ينبغي أن أدعو أحداً من الناس نجساً أو دنساً» (28:10)
- «أدركت حقاً أن الله لا يُراعي ظاهر الناس. فمن إتقاه من أيّة أمّة كانت وعمل البر كان عنده مرضيّاً» (34:10-35).

ويذكر سفر أعمال الرسل أن قرنيليوس قد اعتمد دون أيّة إشارة إلى ختانه. ومن فحوى الكلام يمكن أن نستنتج بأنه لم يختتن، خصوصاً أنه قائد روماني تعاقب قوانين دولته ختان غير اليهود. ويضيف سفر أعمال الرسل أن معارضي بطرس، لمّا سمعوا حججه، «هدأوا ومجّدوا الله وقالوا: قد وهب الله إذا للوثنيّين أيضاً التوبة التي تؤدّي إلى الحياة» (18:11). ولكن هدوءهم لم يدم طويلاً.

الحدث الثاني (الفصل 15) يدور حول «خلاف وجدال شديد» دار بين «النصارى» و «المسيحيّين». فقد ذهب «أناس من اليهوديّة» إلى «المسيحيّين» من أصل وثني في «إنطاكية وسوريّة وقيليقية» يقولون لهم: «إذا لم تختتنوا على سُنّة موسى، لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص». وعلى أثر هذا الخلاف اجتمع بولس وبرنابا مع الرسل والشيوخ في أورشليم وتباحثوا في الأمر. فانقسموا فيما بينهم. فقام «النصارى» من مذهب الفرّيسيين وقالوا: «يجب ختن الوثنيّين وتوصيتهم بالحفاظ على شريعة موسى». وأمّا بطرس، فقد اقترح عدم فرض الختان على الوثنيّين لأن الله قد «طهّر قلوبهم بالإيمان». وتساءل: «لماذا تجرّبون الله الآن بأن تجعلوا على أعناق التلاميذ نيراً لم يقوَ آباؤنا ولا نحن قوينا على حمله؟» وكان الحل النهائي للقدّيس يعقوب الذي قرّر ما يلي: «إني أرى ألاّ يضيّق على الذين يهتدون إلى الله من الوثنيّين، بل يكتب

إليهم أن يجتنبوا نجاسة الأصنام والزنى والميّتة والدم». لم يعد إذاً هناك حاجة للختان. وقد تم إبلاغ القرار إلى الاخوة المهتدين من الوثنيّين في إنطاكية وسوريّة وقيليقية.

ورغم قرار الرسل هذا، فإن «النصارى» بقوا متمسّكين بضرورة الختان لليهودي الذي يتبع المسيح، معتبرين قرار عدم فرض الختان خاص بالوثنيّين الذين يدخلون الدين الجديد. وقد تقاسم الرسل مُهمّة التبشير: فبولس وبرنابا توجّها إلى تبشير الوثنيّين، أمّا يعقوب وبطرس ويوحنّا، فقد قاموا بتبشير اليهود. وكان على كل مجموعة اتخاذ الحيطة لتفادي تشكيك الناس خارج محيط تبشيره. فالفصل 61 من سفر أعمال الرسل يبيّن لنا كيف أن بولس قام بختان طموتاوس وهو ابن يهوديّة مؤمنة من أب يوناني قبل أن يستصحبه معه. كما يبيّن لنا الفصل 21 أن «النصارى» من أصل يهودي لم يكونوا راضين عن بولس بسبب إشاعات تقول إنه يوصي اليهود المنتشرين بين الوثنيّين بعدم ختان أولادهم. فعند مجيئه إلى أورشليم نصحه الشيوخ بأن يتظاهر أمامهم باحترام الشريعة: «فينا أربع رجال عليهم نذر، فسِر بهم واطهّر معهم، وانفق عليهم ليحلقوا رؤوسهم، فيعرف جميع الناس أن ما يشاع عنك باطل، في حين انك سالك مثلهم طريق الحفاظ على الشريعة». ولكن الأمر لم يكن سهلاً. فعند زيارة بطرس إلى إنطاكية كان هذا الأخير يؤاكل الوثنيّين هناك. وعندما قدم قوم من أورشليم من عند يعقوب أخذ يتوارى ويتنحّى خوفاً من «أهل الختان». فلامه بولس على فعله هذا لأن ذلك يشكك الجماعة التي يقوم بتبشيرها.

ونتيجة لتقاسم التبشير بين الرسل، لا نجد أي ذكر للختان في رسالة يعقوب ورسالتي بطرس، ورسائل يوحنّا الثلاث ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنّا. بينما نجد فقرات طويلة حول الختان في ست رسائل للقدّيس بولس الذي كان من نصيبه تبشير الوثنيّين الذين لم يفرض عليهم الختان. ويمكننا هنا أن نختصر فكر بولس في الفقرات الأربع الآتية دون دخول في الجدل اللاهوتي العويص التي تحتويها بعض فقرات رسائله:

- «ليس اليهودي بما يبدو في الظاهر، ولا الختان بما يبدو في ظاهر الجسد. بل اليهودي هو بما في الباطن، والختان ختان القلب العائد إلى الروح، لا إلى حرف الشريعة» (رومية 2:28-29).
- «ليسر كل واحد في حياته على ما قسم له الرب كما كان عليه إذ دعاه الله. وهذا ما أفرضه في الكنائس كلها. أدعي أحد وهو مختون؟ فلا يحاولن إزالة ختانه. أدعي أحد وهو أغلف؟ فلا يطلبن الختان. ليس الختان بشيء ولا الغلف بشيء. بل الشيء هو حفظ وصايا الله. فليبق كل واحد على الحال التي كان فيها حين دعي» (1 قورنتس 7:17-20).
- «في المسيح يسوع لا قيمة للختان ولا للغلف، وإنّما القيمة للإيمان العامل بالمحبّة» (غلاطية 5:6).
- «في [المسيح] ختنتم ختاناً لم يكن فعل الأيادي، بل بخلع الجسد البشري، وهو ختان المسيح. ذلك أنكم دفنتم معه بالمعموديّة وبها أيضاً أقمتم معه، لأنكم آمنتم بقدرة الله الذي

أقامه من بين الأموات. كنتم أمواتاً أنتم أيضاً بزلاّتكم وغلف أجسادكم فأحياكم الله معه وصفح لنا عن جميع زلاّتنا» (قولُسّي 2:11-13).

هذا ونجد في رسائل بولس هجوماً لاذعاً ضد أتباع المسيح من أصل يهودي (النصارى) الذين كانوا يريدون فرض الختان على أتباع المسيح من أصل وثني (المسيحيّين): «احذروا الكلاب. احذروا العملة الأشرار. احذروا ذوي الختان» (فيلبّي 2:3). «هناك كثير من العصاة الثرثارين المخادعين، وخصوصاً من المختونين. فعليك أن تكم أفواههم لأنهم يهدمون أسراً بجملتها، إذ يعلمون ما لا يجوز تعليمه، من أجل مكسب خسيس[...] فلذلك وبّخهم بشدّة ليكونوا أصحّاء الإيمان ولا يُعنوا بخرافات يهوديّة ووصايا قوم يعرضون عن الحق» (طيطس 1:10-14). «ليت الذين يثيرون الاضطرابات بينكم يجبّون أنفسهم» (غلاطية 5:12). وهذه الآية الأخيرة تقارن بين من يدعون للختان وبين كهنة الأوثان الذين كانوا يخصون أنفسهم تعبّداً لآلهتهم.

وباختصار شديد، يمكننا أن نقول إن أتباع المسيح انقسموا من اللحظة الأولى إلى قسمين: هناك من كان يعتبر الختان فريضة واجبة، بينما الآخرون كانوا يعتبرون الختان مجرّد إباحة، لا يقدّم ولا يؤخّر. ولم يكن يجمع بينهم إلاّ المعموديّة التي كانت تمارس ليس فقط على الرجال كما في الختان، بل أيضاً على النساء. وقد تم تدريجيّاً التنصّل من فريضة الختان. وإن كان الهدف الأوّل هو اجتذاب الوثنيّين إلى المسيحيّة إلاّ أن هذا الهدف أدّى إلى تبنّي قاعدة أخلاقيّة ذات أهمّية كبرى وهي عدم الحُكم على الإنسان من خلال الظاهر. فالمهم ليس «ختان الجسد»، بل «ختان القلب والإيمان العامل بالمحبّة». وعليه فقد تم رفض اتهام الآخرين بالنجاسة أو الترفع عليهم لأنهم غير مختونين. وهذا هو التيّار الذي انتصر في النهاية عند المسيحيّين رغم أن بعضهم ما زال يمارسه كما سنرى لاحقاً.

ولكن علينا أن نوضّح أن الكتب المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة لم تعالج موضوع الختان من منظور حرمة جسد الإنسان كما نفعل نحن في عصرنا. فنحن اليوم نعتبر أنه لا يحق المساس بجسد الإنسان إلاّ بإذنه أو بإذن وليّه في حالة الضرورة الطبّية. وخارج هذا الإطار الضيّق، نعتبر التعدّي على سلامة الجسد حراماً وجرماً.

2) موقف آباء الكنيسة واللاهوتيّين من الختان

أ) انتصار التيّار الرافض للختان

ذكرنا سابقاً كيف أن أتباع المسيح قد انقسموا فيما بينهم إلى «نصارى» من أصل يهودي و «مسيحيّين» من أصل وثني.

كانت طائفة «النصارى» تتكلم اللغة السريانيّة وتحافظ على نواميس موسى كممارسة الختان وعدم أكل لحم الخنزير، وكان لها كنائسها الخاصّة بها وكهنتها. وكان اليهود يلاحقون هذه الطائفة ويطلقون على أتباعها لقب «مينيم»، أي الهراطقة، أو المرتدّين. وكان هناك أيضاً تناحر بين طائفة «النصارى» وطائفة «المسيحيّين» حتى داخل مدينة القدس. وكانت طائفة «النصارى» تبغض القدّيس بولس، فلا تعترف به كرسول ولا تقبل رسائله كجزء من الكتاب المقدّس لرفضه الانصياع لنواميس موسى ورفضه للختان. ولطائفة «النصارى» أناجيل خاصّة بها رفضتها طائفة «المسيحيّين» واعتبرتها نصوصاً محرّفة. وقد تم اكتشاف بعض تلك النصوص في مصر.

ورغم اندماج طائفة «النصارى» بطائفة «المسيحيّين» في نهاية القرن الرابع الميلادي، استمر الجدل حول الختان عبر العصور. فقد حاول دائماً اليهود الذين تحوّلوا إلى المسيحيّة لاحقاً في الإبقاء على عادة الختان. ويبيّن لنا مجمع اللاتران الرابع المنعقد عام 1215 أن بعض اليهود قد أصبحوا مسيحيّين ولكن دون أن يتخلوا عن عاداتهم اليهوديّة كالختان. «فهم، حسب قرارات هذا المجمع، لم يخلعوا الإنسان العتيق ليلبسوا الإنسان الجديد» كما يقول القدّيس بولس في رسالته إلى أهل قولسي (9:3). وهم بذلك يعكرون صفاء الدين المسيحي. وبما أنه مكتوب: «ويل للخاطئ الذي يمشي في طريقين» (ابن سيراخ 12:2) وكذلك: «لا تلبس ثوباً مختلطاً من صوف وكتان معاً» (تثنية 11:22) فقرّر المجمع بأنه يجب إجبار أولئك اليهود المتحوّلين للمسيحية لكي لا يعودوا إلى شعائرهم القديمة.

هذا ونجد جدلاً متواصلاً حول موضوع الختان في كتابات آباء الكنيسة واللاهوتيّين المسيحيّين عبر العصور. وقد اخترنا ثلاث مصادر يمكن اعتبارها من أهم المصادر عند المسيحيّين: «يوستينوس» و «كيريلوس»، و «توما الأكويني». ولاحقاً سوف نستعرض هذا الجدل الديني في عصرنا بين مسيحيّي مصر ومسيحيّي الولايات المتحدة.

ب) رأي يوستينوس (توفى حوالي عام 165)

القدّيس الشهيد «يوستينوس» فلسطيني المولد، من مدينة نابلس، من عائلة رومانيّة. فهو ينتمي إلى طائفة «المسيحيّين». وهو من أوائل من كتب دفاعاً عن المعتقد المسيحي في مواجهة اليهود وفي مواجهة الدولة الرومانيّة الحاكمة. وقد ألف كتاباً يعرض فيه جدلاً دار بينه وبين يهودي اسمه «تريفون»، احتل فيه الختان مكاناً كبيراً إذ لامه اليهودي في بداية حديثه بأنه غير مختون كما أنه لا يحترم الأوامر الأخرى

الخاصّة بالسبت والقرابين والصيام والطعام. وقد قدّم يوستينوس عدداً من الآراء في ردّه على اليهودي نختصرها في النقاط الآتية:

- إن أشعيا (3:55، 5) وأرميا (31:31-32) تكلما عن عهد جديد. وهذا العهد هو المسيح. فمن بعد مجيء المسيح يجب ختان جديد وهو ختان القلب بالابتعاد عن الفحشاء كما جاء في التوراة: «فاختتنوا غلف قلوبكم، ولا تقسّوا رقابكم بعد اليوم» (تثنية 16:10). والمحافظة على السبت ليس بالبقاء بطالين دون عمل بل بالكف عن السرقة. والمحافظة على الصيام، ليس بالحرمان من الأكل بل بالصوم عن الشرور كما يقول أشعيا (58:1-11).

- الختان ليس ضرورياً للخلاص. ولو كان كذلك، لما كان خلق الله آدم غير مختون، ولما قَبل محرقات هابيل الذي لم يختن، ولا رضي عن أخنوخ الذي رفعه إليه وهو غير مختون. وقد نجَّى الله لوطاً من صدوم، ودخل نوح وأولاده سفينته عند الطوفان ولم يكونوا مختونين. وكذلك الأمر لملكيصادق الذي على صورته أوحى الله لداؤد أنه سيقيم الكاهن الأبدي. ولم يحفظ أي منهم يوم السبت رغم أن الله كان راضياً عنهم جميعاً. كما أن إبراهيم لم يكن مختوناً عندما آمن بالله فرضي الله عنه (التكوين 6:15) ولم يكن في زمن إبراهيم أمر باحترام السبت والأوامر الأخرى الخاصّة بالطعام. فالختان واحترام السبوت وتقديم القرابين والأوامر الخاصّة بالطعام فرضها الله على اليهود لاحقاً بسبب شرورهم وقساوة قلوبهم.

- على اليهودي أن لا يلومه بسبب الغلفة، فالغلفة قد عملها الله، وأن لا يلومه لأنه يشرب مشروباً ساخناً يوم السبت، فالله يقود العالم يوم السبت كغيره من الأيّام. وهذا إشارة إلى أن اليهود لا يستطيعون حتى تسخين أكلهم في يوم السبت.

- الختان والأوامر التوراتيّة الأخرى كالسبت والقرابين التي خصّها الله باليهود بسبب قساوتهم تم إلغاؤها بميلاد المسيح من نسل إبراهيم. فقد بُشِّر به كناموس أبدي وعهد جديد للعالم أجمع. وقد حل محل الختان الجسدي ختان الروح الذي مارسه أخنوخ وأمثاله. وبخلاف الختان الذي يخص فقط الذكور من اليهود، فإن المعموديّة مفتوحة للجميع، للذكور والنساء.

هذا وقد أثار «يوستينوس» موضوع «النصارى» من أصل يهودي الذي كانوا يريدون المحافظة على الختان وأوامر موسى مع إيمانهم بالمسيح. وهو يرى بأنه يحق لهم ذلك على شرط أن لا يفرضوا الختان على الغير كوسيلة للخلاص.

ج) رأي كيريلوس الكبير (توفى عام 444)

شغل القدّيس «كيريلوس» منصب بطريرك الإسكندريّة. ويلقّب بعمود الكنيسة.

يرى «كيريلوس» أن الختان المقصود في التوراة هو ختان الروح، أي الكف عن الآثام، وليس ختان الجسد، أي قطع غلفة الذكر. وهو يعتمد في ذلك على قول بولس: «والختان ختان القلب العائد إلى الروح، لا إلى حرف الشريعة» (رومية 29:2)، وما جاء في سفر النبي أرميا: «اختتموا للرب وأزيلوا غلف قلوبكم يا رجال يهوذا وسكان أورشليم» (4:4). ويضيف كيريلوس: «إن الختان الحقيقي ليس ما يمس الجسد، بل هو في الرغبة بإتمام ما أمر به الله. فاستمع إلى ما يقوله بولس بوضوح: «ليس الختان بشيء ولا الغلف بشيء. بل الشيء هو حفظ وصايا الله» (1 قورنتس 19:7).

ويعتبر «كيريلوس» أن الفهم الحرفي لنصوص التوراة يؤدّي إلى نتائج لا يقبلها العقل. إضافة إلى كونها تعدّي على كمال خلق الله. ففي أحد خطبه عن سفر التكوين، يقول مخاطباً اليهود والنصارى من أصل يهودي:

«إنك تعتبر الختان حسب الجسد عمل مهم وأنه أفضل وسيلة للتعبّد [...]. دعنا إذاً نرى فائدة الختان والفضل الذي يريد المشرّع أن يعود علينا منه. إن ممارسة الختان المؤلمة على أجزاء من الجسم خصّتها الطبيعة بالتناسل، إن لم تكن هناك أسباب واهية جدّاً لتلك الممارسة، هي أمر سخيف، لا بل اتهام لعمل الخالق، كأننا نتهمه بإضافة نواتئ لا فائدة منها إلى مظهر الإنسان. وإن كان الأمر كذلك، فكيف لا يكون هذا حُكم على الحِكمة الإلهيّة بأنها غلطت فيما يليق؟ وقل لي: إذا ما ادّعى أحد أن الطبيعة المعصومة عن الغلط قد غلطت، ألن يقول عنه الجميع بأن ذاك المدّعي قد أصبح مختل العقل؟

إن الله الذي يعلو على كل شيء قد خلق آلاف الأجناس الحيّة التي لا عقل لها. وهي في تكوينها المتجه نحو الكمال لا يوجد فيها شيء عبث وغير كامل [...] فكيف إذاً يمكن لله، وهو المبدع العظيم، والذي يهتم في كل الأمور الصغيرة، أن يغلط في أعز مخلوقاته كلها؟ وبعد أن أدخل في العالم من اعتبره على صورته هل جعله بصورة أقل جمالاً من المخلوقات التي لا عقل لها إذا ما اعتبرنا أن لا عيب في تلك المخلوقات بينما هناك عيب في الإنسان؟»

د) رأي توما الأكويني (توفى عام 1274)

كان «توما الأكويني» راهباً دومينيكاني ويعتبر من أكبر علماء اللاهوت والفلسفة الكاثوليك في العصور الوسطى وما زال يؤثر على الفكر الديني والفلسفي المسيحي في عصرنا.

في كتابه المشهور «الخلاصة اللاهوتيّة»، يورد «توما الأكويني» الاعتراضات التي يمكن توجيهها للختان. هناك أوّلاً صعوبة تقديم سبب مقبول لأوامر التوراة. فالطقوس

الإلهيّة يجب أن لا تشابه ممارسات الوثنيّين كما جاء في التوراة: «لا تصنع هكذا نحو الرب إلهك، فإنها قد صنعت لآلهتها كل قبيحة يكرهها الرب، حتى حرقت بنيها وبناتها بالنار لآلهتها» (تثنية 31:12). كما تذكر التوراة أن كهنة بعل كانوا يسيلون دماءهم: «وخدشوا أنفسهم على حسب عاداتهم بالسيف والرماح حتى سالت دماؤهم عليهم» (1 ملوك 28:18). وهي تمنع تجريح الجسد: «فلا تصنعوا شقوقاً في أبدانكم ولا تحلقوا ما بين عيونكم من أجل ميّت» (تثنية 1:14). وعلى هذا الأساس كيف يمكن تبرير الختان؟

وقد رد «توما الأكويني» على هذه الاعتراضات قائلاً أن الختان تعبير عن الإيمان باله واحد وعلامة دائمة في جسد اليهودي حتى لا ينسى الله. وهو أيضاً وسيلة لإضعاف الشهوة الجنسيّة في العضو التناسلي (وهذا قول مأخوذ عن موسى بن ميمون). وأخيراً هو وسيلة للسخرية من عبدة الأصنام الذين كانوا يكرّمون هذا العضو. ولا يمكن في هذا المجال مقارنة الختان بتجريح كهنة الأصنام أجسادهم الذي ترفضه التوراة.

ويقول توما إن سبب فرض الختان في اليوم الثامن هو لأن الطفل قَبل ذاك الوقت يكون ضعيفاً والتوراة لا تسمح أن يُفصل الحيوان عن أمّه قَبل اليوم الثامن لتقديمه قرباناً لله (الأحبار 27:22). ولم يؤخّر الختان عن ذلك العمر، حتى لا يتهرّب البعض من عمله بسبب الألم وحتى لا يتقاعس الأهل في تعريضهم لهذا الألم بسبب تعاظم حبّهم لطفلهم مع مرور الوقت ومعاشرتهم (وهذا قول مأخوذ أيضاً عن موسى بن ميمون). ويضيف الأكويني أن الختان في اليوم الثامن له معنى رمزي. فهو يرمز إلى أن المسيح سيلغي كل فساد في الأرض في اليوم الثامن، أي في يوم قيامته الذي تم أوّل الأسبوع. وبما أن الفساد يأتي عن طريق الجسد، من خطيئة أبينا الأوّل آدم، فكان لا بد من عمل الختان في عضو التناسل.

ويتساءل «توما الأكويني» إذا كان الختان علامة الإيمان، فلماذا وضعها الله علامة في العضو التناسلي بدلاً من وضعها على رأس الإنسان حيث المقدرة الذهنيّة التي ينبع منها الإيمان. ويرد بأن وضع علامة الختان في العضو التناسلي يشير إلى إيمان إبراهيم أن المسيح سيأتي من نسله، وأن الختان هو دواء ضد الخطيئة الأصليّة التي تتوارث بالتناسل، وأخيراً أن الهدف هو إنقاص الشهوة الجسديّة التي تتمركز خاصّة في الأعضاء التناسليّة بسبب شدّة اللذّة الجنسيّة.

ويورد «توما الأكويني» اعتراضاً على حذف فريضة الختان عند المسيحيّين. فالنبي باروك يقول: «هي كتاب أوامر الله والشريعة القائمة للأبد» (باروك 1:4). وقد أمر

المسيح للأبرص الذي شفاه أن يقرّب «ما أمر به موسى من قربان» (متى 4:8). فيجب لذلك المحافظة على الختان بعد مجيء المسيح.

ويجيب توما على هذا الاعتراض بذكر قول بولس: «فلا يحكم عليكم أحد في المأكول والمشروب أو في الأعياد والأهلة والسبوت. فما هذه إلاّ ظل الأمور المستقبلة» (قولسي 2:16-17). ويرى توما أن الأوامر الأخلاقيّة تدوم أبداً، ولكن الأوامر الخاصّة بالشعائر الخارجيّة فهي تفنى مع تحقيق ما ترمز إليه. فقد قال المسيح في آخر لحظة من حياته قَبل موته: «تم كل شيء» (يوحنّا 30:19). وقد شُق حجاب الهيكل إلى شطرين (متى 51:27). وعندها، انتهت الشعائر اليهوديّة. وقد وعد الله إبراهيم أن يجعل له نسلاً يبارك به كل الأمم، وهذا النسل هو المسيح. فبعد مجيء المسيح تحقّق الوعد ولا حاجة بعد ذلك للختان الذي كان علامة للعهد القديم. وحلت محل علامة العهد القديم علامة العهد الجديد وهي المعموديّة. كما حل الأحد محل السبت، وحل محل عيد فصح اليهود عيد فصح المسيح وقيامته. وإن استمر بعض التلاميذ في ختان المسيحيّين من أصل يهودي في بداية انتشار المسيحيّة، فالهدف منه كان عدم تشكيكهم حتى تبليغ الإنجيل لهم. أمّا وقد بُلغُوا الإنجيل، فلم يعد بعد لفريضة الختان مكان. فمن يمارس الختان لسبب غير صحّي يقترف خطيئة كبيرة لأن ذلك يعني التصميم على الخطأ.

ويورد «توما الأكويني» اعتراضاً آخر. يقول المسيح: «قد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا أنتم أيضاً ما صنعت إليكم» (يوحنّا 15:13). ولكن يقول القدّيس بولس: «إذا اختتنتم، فلن يفيدكم المسيح شيئاً» (غلاطية 5:2). فلماذا ختن المسيح؟ ويرى «توما الأكويني» أن ذلك قد تم لأسباب كثيرة:

- ليثبت أن له جسد حقيقي، وذلك رداً على من كان يرى فيه جسداً غير حقيقي.
- ليؤكد على الختان الذي أمر به الله سابقاً.
- ليثبت أنه من نسل إبراهيم الذي أمر بالختان.
- لكي لا يرفضه اليهود بسبب عدم ختانه.
- حتى يعلمنا فضيلة الطاعة.
- حتى يريح الآخرين من حمل الناموس بحمله هو ذاك الناموس: «أرسل الله ابنه مولوداً في حُكم الشريعة ليفتدي الذين هم في حُكم الشريعة» (غلاطية 4:4).

3) الجدل الديني حول الختان عند مسيحيّي مصر

أ) ختان الذكور عند مسيحي مصر

رأينا سابقاً أن اليهود والنصارى (المسيحيّين من أصل يهودي) قد حاولوا إدخال الختان في المجتمع الوثني الذي أصبح تدريجيّاً مسيحيّاً. وقد تصدّى آباء الكنيسة لهذه المحاولة التي استمرّت مدّة طويلة. وقد ساعدت القوانين الرومانيّة في الحد من ممارسة الختان. فقد أصدرت السلطات الرومانيّة قوانين تعاقب بالموت أو النفي ومصادرة أموال الطبيب الذي يجري عمليّة الختان على غير اليهودي كما سنرى في الجدل القانوني.

كانت مصر خاضعة للحُكم الروماني ولكن القوانين الرومانيّة لم تكن تطبّق فيها بكل صرامة فيما يخص الختان الذي كان يمارسه ليس فقط اليهود بل أيضاً رجال الدين الوثنيّون، إن صح هذا التعبير على ديانة أهل مصر القديمة. فقد سمحت لهم القوانين الرومانيّة الاستمرار في الختان على شرط تقديم وثيقة ميلاد تثبت انتماء الشخص لطبقة رجال الدين. ومن جهة أخرى، كانت مصر بلد بعيدة عن سيطرة الرومان، مثلها مثل الحبشة والجزيرة العربيّة. ممّا سمح لليهود في هذه البلاد أن يستمرّوا في نشاطهم لتهويد غير اليهود وختانهم. كما أنهم كانوا أيضاً يفرضون الختان على عبيدهم. وكما هو الأمر في فلسطين، تحوّل بعض اليهود المصريّين إلى المسيحيّة وكوّنوا طائفة خاصّة منفصلة عن الطائفة المسيحيّة من أصل وثني واستمرّوا في ممارسة الختان حسب الشعائر اليهوديّة. وبرهان ذلك موقف كيريلوس الذي ذكرناه في الفصل السابق ضد الختان والذي ما كان ليحدث لولا أنه كان يمارس في زمنه بصورة كبيرة.

وفي الجزيرة العربيّة استمر اليهود في ممارسة الختان. وعندما جاء محمّد، أسلم عدد من اليهود الذين لعبوا دوراً مهما في بلورة الفكر الديني الإسلامي، كما سنرى في القسم القادم. فأدخلوا فيه ما يطلق عليه اليوم بالإسرائيليّات، ومن بينها الختان. وقد نجحوا في ذلك على عكس ما حدث في الإمبراطوريّة الرومانيّة عندما أصبحوا «نصارى». وبعد أن فتح المسلمون مصر وتحوّل عدد من المصريّين للإسلام، ثبّتوا فيها عادة الختان التي كانت تمارس هناك.

لا يسمح المجال هنا في استعراض موقف مسيحيّي مصر من الختان منذ الفتح الإسلامي. ويكفينا هنا عرض ما جاء حول الختان في كتاب القوانين المعروف بـ»المجموع الصفوي» الذي ألفه الشيخ الصفي أبي الفضائل بن العسّال (توفى حوالي

عام 1265). وقد استبدلنا هنا ترجمته للكتاب المقدّس بالترجمة الحديثة. يقول ابن العسّال:

«وأمّا الختان فهو من الفرائض العتيقة فُرِض لتمييز شعب الله من باقي الأمم على سبيل ما توسم الأشياء لمالكها... وأمّا في [الفرائض] الحديثة [عند المسيحيّين]، فالختانة عند من يختتن من أصحابها على سبيل العادة لا من الفرائض الشرعيّة. وذلك أنه فرض عملها في التوراة في ثامن يوم من ولادة المختون. فهي في غير اليوم الثامن لا تعد ختانة شرعيّة. والذين يعملونها من أصحاب الحديثة [المسيحيّين] لا يعملونها في اليوم الثامن ولا يجيزون ذلك. والختانة عندنا ممّا يجوز تركها ويجوز عملها عملاً غير شرعي. والدليل على ذلك قول الرسول [بولس] في الفصل السابع من رسالته إلى أهل قورنتس: «ليس الختان بشيء ولا الغلف بشيء. بل الشيء هو حفظ وصايا الله» (19:7). وقوله أيضاً لأهل غلاطية في الفصل الخامس: «ففي المسيح يسوع لا قيمة للختان ولا للغلف، وإنّما القيمة للإيمان العامل بالمحبّة» (6:5). وكرّر هذا القول في الفصل السادس منها فقال: «فما الختان بشيء ولا الغلف بشيء، بل الشيء هو الخلق الجديد» (15:6)، يعني المعموديّة».

ويضيف ابن العسّال:

«أن الأمور الشرعيّة تنقسم إلى قسمين:

أحدهما الفروض التي يجب عملها وما يجوز تركها على كل حال وفي كل زمان في ما أمر به ونُهي عنه. أمّا في الأمر فكالمعموديّة التي بغيرها لا يُنال ملكوت السماء وكاعتقاد توحيد الذات الإلهيّة وتثليث أقانيمها [...] وأمّا في النهي فكالنهي عن القتل والزنا فإنه [بولس] قال إن أصحاب هذه الكبائر لا يرثون ملكوت الله.

والثاني يجوز عمله وتركه كالصلوات والأصوام النوافل والختان المستشهد في جواز الأمرين فيه بما تقدّم ذكره وما يجري مجراه من الأمور الاعتياديّة.

وباقي الطوائف عند كل منها من العادات ما هي له مستحسنة ويقبّحه عليها من سواها كتشطيب الوجه عند الحبشة والنوبة وكحلق الذقن عند الفرنج وكحلق كهنة الروم أوساط رؤوسهم. فإن قالت الطائفتان إن بطاركتهم أمرتهم بذلك قيل لهما وكذلك القبط المختتنون جوّزت لهم بطاركتهم الختان.

ولقائل أن يقول وكما فعل الرسول [بولس] الختان لضرورة ومنفعة كذلك فعله القبط للضرورة والمنفعة. أمّا الضرورة فلكونهم ذمّة بين من يختتنون فقد يميل صبيانهم لأسباب رديّة أن يختتنوا بعد العمّاد وهذا محذور فعله، وضرورات أخر قد ذكرت في غير هذا الكتاب. وأمّا المنفعة فقد ذكر بعض رجال الطب المتفلسفين المصنّفين أن الختان يضعف آلة الشهوة فتقل وهذا بالاتفاق مستحب».

من هذه الفقرة الأخيرة يظهر واضحاً أثر المسلمين في مصر على إبقاء عمليّة الختان بين المسيحيّين «لكونهم ذمّة بين من يختتنون». كما يظهر أيضاً أثر الفكر اليهودي. فأبن العسّال ينقل عن الطبيب والفيلسوف اليهودي ابن ميمون الذي توفى في القاهرة عام 1204، دون أن يذكر اسمه، بأن الختان يضعف آلة الشهوة وأن ذلك مستحب. هذا وقد أكد ابن العسّال على أن لا تجرى عمليّة الختان بعد العمّاد في مكان آخر من كتابه إذ يقول: «والحذر من الختان بعد المعموديّة. فإنه يقطع من درجته وعليه في

ذلك إثم وخطيئة». ويرى أن المعموديّة حلت محل الختان: «ولمّا كانت المعموديّة سرّاً من أسرار العهد الجديد يغسل النفس من أدناسها مجدّداً كل من اقتبله بإيمان ومميّزاً إيّاه عن الكفار والوثنيّين كما كان الختان مستعملاً في العهد القديم عند الإسرائيليين يميّزهم عن بقيّة الأمم».

باختصار يمكن القول إن ابن العسّال يعتبر الختان من المباحات، ولكنّه لا دور له في الخلاص. فقد حلت المعموديّة محله. ولذا لا يمكن إجراء الختان بعد المعموديّة لأن ذلك حط من قدرها. والختان يمارس كعادة مفيدة اجتماعيّاً سمح بها رجال الدين المسيحيّين في مصر بسبب تواجدهم كذمّة بين المسلمين، كما أن الختان مفيد لأنه «يضعف آلة الشهوة فتقل».

وموضوع ختان الذكور كان سبب خلاف بين الكنيسة الغربيّة والكنيسة القبطيّة والحبشيّة. ونحن نجد صداه في قرار المجمع الكنسي في 4 فبراير 1442 المعنون «اتفاق اتحاد مع أقباط ويعاقبة مصر وإثيوبيا». وقد تعرّض هذا الاتفاق إلى موضوع الختان فيقول إن الكنيسة تعتقد وتعترف وتعلم جميع الأشياء المتعلقة بناموس موسى والتي حلت محلها القرابين الحديثة. فتلك الأشياء التي كانوا يصنعوها في القديم مثل الذبائح والقرابين المحروقة وغيرها سنّها الله كدلالة لشيء آخر وكانت موافقة لخدمة الله في ذلك الزمان. ولكن بعد مجيء المسيح «الذي كان دليلاً على جميع هذا» انتهى وقتها. فبعد آلام المسيح، من يرى في الناموس القديم ضرورة للخلاص يرتكب خطيئة مميتة لأنه بذلك يعني أن الإيمان بالمسيح لا يكفي للخلاص دون طاعة الناموس القديم. وقد كانت هذه النواميس متبعة مؤقّتاً بعد آلام المسيح، ولكن بعد انتشار الإنجيل قرّرت الكنيسة عدم تطبيق هذه النواميس. فالذين يختتنون ويطبّقون النواميس القديمة يعتبرون خارجين عن الإيمان بالمسيح ولا نصيب لهم في الخلاص الأبدي إن لم يتركوا تلك الممارسات قَبل موتهم. فتوصي الكنيسة لجميع الذين يفتخرون باسم المسيح أن يمنعوا ويبطلوا الختان في كل زمان، قَبل أو بعد المعموديّة. فلا يمكن الحصول على الخلاص الأبدي إلاّ بترك الختان، إن كان وضع رجاءه في الختان أو لم يضع.

ورغم الاتفاق الصادر عن هذا المجمع فإن الختان ما زال يمارس بين مسيحيّي مصر على نطاق واسع بنسبة قد تصل 100%. وفي جدلي مع عامّة الأقباط، وجدت أنهم يعيدون نفس الأسباب التي يذكرها المسلمون هناك. فهم يرون أن الختان فُرض على إبراهيم، كما أن المسيح قد خُتن. ويضيفون بعد ذلك أن الختان يحافظ على نظافة العضو. وهم عامّة يجهلون ما دار بين الرسل حول الختان أو موقف القدّيس بولس وكيريلوس الكبير بطريرك الإسكندريّة من ختان الذكور. أمّا عند رجال الدين منهم، فقد كتب الأنبا غريغوريوس (توفى عام 2001)، وهو أعلى سلطة دينيّة قبطيّة في

مصر بعد البابا شنودة، كتيّباً عنوانه «الختان في المسيحيّة». وبعد أن عرض موقف الكتب المقدّسة اليهوديّة من ختان الذكور قال:

«العهد القديم [...] كان تحضيراً للمسيح الآتي، وكانت أكثر طقوسه تشير إلى الفادي الذي سوف يأتي، وهو الحمل الذي سيحمل خطيئة العالم، وبموته عنّا ذبيحاً يرفع عنّا خطايانا. لذلك كان الدم في العهد القديم يشير إلى دم المسيح الفادي الآتي. وكان لا بد للدخول في العهد القديم من الدم علامة العهد. فالختان كان علامة بالدم في لحم البدن تذكيراً للإنسان بحاجته إلى الفادي الآتي، وهو المسيح».

ويضيف أنه بعد مجيء المسيح، «لم يعد للختان بقطع جليدة من لحم البدن كعلامة دم، ذات الأهمّية الروحيّة في العهد الجديد. فقد صارت الأهمّية بالأحرى للمعموديّة. فهي المدخل الحقيقي للعهد الجديد». ثم يستعرض نصوص الكتاب المقدّس عند المسيحيّين ويستنتج أن «المعموديّة إذاً هي ختان المسيح في العهد الجديد» وأن المختونين «بالروح والقلب هم المختونون على الحقيقة. أمّا المختونون في الجسد، فلا يُعد ختانهم بشيء». ويضيف:

«الختان في الجسد [...] أصبح في المسيحيّة نظافة لا طهارة، أمراً مندوباً إليه لما له من فوائد صحّية، مثله في ذلك مثل تقليم أظافر اليدين والرجلين حتى لا تتراكم فيها الأوساخ وبالتالي الميكروبات الضارّة. وإذاً فالختان للذكور حسن ومفيد، ولكنّه لم يعد شريعة في الدين المسيحي، بحيث يعاقب الإنسان على تركه».

وقد شدّد الأنبا غريغوريوس على عدم إجراء الختان بعد المعموديّة:

«وعملاً بمبدأ ضرورة المعموديّة للخلاص، وتهافت القيمة الروحيّة للختان مع فائدته الصحّية، أمرت الكنيسة بأن يسبق الختان العمّاد، وحذّرت من الختان بعد العمّاد، حرصاً على توكيد قيمة المعموديّة وبياناً لسموّها، وأنها المرموز إليه بالختان القديم. وإذا جاء المرموز إليه بطل الرمز».

ويذكر هنا قول ابن العسّال:

«وأمّا الختان فهو من الفرائض العتيقة [...] وأمّا في الحديثة، فالختانة عند من يختتن من أصحابها على سبيل العادة لا من الفرائض الشرعيّة [...]. والختانة عندنا ممّا يجوز تركها، ويجوز عملها عملاً غير شرعي [...]. ولا يجوز الإختتان بعد التعميد».

كما يذكر قول العلاّمة الأنبا أثناسيوس أسقف قوص في أواخر القرن الثالث عشر «والحذر من الختان بعد المعموديّة فإنه [...] عليه في ذلك إثم وخطيئة». وفي ردّه على سؤال وجّهه له مطران الروم الكاثوليك في أمريكا الشماليّة حول الختان، يقول الأنبا غريغوريوس:

«الختان عند الأقباط عادة قديمة ترجع جذورها إلى مصر القديمة الفرعونيّة، فهو عادة موروثة ومحترمة. وحيث إنها في العهد القديم كانت رمزاً إلى المعموديّة، وقد حلت المعموديّة محلها في العهد الجديد، لذلك فقدَ الختان عند الأقباط معناه الديني وصار عادة

صحّية ومفيدة لنظافة البدن ووقاية من الأمراض الناتجة عن قذارة الغلفة إذا تجمّعت حولها الأوساخ والميكروبات. ولمّا كان رمزاً إلى المعموديّة، فالكنيسة تحرص على تنبيه المؤمنين إلى وجوب ممارسة الختان قَبل المعموديّة، وتوجّه نظرهم إلى قوانين الكنيسة التي تأمر بذلك».

ب) ختان الإناث عند مسيحيّي مصر

لقد سبق وذكرنا عند عرضنا لختان الإناث عند اليهود أن عادة ختان الإناث كانت معروفة في مصر قَبل المسيح. وقد استمرّت بعد ذلك. ففي القرن السادس بعد المسيح، يستعرض لنا «أيتوس»، عمليّة ختان الإناث في مصر، وقد كان طبيباً في البلاط البيزنطي:

«فبالإضافة إلى أن بعض النساء يكبر لديهن البظر في الحجم أكثر ممّا يجب، ويصبح بشع المنظر، وهذا شيء مخجل، فإنه إلى جانب ذلك يحتك بملابسهن طول الوقت، ويسبّب لديهن تهيّجاً ويثير لديهن شهوة المضاجعة. فبسبب كبر حجمه عزم المصريّون على استئصاله، وعلى الخصوص في الوقت الذي تستعد فيه الفتاة للزواج. ويتم إجراء هذه الجراحة على النحو التالي: يحضرون الفتاة ويجلسونها على مقعد بدون ظهر. ويقف خلفها شاب قوي ويضع يديه وذراعيه تحت فخذيها وعجزها، ويمسك برجليها وكل جسدها بقوّة. ويقف أمامها الشخص الذي يجري العمليّة. ويمسك ببظرها في يده اليمنى، ويشدّه إلى الخارج بيده اليسرى، وبيده اليمنى يبتره بأسنان أداة تشبه الكمّاشة».

وقد سئل الأنبا أثناسيوس أسقف قوص في أواخر القرن الثالث عشر: هل يجوز ختان البنات؟ فكان جوابه واضحاً قاطعاً: «لا رخصة لهن في ذلك، لا بعد عمّادهن ولا قَبل».

إلاّ أن ختان البنات استمر في مصر. وقد أشار الرحّالة الاسكتلندي «جيمس بروس» إلى محاولة المبشّرين الكاثوليك في بداية القرن السابع عشر مكافحة هذه العادة، ليس لأسباب أخلاقيّة أو صحّية، ولكن لأنهم كانوا يرون فيها عادة يهوديّة. وقد بدأت العادة تتراجع بين من أصبحوا كاثوليك. إلاّ أن الرجال الكاثوليك فضّلوا الزواج من المختونات غير الكاثوليك على غير المختونات من طائفتهم. ممّا يعني ارتداد الكاثوليك وضياع جهد المبشّرين. وعند ذلك، رفع المبشّرون القضيّة إلى سلطاتهم الدينيّة في روما التي أرسلت بعثة طبّية. وقد قرّرت هذه البعثة أن العضو الجنسي عند المرأة في مصر يختلف عمّا هو في بلاد أخرى، ممّا يجعل هذا العضو مقزّزاً لدرجة أنه يمنع ما لأجله يتم الزواج. وهكذا سمحت السلطات الدينيّة باستمرار تلك العادة على شرط أن تعلن الفتاة وأهلها بأن هذه العمليّة لا تجرى بنيّة تنفيذ عادة يهوديّة بل لأن عدم الختان يمنع الزواج.

والقول إن العضو الجنسي عند المرأة في مصر يختلف عمّا هو في بلاد أخرى مجرّد هراء وجهل بالواقع. فلا يوجد أي إثبات طبّي يثبت مثل هذا التعميم. وفي أيّامنا يحاول الأقباط محاربة ختان الإناث لسببين: أوّلاً لأنه لم يذكر في الكتب المقدّسة، وثانياً لأنه ضار. فيرى الأنبا غريغوريوس في رسالته السالفة الذكر أن ختان الإناث «خطأ، لأنه قتل لجزء حيوي من جسم البنت، ونحن نُعَلم شعبنا أن الختان الذي أمر به الله في العهد القديم كان للذكور وحدهم. أمّا البنات فلا ختان لهن. ولذلك نكرز للشعب أن ختان الإناث خطأ». وفي مكان آخر يقول: «الشريعة المسيحيّة لا تجيز ختان الإناث، وكل مصادرنا الكنسيّة مجمعة على ذلك». ويعيد علينا جواب الأنبا أثناسيوس أسقف قوص في أواخر القرن الثالث عشر الذي ذكرناه أعلاه. ثم يضيف: «إن ختان البنات خطأ وخطيئة. وهو ممنوع دينيّاً وإنسانيّاً وصحّياً، وهو يمثل بالنسبة للمرأة جريمة تشبه من بعض الوجوه جريمة خصاء الذكور من الرجال». ويسوق الأنبا غريغوريوس عدداً من شهادات الأطبّاء المسلمين وغير المسلمين الذين يؤكدون على ضرر ختان الإناث.

4) الجدل الديني حول الختان عند المسيحيّين الأمريكيّين

تعتبر الولايات المتحدة اليوم أكبر دولة مسيحيّة في العالم مارست وما زالت تمارس ختان الذكور على أطفالها على نطاق واسع لأسباب مختلفة كان أهمّها في البداية الحد من العادة السرّية التي كانت تعتبر سبباً لعدد كبير من الأمراض، كما سنرى في الجزء الطبّي. ولكن لعب وما زال يلعب التفسير الحرفي للتوراة عند الأصوليّين المسيحيّين دوراً هامّاً في تثبيت ختان الذكور في هذا البلد.

ومثلها مثل بريطانيا، مارست الولايات المتحدة منذ القرن التاسع عشر ختان الإناث على نطاق واسع، وما زالت تمارسه ولو على نطاق ضيّق. وكان القصد من ذلك أيضاً الحد من العادة السرّية. ولم نجد جدلاً دينيّاً عند مسيحيّي الولايات المتحدة مؤيّداً أو رافضاً لختان الإناث كما هو الأمر فيما يخص ختان الذكور. لذا نقتصر هنا على الجدل الديني المسيحي حول ختان الذكور.

أ) التفسير الحرفي للتوراة عند الأصوليّين المسيحيّين

دخل ختان الإناث في الولايات المتحدة عام 1860 أخذاً عن الشعوب القديمة والقبائل الإفريقيّة من خلال دراسات علم الإنسان (الانتروبلوجية) التي أوضحت أن ختان الإناث يحد من النشاط الجنسي عندهن. وإذ أعتبر ختان الإناث مفيداً في هذا المجال، خاصّة للحد من العادة السرّية، رأى مؤيّدوه بأن تلك الفائدة يمكن أن تنتج أيضاً عن ختان الذكور. وهكذا تم إدخال ختان الذكور في الولايات المتحدة عام 1870، أي

عشر سنين بعد ختان الإناث. فلم يكن ختان الذكور ممارساً في ذلك البلد قَبل ذلك التاريخ على غير اليهود إلاّ في حالات نادرة.

وفي أيّامنا، أصبحت الأسباب وراء ختان الذكور في الولايات المتحدة كثيرة ومتشابكة بين بعضها. فإذا ما سألت أهالي الأطفال حول سبب الختان، نجد أن منهم من يظن أن المستشفى أو القانون يفرضه. ومنهم من يرى فيه عادة اجتماعية تمارس من الأكثريّة لا يمكن تركها دون الوقوع تحت ضغط اجتماعي. وهناك من يريد أن يشابه الطفل أباه أو اخوته أو رفاقه في الصف. ومنهم من يظن أن الختان يعطي صبغة جماليّة للذكر. وهناك كثير من الأهل والأطبّاء الذين يحاولون ربط قرار الختان بأسباب طبّية.

ورغم تشعّب الأسباب، إلاّ أنه لا يمكن استبعاد أثر الدين حتى عندما يتم الختان لأسباب صحّية. فالأسباب الصحّية تخفي من ورائها تبريرات دينيّة دخلت في تركيبة الفكر الأمريكي وأصبحت أحد مكوّناته اللاشعوريّة. وإضافة إلى هذا التأثير غير المباشر، هناك تيّار مسيحي بروتستنتي يساند الختان بين المسيحيّين بصورة صريحة تنفيذاً لمبادئ التوراة التي يعتبرها هذا التيّار كتاباً لا ينطق إلاّ بالحق. وعلى هذا الأساس، يرى هذا التيّار أن الله لم يأمر عبثاً إبراهيم بختن نفسه، ولا بد من حقيقة علميّة وفائدة طبّية وراء هذا الأمر. وهذا التيّار المسيحي يؤيّد عامّة اليهود حتى في مجال السياسة ونجد بينهم من يدافع عن إسرائيل حتى أكثر من اليهود أنفسهم.

يشرح «جيم بيجيلو»، وهو قس وعالم نفس أمريكي معارض للختان، بأن الأمر بدأ في شكل منافسة بين رجال الدين ورجال الطب. فمع تقدّم علم الطب ومقدرة الأطبّاء في شفاء عدد متزايد من الأمراض، أخذت منزلة الأطبّاء تعلو على منزلة رجال الدين في أعين الناس. وعندما بدأ الأطبّاء يلجأون إلى الختان كوسيلة للحد من العادة السرّية التي كانوا يظنّوها سبباً لكثير من الأمراض، وجد رجال الدين في هذه المناسبة وسيلة لتأكيد دورهم ولسان حالهم يقول: «ألم نقل لكم ذلك قَبل رجال الطب؟ أنظروا كيف أن الله كان على حق عندما فرض الختان على إبراهيم ونسله». ولم يكتفوا بذلك، بل حاولوا البحث في التوراة عن وصفات طبّية يمكن استغلالها لإثبات أن التوراة كتاب مقدّس منزل من عند الله وهو أحق بالإتباع والتقدير من الأطبّاء.

وقد انضم إلى رجال الدين أطبّاء حاولوا بناء شهرتهم على صرحين: صرح العلم وصرح الدين. وهذا التوجّه الأمريكي المسيحي لا يختلف عمّا نجده عند بعض اليهود والمسلمين. ويكفي هنا التذكير بكتاب الطب النبوي والكتب الكثيرة المشابهة له التي تغزو السوق يومياً في العالم العربي والإسلامي. ويعتبر ماكميلان مثالاً مهماً للتيار المسيحي الأمريكي المتطرف.

أصدر هذا الطبيب المسيحي كتاباً عام 1963 وقد أعاد طبعه عام 1995 للمرّة الخامسة عشرة حفيده الطبيب «ستيرن» بعد أن أدخل عليه ما استجد من معلومات طبّية مثل مرض الإيدز. وقد ذكر على غلافه أنه بيع منه أكثر من مليون نسخة. وعنوان الكتاب (لن أنزل بك أي من تلك الأمراض) مقتبس من سفر الخروج:

«إن سمعت لصوت الرب إلهك، وصنعت ما هو مستقيم في عينيه، وأصغيت إلى وصاياه، وحفظت جميع فرائضه، لن أنزل بك أي من تلك الأمراض التي أنزلتها بالمصريّين، لأني أنا الرب معافيك» (الخروج 26:15).

ويسأل مؤلف الكتاب إن كان هذا الوعد ما زال ثابتاً حتى قرننا هذا؟ ويجيب بأن العلوم الطبّية تكتشف دوماً كيف أن طاعة الأوامر القديمة خلصت اليهود من الأمراض وأنها الوسيلة الأمثل للخلاص من ويلات كثيرة تصيب الجنس البشري.

ويكرّس الكتاب في كل طبعة فصل عن الختان. وفي الطبعة الأخيرة التي بين أيدينا، يروي لنا الكتاب حالة سرطان ذكر أدّى بصاحبه إلى الموت، ويقول: «إن ما يجعل هذا الموت فاجعة كبيرة هو أن علم الطب قد أثبت أن مثل هذا السرطان يمكن تفاديه من خلال إتباع الوصيّة التي أعطاها الله لإبراهيم قَبل أربعة آلاف سنة». ثم يدّعي المؤلف أن اليهود قليلاً ما يصابون بمثل هذا الداء بسبب الختان. ففي عام 1932 لم يكن يهودي واحد بين 1.103 إصابة بسرطان الذكر، ومنذ ذلك الوقت لم يكتشف بين اليهود إلاّ ست حالات من هذا السرطان. ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الجزء القادم عند مناقشة الأسباب الطبّية وراء الختان لنبيّن مدى المغالطات العلميّة التي يقع فيها مؤيّدو كل من ختان الذكور والإناث.

ويرفض الكتاب ما يقوله بعض اليهود بأن الختان هو علامة عهد بين الله وبين شعبه وليس وصفة طبّية. فقد يكون لله قصد غير الفائدة الصحّية، ولكن الواقع أن اليهود استفادوا من الختان صحّياً بطاعتهم أوامر الله. فحتى لو أننا لا نعرف الأسباب الحقيقيّة وراء أوامر الله، فإننا نستفيد من إطاعتها في الحياة وفي الآخرة.

ويرى الكتاب أنه يجب إجراء عمليّة الختان في اليوم الثامن كما جاء في التوراة وهذا ما أثبته العلم بسبب بلوغ فيتامين «ك» أعلى كمّية في هذا اليوم. فإذا أجريت هذه العمليّة قَبل هذا العمر، هناك خطر النزيف الدموي، وإذا أجريت متأخّرة، فإن هذه العمليّة تؤدّي إلى مضاعفات نفسيّة لأن الطفل يعتبرها تعدّ على جسده. ويضيف الكتاب: «إنه يجب أن نحترم مئات العاملين في المختبرات الذين توصّلوا بعد سنين طويلة بأن أفضل يوم هو اليوم الثامن لأجراء تلك العمليّة. ولكن في نفس الوقت الذي نهنئ به علم الطب، فإننا نستمع إلى صفحات التوراة التي تؤكد على ضرورة الختان

في اليوم الثامن. وهذا اليوم الثامن لم يختاره عبقري في علم الإحصاء بل اختاره خالق الفيتامين «ك». وهنا المؤلف يقدّم معلومات طبّية مغلوطة إذ إن فيتامين «ك» لا يظهر في جسم الطفل قَبل سن 15 يوم وليس قَبل 8 أيّام. كما أن الختان في هذا العمر يمثل خطراً إضافيّاً بسبب التصاق الغلفة بالحشفة عامّة، ممّا يتطلب سلخها مع ما ينتج عن ذلك من نزيف كما سنرى في الجدل الطبّي. ولذلك من المفضّل إجراء الختان بعد سن الثالثة أو الرابعة عندما تكون الغلفة منفصلة عن الحشفة طبيعيّاً. ونحن نرى بأنّه يجب ترك الولد دون ختان إلا في الحالات المرضيّة النادرة جدّاً عندما يصعب مداواتها.

ب) رفض معارضي ختان الذكور للتفسير الحرفي

تصدّى لهذه الآراء المسيحيّة المتزمّتة معارضو الختان ومن بينهم القس وعالم النفس الأمريكي «جيم بيجيلو» الذي يرفض التفسير الحرفي للتوراة. فهو يقول بأنه إذا كان من الضروري إجراء عمليّة الختان طاعة لأمر إلهي توراتي، فلا بد أيضاً من طاعة جميع أوامر الله التي جاءت في التوراة كالتي تخص الأكل والتي يخالفها جميع المسيحيّين في الغرب. والتوراة تقول: «ولا تأكلوا شيئاً من الجيف، وإنّما تعطيها للنزيل الذي في مدينتك، فيأكلها أو تبيعها للغريب، لأنك شعب مقدّس للرب إلهك» (تثنية 21:14). ويتساءل: كيف يمكن أن يمنع الله «شعبه» من أكل الجيف، بينما يسمح به للنزيل والغريب؟ أضف إلى ذلك كل قواعد الطهارة بخصوص الأم وابنها والتي تعتبر اليوم منافية للذوق والأخلاق ولقاعدة المساواة بين الرجل والمرأة.

ويشدّد المؤلف على أنه لا يريد الاستهزاء بالتوراة، بل يريد أن يوضّح أن قواعد التوراة مرتكزة على اعتبارات رمزية وإطاعة. فليس فيها أي اعتبار طبّي يتماشى مع المعلومات الطبّية الحديثة. فالحُكم على شيء أنه نجس أو طاهر من قِبَل الله يقصد منه تعليم درس في الطاعة الرمزية من قِبَل شعب معيّن وفريد لأوامر الله.

ويشير المؤلف إلى أن الختان كما جاء في التوراة هو ختان رمزي ولا يمكن بأي حال أن نقارنه مع ما يجري اليوم. ولذلك لا يمكن أن نستخلص منه أيّة فائدة علميّة كما يدّعي البعض في أيّامنا. وإن كان من الضروري إتباع وصايا الله كما جاءت في التوراة، فيجب بالأحرى عدم إجراء الختان كما يقوم به رجال الدين اليهود اليوم والذي لا يتفق مع تعاليم التوراة.

ثم يتساءل المؤلف لماذا ترك الله شعبه مدّة أربعين سنة في الصحراء دون ختان (سفر يشوع: الفصل 5)؟ فإن كان الختان ضرورة صحّية، لما كان الله قد عرّض شعبه في الصحراء لهذا الوضع ولكان فرض عليهم الختان هناك. ثم كيف يمكن أن يترك الله

الشعب المسيحي لمدّة عشرين قرنا دون ختان معتبراً هذه الممارسة «لا شيء» حسب قول القدّيس بولس (1 قورنتس 19:7)؟ هل يمكن أن يعرّض الله المؤمنين كل هذه المدّة للمخاطر الصحّية لعدم الختان بينما نعتبر نحن أن الكتب المقدّسة موحاة من الروح القدس؟ ويختم المؤلف قوله: «منطقياً، لا يمكنك أن تنتقي حسب رغبتك. فعليك أن تعتبر أن قوانين الكتاب المقدّس اليهودي الذي أنزل من إله حكيم هي كلها قوانين طبّية أو أنها شيء آخر. وإذا ما نظرنا لتلك الأوامر التي ناقشناها سابقاً، يظهر أن غاية الله لم تكن إيحاء معلومات طبّية من خلال قوانينه، بل لتشكيل شعب خاص على الأرض».

ونحن إذ نتفق مع المؤلف بأن التوراة ليست كتاب طب، نختلف معه في اعتبار الشعب اليهودي «شعب خاص على الأرض». ونحن نرى أن التوراة هو كتاب كغيره من الكتب يحتوي على الغث والسمين في كل ما هب ودب وعلى تعليمات مخالفة للأخلاق ولا تتفق لا مع المعطيات العلميّة في زمننا ولا مع مبادئ حقوق الإنسان. فلا داعي في نظرنا لكل هذا الدوران واللف في تبرير التوراة.

الفصل الثالث
الختان في الفكر الديني الإسلامي

1) الختان في القرآن

أ) سكوت القرآن عن ختان الذكور والإناث

رأينا في القسمين الأوّلين أن الكتب المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة تكرّس صفحات طويلة حول ختان الذكور ولكن لا ذكر فيها لختان الإناث. فما هو موقف القرآن من ختان الذكور والإناث؟

بعد التحرّي، وجدنا أنه لا يوجد أي ذكر لختان الذكور أو ختان الإناث في القرآن. فكلمة «ختان» بذاتها لم ترد بتاتاً فيه بأي شكل من أشكالها. وكل ما نجده هو كلمة «أغلف» في نصّين على لسان اليهود للتعبير عن «غلف القلب» وليس عن «غلف الجسد». ولم يفسّر أحد من المسلمين هذين النصّين، لا قديماً ولا حديثاً، بأنهما يعنيان الختان أو يبرّرانه. وهذان النصان هما:

«ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون» (البقرة 2: 78-88).
«فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً» (النساء 155:4).

وأصل عبارة «قلوبنا غلف» في التوراة. فأرميا يقول: «اختتنوا للرب وأزيلوا غلف قلوبكم يا رجال يهوذا وسكان أورشليم لئلاّ يخرج غضبي كالنار فيحرق وليس من مطفئ بسبب شر أعمالكم» (أرميا 4:4).

ونشير هنا إلى أن القرآن ذكر إبراهيم 69 مرّة ويعتبره «أسوة حسنة» (الحشر 4:60)، ولكنه لم يتكلم بتاتاً عن ختانه كما تفعل التوراة.

ب) تفسير آيات من القرآن لتأييد ختان الذكور

لم يقتنع الفقهاء والمؤلفون المسلمون قديماً وحديثاً أن القرآن لم يتكلم عن الختان، تلك العادة الواسعة الانتشار، خاصّة وأن القرآن يقول: «ما فرّطنا في الكتاب من شيء» (الأنعام 38:6)؛ «ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» (النحل 89:16)؛ «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» (المائدة 3:5). ولذلك حاولوا البحث عن آيات قد تسعفهم فوقع اختيارهم على عدد منها تنتمي إلى ما يسمّى بـ»الآيات المتشابهات»، ففسّروها بحيث تتفق مع اتجاههم المؤيّد لختان الذكور هي:
«وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيتي قال لا ينال عهدي الظالمين» (البقرة 124:2).
«ثم أوحينا إليك أن اتبع مِلة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (النحل 123:16).
«صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» (البقرة 2: 138).

لا ذكر في هذه الآيات لموضوع الختان. ورغم ذلك فقد استنتج منها مؤيّدو ختان الذكور أنه واجب على المسلم. فكيف توصّلوا إلى هذه النتيجة؟ باختصار شديد يمكن أن نقول إن المؤيّدين حاولوا تفسير عبارة «وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات» بأن الله ابتلى إبراهيم بالختان. وبما أن المسلم ملزم بإتباع «مِلة إبراهيم»، فعليه إتمام الختان كما أتمّه إبراهيم. ثم فسّروا عبارة «صبغة الله» بأنها تعني الختان. ولكن هذا التفسير لم يلقَ إجماعاً بين الفقهاء. هذا ما سوف نراه في النقطتين التاليتين.

«وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات»

لم يتفق المفسّرون على رأي واحد في تفسير معنى «الكلمات» في آية البقرة 124:2 السابقة الذكر. فهذا الطبري (توفى في 923) على سبيل المثال يقول إن الابتلاء بمعنى الاختبار. ثم يضيف:

«وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم اختباراً بفرائض فرضها عليه وأمر أمره به، وتلك هي الكلمات التي أوحاهن إليه وكلفه العمل بهن امتحاناً منه له واختباراً ثم اختلف أهل التأويل في صفة الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم نبيّه وخليله».

ومن تلك التأويلات:

«أبتلي إبراهيم بعشرة أشياء هن في الإنسان سُنّة: الاستنشاق وقص الشارب والسواك ونتف الإبط وقلم الأظفار وغسل البراجم والختان وحلق العانة وغسل الدبر والفرج».

والمهم في الأمر أن مؤيّدي ختان الذكور تمسّكوا بتفسيرهم للكلمات بأنها تعني الختان. أي أن الله ابتلى إبراهيم بالختان فأتمَّه. وبما أن المسلمين مأمورون بإتباع مِلة إبراهيم، فعلى المسلمين أن يختتنوا أسوة بإبراهيم.

وهكذا يكون ختان إبراهيم هو أساس الختان عند المسلمين. وقصّة ختان إبراهيم جاءت في الفصل السابع عشر من سفر التكوين في التوراة كما رأينا سابقاً. وبما أن الفقهاء المسلمين يعتبرون التوراة محرّفة، فلا يرجعون لما جاء فيها، بل يعتمدون على الأحاديث النبويّة التي تتكلم عن ختان إبراهيم نذكر منها:

- عن أبي هريرة أن النبي محمد قال: «اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة، بالقدوم». ولهذا الحديث صيغة أخرى عن أبي هريرة أن النبي قال: «اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة». ويقول ابن حجر (توفى عام 1449) في تعليقه على هذا الحديث إن إبراهيم قد اختتن وهو ابن مائة وعشرين سنة. ورأى البعض أنه اختتن وهو ابن ثمانين سنة. وإن ختانه كان بالقدوم. وقد اختلفوا ما إذا كان هذا القدوم مكان، قيل قرية بالشام أو بقرب حلب، أو آلة النجارة أو الفأس. والراجح أنه الآلة. ويذكر قولاً عن بن رباح: «أمر إبراهيم بالختان فاختتن بقدوم فاشتد عليه فأوحى الله إليه أن عجّلت قبل أن نأمرك بآلته فقال: يا رب كرهت أن أؤخر أمرك».
- عن أبي هريرة أن النبي محمد قال: «ربط إبراهيم عليه السلام عورته وجمعها إليه، فحد قدومه وضرب بقدومه بعود معه، فذب بين يديه بلا ألم ولا دم».
- عن ابن عبّاس أن النبي محمد سُئل: من أختن لآدم؟ قال: اختتن بنفسه. قال: ومن اختتن بعد آدم؟ قال: إبراهيم خليل الرحمن. قال: صدقت يا محمّد.
- عن علي أن النبي محمد قال: «إن الله عز وجل بعث خليله بالحنيفيّة، وأمره بأخذ الشارب وقص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان».

هذه أهم الأحاديث التي جاءت في ختان إبراهيم عندما كان عمره 80 أو 120 سنة. ولكن هناك روايات أخرى تقول بأن إبراهيم قد ختن وعمره 30 أو 70 أو 130 سنة.

ويعتقد المسلمون أن إبراهيم هو أوّل من اختتن. وأساس هذا الاعتقاد حديث ينقله مالك (توفى عام 795) في موطأه: «كان إبراهيم أوّل الناس ضيّف الضيف وأوّل الناس اختتن وأوّل الناس قص الشارب وأوّل الناس رأى الشيب. فقال يا رب ما هذا فقال الله تبارك وتعالى وقار يا إبراهيم فقال يا رب زدني وقاراً». وهذا القول يناقض الحديث النبوي السالف الذكر الذي يقول بأن آدم هو أوّل من اختتن. كما أن هناك من يعتقد أن إبراهيم قد ولد مختوناً مع عدد آخر من الأنبياء بفضل من الله. فقد سئل علي من خلق الله تعالى من الأنبياء مختوناً فقال: خلق آدم مختوناً، وولد شيت مختوناً وإدريس ونوح وإبراهيم وداود وسليمان ولوط وإسماعيل وعيسى وموسى ومحمّد. وهذا الاعتقاد أخذه المسلمون عن اليهود.

وللشيعة رواية خاصّة حول ختان إبراهيم. فقد سئل الصادق (توفى عام 765) عن ختان إبراهيم نفسه بقدوم على دن فقال: «سبحان الله! ليس كما يقولون كذبوا على إبراهيم» وأضاف:

«إن الأنبياء كانت تسقط عنهم غلفتهم مع سررهم في اليوم السابع. فلمّا ولد لإبراهيم من هاجر عيّرت سارة هاجر بما تعيّر به الإماء فبكت هاجر واشتد ذلك عليها. فلمّا رآها إسماعيل تبكي بكى لبكائها. ودخل إبراهيم فقال: ما يبكيك يا إسماعيل؟ فقال إن سارة عيّرت أمّي بكذا وكذا فبكت وبكيت لبكائها. فقام إبراهيم إلى مصلاّه فناجا فيه ربّه وسأله أن يلقي ذلك عن هاجر فألقاه الله عنها. فلمّا ولدت سارة إسحاق وكان يوم السابع سقطت عن إسحاق سرّته ولم تسقط عنه غلفته فجزعت من ذلك سارة. فلمّا دخل إبراهيم عليها قالت: يا إبراهيم ما هذا الحادث الذي حدث في آل إبراهيم وأولاد الأنبياء؟ هذا ابنك إسحاق قد سقطت عنه سرّته ولم تسقط عنه غلفته. فقام إبراهيم إلى مصلاه فناجا ربّه وقال: يا رب ما هذا الحادث الذي قد حدث في آل إبراهيم وأولاد الأنبياء وهذا ابني إسحاق قد سقطت عنه سرّته ولم تسقط عنه غلفته؟ فأوحى الله تعالى إليه أن يا إبراهيم هذا لمّا عيّرت سارة هاجر فآليت أن لا أسقط ذلك عن أحد من أولاد الأنبياء لتعيير سارة هاجر فاختن إسحاق بالحديد واذقه حر الحديد. قال فختنه إبراهيم بالحديد وجرت السُنّة بالختان في أولاد إسحاق بعد ذلك».

هناك إذاً روايات متناقضة حول معنى «الكلمات» التي ابتلى الله بها إبراهيم. كما أنه هناك اختلاف حول ما إذا كان إبراهيم قد ختن أم ولد مختوناً، واختلاف حول السن والآلة التي ختن بها. وهذه الروايات تتضمّن كثيراً من «الإسرائيليّات» وهي أساطير وروايات يرجعها الكتاب المسلمون اليوم إلى التراث الإسرائيلي. ويطالب البعض إعادة نشر كتب التفسير بعد تنقيتها منها. وهذا التفسير القديم لهذه «الكلمات» قد رفضها عدد من علماء الدين المسلمين المتأخّرين نذكر منهم الإمام محمّد عبده (توفى عام 1905). فقد جاء في تفسير المنار:

«قال الأستاذ الإمام عند إيراد قول المفسّر (الجلال) في تفسير الكلمات أنها الخصال العشرة: إن هذا من الجراءة الغريبة على القرآن. ولا شك عندي في أن هذا ممّا أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزؤاً، وأي سخافة أشد من سخافة من يقول: إن الله تعالى ابتلى نبياً من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور وأثنى عليه بإتمامها وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماماً للناس وأصلاً لشجرة النبوّة. وأن هذه الخصال لو كلف بها صبي مميّز لسهل عليه إتمامها ولم يعد ذلك منه أمراً عظيماً. والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبره الله تعالى به، ولا ينبغي تعيين المراد إلاّ بنص عن المعصوم».

«صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة»

يقول القرآن: «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» (البقرة 138:2). يرى مؤيّدو ختان الذكور قديماً وحديثاً أن كلمة «الصبغة» تعني الختان. فالختان في رأيهم هي صبغة الله للمسلم التي تحل محل العمّاد الذي يصبغ به المسيحيّون أطفالهم بقصد الطهارة. يقول القرطبي (توفى عام 1273):

«إن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمّونه المعموديّة، ويقولون: هذا تطهير لهم. وقال ابن العبّاس: هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيّام غمسوه في ماء لهم يقال له ماء المعموديّة فيصبغوه بتلك ليطهّروا به مكان الختان، لأن الختان تطهير. فإذا فعلوا ذلك قالوا: «الآن صار نصرانياً حقاً. فرد الله تعالى عليهم بأن قال «صبغة الله» أي صبغة الله أحسن صبغة وهي الإسلام. فسمّي الدين صبغة استعارة ومجازاً من حيث تظهر أعماله وسمته على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب [...]. وقيل: إن الصبغة الختان، اختتن إبراهيم فجرت الصبغة على الختان لصبغهم الغلمان في الماء».

ج) تصادم الختان مع فلسفة القرآن

أمام تفاقم الجدل حول ختان الذكور والإناث وضغط الأوساط الدينيّة المؤيّدة لهذه الممارسة، حاول معارضو ختان الذكور والإناث في أيّامنا الرد عليهم بالرجوع إلى القرآن حتى تكون الحجّة القرآنيّة مقابل الحجّة القرآنيّة ما دام القرآن هو المصدر الرئيسي للشريعة الإسلاميّة. فهم يقولون إن الختان يتصادم مع فلسفة القرآن الذي يؤكد في آيات عدّة على كمال خلق الله نذكر منها:

«خلق كل شيء فقدّره تقديراً» (الفرقان 2:25).
«أفحسبتم إنّما خلقناكم عبثاً» (النور 115:23).
«فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (الروم 30:30).
«وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيّبات» (غافر 64:40).
«وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير» (التغابن 3:64).
«هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم» (آل عمران 6:3).
«الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحنك فقنا عذاب النار» (آل عمران 191:3).

«الذي أحسن كل شيء خلقه» (السجدة 7:32).
«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (ص 27:38).
«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (التين 4:95).
«الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار» (الرعد 8:13).
«إنا خلقنا كل شيء بقدر» (القمر 49:54).
«يا أيها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك» (الانفطار 7:82).
«وقال [الشيطان] لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنيهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعم ولآمرنهم فليغيّرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً» (النساء 4:118-119).

فإذا ما اعتبرنا أن ختان الذكور والإناث هو بتر عضو سليم لا يعوّض يلعب دوراً هامّاً في العلاقة الجنسيّة، فإنه علينا أن نعترف بأنه مخالف للقرآن ومرفوض منه. لا بل إن الآية الأخيرة تعتبر التعدّي على آذان الأنعم طاعة للشيطان. فكم بالأحرى التعدّي على سلامة جسد الإنسان؟! وهذا القول نجده عند رافضي ختان الإناث في أيّامنا. يقول محمّد سليم العوّا:

«قد نهى رسول الله (ص) عن تغيير خلق الله، وصح عنه لعن «المغيّرات خلق الله»، والقرآن الكريم جعل من المعاصي قطع بعض الأعضاء ولو من الحيوان، بل هو ممّا توعّد الشيطان أن يضل به بني آدم في أنعامهم وقرنه بتغيير خلق الله [يذكر هنا آية النساء 4:118-119]. والختان [للإناث] بصورته التي يجرى بها في مصر، وفي أجزاء أخرى من العالم الإسلامي، فيه تغيير خلق الله، ومن قطع بعض أعضاء الإنسان المعصومة ما لا يخفى. وإذا كان هذا في الحيوان من إضلال الشيطان فكيف يكون في حق الإنسان؟؟»

اكتشف إذاً معارضو ختان الإناث في أيّامنا أنه يتصادم مع فلسفة القرآن التي تقول بكمال خلق الله. وهذا ما لا نجده بتاتاً عند الفقهاء القدامى. إلاّ أن معارضي ختان الإناث، بدلاً من تطبيق هذه الفلسفة أيضاً على ختان الذكور، استثنوه من منطقهم. لا بل برّروه معتبرين أن غلفة الذكر هو جلد زائد. وهذا جهل بالمعطيات الطبّية الحديثة (كما سنرى في الجزء الطبّي) بالإضافة إلى كونه استخفاف بحِكمة الخالق. ولم يشذ عنهم إلاّ عدد قليل جدّاً نذكر منهم الدكتورة نوال السعداوي التي تقول:

«إن الدين بمعناه العام هو الصدق والمساواة والعدالة والحب والصحّة لجميع الناس رجالاً ونساء. ولا يمكن أن يكون هناك دين يدعو إلى المرض أو تشويه أجساد البنات وقطع بظورهن. وإذا كان الدين من عند الله فكيف يمكن للدين أن يأمر بقطع عضو في الجسم خلقه الله؟ المفروض أن الله لا يخلق الأعضاء اعتباطاً. ولا يمكن أن الله يخلق البظر في جسد النساء ثم ينزل على الناس ديناً يأمرهم بقطع هذا البظر. فهذا تناقض خطير لا يقع فيه الله. وإذا كان الله قد خلق البظر كعضو حسّاس للجنس وظيفته الأساسيّة والوحيدة هي الإحساس

بلذّة الجنس فمعنى ذلك أن الله قد أباح للنساء اللذّة الجنسيّة وأنها جزء من الصحّة النفسيّة. وعلى هذا فإن المرأة التي تحرم من اللذّة الجنسيّة تحرم من جزء من الصحّة النفسيّة ولا يمكن أن تكتمل صحّة المرأة النفسيّة بدون اكتمال لذّتها الجنسيّة».

وهذا النص يتكلم فقط عن ختان الإناث. وقد كشفت في السنين الأخيرة أن سكوتها عن ختان الذكور لم يكن بإرادتها، بل فُرِض عليها من قِبَل الرقابة. وأكدت رفضها لكل من ختان الذكور والإناث كما بيّنته في مقدمة هذا الكتاب.

وفي كتابه «البيان بالقرآن» يقول القاضي الليبي مصطفى كمال المهدوي إن القرآن لا يذكر الختان الذي هو عادة يهوديّة. وهو يرى أنه ليس في القرآن كله حرف واحد زائد أو ليس مسطوراً في الكتاب لحِكمة بالغة، فهذا كتاب الله الذي أتقن كل شيء وقال قوله الحق فيما خلق من شيء «ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار» (آل عمران 3:191). وإن لم يتكلم المهدوي عن ختان البنات، فليس قبولاً منه لهذه العادة بل لأنها غير معروفة في بلده، وربّما لأن عادة ختان البنات لا يرجعها المسلمون إلى القرآن. وقد تعرّض المهدوي لحملة شعواء. فقد رفعت ضدّه دعوى لسحب الكتاب من الأسواق كما أتهِم بالردّة. وبعد محاكمة دامت عدّة سنين، أصدرت محكمة استئناف بنغازي حكماً متناقضاً في يونيو 1999 يبرّر ساحة المهدوي من تهمة الردّة ولكنه يمنع توزيع أو إعادة نشر كتابه.

كم يرفض جمال البنّا، الشقيق الأصغر للإمام حسن البنّا، كل من ختان الذكور والإناث لأنهما مخالفان لفلسفة كمال الخلق بالإضافة إلى مضارّهما. يقول:

«إن ما جاء في القرآن «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» (التين 59:4) يفنّد ما يدّعونه من أن الختان يصحّح نقصاً في طبيعة خلق الإنسان، وهو ما ينافي النص القرآني. لقد أراد الله للرجال والنساء أن يكونوا كما خلقهم [...]. وأنا مؤمن كل الإيمان أن من حق الرجال والنساء أن يعيشوا كما خلقهم الله وأن الله تعالى جعل كل الأعضاء «في أحسن تقويم»، بما في ذلك أعضاء الجهاز التناسلي للرجل والمرأة».

2) الختان في السُنّة

يعتبر المسلمون عامّة السُنّة النبويّة المصدر الثاني للشريعة الإسلاميّة، وأن محمّداً معصوم من الخطأ على أساس شهادة القرآن له «وما ينطق عن الهوى» (النجم 3:53). والقرآن يقرّر ضرورة اللجوء إلى النبي محمّد: «وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (الحشر 7:59). ويعتمد مؤيدو ختان الذكور والإناث على

السنة بسبب عدم ذكر الختان في القرآن. إلاّ أن المعارضين يرفضون هذا الأمر لأن ما جاء في السنة عن الختان متناقض وغير موثوق فيه.

أ) أحاديث الختان

سوف نجمع هنا ما جاء من أحاديث في كتب أهل السُنّة وأهل الشيعة مكتفين بذكر آخر راوي لها عن النبي محمّد. وقد رتبنا هذه الأحاديث حسب موضوعها.

أحاديث ختان إبراهيم

لقد ذكرنا في الفصل السابق الأحاديث الخاصّة بختان إبراهيم عند عرضنا لتفسير سورة البقرة 124:2: «وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات». لذا نعيد القارئ لما سبق.

أحاديث ختان النبي محمّد

يرى مؤيّدو ختان الذكور بأن على المسلم أن يختتن أسوة بالنبي محمّد. ولكن هناك عدّة روايات متضاربة يتناقلها الكتاب المسلمون القدامى حول ختان النبي محمّد أجملها الأنصاري (توفى عام 1596) كما يلي:

«وروي أن نبيّنا (ص) ولد مختوناً كثلاثة عشر نبياً، وأن جبريل ختنه حين طهّر قلبه، وأن عبد المطلب ختنه يوم سابعه ولم يصح في ذلك شيء على ما قاله جمع من الحفاظ ولم ينظروا لقول الحاكم إن الذي تواترت به الرواية أنه ولد مختوناً [...] ويمكن الجمع بأنه يحتمل أنه كان هناك تقلص في الحشفة فنظر بعض الرواة للصورة فسماه ختاناً وبعضهم للحقيقة فسماه غير ختان. وقال بعض المحقّقين من الحفاظ الأشبه بالصواب أنه لم يولد مختوناً».

وهكذا نرى أن المسلمين قد اختلفوا في قضيّة ختان النبي محمّد. ونشير هنا إلى أن المصدرين الأساسيين للسيرة النبويّة، وهما ابن إسحاق (توفى عام 767) وابن هشام (توفى عام 828)، لم يذكرا موضوع ختان النبي محمّد. وما كان لهذين المصدرين أن يسكتا عن حدث بمثل هذه الأهمّية. ونحن نميل إلى القول بأن النبي محمّد لم يختتن إلاّ إذا كان هناك دليل على أنه ينتمي إلى الطائفة اليهوديّة التي هي الطائفة الوحيدة التي كانت تمارس الختان بصورة أكيدة في الجزيرة العربيّة. ولكن لنفرض أن النبي محمّد ختن، فهذا يعني أوّلاً وآخراً أنه وقع ضحيّة عادة قديمة مثله مثل السيّد المسيح والملايين من الأطفال الذين ختنوا عبر التاريخ وما زالوا يختتنون دون رأفة ودون الأخذ برأيهم.

أحاديث ختان الحسن والحسين

هناك من يرى أن ختان الذكور واجب على المسلم لأن النبي ختن الحسن والحسين. وما كان ليفعل ذلك لو لم يكن واجباً. وهذا الأمر جاء ذكره في كتب الحديث الشيعية ولكن لا أثر له في كتب الحديث الستة ولا في مسند أحمد (توفى عام 855) ولا في موطأ مالك ولا في كتابي السيرة لابن إسحاق وابن هشام. وقد قال الشيخ جاد الحق (توفى عام 1996)، شيخ الأزهر، إن هذا الحديث غير مُسَلَّم بثبوته. ورغم ذلك يعتمد الشيخ الطنطاوي عليه للتأكيد على ختان الذكور. ونشير إلى أن ختان الحسن والحسين في اليوم السابع يعني أنهما ختنا على الطريقة اليهوديّة. وهذا يناقض الأحاديث النبويّة الكثيرة التي تنهى عن التشبّه باليهود.

أحاديث الختان من سُنَن الفطرة

يعتمد مؤيّدو ختان الذكور على حديث نبوي يجعل من الختان أحد سُنَن أو خصال الفطرة. وهذه هي الأحاديث كما يستعرضها ابن حجر:

- «من السُنّة قص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظفار».
- «أربع من سُنَن المرسلين: الحياء، والتعطر، والسواك، والنكاح».
- «خمس من سُنَن المرسلين: الحياء، والتعطر، والسواك، والحلم، والحجامة».
- «من الفطرة: المضمضة والاستنشاق والسواك وغسل البراجم والانتضاح».
- حديث عن عائشة: «عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء. قال مصعب: ونسيت العاشرة إلاّ أن تكون المضمضة».

نلاحظ من الأحاديث المذكورة أعلاه أن عدد سن الفطرة انتقل من ثلاثة إلى أربعة إلى خمسة إلى عشرة، وأن لا ذكر للختان فيها. ثم جاء المحدّثون فأحدثوا استبدال كلمة بكلمة. وهكذا نجد حديثاً عن أبي هريرة يقول فيه: «الفطرة خمس أو خمس من الفطرة: الختان والاستحداد ونتف الإبط، وتقليم الأظفار وقص الشارب». ثم جاء من استبدل كلمة الاستنشاق بكلمة الاستنثار، ومن استبدل غسل البراجم بالختان، ومن استبدل إعفاء اللحية بالفرق. وقد جمع ابن حجر خصال الفطرة في الأحاديث المختلفة فوجدها 16 خصلة. ويذكر قولاً لابن العربي بأن خصال الفطرة تبلغ ثلاثين خصلة. وقد ذكر موطأ مالك برواية ابن كثير حديث أبي هريرة السابق الذكر بالشكل الآتي: «خمس من الفطرة: تقليم الأظافر، وقص الشارب ونتف الإبط وحلق العانة والاختتان». وهذا الحديث لا وجود له في موطأ الإمام مالك برواية محمّد بن الحسن الشيباني. فقد أسقطه مالك مثل غيره من الأحاديث. فكيف يمكن الاعتماد عليه؟

يعتبر مؤيّدو ختان الذكور أن سُنَن الفطرة هي إشارة إلى الآية: «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (الروم 30:30). وفي تفسيره لمعنى سُنَن الفطرة، يقول ابن حجر: «والمراد بالفطرة [...] أن هذه الأشياء إذا فعلت اتصف فاعلها بالفطرة التي فطر الله العباد عليها وحثهم عليها واستحبّها لهم ليكونوا على أكمل الصفات وأشرفها صورة».

ومؤيّدو ختان الإناث يفهمون من حديث الفطرة أنه يأمر بختان الذكور وختان الإناث سواء «إذ لا مخصّص فيها للذكور عن الإناث». ولكن معارضو ختان الإناث يرون إمكانيّة التفريق بين ختان الذكور والإناث في الحُكم. فمن بين الخصال التي ذكرها الحديث قص الشارب، وهذا خاص قطعاً بالذكور دون الإناث.

الأحاديث الآمرة بختان الذكور

يعتمد مؤيّدو ختان الذكور على أحاديث نبويّة تأمر به. ويضيف الشيعة لهذه الأحاديث النبويّة أقوالاً لأئمّتهم.

- حديث عثيم بن كليب عن أبيه عن جدّه أنه جاء النبي فقال أسلمت، فقال النبي: «ألق عنك شعر الكفر» يقول: أحلق. قال: وأخبرني آخر أن النبي (ص) قال لآخر معه: «ألق عنك شعر الكفر واختتن». وقد قال ابن حجر إن سند الحديث ضعيف لا يثبت فيه شيء.
- حديث أبي هريرة (توفى عام 679) أن الرسول قال: «من أسلم فليختن وإن كان كبيراً». وهذا الحديث من مراسيل الزهري التي اعتبرها ابن قيّم الجوزيّة (توفى عام 1351) من أضعف المراسيل فلا تصح للاحتجاج.
- سئل النبي عن رجل أغلف، يحج بيت الله؟ قال: «لا، حتى يختتن». وقد قال عن هذا الحديث ابن المنذر (توفى عام 931) إن إسناد هذا الحديث مجهول لا يثبت.
- عن علي قال: وجدنا في قائم سيف رسول الله (ص) في صحيفة: «أن الأغلف لا يترك في الإسلام حتى يختن ولو بلغ ثمانين سنة». وقد ذكره البيهقي (توفى عام 1066) وقال: «هذا حديث ينفرد به أهل البيت عليهم السلام بهذا الإسناد».
- قول لجعفر الصادق (توفى عام 765): «المولود يعق عنه ويختن لسبعة أيّام».

ولأهل الشيعة أحاديث تأمر بالختان معتبرة بول الأغلف نجساً. وهذه الأحاديث لا وجود لها في كتب السُنّة الستة ولا في مسند ابن حنبل. نذكر من هذه الأحاديث:

- من طب الأئمّة عن النبي قال: «أختنوا أولادكم في السابع، فإنه أطهر وأسرع لنبات اللحم»، فقال: «إن الأرض تنجّس ببول الأغلف أربعين يوماً».
- عن جعفر الصادق أن النبي قال: «طهّروا أولادكم يوم السابع فإنه أطيب وأطهر وأسرع لنبات اللحم، وإن الأرض تنجّس من بول الأغلف أربعين صباحاً».
- عن جعفر الصادق عن النبي: «إن الأرض تضج إلى الله تعالى من بول الأغلف».
- قول لجعفر الصادق: «أختنوا أولادكم لسبعة أيّام فإنه أطهر وأسرع لنبات اللحم وإن الأرض لتكره بول الأغلف».

حديث «الختان سُنّة للرجال مَكرُمَة للنساء»

هناك حديث للنبي يقول: «الختان سُنّة للرجال مَكرُمَة للنساء». وهذا الحديث منقول عن الحجّاج بن أرطأة. ويقول القرطبي وابن حجر: «والحجّاج ليس ممّن يحتج به». وينقل أهل الشيعة أقوالاً لأئمّتهم تشبه هذا الحديث نذكر منها:

- قول لعلي: «لا بأس بأن تختتن المرأة، فأمّا الرجل فلا بد منه».
- قول لجعفر الصادق: «ختان الغلام من السُنّة وخفض الجواري ليس من السُنّة».
- عن المرادي أنه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الجارية تسبى من أرض الشرك فتسلم فيطلب لها من يخفضها فلا يقدر على امرأة. فقال: أمّا السُنّة فالختان على الرجال، وليس على النساء.
- قول لجعفر الصادق: خفض الجارية مَكرُمَة وليس من السُنّة ولا شيئاً واجباً وأي شيء أفضل من المَكرُمَة.
- قول لجعفر الصادق: الختان في الرجل سُنّة ومَكرُمَة في النساء.

وكانت العرب تعيّر من كانت أمّه تقوم بختان الإناث: «ابن مقطعة البظور». فكيف في هذه الحالة اعتبار ختان الإناث مَكرُمَة؟

أحاديث «إذا التقى الختانان»

يذكر البيهقي أن أبا موسى الأشعري أتى عائشة فقال: لقد شق علي اختلاف أصحاب النبي (ص) في أمر إني لأعظم أن أستقبلك به. فقالت: ما هو؟ كنت سائلاً عنه أمّك فسلني عنه. فقال لها: الرجل يصيب أهله ثم يكسل ولا ينزل؟ قالت: إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل. وقد ذكر البيهقي هذا الحديث بأشكال مختلفة عن عائشة عن النبي، بعضها لا يذكر الختان. والعوّا يعتبر هذا الحديث هو «الحديث الصحيح الوحيد في كتبنا جميعاً فيما يتعلق بهذا الأمر». ولكنّه يرى أن

> «لا حجّة في هذا الحديث الصحيح على ذلك. لأن اللفظ هنا جاء من باب تسمية الشيئين أو الشخصين أو الأمرين باسم الأشهر منهما، أو باسم أحدهما على سبيل التغليب. ومن ذلك كلمات كثيرة في صحيح اللغة العربيّة منها العُمَران (أبو بكر وعمر)، والقمران (الشمس والقمر) والنيِّران (هما أيضاً، وليس في القمر نور بل انعكاس نور الشمس عليه) والعشاءان (المغرب والعشاء) والظهران (الظهر والعصر)».

ويضيف العوّا:

> «لفظ الختانين [...] لا دلالة فيه على مشروعيّة الختان للإناث. والحديث وارد فيما يوجب الغسل وليس وارداً في أمر الختان أصلاً. ولا يبعد أن يقال: إنه حدّثهم على معهودهم قَبل الإسلام في إيقاع هذا الفعل بالمرأة، دون أن يتضمّن حديثه (ص) إباحة أصلاً».

وقد أُخِذ على حديث «إذا التقى الختانان» بأنه يقرّر قاعدة فقهيّة مرفوضة بالإجماع إذ لا يجب الغسل لمجرّد الالتقاء، بل لتغييب الحشفة في الفرج. وقد حاول البعض تفسير «التقى الختانان» بأنه كناية عن مغيب الحشفة. ولهذا السبب نحن نرى أن كلمة «الختانان» قد تكون قد فهمت غلطا بدلاً من «الختنان»، أي الزوجان. فيكون معنى الحديث: إذا التقى الزوجان في علاقة جنسيّة، يجب الغسل. وفي حالة فهم الحديث كما فهمه مؤيّدو ختان الإناث، فإننا لا نعرف كيف يمكنهم الاعتماد على حديث جاء في صور متناقضة.

روايتا «خاتنة الجواري»

هناك روايتان تحكيان لقاء النبي محمّد مع امرأة تختن الجواري. قي الرواية الأولى دون ذكر اسم امرأة أو مع ذكر اسم أم عطيّة أو أم أيمن أو أم طيّبة. والرواية الثانية ذكر فيها اسم أم حبيبة أو أم حبيب.

الرواية الأولى المشهورة برواية أم عطيّة

جاء في سُنَن أبو داوود (توفى عام 889): «إن امرأة كانت تختن بالمدينة. فقال لها النبي: «لا تُنهِكي فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل». وقد جاء في رواية أخرى «أشمّي ولا تُنهِكي». وقد انفرد بذكر هذا الحديث من كتب السُنّة الستة أبو داوود نقلاً عن محمّد ابن حسّان. كما أن مسند ابن حنبل لا يذكره. وقد علق أبو داوود عليه قائلاً: «ليس بالقوي، وقد روي مرسلاً. ومحمّد بن حسّان مجهول، وهذا الحديث ضعيف».

وهذا الحديث يتردّد كثيراً في كتابات الفقهاء القدامى والمعاصرين. وهم يفسّرونه بأن النبي أقر ختان الإناث في حدود عدم الإنهاك. فلو رأى فيه مضرّة لمنعه تماماً ولما نعته في حديث آخر بأنه مَكرُمَة. ويرد عليهم الرافضون بأنه، إن صحّت نسبته للنبي، لا يمكن الاستنتاج منه أنه يبيح ختان الإناث. بل إنهم يرون فيه وسيلة لمنع ختان الإناث. يقول العوّا:

«حديث أم عطيّة [...] بكل طرقه لا خير فيه ولا حجّة تستفاد منه. ولو فرضنا صحّته جدلاً، فإن التوجيه الوارد فيه لا يتضمّن أمراً بختان البنات، وإنّما يتضمّن تحديد كيفيّة هذا الختان إن وقع، وأنها (إشمام) وصفه العلماء بأنه كإشمام الطيب، يعني أخذ جزء يسير لا يكاد يحس من الجزء الظاهر من موضع الختان وهو الجلدة التي تسمّى «الغلفة»، [...]. ولا يمكن أن تتم - لو صح جوازها - على أيدي الأطبّاء العاديين فضلاً عن غير المتخصّصين في الجراحة من أمثال القابلات والدايات وحلاّقي الصحّة... الخ، كما هو الواقع في بلادنا وغيرها من البلاد التي تجرى فيها هذه العمليّة الشنيعة للفتيات».

الرواية الثانية المشهورة برواية أم حبيبة

أوّل ذكر لهذه الرواية وجدناه في مقال لحامد الغوّابي الذي نشرته مجلة لواء الإسلام ولكنّه لم يذكر مصدرها. ثم كرّرها جاد الحق، شيخ الأزهر سويّة مع رواية أم عطيّة في فتواه الأولى عام 1981 دون ذكر مصادرهما. وكذلك فعل في فتواه الثانية عام 1994 مع ذكر مصادر عدّة ولكن دون تحديد أي من تلك المصادر تخص رواية أم حبيبة. ونص هذه الرواية في فتوى جاد الحق هو كما يلي:

«إنه عندما هاجر النساء كان فيهن أم حبيبة، وقد عرفت بختان الجواري، فلمّا رآها رسول الله (ص) قال لها: يا أم حبيبة هل الذي كان في يدك. هو في يدك اليوم؟ فقالت نعم يا رسول الله. إلاّ أن يكون حراماً فتنهاني عنه. فقال رسول الله (ص): بل هو حلال، فأدنِ منّي حتى أعلمك. فدنت منه. فقال: يا أم حبيبة، إذا أنت فعلت فلا تُنهِكي، فإنه أشرق للوجه وأحظى للزوج».

ويرد محمّد سليم العوّا على من يستعمل رواية أم حبيبة: «هذا الحديث لا يوجد في كتب السُنّة وليس هناك ذكر فيها لامرأة بهذا الاسم كانت تقوم بهذا العمل. فكلامهم هذا لا حجّة فيه، بل لا أصل له». وفي مقال آخر يقول إن هذه الرواية مُختلقة وأن «أم حبيبة [...] شخصيّة لا وجود لها في كتب تراجم الصحابة ولا في كتب الحديث التي ذكرت هذا الموضوع أصلاً». ومهما يكن من أمر المصادر التي اعتمد عليها جاد الحق وغيره، فإننا نجد رواية أم حبيبة في المصادر الشيعيّة. ولعّل هذا هو السبب الذي من أجله جهل أو تجاهل سليم العوّا وجودها.

كل من رواية أم عطيّة ورواية أم حبيبة تذكر قول النبي على عدم الإجحاف في القطع. إلاّ أنه هناك اختلاف شاسع بين الروايتين. فرواية أم عطيّة تكتفي بذكر عدم الإجحاف. بينما رواية أم حبيبة تضيف سؤالاً وجّهته الخاتنة إلى النبي عمّا إذا كان ما تقوم به حرام ينهاها عنه. فأجاب النبي: «لا بل حلال». يقول الغوّابي تأييداً لختان الإناث: «إن الرسول (ص) لم ينطق عن الهوى. ولو كان لم يقر أم حبيبة على عملها أو استنكر هذا العمل، فلماذا لا ينهاها ويقول لها: لا تختني الجواري؟ وهي قد طلبت منه (ص) أن ينهاها عنه إن كان حراماً. حقاً لئن كان الرسول لا يريده لنهى عنه بدلاً من أن يعلمها طريقة الختان الصحيح ويقول لها: لا تُنهِكي [...]. ولو كان الرسول (ص) يرى في الختان ضرراً وهو الذي يتلقّى الوحي من ربّه، وعلمه من لدنه علما، لنهى عنه نهياً صريحاً».

ب) المشككون في أحاديث الختان

أحاديث غير موثوقة مصدرها اليهود

استعرضنا سابقاً الأحاديث التي يعتمد عليها مؤيّدو ختان الذكور والإناث. وقد ذكرنا أيضاً الشكوك التي تحيط بكل حديث على حدة. وقد استنتج البعض أن هذه الأحاديث لا تصلح لتبرير الختان، ليس فقط ختان الإناث، بل أيضاً ختان الذكور.

فالشوكاني (توفى عام 1834)، بعد أن شكك في تفسير الآية «وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهن» محيلاً «العلم في ذلك على الله سبحانه»، شكك أيضاً في جميع الأحاديث المؤيّدة للختان قائلاً: «الحق أنه لم يقم دليل صحيح يدل على الوجوب». ويقول الإمام شلتوت (توفى عام 1964) معتمداً على الشوكاني:

«وقد خرجنا من استعراض المرويّات في مسألة الختان على أنه ليس فيها ما يصح أن يكون دليلاً على «السُنّة الفقهيّة»؛ فضلاً «الوجود الفقهي». وهي النتيجة التي وصل إليها بعض العلماء السابقين، وعبّر عنها بقوله: «ليس في الختان خبر يرجع إليه ولا سُنّة تتبع» وأن كلمة «سُنّة» التي جاءت في بعض المرويّات معناها، إذا صحّت، الطريقة المألوفة عند القوم في ذلك الوقت، ولم ترد الكلمة على لسان الرسول بمعناها الفقهي الذي عرفت به فيما بعد. والذي أراه أن حُكم الشرع لا يخضع لنص منقول، وإنّما يخضع في الذكر والأنثى لقاعدة شرعيّة عامّة: وهي أن إيلام الحي لا يجوز شرعاً إلاّ لمصالح تعود عليه، وتربو على الألم الذي يلحقه».

ويرد السكري على المشككين في أحاديث الختان قائلاً:

«إن المرويّات التي جاءت في ختان الإناث إنّما هي في جانب الفعل. أمّا جانب الترك فلم يرد فيه دليل واحد لا بالتحريم ولا بالكراهيّة، وكل ما استدل به المانعون هي آراء شخصيّة بعيدة تماماً عن التشريع الإسلامي [...]. وهناك قاعدة فقهيّة عظيمة وهي: إن إعمال الكلام أولى من إهماله متى أمكن ذلك، والأصل في الكلام أن يدل على معنى يريد المتكلم إعلام السامع به. وقد وردت عدّة روايات عن الرسول (ص) في هذا. وقد قصد بها أن يعلم الخاتنة شعاراً من شعائر الإسلام، وقد أمكن ذلك بكثرة المرويّات فيه».

ورغم أن الاهتمام منصب عند الكتاب المسلمين المعاصرين على ختان الإناث إلاّ أننا نجد من يرفض أيضاً ختان الذكور معتبرين أن الأحاديث التي ذكرته هي من الإسرائيليّات.

فقد قام الكاتب المصري عصام الدين حفني ناصف بترجمة مختصرة لكتاب جوزيف لويس: «باسم الإنسانيّة»، وهو معارض أمريكي لختان الذكور، وعنون الترجمة: «الختان ضلالة إسرائيليّة». وكتب له مقدّمة أطول من الترجمة ذاتها عنونها: «بحث

في الختان عند الأمم الإسلاميّة وأنه أثر من آثار الإسرائيليّات في الإسلام». وقد نشر الكاتب المصري محمّد عفيفي تحليلاً مطوّل لهذا الكتاب في مجلة «الهلال» القاهريّة تحت عنوان: «مرشد الحيران في عمليّة الختان». ومن الواضح من عنوان الكتاب الذي ترجمه عصام الدين ومن مقال محمّد عفيفي أنهما يعتبران ختان الذكور عادة يهوديّة تسرّبت إلى الطائفة المسلمة ككثير من العادات والروايات اليهوديّة قام بدسها اليهود الذين أسلموا والتي يطلق عليها لقب «الإسرائيليّات». وقد رأينا سابقاً موقف محمّد عبده ممّن فسّر «الكلمات» التي امتحن الله بها إبراهيم في الآية 124:2 بمعنى سُنَن الفطرة التي من بينها الختان. فهو يقول: «ولا شك عندي في أن هذا ممّا أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزؤاً». وقد ذكرنا كيف أن مصطفى كمال المهدوي اعتبر ختان الذكور أيضاً عادة يهوديّة لا تخص المسلمين، وهي تعبّر عن العقليّة اليهوديّة التي تعتقد بأن الله لا يميّز اليهود عن غيرهم إلاّ بعلامة الختان الخارجيّة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لليهود سابقة تاريخيّة أخرى في محاولة نشر الختان. فقد رأينا كيف أن اليهود الذين أصبحوا مسيحيّين في القرون الأولى حاولوا جاهدين فرض الختان على الوثنيّين الذين تحوّلوا إلى المسيحيّة. ولكنّهم فشلوا في تلك المحاولة لأنهم لم يكونوا يمثلون وزناً كبيراً في الإمبراطوريّة الرومانيّة التي تمنع ممارسة الختان وتعاقب عليه. وقد تصدّى لمحاولتهم هذه القدّيس بولس لأنه رأى فيها صدّاً للوثنيّين عن دخول المسيحيّة. وإذا صحّت نظريّة «الإسرائيليّات»، فهذا يعني أن اليهود قد نجحوا في فرض الختان على المسلمين. ولا عجب في ذلك. فاليهود كانوا يُعتبرون الطبقة المثقّفة في المجتمع العربي في عصر النبي، فهم من «أهل الكتاب» على خلاف الوثنيّين العرب الأميين. والقرآن الكريم يحتوي على الكثير من المأثورات اليهوديّة المأخوذة عن التوراة ولكن بصورة مختزلة. وما كان للعرب الأميين وسيلة لفهم هذه المأثورات دون الرجوع إلى اليهود، خاصّة من أسلم منهم. ونذكر هنا على سبيل المثال كعب الأحبار (توفى عام 652)، وهو من كبار رجال الدين اليهود اليمنيين ومن كبار رواة الحديث عند المسلمين.

الرافضون للسنّة جملة وتفصيلاً

بالإضافة إلى المشككين في أحاديث الختان، هناك تيّار سُنِّي يرفض الاعتماد على السُنّة في تقرير الأحكام جملة وتفصيلاً. وهذا هو الموقف الرسمي لمعمر القذافي الذي لا يقبل الاحتكام إلاّ لنص القرآن. وعلى هذا الأساس أيضاً يرفض القاضي الليبي مصطفى كمال المهدوي ختان الذكور لأن القرآن لم يذكره ولأنه لا يعتد بالسُنّة في هذا الموضوع. وقد سبق أن ذكرنا رأيه في عرضنا لتصادم الختان مع فلسفة القرآن.

وهناك مجموعة مسلمة أسّسها عام 1986 في الولايات المتحدة الدكتور رشاد خليفة، مصري الأصل، الذي اشتهر بنظريّته حول الإعجاز العددي للقرآن، مرتكزا على العدد 19 الذي جاء في القرآن الكريم (المدثر 30:74). ولهذه المجموعة عدد من المراكز في العالم ويبلغ عدد أعضائها قرابة 10.000 شخص أكثريّتهم يحملون الجنسيّة الأمريكيّة وينتمون إلى أجناس مختلفة: مصريّون، وإيرانيون، وأتراك، وأوروبيون، وليبيون، وإندونيسيون، وماليزيون، وغيرهم.

ترفض هذه المجموعة السُنّة ولا تعتمد في تعاليمها إلاّ على القرآن الذي تعتبره كلام الله. وقد شرح رشاد خليفة موقفه الرافض للسُنّة في كتاب صغير، معتبراً الحديث من كلام البشر، لا بل من عمل الشيطان. وعلى أثر إعلانه عن هذا الموقف، سقطت شهرته وصدر ضدّه عدد من الفتاوى تعتبره مرتدّاً. وقد تم اغتياله على يدي أحد المسلمين في عام 1990. وإن لم يتخذ رشاد خليفة نفسه موقفاً محدّداً من ختان الذكور والإناث، إلاّ أن نظريّته قد مهّدت الطريق لذلك. ويجد القارئ صفحة في شبكة الانترنيت كتبها «أديب يوكسل» أحد ممثلي هذه المجموعة حول الختان. ومن بين ما يقوله:

«منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا توجد في العالم الإسلامي ممارسة تدعى ختان الذكور والإناث. وختان الذكور ما هو إلاّ عادة يهوديّة وجدت مثل غيرها من العادات اليهوديّة ضيافة طيّبة في العالم الإسلامي بعد محمّد. هذا الاختراع وهذا التحديث من صنع البشر الذي ليس له وجود في آخر كتب الله، القرآن الكريم، كان لعنة لملايين من أطفالنا الذكور والإناث في العالم الإسلامي.... إن كل دارسي القرآن الصادقين يعرفون الجواب الواضح. إن الله برحمته اللامتناهية لم يغفر ولن يغفر مثل تلك العادة الوحشيّة. فهي عادة ليس لها أي ذكر في القرآن. هذه القوانين والعادات الوحشيّة لا توجد إلاّ في الاختراعات من صنع البشر التي هي الحديث والسُنّة. إن مؤلفي مثل هذا التجديف على الله هم المسؤولون عن هذه الجرائم التي تمارس منذ قرون باسم الله. فمن خلال التاريخ، تصوّرت وسنّت المجتمعات التي يسيطر عليها الذكور قوانين وعادات لكبت الضعفاء والنساء والأطفال... دعونا ننهي هذه الجريمة التي تمارس عبر القرون منذ القديم ضد أولادنا».

3) الختان وشرع من قَبلنا

بالإضافة إلى القرآن والسُنّة، يرى الفقهاء المسلمون قديماً وحديثاً أن شرائع الأنبياء الذين سبقوا رسالة النبي محمّد باقية ويجب على المسلمين إتباعها ما دام أنها لا تخالف نص صريح في القرآن والسُنّة. وهذا ما عبّروا عنه بقولهم: «شرع من قَبلنا شرعنا». ويعتمد مؤيدو ختان الذكور على نص من «إنجيل برنابا». كما أن الفقهاء القدامى وبعض المعاصرين يذكرون رواية ختان هاجر لتأييد ختان الإناث.

أ) إنجيل برنابا

يرجع تأليف هذا الإنجيل إلى القرن الرابع عشر من قبل يهودي أصبح مسيحياً ثم أسلم. ولا تعترف الكنيسة بهذا الإنجيل. وليس له ذكر في كتب الفقهاء المسلمين القدامى الذين كانوا يجهلون وجوده. فقد تعرّف عليه المسلمون بعد نشر نسخته الإيطاليّة مع الترجمة الإنكليزيّة في أوروبا عام 1907 وترجمته من الإنكليزيّة إلى العربيّة التي نشرت في القاهرة عام 1908. ويرى المسلمون أن هذا هو الإنجيل الحقيقي لأنه يذكر نبوّة محمّد. وكثيراً ما يلجأون إليه في كتبهم وفي دعايتهم الدينيّة في الراديو والتلفزيون رغم أن هذا الإنجيل يتناقض مع تعاليمهم خاصّة في الفصل 42 الذي يعتبر محمّداً المسيح الآتي. ويعتمد المؤلفون المسلمون المعاصرون على إنجيل برنابا لتأييد ختان الذكور.

في الفصل 22 من هذا الإنجيل سأل التلاميذ يسوع: «يا معلم لماذا أجبت المرأة (الكنعانية) بهذا الجواب قائلاً إنهم كلاب؟» فرد يسوع: «الحق أقول لكم إن الكلب أفضل من رجل غير مختون». وفي الفصل 23 تفصيل لموقف يسوع جاء فيه:

(1) ولمّا قال ذلك يسوع جلس قريباً من الجبل الذي كانوا يشرفون عليه (2) فجاء تلاميذه إلى جانبه ليصغوا إلى كلامه (3) حينئذ قال يسوع: «إنه لمّا أكل آدم الإنسان الأوّل الطعام الذي نهاه الله عنه في الفردوس مخدوعاً من الشيطان عصى جسده الروح (4) فأقسم قائلاً: تالله لأقطعنك (5) فكسر شظية من صخر وأمسك جسده ليقطعه بحد الشظية (6) فوبّخه الملاك جبريل على ذلك (7) فأجاب: «لقد أقسمت بالله أن أقطعه فلا أكون حانثاً» (8) حينئذ أراه الملاك زائدة جسده فقطعها (9) فكما أن جسد كل إنسان من جسد آدم وجب عليه أن يراعي كل عهد أقسم آدم ليقومن به (10) وحافظ آدم على فعل ذلك في أولاده (11) فتسلسلت سُنّة الختان من جيل إلى جيل (12) إلاّ أنه لم يكن في زمن إبراهيم سوى النزر القليل من المختونين على الأرض (13) لأن عبادة الأوثان تكاثرت على الأرض (14) وعليه فقد أخبر الله إبراهيم بحقيقة الختان (15) وأثبت هذا العهد قائلاً: النفس التي لا تختن جسدها إيّاها أبدّد من بين شعبي إلى الأبد. (16) فارتجف التلاميذ خوفاً من كلمات يسوع لأنه تكلم باحتدام الروح (17) ثم قال يسوع: «دعوا الخوف للذي لم يقطع غرلته لأنه محروم من الفردوس».

ب) رواية ختان هاجر

نقرأ في كتاب الحيوان للجاحظ (توفى عام 868): «الختان في العرب في النساء والرجال من لدن إبراهيم وهاجر إلى يومنا هذا». وهذه الرواية جاء ذكرها في عديد من كتب التراث. فعلى سبيل المثال يقول ابن قيم الجوزيّة في كتابه «تحفة المودود بأحكام المولود»:

«وقد ذكر في حِكمة خفض النساء أن سارة لمّا وهبت هاجر لإبراهيم أصابها فحملت منه فغارت سارة فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء. فخاف إبراهيم أن تجدع أنفها وتقطع أذنها.

فأمرها بثقب أذنيها وختانها. وصار ذلك سُنّة في النساء بعد. ولا ينكر هذا كما كان مبدأ السعي سعي هاجر بين جبلين تبغي لابنها الغوث، وكما كان مبدأ الجمار حصب إسماعيل للشيطان لما ذهب مع أبيه، فشرّع الله سبحانه لعباده تذكرة وإحياء لسُنّة خليله وإقامة لذكره وإعظاماً لعبوديّته».

واضح من المصادر العربية أن هذه الرواية من أصل يهودي. ولكن مهما كان أصلها فإن الفقهاء المسلمين القدامى استعملوها لتبرير ختان الإناث وربطه بهاجر كما تم ربط ختان الذكور بإبراهيم. وبعض مؤيّدي ختان الإناث في أيّامنا ما زالوا يستعملون هذه الرواية في تبرير ختان الإناث.

4) الختان في سُنّة السلف

بالإضافة إلى المصادر الثلاثة السابقة، يرجع المسلمون إلى سُنّة السلف، وخاصّة صحابة النبي، ليروا ما إذا كانوا قد مارسوا ختان الذكور والإناث. ورجوعهم هذا نابع من اقتناعهم أن السلف أقرب إلى منابع النبوّة وأبعد عن تأثير التيّارات الغريبة على الإسلام، خاصّة التيّارات الغربيّة. وهم يعتمدون على القرآن لتبرير موقفهم هذا: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه» (التوبة 100:9). كما يعتمدون على قول للنبي: «أنا أمان لأصحابي، وأصحابي أمان لأمتي». فما موقف السلف من ختان الذكور والإناث قولاً وعملاً؟ هذا ما سنراه الآن.

أ) ليس للسلف موقف ثابت من ختان الذكور

قَبل أن نذكر موقف السلف من ختان الذكر علينا أن نرى ما إذا كان الختان عادة متعارف عليها بين العرب أم لا في زمن النبي.

في رواية البخاري (توفى عام 870) من حديث أبي سفيان عن هرقل (توفى عام 610):

«إن هرقل حين قدم إيلياء (القدس) أصبح خبيث النفس، فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك [...] وكان هرقل جزّاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمّة؟ قالوا: ليس يختتن إلاّ اليهود. فلا يهمّنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود. فبينما هم على أمرهم أُتِي هرقل برجل أرسل به ملك غسّان يخبر عن خبر رسول الله (ص). فلمّا استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه. فحدّثوه أنه مختتن. وسأله عن العرب فقال: هم يختتنون. فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمّة قد ظهر».

ويذكر أن أمرؤ االقيس (توفى تقريباً عام 540) استهجن قيصر، وسخر منه حين دخل معه الحمّام، فرآه أغلف. حيث قال:

إني حلفت يميناً غير كاذبة لأنت أغلف إلاّ ما جنى القمر

وقد ذكرنا سابقاً قول الجاحظ: «الختان في العرب في النساء والرجال من لدن إبراهيم وهاجر إلى يومنا هذا».

يعتمد مؤيدو ختان الذكور على هذه الشواهد ليثبتوا أن العرب كانوا يمارسونه. والواقع أنه لا يمكن تعميم الختان على جميع العرب. فسكان الجزيرة العربيّة قَبل محمّد وفي زمنه كانوا ينتمون إلى ثلاث مجموعات دينيّة رئيسيّة: الوثنيّة واليهوديّة والمسيحيّة. ولم يصلنا أي نص عربي مكتوب قَبل القرآن الكريم يمكن الاعتماد عليه لمعرفة إذا كان العرب يمارسون الختان على مختلف دياناتهم أم لا. ولكن من المؤكد أن يهود الجزيرة العربيّة كانوا يمارسون عادة الختان إتباعاً لتعاليم التوراة. أمّا فيما يخص المسيحيّين، فمن غير المؤكد أن يكونوا قد مارسوه. فقد رأينا كيف أفرِغ الختان من معناه الديني عندهم ولم يعد شرطاً لدخول المسيحيّة إلاّ عند من كان من أصل يهودي وبقي متمسّكاً به. والدكتور المرصفي ذاته يذكر أن الشاعر المسلم جرير (توفى عام 733) قد ذم الشاعر المسيحي الأخطل (توفى عام 710) معيّراً إيّاه بأنه أغلف:

في فتية جعلوا الصليب إلههم حاشاي إني مسلم معذور

والمعذور هو المختون. وقد كتب الأب لويس شيخو (توفى عام 1927):

«الشائع بين الكتبة المحدثين أن العرب قَبل الإسلام كانوا يختتنون. وفي زعمهم هذا نظر فإنَّ لنا عدّة شواهد تثبت أن كثيرين من العرب لم يألفوا الختانة ومن المحتمل أن النصرانيّة أبطلتها بينهم.

أمّا بخصوص العرب الذين كانوا ينتمون إلى الوثنيّة، فمن غير المؤكد بتاتاً أنهم مارسوا الختان. فالتوراة تعتبر العرب شعب غير مختون (أنظر أرميا 25:9). وكذلك الأمر بخصوص الفلسطينيين في نصوص توراتيّة كثيرة. وأمّا شعر أمرؤ القيس الذي استشهد به الدكتور المرصفي فلا يمكن الاعتماد عليه كمصدر تاريخي أكيد. وقصّة هرقل من الملاحم التي لا يمكن الاعتماد عليها. فالتاريخ يبنى على ما هو راجح وما هو في طبيعة الأمور وليس على ما هو خارق للطبيعة. ومن جهة أخرى، رأينا أن ختان النبي محمّد موضع شك بين المؤلفين المسلمين القدامى أنفسهم. وما كان لهم أن يختلفوا في حدث كهذا لو أن العرب كانوا يختتنون. وهناك شواهد تبين أن الختان لم يكن يعمل به بصورة عامّة في العصور الأولى للإسلام، نذكر منها:

«إنّا كنّا لا نأتي الختان على عهد رسول الله»

في مسند أحمد ابن حنبل نقرأ ما يلي: «دعي عثمان بن أبي العاص (توفى عام 671) إلى ختان فأبى أن يجيب. فقيل له، فقال: إنّا كنّا لا نأتي الختان على عهد رسول الله، ولا ندعى إليه».

«ليس لحجّامي بلدنا حذق بذلك، ولا يختنونه يوم السابع»

هناك سؤال وجّه إلى الإمام حسن بن علي يقول:

«إنه روي عن الصادقين عليهم السلام أن أختنوا أولادكم يوم السابع يطهروا، فإن الأرض تضج إلى الله عز وجل من بول الأغلف، وليس جعلني الله فداك لحجّامي بلدنا حذق بذلك، ولا يختنونه يوم السابع، وعندنا حجّامو اليهود فهل يجوز لليهود أن يختنوا أولاد المسلمين أم لا إن شاء الله؟» فوقع عليه السلام: «السُنّة يوم السابع، فلا تخالفوا السُنَن إن شاء الله».

ومن هذا السؤال نستنتج أن اليهود هم الذين كانوا يختنون، وأن العرب غير اليهود لم يكن عندهم من يحذق الختان ممّا يعني أنهم لم يكونوا يمارسونه فلا خبرة لهم فيه. وذكر اليوم السابع للختان علامة واضحة لتأثير اليهود.

«أسلم الناس الأسود والأبيض لم يفتش أحد منهم ولم يختتنوا»

يقول ابن قيّم الجوزيّة:

«قال الحسن البصري (توفى عام 728): قد أسلم مع رسول الله (ص) الناس: الأسود والأبيض، الرومي والفارسي والحبشي فما فتش أحداً منهم، وقال الإمام أحمد، حدّثنا المعتمر عن سلم بن أبي الذيال قال: سمعت الحسن (البصري) يقول: يا عجباً لهذا الرجل، يعني أمير البصرة لقي أشياخاً من أهل كيكر فقال: ما دينكم؟ قالوا: مسلمين. فأمر بهم ففتشوا فوجدوا غير مختونين فختنوا في هذا الشتاء، قد بلغني أن بعضهم مات. وقد أسلم مع النبي (ص) الرومي والفارسي والحبشي فما فتش أحداً منهم».

ويذكر ابن قدامة (توفى عام 1223) عن الحسن البصري «أنه يرخّص في ختان [الذكور]، فهو يقول إذا أسلم لا يبالي أن لا يختتن ويقول: أسلم الناس الأسود والأبيض لم يفتش أحد منهم ولم يختتنوا».

«ليس في باب الختان... سُنّة تتبع»

ناقش ابن قيّم الجوزيّة السن الذي يجب أن يختن فيه الصبي. وقد ذكر في هذا المجال قولاً لابن المنذر: «ليس في هذا الباب نهي يثبت وليس لوقوع الختان خبر يرجع إليه

ولا سُنّة تستعمل». والنووي (توفى عام 1277) ينقل عن ابن المنذر قولاً آخر: «ليس في باب الختان نهي يثبت ولا لوقته حد يرجع إليه ولا سُنّة تتبع والأشياء على الإباحة ولا يجوز حظر شيء منها إلاّ بحجّة ولا نعلم مع من منع أن يختن الصبي لسبعة أيّام حجّة».

«إن الله بعث محمّداً (ص) داعياً، ولم يبعثه خاتناً»

نقرأ في تاريخ الطبري أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (توفى عام 720) كتب إلى الجرّاح بن عبد الله (توفى عام 730) بعدما احتل خراسان: «أنظر من صلى قِبَلك إلى القبلة فضع عنه الجزية. فسارع الناس إلى الإسلام. فقيل للجرّاح: إن الناس قد أسرعوا إلى الإسلام، وإنّما ذلك نفوراً من الجزية، فامتحنهم بالختان. فكتب الجرّاح بذلك إلى عمر. فكتب إليه عمر: إن الله بعث محمّداً (ص) داعياً، ولم يبعثه خاتناً».

وعليه يمكننا أن نقول بأن المجموعة الوحيدة التي مارست ختان الذكور بصورة أكيدة باعتباره واجباً دينيّاً في الجزيرة العربيّة هي الطائفة اليهوديّة، وأن الختان بين المسلمين لم يكن يعتبر واجباً. وقد رأينا سابقاً أن الأحاديث النبويّة حول ختان الذكور هي موضع شك بين الفقهاء المسلمين أنفسهم وقد تكون من الإسرائيليّات التي أدخلها اليهود ومن أسلم منهم في المجتمع الإسلامي أمثال كعب الأحبار.

ب) ليس للسلف موقف ثابت من ختان الإناث

رأينا سابقاً حديث «خاتنة الجواري» الذي يستدل به مؤيّدو ختان الإناث على ضرورته. وهم يردّون على من ضعّف هذا الحديث أن ختان الإناث كان معمولاً به عند السلف. فيذكرون قول الجاحظ في كتابه «الحيوان»: «الختان في العرب في النساء والرجال من لدن إبراهيم وهاجر إلى يومنا هذا». والجاحظ يضيف: «والهند توافق العرب في كل شيء إلاّ في ختان النساء والرجال، ودعاهم إلى ذلك تعمّقهم في توفير حظ الباء». ويذكر أيضاً: «وقد كان رجل من كبار الأشراف عندنا يقول للخاتنة: لا تقرضي إلاّ ما يظهر فقط».

وإن كان واضحاً أن ختان الإناث كان يعمل به في زمن النبي، إلاّ أن كتب التراث لم تذكر لنا أن النبي ختن بناته. فهذه العادة لم تكن عامّة. وابن الحاج يقول: «واختلف في حقّهن هل يخفضن مطلقاً أو يفرّق بين أهل المشرق وأهل المغرب. فأهل المشرق يؤمرون به لوجود الفضلة عندهن من أصل الخلقة وأهل المغرب لا يؤمرون به لعدمها عندهن». وقول ابن الحاج هذا يعني عدم انتشار ختان الإناث بصورة متساوية

بين المسلمين، بل هي عادة محلية محصورة جغرافياً. وحتى يومنا هذا نجد اختلاف في هذا الانتشار فأهل المغرب (المغرب وتونس وليبيا) ودول إسلاميّة أخرى لا تمارس ختان الإناث في عصرنا.

ومن جهة أخرى يظهر أن ختان الإناث لم يكن يمارس على جميع الطبقات بالسواء. فإن كان صحيحاً أن بعض النصوص تتكلم عن «ختان النساء»، إلاّ أن هناك نصوص أخرى تحدّد الختان بالجواري. فالحديث المشهور الخاص بأم عطيّة يقول بأنها «عرفت بختان الجواري»، وفي رواية أخرى بأنها «خفاضة تخفض الجواري». والشيعة تنقل عن جعفر الصادق: «ختان الغلام من السُنّة وخفض الجواري ليس من السُنّة». وفي حديث آخر لجعفر الصادق: «خفض الجارية مَكرُمَة وليس من السُنّة». والباجي (توفى عام 1081) ينقل عن مالك (توفى عام 795): «من ابتاع أمة فليخفضها إن أراد حبسها وإن كانت للبيع فليس ذلك عليه». وكلمتا «الجارية» و «الأمة» تنطبقان عادة على طبقة معيّنة من النساء وليس على جميع النساء.

5) آراء الفقهاء القدامى في الختان

دخلت شعوب مختلفة في الإسلام وكان لا بد من تلقينها التعاليم الدينيّة. فأخذ المهتمّون بالدين صياغة قواعد شرعيّة تحكم تصرّفات البشر في علاقتهم مع الله وفي علاقتهم بين بعضهم البعض. فألفوا في ذلك المجموعات الفقهيّة الضخمة معتمدين في ذلك على المصادر الشرعيّة التي ذكرناها سابقاً. وعندما لم يجدوا حُكماً صريحاً اعتمدوا على القياس كوسيلة لاستنباط الأحكام. وآراء الفقهاء لها أهمّية في الشريعة الإسلاميّة. فإجماعهم يعتبر أحد مصادر الشريعة الإسلاميّة. والذي يهمّنا هو معرفة ما إذا توصّل الفقهاء القدامى إلى رأي موحّد في مجال الختان أم اختلفوا فيما بينهم.

أ) قلة اهتمام الفقهاء القدامى بموضوع الختان وتناقض مواقفهم

المتبحّر في الموسوعات الفقهيّة الضخمة لا بد أن يستغرب قلة تعرّضها لختان الذكور والإناث. حتى أنك لتبحث عن كلمة الختان فتكاد لا تجدها فيها. وإن وجدتها فبصورة عرضيّة وهامشيّة، ضمن موضوعات أخرى مثل السواك أو العقيقة أو ضمان المستأجر لما يقوم به. وتعجب عندما ترى أن السواك والعقيقة تحتل مكاناً أكبر من الختان في تلك الكتب. وعلى سبيل المثال، يكرّس الغزالي (توفى عام 1111) في موسوعته الضخمة «إحياء علوم الدين» خمسة أسطر عن الختان. والفتاوى الهنديّة (ألفت بين 1664-1672) سبعة عشر سطراً. والكتاب الوحيد الذي توسّع في موضوع الختان هو كتاب «تحفة المودود بأحكام المولود» للفقيه الحنبلي ابن قيّم

الجوزيّة الذي كرّس فصلاً كبيراً لهذا الموضوع. وابن قيّم الجوزيّة يجمل لنا المواقف المتضاربة للفقهاء الذين سبقوه وعاصروه حول الختان.

وإذا نظرت في كتب تفسير القرآن مثل «تفسير الطبري» و «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي وشروحات السُنّة مثل «فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري» لابن حجر و «نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار» للشوكاني، ترى أن هذه الكتب تعطينا صورة لا تختلف عن موقف الفقهاء. فهي تنقل لنا مواقف متباينة حول موضوع الختان ممّا يجعل المرء في حيرة فيما يختار منها. وقد رأينا في الفصول السابقة كيف أن الفقهاء المسلمين اختلفوا وما زالوا يختلفون في فهمهم لنصوص القرآن والسُنّة.

ولا عجب في وجود تناقض حول موضع الختان بين الفقهاء ومفسّري القرآن والحديث ما دام القرآن والسُنّة، المصدران الأساسيان للشريعة، لم يوجّها خطاباً واضحاً يمكن الاستناد عليه. فإذا اضطرب الأساس، فالفروع تأتي على شاكلته.

ب) نبذات من آراء الفقهاء القدامى

سوف نعطي هنا بعض الأمثلة من مواقف الفقهاء مع ذكر مذاهبهم، مرتبين حسب سنة وفاتهم. وسنعود إلى هؤلاء الفقهاء عند تكلمنا عن حجج المؤيّدين والمعارضين والنتائج المترتبة على ترك الختان وعلى كيفيّة إجراء عمليّة الختان.

ابن الجلاب (توفى عام 988، مالكي)

«قال مالك رحمه الله: وعشر خصال من الفطرة، خمس في الرأس وخمس في الجسد: فاللواتي في الرأس: المضمضة والاستنشاق والسواك وقص إطار الشعر والشارب وإعفاء اللحية، والتي في الجسد حلق العانة ونتف الإبطين وتقليم الأظافر والاستنجاء والختان وهو سُنّة في الرجال والنساء».

الطوسي (توفى عام 1067، شيعي)

«يستحب أن يختن الصبي اليوم السابع، ولا يؤخّر. فإن أخّر لم يكن فيه حرج إلى وقت بلوغه. فإذا بلغ، وجب ختانه ولا يجوز تركه على حال. وأمّا خفض الجواري، فإن فُعِل، كان فيه فضل كبير وثواب جزيل، وإن لم يفعل، لم يكن بذلك بأس. ومتى أسلم الرجل وهو غير مختون ختن وإن كان شيخاً كبيراً».

النزوي (توفى عام 1162، اباضي)

«إن الختان واجب على كل مسلم لقول النبي (ص) لعبد الله بن عبّاس حين أسلم، ألق عنك شعر الكفر واختتن. قال قتادة وسمعته يأمر من أسلم أن يختتن ولو كان ابن ثمانين سنة، ولمن

أسلم أن يظهر فرجه لرجل أن يختنه. للرجل ذلك، لأنه ضرورة، إلاّ أنه يستر فرجه إلاّ موضع الختان. ومن أمر بالختان فلم يفعل قتل، ولا يقتل حتى يبالغ في التأنّي به. وأمّا النساء فليس عليهن واجباً ويؤمرن بذلك إكراماً لأزواجهن وليس هن كالرجال فالختان للنساء مَكرُمَة وللرجال سُنّة وقيل فريضة».

ابن قدامة (توفى عام 1223، حنبلي)
«أمّا الختان فواجب على الرجال ومَكرُمَة في حق النساء وليس بواجب عليهن».

النووي ((توفى عام 1277، شافعي)
«الختان واجب على الرجال والنساء عندنا».

ابن مودود الموصلي (توفى عام 1284، حنفي)
«الختان للرجال سُنّة وهو من الفطرة وهو للنساء مَكرُمَة فلو اجتمع أهل مصر على ترك الختان قاتلهم الإمام لأنه من شعائر الإسلام وخصائصه».

ابن جزي (توفى عام 1340، مالكي)
«أمّا ختان الرجل فسُنّة مؤكدة عند مالك وأبي حنيفة (توفّى عام 767) كسائر خصال الفطرة التي ذكر معها وهي غير واجبة اتفاقاً. وقال الشافعي هو فرض ويظهر ذلك من كلام سحنون (توفّى عام 854) لأنه علم على الإسلام لقوله تعالى «أن اتبع مِلة إبراهيم حنيفاً» (النحل 113:16) وجاء في الحديث «إن إبراهيم عليه السلام اختتن بالقدوم وهو ابن ثمانين سنة، وروي ابن مائة وعشرين سنة».

نلاحظ ممّا سبق أن ختان الذكور أعتُبر أكثر أهمّية من ختان الإناث. فأكثر الفقهاء المسلمين أخذوا موقفاً متزمّتا من ختان الذكور فاعتبروه واجباً.

6) الحجج الدينيّة الفرعيّة التي يرتكز عليها الفقهاء والمفكرون

بالإضافة إلى الحجج الأساسيّة التي ذكرناها في الفصول السابقة، يعتمد مؤيّدو ومعارضو ختان الذكور والإناث على حجج فرعيّة نذكر منها.

أ) التطهير من النجاسة

تنقل الشيعة أحاديثاً عن النبي تعتبر بول الأغلف نجساً ذكرناها سابقاً. وفي هذا المعنى يقول الصادق: «أختنوا أولادكم لسبعة أيّام فإنه أطهر وأسرع لنبات اللحم وأن الأرض لتكره بول الأغلف». ويقول ابن جزي:
«الغرلة وهي ما يقطع في الختان نجسة لأنها قطعت من حي فلا يجوز أن يحملها المصلي ولا أن تدخل المسجد ولا أن تدفن فيه وقد يفعله بعض الناس جهلاً منهم».

ويرى ابن قيّم الجوزيّة أن الشيطان يختبئ في غرلة الرجل. وقطعها تطهير له. فهو يقول:

«أي زينة أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحد من جلدة الغلفة وشعر العانة وشعر الإبط وشعر الشارب وما طال من الظفر. فإن الشيطان يختبئ تحت ذلك كله ويألفه ويقطن فيه».

واعتماداً على هذا الاعتقاد، يرى الفقهاء أن ختان الذكور ضروري لإتمام الطهارة التي بدونها لا تصح الصلاة. وهم بذلك يطبّقون القاعدة التي تقول «ما أدّى إلى الواجب فهو واجب». وما زال الكتاب المسلمون المعاصرون يعيدون علينا ذلك. وترى الدكتورة نور السيّد رشاد ضرورة ختان الإناث أيضاً لنفس السبب، وهو ما لم يقل به أحد من الفقهاء القدامى. وبالإضافة إلى كون غسل الغلفة ليس بالصعوبة التي يتصوّرها الكتاب المسلمون، نشير هنا إلى أن بعض الفقهاء القدامى رفضوا التعلل بحجّة ضرورة الختان للطهارة والصلاة. ينقل ابن قيّم الجوزيّة:

«إنّما يلام عليه إذا كان باختياره. وما خرج عن اختياره وقدرته لم يلم عليه ولم تفسد طهارته، كسلس البول والرعاف وسلس المذي. فإذا فعل ما يقدر عليه من الاستجمار والاستنجاء لم يؤاخذ بما عجز عنه».

هذا ويقول العبّودي أنه «لا يمكن أن يبقى (الطفل في الإمارات) بعد سن السادسة أو السابعة من العمر بدون ختان لأسباب كثيرة، أهمّها أسباب دينيّة، إذ يعتبر في نظر المسلمين غير طاهر ولا يجوز له دخول المسجد ولا تُقبل صلاته». ويضيف أن من جاوز هذا العمر «يصبح عرضة للنقد بين الرجال والنساء وأيضاً الصبيان. فكثيراً ما يسمع كلمات نابية، حيث يطلق عليه في بعض الأحيان لقب «بانيان» ويقصد بالبانيان من هم على ديانة البوذية.

ب) شعار المسلمين ومخالفة لشعارات الكفر

يرى مؤيّدو الختان أنه من شعار الدين، وبه يعرف المسلم من الكافر، حتى لو وجد مختون بين جماعة قتلى غير مختونين صلي عليه ودفن في مقابر المسلمين. وقد رُد عليه إن ما أدّعي في المقتول مردود لأن اليهود وكثيراً من النصارى يختنون. ورغم ضعف هذه الحجّة التي نجدها أيضاً عند اليهود، ما زال الكتاب المسلمون في أيّامنا يعيدونها علينا. وهناك من يعتبر ليس فقط ختان الذكور، بل أيضاً ختان الإناث من علامات الإسلام. وهذه الفكرة تتناقلها العامّة في مصر رغم أن المسلمين والمسيحيّين هناك يختنون ذكورهم وإناثهم.

ج) العُرف

العرف أحد مصادر الشريعة الإسلاميّة. فما يبيحه العرف يعتبر مباحاً في الشريعة الإسلاميّة في حدود معيّنة. يقول السكري دفاعاً عن ختان الذكور والإناث:

«لقد كان ختان الذكور والبنات ولا يزال عرفاً جرت به العادة بين البشر منذ زمن بعيد. فأصبح مألوفاً بينهم سائغاً في مجرى حياتهم. ودليل هذا أن أمّهاتنا وجدّاتنا وجدّاتهن وهكذا كن يختتن على مدى عشرات السنين ولم يحدث من الأضرار المدّعاة شيئاً. ومن ثم كان هذا العرف سائغاً لديهم. وقد بنت الشريعة الإسلاميّة كثيراً من أحكامها على العرف الصحيح وهو الذي استوفى شرائطه الثلاثة فيكون عرفاً صحيحاً وهو ما لا يحل حراماً ولا يحرّم حلالاً. فالإمام مالك بنى كثيراً من أحكامه على عرف أهل المدينة. والإمام الشافعي بنى كثيراً من أحكام مذهبه الجديد على عرف أهل مصر. وهذا النوع تجب مراعاته في الإفتاء والقضاء».

ويرد العوّا على دعوى العُرف قائلاً: هذا منهج شديد الخطر بالغ الخطأ.

«فهو شديد الخطر لأن الأعراف الإنسانيّة ليست كلها- في أي بلد كان - موافقة للشرع، بل إن فتاوى العلماء فيها ما يوافق النصوص، وفيها ما يحتاج إلى نظر، وليس فتاوى علماء البلدان الإسلاميّة الأخرى أولى بالإتباع من فتاوى علمائنا، والعرف الذي لا يخالف الشرع دليل محلي لا ينقل عمله من موطنه إلى موطن آخر. ولا حجّة على كل حال في عرف لا يتفق مع الشرع إذا وجد في بلادنا أو في غيرها من البلاد. فهو عرف فاسد بتعبير الفقهاء. والذي يُعوّل عليه هو العرف الصحيح الذي لا يصادم نصّاً أو إجماعاً دون سواه».

7) النتائج المترتبة على عدم الختان في الشريعة

كما هو الأمر عند اليهود، يرى رجال الدين المسلمون أن الله هو المشرّع الذي يسن ما يجب على المرء عمله أو تفاديه. وكما عند اليهود، مخالفة الشريعة لها عواقبها. فالشيخ الشعراوي (توفى عام 1998) يقول فيمن يرفض تطبيق الشريعة الإسلاميّة:

«وأنا لو لي من الأمر شيء، أو لي من حُكم تطبيق منهج الله شيء لأعطيت سنة حرّية فيمن يريد أن يرجع عن إعلان إسلامه أن يقول: أنا غير مسلم. وأعفيه من حُكم الدين في أن أقتله قتل المرتد».

وقد تم فعلاً قتل المفكر المصري فرج فودا في 7 يونيو 1992 على يد شخص ينتمي إلى جماعات إسلاميّة بسبب موقفه الرافض من تطبيق الشريعة الإسلاميّة. وقد برّر الشيخ محمّد الغزالي (توفى عام 1996) هذا القتل في شهادته أمام محكمة أمن الدولة المصريّة.

وكما هو الأمر بالنسبة للأوامر الدينيّة الأخرى، للختان نتائج تختلف حسب تصنيفه الفقهي. فالذين يعتبرون الختان أمراً مباحاً، لا يرتبون على تركه أيّة نتيجة. والذين يعتبرونه مستحبّاً (أو مندوباً)، يأثمون من يتركه. والذين يعتبرونه واجباً، يبنون على

ذلك عواقب وخيمة تصل إلى قتل من يتركه، كما أنهم يقدحون في صلاته وإمامته للصلاة وشهادته وذبيحته وزواجه ويرفضون دفنه في مقابر المسلمين. أمّا الذين يحرّمون الختان، خاصّة ختان الإناث، فإنهم يرون ضرورة معاقبة من يقوم به.

أ) الختان بين المباح والمستحب

إن الذين يقولون أن الختان مباح أو مستحب، (أو مندوب) يعنون فقط ختان الإناث الذي يدور الجدل حوله. أمّا ختان الذكور، فهو في نظرهم من المسلمات. والذين يبيحون أو يستحبّون ختان الإناث قديماً أو حديثاً، يرون أن القرار ليس بيد من تمارس هذه العمليّة عليها، بل بيد وليّها الذي قد يكون والدها عندما تكون قاصرة، أو زوجها بعد بلوغها. فإذا قرّر الولي ذلك، فهو يفرضه عليها فرضاً.

يقول الدكتور زكريّا البرّي:

«إن عدم ختان المرأة لا يترتب عليه إثم ديني، إذا كان بناء على ما يرجّحه المسلم أو يطمئن إليه على ضوء النصوص الدينيّة، ونصيحة الطبيبات والأطبّاء والأمناء المختصّين».

ويقول الدكتور محمّد رمضان:

«ليس هناك دليل شرعي قوي يوجب أو يؤكد على ممارسة هذه العمليّة - ختان أو خفض البنات - بل لا يوجد ما يدل على أنه سُنّة. حتى لو أخذنا بالروايات الضعيفة الواردة، فكل ما تؤدّي إليه أنه مباح. وتارك المباح أو المندوب في رأي الفقهاء ليس عليه إثم».

ب) الختان واجب يجبر ويقتل تاركه

التيّار الذي يرى وجوب الختان يقول بإمكانيّة تنفيذه جبراً على البالغ الذي يرفض ذلك. وإذا أمعن في رفضه دون عذر مقبول، يحق قتله. وهذا ينطبق على ختان الذكور، وعند بعضهم أيضاً على ختان الإناث. يقول النزوي (توفى عام 1162):

«إن الختان واجب على كل مسلم لقول النبي (ص) لعبد الله بن عبّاس حين أسلم، ألق عنك شعر الكفر واختتن. قال قتادة وسمعته يأمر من أسلم أن يختتن ولو كان ابن ثمانين سنة [...]. ومن أمر بالختان فلم يفعل قتل، ولا يقتل حتى يبالغ في التأنّي به، وأمّا النساء فليس عليهن واجباً ويؤمرن بذلك إكراماً لأزواجهن وليس هن كالرجال فالختان للنساء مَكرُمَة وللرجال سُنّة وقيل فريضة».

يذكر ابن مودود الموصلي (توفى عام 1284) عن الطحاوي (توفى عام 933) قوله:

«والختان للرجال سُنّة وهو من الفطرة وهو للنساء مَكرُمَة فلو اجتمع أهل مصر على ترك الختان قاتلهم الإمام لأنه من شعائر الإسلام وخصائصه».

وفي عصرنا، أعاد شيخ الأزهر جاد الحق هذه العبارة في فتواه الأولى مرّتين وأمّا في فتواه الثانية، فقد أعادها ثلاث مرّات. وهذا الأمر ينطبق حسب هذه الفتوى على ختان الذكور وختان الإناث. أمّا القرضاوي، فيسن القتال فقط على من يرفض ختان الذكور:

«أمّا الختان للذكور فهو من شعائر الإسلام، حتى قرّر العلماء أن الإمام لو رأى أهل بلد تركه لوجب عليه أن يقاتلهم حتى يعودوا إلى هذه السُنّة المميّزة لأمّة الإسلام».

ج) القدح في صلاة وإمامة وحج وشهادة وذبيحة الأغلف

يقدح الفقهاء في صلاة وإمامة وشهادة وحج وذبيحة الأغلف إذا كان راغباً عن الختان. يروى الشيخ الصدوق (توفى عام 991) حديث لأبي الجوزاء:

«الأغلف لا يؤم القوم وإن كان أقرأهم لأنه ضيّع من السُنّة أعظمها ولا تُقبل له شهادة ولا يُصلي عليه إذا مات إلاّ أن يكون ترك ذلك خوفاً على نفسه».

وينقل ابن قدامة قول ابن عبّاس (توفى عام 687): «لا تؤكل ذبيحة الأغلف، وعن أحمد مثله» ولكنّه يضيف:

«والصحيح إباحته فإنه مسلم فأشبه سائر المسلمين. وإذا أبيحت ذبيحة القاذف والزاني وشارب الخمر مع تحقيق فسقه، وذبيحة النصراني وهو كافر أغلف، فالمسلم أولى».

ويرى الرستاقي (القرن 17) ضرورة إعادة صلاة الأغلف:

«سئل عبد الله عن الرجل يبقى من ختانه شيء لم يكن أوتي عليه أيكون أغلف أم لا. قال إن كانت الحشفة ظاهرة أو شيء منها فليس هو أغلف. وإن لزمه إعادة الختان لزمه بدل الصلوات التي صلاّها وهو أغلف مذ بلغ رجلاً. وأمّا شهر رمضان فلا نرى عليه فيه إعادة».

وما زال الكتاب المسلمون يكرّرون علينا في أيّامنا ضرورة الختان للصلاة. ومنهم من يضيف لختان الذكور ختان الإناث.

د) القدح في زواج الأغلف

توسّع الرستاقي في هذا الموضوع. فهو يقول إنه إذا تزوّج أغلف بامرأة ودخل بها قَبل أن يختتن، فرّق بينهما. وإذا اختتن بعد زواجه ولكن قَبل أن يدخل بها، فهناك رأيين: رأي لا يفرّق بينهما، ورأي يفرّق بينهما ويفرض عليه أن يتزوّجها بعد الختان بنكاح جديد. وإذا كان للزوج عذر لعدم الختان كالمشرك الذي يسلم في الشتاء فخاف على نفسه إذا اختتن من البرد، هناك من يقبل عذره وهناك من لا يقبله. والمسلم الأغلف لا يحق له الزواج لا من مسلمة ولا من ذمّية «لأنه ما لم يختتن فيشبه [...] المجوسي من المشركين لا بأهل الكتاب. قال النبي: من تشبّه بقوم فهو منهم». ويذكر الرستاقي هنا قول ابن عبّاس أن الأغلف لا يزوّج. ويضيف الرستاقي أن الأغلف المسلم لا ولاية له،

لا بتزويج نفسه ولا بتزويج أحد من نسائه. فإن زوَّج الأغلف امرأة فُرّق بينها وبين زوجها إلاّ إذا دخل فيها. وإن كان الأغلف أحد الشاهدين على النكاح لم يجز النكاح.

وفيما يخص ختان الإناث، يقول البهوتي (توفى عام 1641) إن للزوج الحق في إجبار زوجته المسلمة عليه كإجبارها على الصلاة. وقد أيّد السكري هذا الرأي في أيامنا. وقد ذكر بوحديبة: «وقد تقبّلت تونس في السنوات الأخيرة احتمال زواج المسلمة بغير المسلم، والغريب أن ما استهجنه البعض انحصر في كيفيّة مضاجعة رجل غير مختن لامرأة مسلمة».

هـ) حالات تجريم الختان

ختان الذكور والإناث عمليّة مؤلمة تؤدّي إلى قطع عضو سليم. وهذا بحد ذاته لم يعتبره الفقهاء القدامى محل تأثيم أو عقاب إذ يدخل فيما تأمر به الشريعة أو تبيحه في حدود تعارف عليها الفقهاء، وهي عند الذكر قطع الغلفة، وعند الأنثى قطع جزء من الجلدة التي تكون في أعلي الفرج دون استئصال عملاً بالحديث «أشمّي ولا تُنهكي». ولكن عمليّة الختان قد تؤدّي إلى الخروج عن هذه الحدود. فبدلاً من قطع الغلفة قد يتم قطع الحشفة. كما أنها قد تؤدّي إلى الوفاة. وقد تعرّض الفقهاء لهذه الحالات لتحديد «الضمان»، أي مدى مسؤوليّة الختان وولي الأمر في حال تعدّي الحدود. وهم يعيرون اهتماماً أكبر بختان الذكور من ختان الإناث. وحديثاً أخذ التيّار المعادي لختان الإناث يطالب في تجريم جميع أنواع ختان الإناث. ولكن مؤيّدو ختان الإناث يرفضون فكرة تجريمه والرضوخ للقانون الوضعي. يقول السيّد:

> «يقول قائلهم: ختان الإناث جريمة يعاقب عليها القانون. ويحق للمرء أن يسأل أي قانون هذا يقصد؟ أمّا قانون السماء فقد عرفنا وتعلمنا أنه يستحب ختان النساء، ويجعله مَكرُمَة لهن وطهرة. ولم يبقى إلاّ قانون الأرض. والمؤمن لا يعتد إلاّ بحُكم الله ورسوله (ص). ومتى كان الاستدلال بالقانون الأرضي في وجود حُكم السماء، على لسان رسول الله (ص)؟»

8) عمليّة ختان الذكور والإناث

أ) الشخص الذي يتم الختان عليه

قلنا سابقاً أن الختان لم يكن معمولاً به بصورة شاملة في العصور الأولى. ولكن سرعان ما أعتبر الختان علامة للإسلام. وهناك من اعتبره واجباً على كل من يولد مسلماً أو يتحوّل إلى الإسلام. ومنهم من تسامح فيه فرفعه في حالة الخوف من الهلاك ومنهم من تشدّد وفرضه حتى في هذه الحالة. وقد رأينا أن موقف الفقهاء من ختان

الإناث كان أكثر تسامحاً من ختان الذكور. ونحن نعطي هنا الاعتبارات المختلفة التي أخذ بها الفقهاء.

كل مولود مسلم؛ سن الختان

كل مولود مسلم يجب ختانه. والمسلم هو كل من كان أحد أبويه مسلماً. ونشير هنا إلى أن بعض الفقهاء يستثنون المجنون من وجوب الختان لأنه ليس من «أهل الوجوب». وبعضهم الآخر قال بأن على ولي المجنون ختنه.

وإذا كان اليهود يفرضون الختان في ميعاد محدّد، فإن المسلمين اختلفوا في سن الختان. وفي أكثر الأحيان يذكر الفقهاء القدامى ميعاد الختان دون تحديد ما إذا كانوا يعنون بذلك ختان الذكور أم الإناث.

بعد أن استعرض آراء الفقهاء المتناقضة من الختان وشكك في وجوبه، يقول الباجي:

> «إذا ثبت ذلك [أي وجوب الختان] فإن وقت الاختتان الصبا على ما اختاره مالك وقت الاثغار. وقيل عن مالك من سبعة سنين إلى العشرة. قال ولا بأس أن يعجّل قَبل الاثغار أو يؤخّره وكل ما عجّل بعد الاثغار فهو أحب إلي. وكره أن يختن الصبي ابن سبعة أيّام وقال هذا من فعل اليهود».

وفيما يخص سن الختان عند الشيعة، نقرأ عند العاملي (توفى عام 1692): «سألت أب الحسن عن ختان الصبي لسبعة أيّام من السُنّة هو، أو يؤخّر فأيهما أفضل؟ قال: لسبعة أيّام من السُنّة، وإن أخّر فلا بأس». ويذكر حديثاً للنبي: «أختنوا أولادكم يوم السابع فإنه أطهر وأسرع لنبات اللحم».

وفيما يخص سن الختان في عصرنا يقول المرصفي بعد استعراض آراء الفقهاء القدامى بأن الختان واجب بعد البلوغ حتماً. أمّا قَبل البلوغ فليس له وقت محدّد وأنه لا مانع من ختانه في أي وقت من حين ولادته إلى البلوغ ولكن الوقت المفضّل هو الأيّام السبعة الأولى لأن الوليد يكون قليل الشعور بالألم والجراح تكون أسرع التئاماً.

وبخصوص ختان الأنثى، يرى السكري أنه يجب أن لا يقل سن البنت عن سبع سنوات إذا كانت بصحّة جيّدة وإلاّ فعشر حتى تستطيع أن تتحمّل إجراء هذه العمليّة بخلاف الذكر فإنه يجوز يوم السابع من ولادته.

وقد جاء في إحدى الدراسات أن في مصر يتم ختان الذكور بين 7 و 40 يوماً، أو بين سنة وسنتين. أمّا ختان الإناث فيتم بين خمسة سنين إلى اثنا عشرة سنة. ويفسّر العامّة

هذا الاختلاف بأن ختان الإناث أكثر ألماً ولذا يؤخّر ختانها حتى تتحمّل الألم. ولهم أيضاً تفسير آخر يقول إن البظر يظهر في زمن البلوغ وأنه يكبر إذا قطع قُبل ذلك في الصغر. ولا يترك البظر لبعد سن العاشرة لأنه يحتك بالملابس. وبعض النساء أوضحت أنه تم ختانهن مرّتين وأن أمّها ختنت ثلاث مرّات. ونشير إلى أن هناك من يختن أولاده جميعاً في يوم واحد اقتصاداً لمصاريف الحفلة. فيكون بين الأولاد الكبير والصغير.

وقد سمعت عن عادة من أستاذ في جامعة عدن أنه في بعض المناطق اليمنيّة تجرى عمليّة الختان قَبل الزواج بقليل. وعلى الرجل أن يتحمّل هذه العمليّة بشجاعة حتى يثبت رجولته للفتاة التي يريد أن يقترن بها. وقد فسّر الأستاذ المذكور سبب التأخير في إجراء هذه العمليّة بأن الشباب والشابّات قليلاً ما يتلاقون قَبل الزواج. ويكونوا في حالة هياج عند لقائهم لأوّل مرّة بعد عقد الزواج وقد يكون دخول العريس بزوجته في ليلته الأولى أشبه بالاغتصاب. لذا فإن عمليّة الختان التي تجرى قَبل الزواج تجبر الزوجين في أوّل أيّامهما الزوجيّة على التعارف والتلاطف حتى يشفى جرح الختان قبل أن يمارسا العلاقات الجنسيّة.

وكتب الأستاذ أحمد محمّد جمال في كتابه «يسألونك» أن أحد الحضور في نادي جيزان الأدبي (في السعوديّة) قد ذكر له أن عمليّة الختان في هذه المدينة تجرى على الشاب بعد أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره، وتقام له حفلة أو مأدبة وتدّق له الطبول كأنه احتفال بزواج. فاستنكر الأستاذ هذا التأخير في إجراء الختان ورأى أنه يجب أن يتم «كما هو مطلوب عند العلماء - في اليوم السابع أو الرابع عشر أو الحادي والعشرين من عمر المولود، فذلك أفضل وأخف إيلاماً للطفل، وأسرع شفاءاً للجراحة الحاصلة بسببه».

تأخير الختان في حالة المرض وخوف الموت

يذكر ابن قيّم الجوزيّة أن الختان يمنع في حالة خوف التلف:

«ظاهر كلام أصحابنا أنه يسقط وجوبه فقط عند خوف التلف. والذي ينبغي أن يمنع من فعله ولا يجوز له. وصرّح به في شرح الهداية: فقال يمنع منه. ولهذا نظائر كثيرة، منها الاغتسال بالماء البارد في حال قوّة البرد والمرض، وصوم المريض الذي يخشى تلفه بصومه وإقامة الحد على المريض والحامل وغير ذلك. فإن هذه الاعذار كلها تمنع إباحة الفعل كما تسقط وجوبه».

ويقول النزوي (توفى عام 1162): «إذا كان عادة قوم أنهم إذا اختتنوا ماتوا، معروفين بذلك، فإنهم لا يختتنون ويتركون. وإن ماتوا صلي عليهم، وحُكمهم الطهارة لأن هذا عذر».

ويرى الدكتور عبد الرحمن القادري عدم الختان في الحالات التالية:

1) يمنع ختان الطفل عندما يكون مصاباً بالتهاب الكبد الانتاني الذي يكون اليرقان أحد تظاهراته.
2) يمنع ختان الطفل عندما يكون مصاباً بأحد الأدواء النزفيّة كنقص فيتامين أو عندما يكون مصاباً بالناعور حتى تصلح تلك الأدواء ونقوم بإعطاء الطفل المواد الناقصة لديه والتي لها دور في إحداث التخثر.
3) عندما يكون المختتن مصاباً بأحد الأمراض المنتقلة بالجنس. ففي حالة إصابته بأحد الأمراض التي يمكن معالجتها مثل الإفرنجي الخلقي أو الكسبي علينا المعالجة أوّلاً وبعدها الختان. أمّا في حال إصابته بالإيدز فلا نرى فائدة من القيام بختانه.

الذي يعتنق الإسلام

يستعرض الباجي أقوال الفقهاء فيمن يعتنق الإسلام فيقول:

«أختلف في الشيخ الكبير يسلم فيخاف على نفسه من الاختتان. فقال محمّد بن الحكم له تركه وبه قال الحسن بن أبي الحسن البصري. وقال سحنون لا يتركه وإن خاف على نفسه كالذي يجب عليه القطع في السرقة أنه لا يترك قطعه من أجل أنه يخاف على نفسه. وهذا من سحنون يقتضي كونه واجباً متأكد الوجوب والله أعلم. وروى ابن حبيب عن مالك من تركه من غير عذر ولا عِلة لم تجز إمامته ولا شهادته ووجه ذلك عندي أن ترك المروءة مؤثر في رد الشهادة ومن ترك الختان من غير عذر فقد ترك المروءة فلم تُقبل شهادته».

وفيما يخص الشيعة، يذكر العاملي حديثاً لعلي: «إذا أسلم الرجل اختتن ولو بلغ ثمانين سنة». كما يذكر عن المرادي أنه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الجارية تسبى من أرض الشرك فتسلم فيطلب لها من يخفضها فلا يقدر على امرأة. فقال: أمّا السُنّة فالختان على الرجال، وليس على النساء». ويقول المحقّق الحلي (توفى عام 1227): ولو أسلم كافر غير مختتن وجب أن يختن ولو كان مسنّاً. ولو أسلمت امرأة لم يجب ختانها واستُحب. ويقول زين الدين الجبعي العاملي: «يستحب خفض النساء وإن بلغن. قال الصادق: خفض النساء مَكرُمَة وأي شيء أفضل من المَكرُمَة».

وفي عصرنا، نجد نوعاً من التشدّد في الختان. يقول أحمد أمين (توفى عام 1954) في قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصريّة الذي كتبه عام 1950:

«يولي المصريّون الختان أهمّية كبرى، حتى لقد بلغني أن قبيلة سودانيّة أرادت الدخول في الإسلام فكتب رئيسها إلى بعض علماء الأزهر يستوضحه الإسلام وما يفعله أفراد قبيلته لدخولهم في الإسلام. فكتب إليه العالم الأزهري قائمة بما يجب أن يعملوه. فكان أوّلها الختان، فرفضت القبيلة أن تسلم، وقد كانت هذه المسألة قلة ذوق».

وقد سئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلميّة والإفتاء السعوديّة بأن نصرانياً وزوجته أرادا الدخول في الإسلام فأمرهما مقدّم الاستفتاء بغسل البدن وبالنطق بالشهادتين عن طوع ورضا واستسلام والختان. فهل هذا صحيح أو لا؟ وكان رد اللجنة عن الختان ما يلي:

«[...] وأمّا الختان فواجب على الرجال ومَكرُمَة في حق النساء لكن لو أخّرت دعوة من رغب في الإسلام إلى الختان بعض الوقت حتى يستقر الإسلام في قلبه ويطمئن إليه لكان حسناً خشية أن تكون المبادرة بدعوته إلى الختان منفرة له من الإسلام».

من ولد أو أسلم مختوناً

يقول النزوي: «وإذا خلق الله احليل إنسان مكشوف الحشفة كالختان لم يجب عليه الختان لأن القصد بالختان إظهار الحشفة فإذا ظهرت فقد وجدت البغية».

ويقول ابن الحاج: «واختلف إن ولد مختوناً هل يختن أم لا على قولين: فمنهم من قال هذه مؤنة كفانا الله إيّاها فلا حاجة تدعو إلى فعلها ولأن كشف العورة من كبير وصغير لا يباح إلاّ لضرورة شرعيّة والضرورة معدومة والحالة هذه. وقال بعضهم لا بد من إجراء الموسى عليه ليقع الامتثال».

وبعد أن ذكر الجدل حول ختان من ولد مختوناً يضيف الحطاب (توفى عام 1547): «يجري على الأقرع في الحج». أي أنه يريد معاملته معاملة الأقرع الذي يمر الموسى على رأسه في الحج مع أنه لا شعر له.

وامرار الموسى على من يولد مختوناً أمر متفق عليه في المصادر الشيعة. يروي العاملي عن موسى بن جعفر أنه قال لمّا ولد ابنه الرضا: «إن ابني هذا ولد مختوناً طاهراً مطهّراً. وليس من الأئمّة أحد يولد إلاّ مختوناً طاهراً مطهّراً، ولكنا سنمر الموسى عليه لإصابة السُنّة واتباع الحنيفيّة». ويذكر حديث «إن صاحب الزمان ولد مختوناً وأن أبا محمّد قال: هكذا ولد، وهكذا ولدنا، ولكنا سنمر عليه الموسى لإصابة السُنّة».

وفي عصرنا يقول المرصفي «والذي نراه ونرجّحه سقوط الختان وعدم وجوبه على من ولد مختوناً كما نرى كراهة امرار الموسى على موضع الختان منه لأن ذلك عبث لا فائدة فيه ويجب أن تنزه الشريعة عنه».

ختان الخنثى ومن له ذكران

الخنثى هو الذي يكون له جهازان تناسليان، خلق بهما كذلك، لكن العضوين لا يكونان في مستوى واحد. فما هو حُكم الختان في الخنثى؟

يقول النووي: «أمّا الخنثى المشكل فقال في البيان قال القاضي أبو الفتوح يجب ختانه في فرجيه جميعاً لأن أحدهما واجب ولا يتوصّل إليه إلاّ بختانهما». ويذكر النووي رأياً آخراً بأنه لا يختن الخنثى المشكل لأن الجرح على الإشكال لا يجوز. وهذا حسب النووي هو الأظهر المختار. وبعد عرض هذه الآراء يقول السكري في عصرنا أنه يختار الرأي الأوّل

«لأنه إن كان مائلاً إلى الذكورة فهو واجب لضرورة هذا الختان بالنسبة له. وإن كان مائلاً للأنوثة فختنه سُنّة وفيها أيضاً امتثال أمر رسول الله (ص). والبناء على اليقين خير وأولى من البناء على الشك. ومن ثم يجب تغليباً لحال الخنثى ختانه في فرجيه».

وقد تعرّض الفقهاء أيضاً لحالة شاذّة وهي وجود ذكرين لشخص. يقول النووي: «لو كان لرجل ذكران قال صاحب البيان إن عرف الأصلي منهما ختن وحده. قال صاحب الإبانة يعرف الأصل بالبول وقال غيره بالعمل. فإن كانا عاملين أو يبول منهما وكانا على منبت الذكر على السواء وجب ختانهما». ويقول الأنصاري (توفى عام 1596): من له ذكران عاملان يختتنان. فإن تميّز الأصلي منهما ختن فقط. فإن شك فكالخنثى، أي لا يختتن.

ختان الميّت

دار جدل بين الفقهاء حول إمكانيّة ختان من مات غير مختون وله عذر. يقول النووي:

«أمّا ختان من مات قبل أن يختن ففيه ثلاث طرق. (المذهب) وبه قطع المصنّف والجمهور لا يختن. (والطريق الثاني) فيه قولان: كالشعر والظفر حكاه الدوامي، (والثالث): فيه ثلاثة أوجه حكاه صاحب البيان (الصحيح) لا يختن (والثاني) يختن (والثالث) يختن البالغ دون الصبي لأنه واجب على البالغ دون الصبي. (والصحيح) الجزم بأنه لا يختن مطلقاً لأنه جزء فلا يقطع كيده المستحقّة في قطع سرقة أو قصاص. فقد أجمعوا أنها لا تقطع. ويخالف الشعر والظفر فإنهما يزالان في الحياة للزينة والميّت يشارك الحي في ذلك. والختان يفعل للتكليف به وقد زال التكليف بالموت».

وقد سئل ابن تيميّة: «إذا مات الصبي وهو غير مختون: هل يختن بعد موته؟ أجاب: لا يختن أحد بعد الموت».

وفي عصرنا يقول الجمل:

«وأمّا الختان وهو قطع عضو من أعضائه، والمعنى الذي من أجله شرّع في الحياة قد زال بالموت، فلا مصلحة في ختانه. وقد أخبر النبي «أنه يبعث يوم القيامة بغرلته غير مختون». فما الفائدة أن يقطع منه عند الموت عضو يبعث به يوم القيامة وهو من تمام خلقه في النشأة الأخرى».

وفي شمال فلسطين، ذكر «سونين» أن البدو قرب بحيرة الحولة في فلسطين يختنون الطفل قَبل دفنه إذا مات غير مختون. ويقوم بهذا الختان الخطيب، حتى وإن كان عمر الطفل يوماً واحداً.

ب) القائمون بالختان

هناك نقاش حول النظر إلى عورة الرجل والمرأة. فالشريعة الإسلاميّة تتشدّد في هذا الموضوع. ونجد تطبيقاً لتحريم النظر إلى العورة واستثناءاتها ضمن عمليّة الختان. فالأصل الذي ذكره الفقهاء بالنسبة للختان أن يختن الرجل نفسه إن كان يحسن ذلك ولا يخشى عليه التلف. فإن كان لا يحسن الختان ختنه رجل مثله والأنثى تخفضها أنثى مثلها. أمّا إذا تم الختان في الصغر والطفل لم يبلغ السابعة، فلا حرمة في النظر إلى عورته.

يذكر الباجي قولاً لمالك: «والنساء يخفضن الجواري».

ويقول النزوي: «ولمن أسلم أن يظهر فرجه لرجل أن يختنه، للرجل ذلك، لأنه ضرورة، إلاّ أنه يستر فرجه إلاّ موضع الختان».

ويقول النووي عن ختان الخنثى: إن كان الخنثى صغيراً ختنه الرجال والنساء. أمّا إذا قلنا إن ختان الصغير غير واجب، فيجب أن يختن نفسه عندما يكون كبيراً إذا هو يحسن الختان. وإلاّ اشترى له جارية تختنه فإن كان لا توجد جارية تحسن ذلك ختنه الرجال والنساء للضرورة كالتطبّب.

ويقول المحقّق الحلي (توفى عام 1277) إن الختان «مستحب يوم السابع ولو أخّر جاز. ولو بلغ ولم يختن، وجب أن يختن نفسه».

وتقول الفتاوى الهنديّة (كتبت بين 1664-1672): «قيل في ختان الكبير إذا أمكن أن يختن نفسه فعل وإلاّ لم يفعل، إلاّ أن يمكنه أن يتزوّج أو يشتري ختانة فتختنه».

ويقول الصاوي: «لا يجوز للبالغ أن يكشف عورته لغيره لأجل الختان، بل إن لم يمكنه الفعل بنفسه سقطت السُنّة، وسقوطها عن الأنثى أولى بذلك».

وقد طرح أيضاً موضوع شرعيّة إجراء الختان من قِبَل شخص غير مسلم. فهناك سؤال وجّه إلى الإمام حسن بن علي يقول:

«إنه روي عن الصادقين عليهم السلام أن أختنوا أولادكم يوم السابع يطهّروا، فإن الأرض تضج إلى الله عز وجل من بول الأغلف، وليس جعلني الله فداك لحجّامي بلدنا حذق بذلك، ولا يختنونه يوم السابع، وعندنا حجّامو اليهود فهل يجوز لليهود أن يختنوا أولاد المسلمين أم لا إن شاء الله؟» فوقع عليه السلام: «السُنّة يوم السابع، فلا تخالفوا السُنَن إن شاء الله».

ونلاحظ هنا أنه لم يرد على السؤال بصورة مباشرة. مما يعني أن لا مانع من ختان المسلم على يد غير مسلم.

وهذا يبيّن أنه ليس للخاتن في الشريعة الإسلاميّة الأهمّية الدينيّة التي نجدها في الشريعة اليهوديّة. ولكن هناك في أيّامنا من يتشدّد في أن يكون الخاتن طبيب مسلم. يقول المرصفي إن ختان الإناث يسند إلى طبيبات مسلمات، وختان الذكور إلى أطبّاء مسلمين حتى يقوموا بهذه العمليّة حسب الشرع. والطبيب المسلم هو الذي يقرّر ما إذا كان الكبير يحتمل الختان أم لا. إلا أن الواقع يثبت أن عدداً كبيراً من هذه العمليّات كان وما زال يجريها القابلة أو الداية أو الغجريّة أو حلاّق الصحّة.

ج) تنفيذ الختان

يقول ابن الحاج: «والسُنّة في ختان الذكر إظهاره وفي ختان النساء إخفاؤه». ويقول ابن جزي: «تستحب الدعوة لطعام الختان وهو الاعذار، ولا يفعل ذلك في خفاض النساء للستر». وعادات الختان تختلف من مكان إلى آخر وتصاحبها عامّة احتفالات. يقول أحمد أمين في قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصريّة الذي كتبه عام 1950 عن عادة الختان في مصر:

«جرت العادة أن يكون الختان نحو السابعة من العمر، وهم يحتفلون به ويؤلفون لهذا الغرض موكباً يجتمع فيه الأصدقاء والمحبّون، ويركبون الغلام جواداً أو عربة بعد أن يلبسوه لباساً فخماً وأمامه الموسيقى أو الطبل والمزمار. وقد يزيّنون الولد بزي الفتاة الصغيرة، ويطوفون به في الشوارع القريبة من بيتهم على هذه الحال، وتقام مأدبة كبيرة. والعادة أن يختن الطفل عقب هذه الحفلة [...]. وكثير من الناس ينتهز فرصة زواج بنت أو شاب في البيت فيختن أولاده اختصاراً لكثرة الحفلات، فيكون الموكب مكوّناً عادة من عربة للعروس وعربة للطفل المراد ختانه. وبعضهم يُزوّر المختتن شيخاً من الأولياء كالإمام الشافعي. وعادة تجرى حفلة كبيرة في ساحة الإمام للختان العام الذي يشترك فيه عدد كبير، خصوصاً من أولاد الفقراء».

وبخصوص ختان الأنثى، يرى السكري في عصرنا أن تتم عمليّة خفاض البنت في سرّية تامّة ولا يحضرها إلاّ ولي البنت أو أمّها أو من هو أكثر شفقة عليها، لأن حال النساء مبني على الستر في التشريع الإسلامي. وينبغي أن تتم عمليّة خفاض البنات بالذات نهاراً بحيث يستطيع الطبيب إجراءها بطريقة صحيحة على ضوء النهار.

وختان الإناث يتم عامّة دون إبلاغ البنت بذلك. فهناك من تؤخذ من فراشها ليلاً إلى الداية التي تقوم بختانها. ولكن يحدث أن تبلغ البنت بزمن ختانها. وبعض البنات تنظر هذا الحدث بسرور ثم تنقلب سعادتها إلى تعاسة (أو كما قالت إحدى السيّدات: «كانت فرحة مُنَيِّلة» أو «كان يوم أسود»).

هذا وليس عند المسلمين تعليمات دينيّة بخصوص المكان الذي يجري فيه الختان. فختان الذكور قد يتم في المنزل أو في دكان حلاّق الصحّة أو في المستشفى أو العيادة الخاصّة للطبيب أو في ساحة المسجد. وكذلك الأمر فيما يخص ختان الأنثى ولكن ليس في ساحة المسجد. وبسبب حملة مكافحة ختان الإناث في مصر، أصبح ممنوعاً القيام بهذه العمليّة في المستشفيات أو العيادات الخاصّة.

ويجادل الفقهاء المسلمون القدامى حول الكمّية التي يجب أن تؤخذ من جلد الذكر. يقول النووي إن الواجب في ختان الرجل قطع الجلدة التي تغطي الحشفة كلها فإن قطع بعضها وجب قطع الباقي ثانياً. ويذكر قولاً لابن كج إنه قال عندي أنه يكفي قطع شيء من الغلفة وإن قل بشرط أن يستوعب القطع تدوير رأسها. وهذا الرأي يراه النووي شاذ ضعيف.

ويقول الجمل (توفى عام 1790): «لا بد من كشف جميع الحشفة في الختان للرجل بقطع الجلدة التي تغطيها فلا يكفي قطع بعضها».

وفي عصرنا يقول السكري: «المستحب أن تستوعب [الغلفة] من أصلها عند أوّل الحشفة. وأقل ما يكفي في ذلك ألاّ يبقى منها ما يتغشّى به أو ما يتدلى منه بحيث تنكشف جميع الحشفة».

وما العمل لو أن الغلفة نبتت بعد قطعها؟ نقرأ في كتاب وسائل الشيعة جواب لصاحب الزمان قال: «وأمّا ما سألت عنه من أمر المولود الذي نبتت غلفته بعد ما يختتن هل يختتن مرّة أخرى فإنه يجب أن تقطع غلفته فإن الأرض تضج إلى الله عز وجل من بول الأغلف أربعين صباحاً». ولكن الجمل (توفى عام 1790) يقول غير ذلك: «إذا عادت الغلفة بعد ذلك لا تجب إزالتها لحصول الغرض بما فعل أوّلاً».

وفيما يخص الأنثى يقول ابن حجر نقلاً عن الماوردي: «ختانها قطع جلدة تكون في أعلى فرجها مدخل الذكر كالنواة أو كعرف الديك. والواجب قطع الجلدة المستعلية منه دون استئصاله».

وهناك رأي لطبيب مصري يقول فيه أن ختان البنات يكمن في قطع الشفرين الصغيرين وقطع جزء من البظر. ويقول الدكتور يحيى عبد السلام وفا، أستاذ مساعد النساء والتوليد بطب الأزهر: «من الناحية النظريّة ترك الجزء البارز بالشفرين الصغيرين للأنثى يؤدّي إلى زيادة الغريزة. ولكن لا بد أن يكون القطع - إذا حدث - لجزء صغير. أي يمكن قطع الثلث وترك الثلثين من الشفرين الصغيرين، وهذا لا يمثل جوراً وانتهاكاً». وفي فتواه الثانية: يقول الشيخ جاد الحق أن «الواجب الإتباع» هو «قطع الجلدة أو النواة فوق رأس البظر»، «ولا يُستأصل البظر نهائيّاً».

هذا وأكثر حالات الختان تمس بغلاف البظر والبظر والشفرين الصغيرين وأن هناك قرابة 15% إلى 20% من ختان الإناث يتم بالطريقة الفرعونيّة. وأكثر حالات الختان في السودان والصومال وجيبوتي تتم حسب الختان الفرعوني. وهناك اعتقاد في مصر أن من تختن صغيرة قد يكبر بظرها فيتوجّب إعادة ختانها من جديد. وهناك من تختن مرّتين أو ثلاث مرّات. وفيما يخص الختان الفرعوني فإنه قد يتم عدّة مرّات. فعند الزواج تفتح الفتاة بالموسى أو المشرط حتى يمكن لعضو الزوج أن يدخل في المهبل. وأمّا المرأة السودانيّة المطلقة فإنهم يغلقونها مرّة أخرى حتى لا يمكنها ممارسة الجنس. فإذا تزوّجت مرّة ثانية عادوا وفتحوها بالموسى أو المشرط. وعندما تضع طفلاً يعاد إغلاقها لتضييق فتحة الفرج بقصد زيادة لذّة الرجل.

د) مصير الغلفة في الحياة وبعد الموت

يروي القرطبي حديثاً للنبي يقول فيه: «أدفنوا قلاماتكم». ويضيف: «إن جسد المؤمن ذو حرمة. فما سقط منه وزال عنه فحفظه من الحرمة قائم، فيحق عليه أن يدفنه، كما أنه لو مات دفن، فإذا مات بعضه فكذلك أيضاً تقام حرمته بدفنه، كي لا يتفرّق ولا يقع في النار أو في مزابل قذرة». كما يروي حديثاً عن عائشة تقول فيه: «كان رسول الله (ص) يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان: الشعر، والظفر، والدم، والحيضة، والسن، والغلفة، والبشيمة».

ويقول النووي فيما يؤخذ من الميّت:

«في الشعور المأخوذة من شاربه وإبطه وعانته وأظفاره وما انتتف من تسريح رأسه ولحيته وجلدة الختان إذا قلنا يختن وجهان: (أحدهما) يستحب أن يصر كل ذلك معه في كفنه ويدفن

[...] (والثاني) يستحب أن لا يدفن معه بل يوارى في الأرض غير القبر [...]. والاختيار عندنا أنها لا تدفن معه لأنه لم يرد فيه خبر ولا أثر».

ويقول ابن جزي: «الغرلة وهي ما يقطع في الختان نجسة لأنها قطعت من حي فلا يجوز أن يحملها المصلي ولا أن تدخل المسجد ولا أن تدفن فيه وقد يفعله بعض الناس جهلاً منهم».

ويقول أحمد أمين أنه «قد جرت الطبقة الكبيرة والوسطى على أن تلف القطعة التي فصلت من الولد في منديل وتضع عليها ملحاً حتى لا تتعفن ويربط المنديل في عنق الولد على شكل عقد حتى إذا شفي من هذه العمليّة رماها في النيل أو في الخليج».

وتقول الدكتورة سهام عبد السلام أنه في مصر يتم ربط القطعة التي تقطع من الأنثى حول ذراعها أو في عنقها. وبعد شفائها ترمى أمام دكان جواهري أو في النيل حتى لا يسير عليها شخص غير طاهر قد يؤدّي إلى عقم البنت. وتقول نعمت أبو السعود كان الاعتقاد سائداً بأن تتم عمليّة ختان الإناث في موسم فيضان النيل وكان الجزء المستأصل من البنت يوضع في قطعة قماش تعلق في عنق الطفلة ثم تلقى في ماء النيل الجاري. وكانوا يعتقدون أن ارتفاع ماء النيل في موسم الفيضان يساعد على تحسن صحّة الطفلة وامتلاء جسمها. وقد سألت الأهل على سبب تعليق الجزء المستأصل حول الرقبة، فكانت الإجابة إن هذا يمنع من إصابتها بالعقم (المشاهرة).

ورغم أن الغرلة تعتبر نجسة، إلاّ أن المسلمين يعتقدون أن الله يعيدها للإنسان في الحياة الأخرى. وهم يعتمدون في ذلك على القرآن الذي يقول: «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنا كنّا فاعلين» (الأنبياء 104:21) وفي مكان آخر: «كما بدأكم تعودون» (الأعراف 29:7). وهناك عدّة أحاديث نبويّة في هذا الموضوع. ففي صحيح البخاري: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً». ويقول ابن قيّم الجوزيّة «لمّا وعد الله سبحانه - وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده - أنه يعيد الخلق كما بدأهم أوّل مرّة، كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأ عليها من تمام أعضائه وكمالها» ويضيف: «إن الختان إنّما شرّع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنزّه من البول، وأهل الجنّة لا يبولون ولا يتغوّطون فليس هناك نجاسة تصيب الغرلة، فيحتاج إلى التحرّز منها، والغلفة لا تمنع لذّة الجماع ولا تعوقه».

هـ) صلاة الختان

لا نجد في الكتب الإسلاميّة أيّة إشارة إلى مراسيم دينيّة خاصّة بالختان كما هو الأمر عند اليهود. إلاّ أننا نجد في كتب الشيعة دعاءاً دينيّاً يتلى بمناسبة الختان. فقد نقل عن الصادق أنه إذا ختن الصبي يقول: «اللهم هذه سُنّتك وسُنّة نبيّك صلواتك عليه وآله واتباع لمثالك وكتبك ولنبيّك بمشيئتك وإرادتك وقضائك، لأمر أردته وقضاء حتمته وأمر أنفذته، فأذقته حر الحديد في ختانه وحجامته لأمر أعرف به منّا. اللهم فطهّره من الذنوب وزده في عمره وادفع الآفات عن بدنه والأوجاع عن جسمه وزده من الغنى وادفع عنه الفقر فإنك تعلم ولا نعلم». وقال: «أي رجل لم يقلها على ختان ولده فليقلها عليه من قبل أن يحتلم، فإن قالها كفي حر الحديد من قتل أو غيره».

ويذكر العبّودي من الإمارات أنه عندما يجهّز الخاتن الموسى للقطع يعلو صوت الرجال الوقوف حولهم بالصلاة على محمّد وآل محمّد (ص) وببعض مقاطع الشعر مثل «طالع فوق يا مختون» بشكل متتال قَبل لحظات قطع الجلد. والهدف من هذه المباركة هو اشغال تركيز الصبي وتشتيت ذهنه عن حرقة الموسى والنظر إلى فوق.

وبخصوص ختان الأنثى، يرى السكري في عصرنا «أن يبدأ الخاتن أو الخافضة بالبسملة وحمد الله تعالى، والصلاة والسلام على رسول الله (ص) صاحب هذه المَكرُمَة العظيمة».

الجزء الثالث
الختان والجدل الطبّي

هناك من يعتقد أن الختان أمر الهي لا دخل للطب فيه. وآخرون يرون أن الختان عملية جراحية يجب إجراؤها إذا دعت الضرورة وتركها عند عدم الضرورة دون النظر للقواعد الدينية. وهناك تيّار ثالث يرى أن الختان يمكن استغلاله كمعجزة لإثبات الدين وإذا ما تصادم الطب مع الدين فالأولوية للدين معتبرين أن العقل غير معصوم وغير قادر على الوصول للحكمة من وراء الختان. وبسبب تضارب هذه النظريات نجد أن عامل الدين يلعب دوراً هاماً في النقاش حول ختان الذكور والإناث. والسؤال الأول الذي يطرح هو تبرير الختان على مستوى الألم.

الفصل الأول
الآلام الناتجة عن ختان الذكور والإناث

تعريض الغير للألم مخالف للأخلاق وللقاعدة الذهبيّة التي تقول: «لا تفعل لغيرك ما لا تريد أن يفعله الغير لك». وإذا ما كان هناك سبب لإباحة، مثل التدخّل الطبّي لإنقاذ حياة المريض، فإن الألم يجب أن يكون بأقل قدر ممكن. وعلى قدر الإمكان، يجب محاولة تخفيف الألم بواسطة التخدير الموضعي أو الشامل، أو باللجوء إلى وسائل ترويحيّة أخرى أقلها إشعار الشخص المتألم بنوع من الشفقة والحنان والمواساة وعدم استفزازه وعدم التلذّذ بألمه وعدم إظهار البهجة أو الرقص على جراحه. كما يجب تفهيمه ما يجرى له وأن ذلك لمصلحته حتى لا يشعر بأن هناك مؤامرة تحاك ضدّه.

وعمليّة ختان الذكور والإناث تدور في حقيقة الأمر بخلاف كل ذلك. فهي تتم في الأكثريّة الساحقة دون سبب طبّي، على عضو سليم، وفي أكثر الأحوال دون تخدير. وبينما يصرخ الطفل، يقوم الأهل والحضور بمظاهر البهجة وكأنهم يشمتون به حتى وإن أحاطوه ببعض الدفء العائلي. والطفل لا يمكنه أن يفهم أن ما يجري له هو لصالحه رغم ما قد يدَّعيه الأهل.

هكذا يتحوّل الختان إلى مسرحيّة مبكية مضحكة في آن واحد. وشر البليّة ما يضحك. ولكن المأساة هي محاولة مؤيّدي ختان الذكور تبرير أنفسهم بأن الطفل لا يحس بالألم، أو بألم بسيط سرعان ما ينساه. وقد دار جدل كبير في الأوساط العلميّة حول مدى شعور الطفل بالألم وحول استعمال التخدير لتخفيف ألم الطفل.

1) عدم إحساس الطفل بالألم أو عدم إحساس الغير بألمه؟

لا أحد يشك في أن ختان الذكور والإناث إذا ما تم بعد سن التمييز عمليّة مؤلمة. وعندما تتكلم النساء في مصر عن يوم الختان تصفه «باليوم الأسود». ويحاولن تفادي التفكير به: «ما تفكرينيش بيه لأن كل ما أفكر جسمي يقشعر وأخاف. فقد أخذوني من الدار للنار كأني رايحة لقدري».

هناك توجّه عام ومتزايد نحو ممارسة الختان في الصغر، للاعتقاد في أنه كلما كان الطفل أصغر، كلما كان ألمه أقل. يقول موسى بن ميمون إن الشريعة اليهوديّة وضعت الختان على الصغير لأنه في هذا السن «لا يتألم كتألم الكبير للين جلده، ولضعف خياله، لأن الكبير يستهول ويستصعب الأمر الذي يتخيّل وقوعه قبل أن يقع». وقد ردّد رجال الدين اليهود قول ابن ميمون عبر العصور. فالحاخام «فايس» يقول: «إن الختان ليس مؤلم وهو يشبه ذهابك للحلاّق لقص شعرك».

وقد حاول البعض وضع النظريّات تأييداً لمقولة ابن ميمون. فهم يرون أن الطفل لا يتمتع بجميع الحواس، ولا يشعر بالألم كما يشعر البالغ، ودماغه لا يمتلك القدرة على التذكر لما يجري له، فهو سريع النسيان. ولذلك لا يؤثر عليه أي تصرّف يقع عليه. فلا يكاد أن يكون هناك اختلاف كبير بينه وبين النباتات، حسب قول طبيب أمريكي في القرن التاسع عشر. وقد كتب الطبيب اليهودي «فايس»، وهو من مؤيّدي الختان الجماعي، عام 1994: «إن إثارة موضوع الألم عند الأطفال حديثي الولادة لا مبرّر لها [...]. فالدراسات تبيّن أن وسائل الإحساس عنده ضعيفة. وهذا يبيّن عدم ضرورة إعطاء التخدير قَبل بلوغه عشرة أيّام». ونجد مثل هذه الأقوال أيضاً عند الأطبّاء المسلمين. يقول الدكتور أحمد خفاجي، وهو طبيب مصري: «كلما أسرعنا بختان الذكور في وقت مبكر من حياتهم كلما كان هذا أفضل لهم. فالأطراف العصبيّة المسؤولة عن الإحساس بالألم لا يتم نموّها إلاّ بعد حوالي ستة أشهر من الولادة».

وقد أدّى هذا الاعتقاد إلى إجراء عدّة تدخّلات جراحيّة على أطفال دون تخدير، أهمّها عمليّة الختان. وقد وصل الأمر إلى أن تقر الأكاديميّة الأمريكيّة لطب الأطفال لعام 1999: «إن هناك براهين كثيرة بأن الأطفال يبدون تجاوباً جسديّاً خلال الختان دون تخدير ممّا يوحي بأن الطفل يشعر بالألم والقلق الجسدي». وكأن الأمر يحتاج إلى برهان!!

2) لماذا إنكار ألم الطفل؟

بعد ما ذكرناه لا بد من السؤال لماذا ينكر الحاخامات والأطبّاء الذين يقومون بالختان ألم الطفل؟ وهل صحيح أنهم لا يسمعون صراخ الطفل؟ هناك عدّة تفسيرات:

- قد يصاب الطفل خلال الختان بصدمة فيدخل في حالة غيبوبة أو شبه غيبوبة، ممّا يشل مشاعره وحركته.

- يكون بعض الأطفال تحت تأثير المخدّرات التي أعطيت لأمّهاتهم عند الولادة فتسرّبت إليهم من خلال حبل الوريد. أي أن كثيراً من الأطفال يلدون في حالة تخدير. فهذه المخدّرات تؤثر في علاقة الطفل مع أمّه إذ يبتسم قليلاً ويصبح حاد المزاج. وقد لوحظ أن تلك المخدّرات قد تترك أثراً حتى على البالغين لمدّة سنة.

- قد ينبع إنكار رجال الدين ألم الطفل من محاولة لتغطية إحساسهم بالذنب من إيلامهم للأطفال.

- قد يتظاهر الخاتن بعدم ألم الطفل كذباً ويحاول إقناع الأهل بذلك لأنه يخاف من تراجع عمليّات الختان إذا ما اكتشف الأهل أن أطفالهم يتألمون.

- قد يكون الخاتن فاقد الإحساس، أو حسب التعبير العامّي «متمسح». فمهما تنخزه فهو لن يحس. فالجزّار الذي يذبح عدداً كبيراً من الحيوانات ينتهي بعدم سماع صوتها، بينما قد يمتعض شخص يحضر ذبح حيوان لأوّل مرّة، ويشفق على الحيوان، ويلوم الجزّار على قساوة قلبه. ومن فقد الشعور لن يقبل بأي نقاش مهما كانت البراهين التي تقدّمها له. فالإحساس واعز مهم للوصول إلى المعرفة. وعدم الإحساس هذا يؤدّي إلى عدم فتح النقاش حول الختان بين الأطبّاء.

- هناك الاعتبارات الفئويّة. فالأشخاص يحدثون ألماً أكبر على الغير كلما كانوا في مجموعة ممّا لو كانوا وحدهم. وبما أن الأطبّاء يعرفون أن الأهل وزملاءهم في المهنة موافقون على الختان، فإنهم لا يتردّدون في البتر وإيلام الطفل. والطبيب الذي يجري الختان لأوّل مرّة يقوم به تحت إشراف طبيب مدرّب. ولذا فهو يتخلى عن مسؤوليّة اتخاذ القرار وينفذ العمليّة طاعة لأوامر الطبيب المدرّب. وهو لا يقصد التأليم، بل ينفي وجود الألم ويغش نفسه للمضي قدماً في العمليّة. وبعد أن يقرّر الطبيب إجراء العمليّة، فإنه يصعب عليه الرجوع إلى الوراء لأن ذلك يعني أنه يستنكر ما قام به أوّلاً. وعندها يوهم نفسه أنه لا يؤلم الطفل.

والسؤال الثاني الذي يطرح نفسه هو ما إذا كان الأهل يجهلون فعلاً أن الختان عمليّة مؤلمة؟ وإذا كانوا لا يجهلون ذلك، فلماذا يسلمون أطفالهم للأطبّاء أو غير الأطبّاء لكي يختنوهم؟

قديماً حاول موسى بن ميمون إعطاء إجابة على هذا السؤال. فهو يرى أن فرض الشريعة اليهوديّة الختان على الصغار سببه هو:

«إن الصغير يتهاون والده بأمره عند ولادته لأنه لم تتمكن إلى الآن الصورة الخياليّة الموجبة لمحبّته عند والديه، لأن تلك الصورة الخياليّة إنّما تزيد بالمباشرة، وهي تنمو مع نموّه ثم تأخذ في الانحطاط والإغماء أيضاً، أعني تلك الصورة الخياليّة. فإن ليس محبّة الأب والأم للمولود عندما يولد كمحبّتهما إيّاه وهو ابن سنة، ولا محبّة ابن سنة كمحبّة ابن ست. فلو ترك سنتين، أو ثلاث، لكان ذلك يوجب تعطيل الختان لشفقة الوالد ومحبّته له. وأمّا عند والديه فتلك الصورة الخياليّة ضعيفة جدّاً، وبخاصّة عند الوالد الذي هو المأمور بهذه الفريضة».

وقد ذكرت ممرّضة أمريكيّة أن نظام الولادة في المستشفى يضعف من محبّة الأم لابنها إذ إن الطفل لا يترك طويلاً مع أمّه. فتفقد السيطرة عليه ولا تشعر بالحنان الكافي نحوه. لذا فهي ليست قادرة على حمايته من تعدّي الأطبّاء عليه. وصراخ الأطفال في الحضانة بعيداً عن أمّهاتهم كان يفسّر في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين بأنه مفيد للرئتين. وما يقوم به اليهودي هو في عينيه أمر اعتيادي. ويجب أن يكون متمتعاً بقدر كبير من الشجاعة حتى يعترف بأنه تعرّض للضرر وأن أهله قد غلطوا ولا يريد أن يفعل ذلك لابنه.

ويجب أن لا ننفي أن الختان الديني يصاحبه نشوة دينيّة لها تأثير المخدّر على الأهل والحضور. فتحت تأثير النشوة الدينيّة كان عبدة بعض الآلهة يبترون أعضاءهم الجنسيّة بأيديهم. وفي أيّامنا يقوم الشيعة بجلد أنفسهم بسلاسل من حديد وبشق رؤوسهم بالسكاكين حتى يدمون في ذكرى عاشوراء. كما أن بعض المسيحيّين الفيليبيين يرضون بأن يصلبوا في ذكرى صلب المسيح آملين الحصول على النعم والغفران من الله بعملهم هذا. فما بالك في الختان والضحيّة ليس الأهل بل طفل أو صبي مسكين؟

3) التخفيف من الألم

يقوم حلاّق الصحّة عامّة بإجراء ختان الذكور دون تخدير، على الصغار كما على الكبار. ونادراً ما يُستعمل المخدّر في الختان الذي يتم في الأوساط الطبّية على الأطفال حديثي الولادة. فقد تبيّن أنه في عام 1994 استعمل 4% فقط من أطبّاء التوليد الذين تقل أعمارهم عن 34 سنة المخدّر لختان حديثي الولادة. ويرجع هذا المعدّل المنخفض إلى استمرار الاعتقاد أن الختان ليس مؤلماً للطفل أو مؤلماً قليلاً فقط، أو لعدم الاهتمام

بهذا الألم، أو للجهل بكيفيّة استعمال المخدّر مع الأطفال، أو للخوف من عواقبه. وهناك حاليّاً محاولة لاستعمال المخدّر بقصد التصدّي للحملة الرافضة للختان. وعدم استعمال المخدّر في الأوساط الطبّية قد يكون لعوامل اقتصادية. فالتخدير يتطلب حضور طبيب متخصّص بالإضافة إلى الطبيب الجرّاح، وإطالة وجود الطفل في غرفة العمليّات. وهذا يعني مزيداً من التكاليف ونقص في الربح. ومن غير المستبعد أن يكون لعدم استعمال التخدير أسباب مرضيّة ساديّة كما سنرى لاحقاً.

وبخصوص ختان الإناث، تشير المصادر المصريّة أن هذه العمليّة تجرى غالباً بدون تخدير حيث ثبت أن 77% من عيّنة البحث تمّت دون استخدام مخدّر أو أدوية. ولم تنف أي من النساء اللواتي أجريت لهن هذه العمليّة أنها عمليّة مؤلمة.

بالإضافة إلى الأسباب السابقة، هناك اعتبارات دينيّة وراء عدم استعمال المخدّر. يقول الحاخام «مائير أريك» (توفى عام 1926) إنه محرّم استعمال المخدّر لأنه علينا أن نعطي قيمة للألم. ففي رأيه يجب أن يحس الطفل والذي يصبح يهوديّاً بالحالة التي عاشها إبراهيم عندما ختن نفسه في عمر متأخّر. وهو يربط بين الألم وبين الاستحقاق عند الله. وهناك أيضاً من يرفض استعمال التخدير لأنه تجديد، وكل تجديد مرفوض في الفكر الديني اليهودي التقليدي. وهناك من يرى أن الألم هو أسلوب لإشراك الطفل في عمليّة الختان، وأن تعريضه لألم بسيط هو لصالحه إذ يعطيه مناعة.

ويناقش معارضو ختان الذكور في الولايات المتحدة موضوع اللجوء إلى المخدّر من وجهة إستراتيجيتهم الهادفة إلى إلغاء الختان. هناك خوف من أن يكون إعطاء المخدّر للطفل أكثر فائدة للطبيب ممّا للطفل، لأنه يريح الطبيب من صياح الطفل ويساعده في إقناع الأهل بختان أطفالهم. وهكذا يكون استعمال المخدّر حافزاً لزيادة عمليّات الختان بدلاً من أن يكون وسيلة لتخفيف الألم. هذا وقد ناضلت منظمة «الممرّضات لأجل حقوق الطفل» الأمريكيّة لاستعمال المخدّر عند إجراء عمليّة الختان. وتقول بأنها تعرف بأن التخدير يغطي الألم ولا يخفي القطع. ولكن لا يمكنها أخلاقيّاً السماح بإجراء الختان دون مخدّر. وهي تعتقد بأن محو الختان هو عمل تدريجي. فيجب أن يبدأ بعض الخاتنين بالاعتراف بأن الختان دون مخدّر هو تعذيب قَبل أن يعترفوا بأنه خرق لحقوق الإنسان.

ونفس المشكلة تطرح فيما يخص ختان الإناث. فقد كتب محمّد إبراهيم سليم بأن معارضيه يعتمدون على كونه يؤلم الفتاة. ويتساءل:

«ولكن ماذا سيكون عليه رأيهم [...] لو تمّت العمليّة تحت تأثير مخدّر مأمون، يقوم به طبيب مختص، كما يحدث في أيّة عمليّة جراحيّة أخرى، وبالتالي فلا ألم ولا صدمات عصبيّة نتيجة ذلك؟ أعتقد أن الأمر سيختلف تماماً».

إلا أن معارضي ختان الإناث في مصر وخارجها رفضوا عامّة إعطاء الأطبّاء إمكانيّة إجراء ختان الإناث، مع أو بدون مخدّر، لأن ذلك يضفي الشرعيّة على ما يفعلون فتتزايد عمليّات ختان الإناث بدلاً من إنهائها. وهناك من يرى أن استعمال المخدّر في ختان الإناث قد يساعد على تفادي حدوث جروح غير متعمّدة بسبب حركة المختونة. إلاّ أن ذلك قد يؤدّي أيضاً إلى آثار سلبيّة إذ إن هدوء المختونة يعطي الخاتنة الفرصة لتقطع أكبر قدر من الجلد.

الفصل الثاني
الأضرار الصحّية لختان الذكور والإناث

يتم في ختان الذكور والإناث بتر جزء من جسم الإنسان فيُحرم من وظيفة هذا الجزء ويُعرّض للمضاعفات التي تصاحب كل العمليّات الجراحيّة. ولهذا يجب أن تخضع لنفس المنطق الذي تخضع له العمليّات الجراحيّة، أي عدم إجرائها إلاّ إذا كانت الفائدة منها تعلو على مضارّها. إلاّ أن الكثيرين يُتفهون أو يتجاهلون هذه الأضرار.

1) أسباب تتفيه أو تجاهل الأضرار الصحّية للختان

أ) الأسباب الدينيّة

إن كنت مؤمناً بأن الختان أمر إلهي، فإنه من الصعب عليك التفكير في أن الختان قد يكون سبباً للضرر لأن ذلك تشكيك في عدل الله وتقويض لمعتقداتك وفتح المجال لتكفيرك.

بعث لي طبيب يهودي مسؤول عن التعليم الطبّي في جامعة «بن جوريون» الإسرائيليّة رسالة يقول فيها: «إذا أمر الله شيئاً فلا يمكن لهذا الشيء أن يكون ضارّاً». ويعرض الفيلم «إنه صبي» الذي أخرجه «فيكتور شونفيلد» عمليّة ختان صبي يهودي انتهى في غرفة العلاج المكثف. وفي هذا الفيلم تصريح للطبيب «موريس سيفمان» من المنظمة اليهوديّة التي تدرّب الخاتنين: «لو تبيّن أن الختان يمكن أن يكون ضارّاً، فقد نعيد التفكير فيه. ولكن لا شك عندي بتاتاً أن ذلك لا يمكن أن يحدث لأن الأمر الذي أعطاه الله هو أمر صالح».

ب) جهل أو تجاهل العلاقة بين تلك الأضرار والختان

كثير من المختونين يتألمون من أضرار لا يعرفون أن سببها الختان. فهذه الأضرار قد تحدث بعد مدّة من إجراء الختان على يد طبيب الولادة. وعندما يعرض الأمر على طبيب آخر، لا يخطر على باله أن تلك الأضرار قد تكون بسبب الختان.

وتشير مجموعة العمل التي نظمتها منظمة الصحّة العالميّة أن كثير من النساء ليس لهن شعور بعلاقة الختان بمشاكل صحّية وجنسيّة ومتاعب عند الولادة. وقد يكون سبب ذلك أن تلك المشاكل قد تظهر بعد سنين من إجراء العمليّة فلا تربط بينها وبين الختان. وقد يكون سببه التكيّف الاجتماعي للمرأة الذي يجعلها تتقبّل تلك الممارسة والآلام التي تصاحبها. وقد يحاول الذين يجرون العمليّة إيهام ضحاياهم بوجود أسباب خارجيّة وخرافات. وعلى سبيل المثال يؤدّي الندب الناتج عن الختان إلى عدم تحمّل النسيج ولادة أوّل طفل، ممّا ينتج عنه وفاة ذاك الطفل. ولذلك يتم الترويج في «سيراليون» لفكرة أن فقدان أوّل طفل يولد هو أمر طبيعي.

وإن حدث مثل هذا الضرر كنتيجة مباشرة وواضحة للختان، هناك من يحاول إخفاء الضرر بقدر المستطاع أو الفصل بين الضرر والختان معتبراً أن ذلك «مكتوب» أو «قدر مقدّر»، أو كما يقول المثل العامّي: «إلي انكتب غلب، وإلي انبلى يصبر». فلا تمرّد على إرادة الله. حتى أن الكثيرين يرفضون أن يرفعوا دعوى ضد الحلاّق أو الطبيب الذي أجرى العمليّة التي تسبّبت في إلحاق ضرر أو وفاة. فمثل هذه الدعوى تمرّد ضمني على إرادة الله إن لم تكن «زيادة الطين بلة». ويقول المثل العامّي في هذا المجال: «غلب بستيرة ولا غلب بفضيحة».

هذا وقد يعيش كل من الرجل والمرأة حياتهم مع متاعب صحّية (أو جنسيّة) دون شكوى كأنّه قدر مقدّر وليس لهم وسيلة للمقارنة بين حالهم وحال الآخرين، خاصّة إذا ما ختنوا صغاراً. ومن هنا يأتي الجهل بأن للختان آثار سيّئة. وهذا يجعل من الصعب على كثير منهم أخذ موقف ضدّه أو فهم رفض البعض له. ولذلك لا بد من توعيتهم أوّلاً بأضرار الختان قَبل أن يأخذوا موقف ضدّه. ويلاحظ أنه إذا ما تم وضعهم أمام واقعهم، فإنهم قد يكتشفون أن شيئاً ينقصهم فيحسّون بالتعاسة. فقد عرض عالم نفس أمريكي حالة امرأة سودانيّة مختونة ذهبت إلى أمريكا واستمعت للشابّات الأمريكيات يتكلمن عن حياتهن الجنسيّة وحالة الارتواء الجنسي. عندها بدأت دراسة الكتب الجنسيّة ومشاهدة الأفلام الغراميّة فأحسّت بنقص في حياتها أدّى بها إلى حالة كآبة تطلب علاجها. فلو بقيت هذه المرأة في محيطها الاجتماعي لم تكن لتكتشف أن

وضعها يختلف عن وضع غيرها من النساء غير المختونات. ولكن هناك أمل أن لا تقوم هذه السيدة بختان بناتها.

2) الأضرار الصحّية لختان الذكور

لختان الذكور، كأي عملية طبّية، أضرارها. ولكن ليس هناك إحصائيات موثوقة في هذا المجال. ونحن نستعرض هنا أهم هذه الأضرار الصحّية.

وهذا لا عني أن كل حالات الختان تؤدّي إلى مثل هذه الأضرار جميعاً. ولكن وجود خطر حدوث مثل هذه الأضرار يترتب عليه عدم إجراء مثل تلك العملية إلا إذا توقّعنا أن تكون الفائدة الصحية أكبر من الأضرار. وحتى في هذه الحالات، يجب محاولة اللجوء إلى «الرأب» بدلاً من الختان لتفادي قطع الأنسجة الحسّاسة. وإذا كان لا بد من الختان فيجب الاقتصار على أقل قدر من القطع للحفاظ على وظيفة القضيب الطبيعيّة. وفي كل الحالات يجب تفادي اللجوء إلى ختان الأطفال حديثي الولادة لأن ذلك يتطلب سلخ الحشفة عن الغلفة قَبل تمام تكوينها. كما إنه يجب ترك قرار الختان للشخص عندما يبلغ. فهذا هو ما يتفق مع الأخلاق الطبّية وحقوق الإنسان.

النزيف

تقدّر نسبة حدوث النزيف بـ 2% على الأقل من حالات الختان. فغلفة القضيب عضو كثير الشرايين يؤدّي بترها إلى نزول دم. وإن تم مس الشريان اللجامي، فإن هذا النزيف يكون سريعاً. والطفل الذي يزن ثلاثة كيلوغرامات لا يحتوي على أكثر من كأس دم. ولذلك في حالة عدم التنبّه للنزيف لمدّة قصيرة، فإنه يقود إلى الوفاة. وكثيراً ما يصاب الصبي بحالة صدمة من النزيف. وبعض الأشخاص مصابون بمرض سيلان الدم، وهو مرض وراثي. ونزيف الدم في هذه الحالة يصعب التحكم به.

الالتهاب وتعفن الجرح

قطع الغلفة يجعل الجرح والحشفة المكشوفة عرضة للتلوّث بالبول والبراز، ممّا قد يسبّب التهاب وتقيّحاً في فتحة البول. وهذا هو السبب الرئيسي لعسر البول والتهاب المسالك البوليّة، ممّا قد يتطلب تدخّل جراحي لتوسيع فتحة البول. وهذا يحدث في 10% من حالات الختان. وإذا لم توجد أدوية معقّمة، فالجرح قد يؤدّي إلى التعفن وإصابته بجراثيم عدوى كثيرة مثل التيتانوس والغنغرينا ومرض السحايا والدفتيريا وتسمّم الدم والتهاب العظام، ممّا قد يودي بحياة الطفل.

القضاء على الغدد التي تفرز المادّة المرطبة

بالختان يتم القضاء على الغدد التي تفرز المادّة المرطبة والتي تتواجد في ثلم إكليل الحشفة وبطانة الغلفة. والمادّة المرطبة تلعب أدواراً مُهمّة منها فصل الغلفة عن الحشفة تدريجيّاً ومنع إعادة التصاقها بها، والاحتفاظ بالحشفة ناعمة وليّنة تماماً كما تحافظ الإفرازات الأخرى على نعومة البشرة. فإذا ما تم قطع الغلفة بالختان، فإن الحشفة تصبح دون حماية وتجف بسرعة وتصبح عرضة للتخدش بالملابس. كما أنها تثخن وتخشن وتفقد حساسيّتها الطبيعيّة. حتى أن لونها الطبيعي يتغيّر. ويقدّر البعض سمك بشرة الحشفة لدى المختونين بعشرة أضعاف سمك بشرة الحشفة عند غير المختونين.

باسور الاحليل والمبال الفوقاني

قد تحدث عمليّة الختان فتحة جانبيّة في مجرى البول يطلق عليها «باسور الاحليل». وهذا ينتج بسبب خطأ من الخاتن خلال عمليّة قطع الغلفة، فيثقب القضيب. وقد يثبت طرف الآلة داخل مجرى البول. وعند إغلاقها فإنها تسحق الجزء الأعلى لمجرى البول والجزء الأعلى للحشفة مع الغلفة، ممّا ينتج عنه حدوث فتحة في أعلى الحشفة يطلق عليها «مبال فوقاني». وهناك بعض حالات التشوّه الخلقي يطلق عليه «الاحليل التحتاني» وهو تحوّل فتحة مجرى البول من أعلى الحشفة إلى الجانب السفلي منها. ويصلح هذا العيب بترقيع الفتحة بغلفة القضيب وإجراء فتحة في المكان الاعتيادي. فإذا لم يلاحظ الطبيب هذا العيب قَبل الختان، فإنه يصعب عليه إصلاحه لأنه بالختان يزيل قطعة الجلد التي يحتاج إليها لتصليح العيب.

ضيق الغلفة

سوف نرى أن مؤيّدي ختان الذكور يجرونه للوقاية من ضيق الغلفة الذي يمنع سحبها إلى الخلف لكشف الحشفة. إلاّ أن الختان قد يؤدّي إلى مثل هذا الضيق ممّا يسبّب حشر للحشفة. وهذا يتطلب تدخّل لتوسيع الجلد وفي بعض الأوقات يجب إعادة عمليّة الختان.

احتباس البول

قد يتم في الختان قطع «لجام القضيب»، ممّا يحرم مجرى البول الداخلي من أهم مصدر للدم فيه. وهذا يؤدّي إلى ضيق مجرى البول في 5 إلى 10% من المختونين

وإلى صعوبة في التبوّل. وقد يحدث احتباس للبول بسبب لف قضيب الطفل بعد الختان لإيقاف النزيف أو بسبب استعمال الأجهزة في الختان، وخاصّة جهاز Plastibell. وهذا الاحتباس قد ينتج كرد فعل من الطفل بسبب صدمة عمليّة الختان. واحتباس البول يجعل الطفل يتألم ويصيح ويمتنع عن الرضاعة. وقد يؤدّي إلى قصور كلوي.

موت الحشفة أو تشويهها وفقدها حمايتها

يؤدّي تضييق اللف على حشفة الطفل في بعض الأحيان إلى موتها. ويحدث أيضاً أن تجرح هذه الحشفة أو تقص كاملة بسبب تهاون الخاتن فيصاب القضيب بتشويه دائم يصاحبه مشاكل جنسيّة كبيرة مدى الحياة.

قطع زائد لجلد القضيب

من الصعب معرفة القدر الذي يتم قطعه من جلد القضيب خلال الختان، خاصّة عندما يجرى على طفل حديث الولادة. ويختلف هذا القدر حسب مهارة الخاتن ونوعيّة الختان. فاليهود مثلاً يشدّدون على ضرورة قطع أكبر قدر من الجلد. وهذا الأسلوب انتقل منهم إلى الأطبّاء الأمريكيّين. وقد يُحدث الختان قطع كبير فيصبح جلد القضيب أقصر من القضيب الذي يغطيه. وقد تحدث مضاعفات في عمليّة الختان فيضطر الطبيب إلى قطع المزيد من الجلد فيتعرّى القضيب ويسبّب ضيقاً عند انتصابه وتعطيلاً لوظيفته الطبيعيّة. وقصر جلد القضيب يؤدّي عند الانتصاب إلى شد جلد الصفن ممّا يحدث ألماً ومشاكل جنسيّة. وقد دفعت هذه المضاعفات بعض المختونين إلى اللجوء لعمليّة استعادة الغلفة إمّا بطريقة جراحيّة أو بطريقة شد الجلد، كما سنرى لاحقاً.

التقيؤ ووقف التنفس

هناك حالات لوحظ فيها أن الختان أدّى إلى التقيؤ ووقف التنفس بسبب الكرب الذي يصيب الطفل خلال عمليّة الختان، خاصّة عندما تتم دون تخدير. وقد يؤدّي صراخ الطفل خلال العمليّة إلى إصابته بـ «الاسترواح الصدري» و «الاندغام الرئوي».

مخاطر التخدير

يتم الختان عامّة دون تخدير. واستعمال التخدير بحد ذاته له نتائج لا يمكن تجاهلها في أيّة عمليّة جراحيّة. فالتخدير قد يؤدّي للموت. ويقول بعض الأطبّاء أن خطر التخدير أكبر عند الأطفال ممّا عند البالغين. ولو تم تخدير كل الأطفال لكان هذا سبباً في حوادث وفاة أكثر بين الأطفال ممّا هو الحال عليه بدون تخدير.

تقرّح فتحة مجرى البول

تحمي الغلفة حشفة الطفل من البول الذي يبلل ملابسه. فإذا ما أزيلت الغلفة، انكشفت الحشفة وأصبحت ملامسة للملابس المشبّعة بالأمونيا التي في البول، ممّا يؤدّي إلى تحرّق الحشفة وتقرّحها والتهابها. ونسبة المختونين الذين يصابون بهذه الظاهرة تقدّر ما بين 8% و31%، ولكن النسبة الحقيقيّة أعلى من ذلك بكثير لأن حالات الالتهابات والتقرّح لا تسجّل دائماً. وكثيراً ما يجهل الأطبّاء سببها خاصّة عندما تحدث بعد مدّة من الختان فينسون العلاقة بينهما. وعندها يلجأ الأطبّاء إلى البحث عن وسيلة لشفائها، فيقترحون تغيير نظام طعام الطفل لتخفيف الأمونيا في بول الطفل. وقد يقترحون بعض المراهم كالفازلين ومضادّات حيويّة لها عواقب وخيمة إذا ما اعتاد عليها الطفل، إذ يبطل مفعولها، فيضطر الأطبّاء لاقتراح مضادّات أقوى من السابقة. ومنهم من يقترح تغيير الثياب مراراً وغسلها وغليها حتى تزول الأمونيا تماماً.

ضيق فتحة مجرى البول

قد يؤدّي تقرّح فتحة مجرى البول إلى مضاعفات لاحقة مثل ضيق تلك الفتحة، خاصّة عند الصغار، ممّا يجعل التبوّل صعباً ومؤلماً ويتطلب جهداً كبيراً لإخراجه. وقد قام بعضهم بقياس فتحة مجرى البول عند مائة مختون ومائة غير مختون، فوجد أن الفتحة عند غير المختونين أوسع من الفتحة عند المختونين. ويذكر طبيب بأن ضيق فتحة مجرى البول تحدث عند قرابة ثلث المختونين ولا تحدث عند غير المختونين. وقد أثبتت الدراسات أن صعوبة التبوّل تؤدّي في بعض الأحيان إلى التبوّل في السرير ليلاً. ولعلاج ضيق فتحة مجرى البول يلجأ البعض إلى عمليّة جراحيّة لشق المبال أو توسيعه.

تشويه القضيب

ليس كل الذين يختنون يستطيعون إجراء عمليّة ذات نتائج مرضيّة شكلاً. فقد يكون القطع معوجّاً فيؤدّي إلى اعوجاج القضيب عند انتصابه. وقد يترك شفاء الجرح طبقة من الجلد على طبقة أخرى مع نتوات. وقد رفعت إلى المحاكم قضايا في هذا الخصوص باعتبار أن القضيب لا يتفق مع النظرة الجماليّة المتعارف عليها. وإذا تم الختان بواسطة ملزم Plastibell يجب أن تسقط حلقته خلال عشرة أيّام من الختان. ولكن قد تبقى هذه الحلقة داخل الجلد حول حد الحشفة. وهنا يجب تدخّل من الطبيب لإزالة الحلقة التي تترك تشويهاً في العضو على شكل ثلم. وقد يحدث جسر من اللحم بين الغلفة والحشفة يجعل انتصاب القضيب مؤلماً.

التعرّض للخدش

يصبح جلد القضيب في حالة القطع الكبير أكثر توتراً عند الانتصاب ممّا يجعله أكثر عرضة للخدش. وبعض المختونين يشتكون بأنهم لا يتحمّلون احتكاك قضيبهم بالملابس الداخليّة.

فقدان القضيب

هناك حالات تم فيها فعلاً قطع القضيب بسبب التهابات أو بسبب استعمال الكي الكهربائي لإيقاف نزيف الدم بعد إجراء الختان. وقد تطلب الأمر إجراء عدّة عمليّات جراحيّة للمحافظة على القضيب بسحبه من جوف الطفل وترقيعه بالجلد. وفي عدم نجاح تلك المحاولات، فإنه يتم بتر القضيب كاملاً. وفي بعضها حُوّل الولد فعلاً إلى أنثى. وبطبيعة الحال تكون الأنثى هنا غير قادرة على اللذّة الجنسيّة أو الإنجاب، وتجد صعوبة في التبوّل. فعمليّة التحويل هذه هي مجرّد محاولة لتخفيف للعاهة. وهذا التحويل يصاحبه مشاكل نفسيّة لا تقاس تؤيّدي إلى قضايا أمام المحاكم للحصول على تعويضات بسبب الضرر. ولكن هل يمكن لكل أموال الدنيا أن تعوّض عن مثل تلك العاهة؟

الوفاة

يؤدّي الختان بسبب النزيف أو الإصابة بعاهة أخرى أو التخدير إلى حالات وفاة كما ذكرنا سابقاً. ولا يعرف بصورة مؤكدة عدد الوفيّات التي يسبّبها الختان حتى في الدول المتقدّمة إذ إنها تسجّل تحت أسباب غير الختان. ويرى طبيب أمريكي أن كل وفاة تحدث في الأيّام العشرة التي تتبع الختان يجب أن تعتبر وفاة مشبوهة.

الأضرار الصحّية الخاصّة بالختان اليهودي

يجرى الختان الديني عند اليهود على ثلاث مراحل. فيتم أوّلاً قص الغلفة. ثم تسلخ بطانة الغلفة مع اللجام بظفر مدبّب. وبعدها يقوم الخاتن بمص قضيب الصبي بفمه. وقد توفى آلاف من الأطفال اليهود في القرن التاسع عشر في أوروبا بسبب مص الدم هذه. وقد تم إدخال تعديلات على عمليّة الختان بداية من الربع الأخير من القرن التاسع عشر لكي تتماشى مع التقدّم الطبّي. فقد أستبدل ظفر الخاتن بالمقص في المرحلة الأولى من الختان، ولكن الظفر ما زال مستعملاً لسلخ بطانة الغلفة واللجام. كما أقترح استبدال استعمال أنبوب زجاجي لمص الدم بدلاً من مصّه مباشرة بفم الخاتن لتفادي

العدوى. ولكن هذا المص ما زال يمارس بين اليهود الأرثوذكس. وقد سمح الحاخام الشرقي «بكشي دورون» في إسرائيل بمص الدم بأنبوب زجاجي ليس خوفاً على انتقال الأوبئة إلى الطفل ولكن خوفاً من أن ينتقل الإيدز إلى الخاتن.

3) الأضرار الصحّية لختان الإناث

لختان الإناث، كأي عملية طبّية، أضرارها. ولكن ليس هناك إحصائيات موثوقة في هذا المجال. ونحن نستعرض هنا أهم هذه الأضرار الصحّية.

النزيف

يؤدّي ختان الإناث إلى نزيف دموي. في بعض الحالات يكون النزيف بسيطاً ويمكن إيقافه إمّا بوسائل بدائيّة تمهّد لحدوث الالتهابات مثل البن المطحون أو تراب الفرن أو بعض الأعشاب القابضة مثل «القرض»، كما يحدث في بعض المنازل، بما فيه من أتربة وتلوّث. أو بخياطة الأوعية النازفة أو كيّها في المستشفى. وفي حالات أخرى يكون النزيف شديداً لإصابة الشريان البظري الذي يندفع منه تيّار الدم تحت ضغط شديد فتحتاج الفتاة إلى نقل دم وإجراء جراحة عاجلة. وهناك حالات تكون فيها الطفلة مصابة بمرض سيلان الدم الوراثي فيسبّب الختان نزيفاً مستمرّا يؤدّي إلى وفاة البنت.

الصدمة العصبيّة

وهي رد فعل الجسم للألم والنزيف. وأعراضها انخفاض شديد بضغط الدم وحرارة الجسم وإغماء. وقد يمكن إنعاش الفتاة بوسائل طبّية قد تصل إلى عمليّة نقل دم، وقد تتوفى.

الإضرار بالأعضاء المجاورة

إثناء إجراء عمليّة ختان الإناث، تقوم الضحيّة عامّة بحركات مقاومة بسبب الخوف والألم تؤدّي إلى عدم التركيز على العضو الذي يراد بتره، ممّا يسبّب إلحاق جراح بالأعضاء المجاورة مثل مجرى البول أو المهبل أو العجّان أو الشرج. وقد يؤدّي ذلك إلى عدم السيطرة على البول والبراز اللذان قد ينزّان باستمرار. وقد سجّلت بعض الحالات التي تصل إلى كسر بعظام الترقوة أو الذراعين أو الفخذين عند الضغط العنيف على عظام طفلة صغيرة بأيدي من يقيّدون حركتها.

متاعب بوليّة

تشعر الفتاة المختونة بألم شديد عندما يمس البول الحمضي الجرح. وقد يؤدّي الخوف من الألم إلى احتباس البول. كما قد يحدث هذا الاحتباس من تهيّج وتورّم الأنسجة المصابة حول فتحة مجرى البول نتيجة لإصابته أثناء إجراء العمليّة ذاتها، خاصّة إذا كان من يقوم بها ليس على دراية بالتشريح الطبيعي للأعضاء التناسليّة الخارجيّة. ويترتب على احتباس البول آلام شديدة أسفل البطن، وتكاثر الميكروبات في البول الراكد المتجمّع بالمثانة، لا سيما في حالة حدوث التهابات بموضع التشويه كما يحدث كثيراً. ويؤدّي ذلك إلى التهاب بالمثانة، وربّما يتطوّر إلى الحالبين والكليتين.

الالتهابات

الجرح في مكان حسّاس كهذا عرضة للتلوّث، إمّا بسبب استخدام أدوات ملوّثة، أو أشياء ملوّثة لإيقاف النزيف، أو لأن المنطقة قريبة من فتحة الشرج وأي جرح فيها عرضة للتلوّث بالبكتيريا القولونيّة. وقد تعالج هذه الالتهابات وتشفى أو تترك آثاراً مزمنة. وقد تتفاقم وتحدث غنغرينا بالفرج، أو قد تغزوا الميكروبات الدم وتسبّب التسمّم الدموي. وقد تمتد هذه الالتهابات إلى الكلى وسائر الجسم جميعاً، كما قد تؤدّي إلى ضيق فتحة الفرج وما يتصوّر أن ينجم عن هذه الالتهابات والنزيف من وفاة. وقد تمتد الالتهابات إلى الجهاز التناسلي الداخلي أي إلى المهبل والرحم والبوقين. وقد تمتد إلى الجهاز البولي فتصاب المثانة والكليتان. وقد يؤدّي ذلك أيضاً إلى الإصابة بمرض الإيدز بسبب تلوّث جرح الختان.

تشويه العضو

يلتئم جرح الختان بنسيج ليفي محدثاً تشوهات بالمكان. وقد تحدث ندب مؤلمة عند اللمس فتسبّب ألماً عند الجماع. وقد يشوّه الشكل الخارجي نتيجة عدم إزالة أجزاء متساوية أو نتيجة ترك زوائد تنمو وتتدلى بعد ذلك. وقد تتكوّن أورام نتيجة لدخول بعض الخلايا أثناء التئام الجرح تحت الجلد. وتتضخّم هذه الأورام في الكبر ممّا يستدعي إجراء عمليّة جراحيّة لإزالتها. كما قد تحدث التصاقات مختلفة بالأنسجة وقروح مزمنة مكان الجرح. وقد يلتصق حدّا جرح الشفرين محدثاً انغلاقاً للرحم وكأن الختان قد أجري على الطريقة الفرعونيّة.

تعطيل وظيفة الشفرين الصغيرين

يؤدّي قطع الشفرين الصغيرين إلى الحرمان من وظيفتهما في توجيه تيّار البول بعيداً عن الجسم. كما يحرم البنت من وظيفتهما في حماية مدخل المهبل من غزو الجراثيم.

العقم

قد تمتد الالتهابات الموضعيّة مع نقص حماية مدخل المهبل إلى المسالك التناسليّة. وقد تسبّب العقم نتيجة لانسداد البوقين. ويرجع الأطبّاء 20 إلى 25% من حالات العقم في السودان إلى الختان. وتحكي السيّدة الشاديّة سارة يعقوب بأن صديقة لها مختونة ختاناً فرعونياً تم فتحها ليلة زواجها في مكان لا يؤدّي إلى الرحم. وبطبيعة الحال لم تحمل وظنّت أنها مصابة بالعقم. ولحسن حظها عرضت نفسها للطبيب الذي اكتشف الوضع المأساوي فاحدث فتحة يؤدّي إلى الرحم فحملت.

تعسّر عمليّة الوضع

نتيجة لالتئام جرح الختان بنسيج ليفي، فإن منطقة الفرج تفقد مطاطيّتها. وإذا لم يتمدّد الفرج أثناء الوضع فإنه يؤدّي إلى حدوث تمزّق في منطقة العجّان وفي عضلة الشرج، فتفقد السيّدة التحكم في عمليّات الإخراج. وقد تؤدّي طول فترة الولادة وتعسّرها إلى حدوث تمزّق في الأنسجة المحيطة بفتحة البول. وهذه التمزّقات تحتاج لتدخّل جراحي فوري لإيقاف النزيف الناتج عنها ولمنع تقيّح الجروح. وقد يؤدّي ضيق فتحة المهبل الناتج عن الختان إلى تعسّر مرور رأس الجنين، ممّا يؤدّي إلى وفاته اختناقاً بسبب نقص الأكسجين، أو إلى ولادة طفل متخلف عقليّاً أو حركيّاً.

إصابة غدّتا بارثولين

توجد غدّتا بارثولين تحت الثلث الأوسط للشفرين الكبيرين. وتتمثل وظيفتهما في إفراز المادّة المرطبة التي تسهّل العمليّة الجنسيّة. وعند إجراء عمليّة الختان قد تصاب هاتان الغدّتان بالالتهاب أو بالأورام إمّا نتيجة لانسداد قناتهما أو نتيجة للالتصاقات التي تنتج من التئام الجرح. وهذه الأورام تستدعي تدخّلاً جراحيّاً لمعالجتها.

عسر الطمث

يحدث هذا إمّا لأسباب نفسيّة ناتجة عن الصدمة النفسيّة السابقة للختان وارتباطه في اللاشعور بالدم أو النزيف، ممّا يؤدّي إلى تكرار حدوث الصدمة النفسيّة مع كل دورة طمثيّة. وقد يكون السبب عضويّاً نتيجة لحدوث التهابات مزمنة واحتقان بالحوض.

المخاطر العامّة للجرح

عمليّة الختان لها مضاعفات ومخاطر ككل عمليّة جراحيّة. ومن هذه المخاطر الإصابة بالتيتانوس في حالة تلوّث الجرح بهذا الميكروب، أو الالتهاب الكبدي الوبائي أو الإيدز في حالة استخدام أدوات ملوّثة مثلما قد يحدث في الطهارة الجماعيّة لبنات أسرة أو جيران معاً، لا سيما أن الغليان لا يقتل فيروس التهاب الكبد الوبائي.

الوفاة

هناك حالات وفاة بسبب ختان الإناث. ولكن ليس هناك إحصائيّات في هذا الخصوص. وتنتج الوفاة خاصّة بسبب النزيف الذي يصعب السيطرة عليه. كما قد تحدث بسبب الصدمة أو الالتهابات وتعفن الدم، أو بسبب إعطاء كمّية كبيرة من المخدّر في حالة استعماله.

الأضرار الصحّية الخاصّة بالختان الفرعوني

بالإضافة إلى الأضرار السابقة الذكر، هناك أضراراً خاصّة بالختان الفرعوني، مثل:

- حدوث حصوات خلف الندبة

- صعوبة إجراء الفحوصات للأعضاء الجنسيّة لعدم إمكانيّة إدخال الأدوات الطبّية خلف جدار الفرج المخاط. ولا يمكن للطبيب فك الخياطة لأن ذلك يتطلب إعادتها كما كانت.

- احتباس البول ودم الحوض خلف الندبة وتعفنهما ممّا يزيد من المشكلات البوليّة والتناسليّة واحتمال العقم. وكل النساء المختونات عانت من مضاعفات في مدّة الحيض. وتتطلب هذه المضاعفات التدخّل الجراحي لفتح الفرج. وقد يدوم الحيض مدّة عشرة أيّام وينتج عنه روائح كريهة تضطر معها الفتاة البقاء في البيت مدّة الحيض، ممّا يخلق مشاكل دراسيّة ومهنيّة.

- عسر الولادة: قد يضطر الطبيب لتوليد الأم بعمليّة قيصريّة. فكل سيّدة ختنت فرعونياً تخضع لعمليّة قطع لعدم مرونة الأنسجة الناتجة عن التئام الجرح. وهذا يؤدّي إلى نزيف. وقد يؤدّي ذلك إلى الإضرار بمجرى البول وإلى مرض سلس البول (عدم التحكم بالبول). وهذا يطيل عمليّة الولادة مع ما يتبعه من مخاطر نزيف واختناق الطفل ونقص أكسجين.

- قد يؤدّي ضغط رأس الجنين على جدران المهبل لفترة طويلة في الولادة المتعسّرة إلى إصابة الأم بناسور مهبلي - بولي، أو مهبلي - شرجي يؤدّيان إلى عدم تحكمها في البول أو البراز، وهذا يستدعي إجراء جراحة لعلاج هذا الضرر.

الفصل الثالث
المضار الجنسيّة لختان الذكور والإناث

للإنسان الحق في اللذّة الجنسيّة لراحته الجسديّة والنفسيّة تماماً كحقّه في الأكل والشرب والنوم. واللذّة الجنسيّة هي إحدى غايات ووسائل تماسك الزواج. وكما أن قطع جزء من اللسان يؤدّي إلى انتقاص في حاسّة الذوق واللذّة الذوقيّة، فكذلك يؤدّي قطع جزء من الأعضاء الجنسيّة إلى إضعاف اللذّة الجنسيّة. وإذا لم يتمكن الإنسان من الوصول إلى اللذّة كما نظمتها الطبيعة فإنه سوف يبحث عنها بوسائل أخرى كالمخدّرات والشذوذ الجنسي والتبديل للشريك، ممّا يخلق مشاكل في الحياة الزوجيّة.

1) ختان الذكور واللذّة الجنسيّة

أ) مؤيّدو ختان الذكور قديماً يرون فيه إضعاف للذّة

رأى رجال الدين اليهود قديماً في الختان وسيلة مثلى لإضعاف العضو التناسلي عند الذكر وتخفيف اللذّة الجنسيّة وكبت الشهوة، ليس فقط عند الرجل بل أيضاً عند شريكته في العلاقة الجنسيّة. وقد أيّدوا الختان لأن نتائجه تتفق مع نظرتهم السلبيّة للشهوة الجنسيّة.

يقول المفكر اليهودي «فيلون» أن الهدف من الختان هو الحد من اللذّة التي تسحر النفس. فاللذّة النابعة من العلاقة الجنسيّة بين الرجل والمرأة هي أقوى لذّة عند الإنسان. ولذلك قرّر المشرّعون بتر العضو الجنسي المتصل بهذه اللذّة، ليس فقط للحد من هذه اللذّة، بل للحد من جميع الملذّات الأخرى. ويضيف في مكان آخر أن الله أمر بختان

الذكور وليس بختان الإناث لأن الرجل أكثر إحساساً باللذّة الجنسيّة من المرأة، فيبحث عن التزاوج. ولذلك أراد الله أن يحد من لذّته ويخفف من اندفاعه. ونجد رأياً مماثلاً عند الطبيب والفيلسوف موسى ابن ميمون الذي يقول:

«وكذلك الختان أيضاً عندي إحدى علله تقليل النكاح وإضعاف هذه الآلة حتى يقصر هذا الفعل ويجمّ ما أمكن. وقد ظُنَّ أن هذا الختان هو تكميل نقص خلقة، فوجد كل طاعن موضعاً للطعن. وقيل كيف تكون الأمور الطبيعيّة ناقصة حتى تحتاج لتكميل من خارج مع ما تبيّن من منفعة تلك الجلدة لذلك العضو. وليس هذه الفريضة لتكميل نقص الخلقة، بل لتكميل نقص الخُلق. وتلك الأذيّة الجسمانيّة الحاصلة لهذا العضو هي المقصودة التي لا يختل بها من الأفعال التي بها قوام الشخص، ولا بطل بها التناسل، ولكن نقص بها الكَلَب والشره الزائد على ما يحتاج. وأمّا كون الختان يضعف قوّة الانعاظ، وقد ربّما نقّص اللذّة، أمر لا شك فيه، لأن العضو إذا أُدمي، وأزيلت وقايته من أوّل نشوئه، فلا شك، أنه يضعف. وببيان قالوا الحُكماء عليهم السلام: إنه من الصعب أن تفارق المرأة الأغلف الذي جامعها».

وعند أقباط مصر يقول ابن العسّال: «وأمّا المنفعة [من الختان] فقد ذكر بعض رجال الطب المتفلسفين المصنّفين أن الختان يضعف آلة الشهوة فتقل وهذا بالاتفاق مستحب». ويرى توما الأكويني أن أحد أسباب وضع الختان كعلامة للإيمان في القضيب وليس في الرأس هو إنقاص الشهوة واللذّة الجنسيّة.

وفي الكتابات الإسلاميّة هناك رأي مماثل. يقول ابن قيّم الجوزيّة بأن في الختان تعديل للشهوة «التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات، وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات. فالختان يعدّلها ولهذا تجد الأغلف من الرجال والغلفاء من النساء لا يشبع من الجماع». ويقول المنّاوي (توفى عام 1622) نقلاً عن الإمام الرازي (دون تحديد هويّته): «إن الحشفة قويّة الحس. فما دامت مستورة بالغلفة تقوّي اللذّة عند المباشرة. وإذا قطعت صلبت الحشفة فضعفت اللذّة، وهو اللائق بشرعنا تقليلاً للذّة لا قطعاً لها توسيطاً بين الإفراط والتفريط».

ب) معارضو ختان الذكور في أيّامنا يرون فيه أيضاً إضعافاً للذّة

يتفق معارضو ختان الذكور مع من ذكرناهم سابقاً في أن الختان يضعف اللذّة الجنسيّة ويحاولون إيجاد تفسير علمي لذلك. ولكن خلافاً لهم، يعارضون الختان لأن نتائجه تتضارب مع نظرتهم الإيجابيّة للذّة الجنسيّة.

يبيّن المعارضون بأن اللذّة الجنسيّة، خلافاً لما قد يعتقد، لا توجد في الحشفة (رأس القضيب) بل في إكليل الحشفة واللجام والغلفة. فالحشفة تكاد تكون عديمة الحساسيّة، قليلاً ما تتأثر بالألم والحرارة. والعضو الوحيد الأقل حساسيّة من الحشفة هو عقب

القدم. وبقطع الغلفة يتم تعرية الحشفة وإكليلها، ممّا يجعلهما تدريجيّاً مع تقدّم العمر أقل حساسيّة ونعومة ورطوبة. ويقارن بين الحشفة والقدم العارية: فكلما سرت بقدم عارية، يخشن جلدها وتنقص حساسيّتها. وبقطع الغلفة يحرم القضيب من أكثر خلايا جسم الإنسان حساسيّة وتهيّجاً. فقد تصل كمّية الجلد التي تقطع إلى 80% من جلد القضيب يقضي على قرابة متر من الأوردة الدمويّة والشرايين وقرابة 10 أمتار من الأعصاب و 20.000 نهاية عصبيّة. كما أن الختان أحياناً يحدث أضراراً باللجام.

وإن كان الختان لا يمنع انتصاب القضيب، إلاّ أن تقليص مساحة الجلد الذي يتمدّد فيه وإضعاف مطاطيّته يجعل هذا الجلد مشدوداً وأقل انزلاقاً فوق قصبة القضيب. وإذا كان القطع كبيراً، فإن القضيب قد يلتوي داخل الجلد أو يشد جلد كيس الصفن (كيس الخصوتين) للتعويض عمّا فقده. أضف إلى ذلك أن الختان قد يترك نتوءات وتشوهات في الجلد نتيجة التحام محل القطع.

وفي مرحلة التحضير للعلاقة الجنسيّة، تقوم المرأة عامّة بمداعبة القضيب وتحريك جلده لكي تهيّجه وتبقيه في حالة انتصاب إلى حين أن تصبح هي مستعدّة للعلاقة الجنسيّة. وكذلك يفعل الرجل مع المرأة في إعدادها للعلاقة الجنسيّة من خلال مداعبة بظرها وغلفتها. وتحريك جلد القضيب ليس من السهل إذا ما تم قطع جزء كبير منه بالختان. فالجلد يصبح مشدوداً. كما أن فقدان الغدد التي تفرز المادّة المرطبة يجعل القضيب جافاً. وامرار اليد عليه، وخاصّة على الحشفة المكشوفة، قد يسبّب إيلاماً له، إلاّ إذا تم تعويض المادّة المرطبة الطبيعيّة بمادّة دهنيّة كيماويّة بديلة لا تتلاءم دائماً مع الجسم ولها عواقبها، وخاصّة أنها تتسرّب إلى داخل جسم الرجل والمرأة. لذلك يجب تعليم شريكة العلاقة الجنسيّة أسلوباً لتهييج القضيب المختون بمداعبته دون إيلامه عند شد جلد القضيب إلى الوراء والى الأمام. وهكذا تكون عمليّة التهييج التحضيريّة أقل عفويّة، ممّا يحرم كل من الرجل والمرأة من لذّة التحضير. وقد يكون فقدان الغلفة عند المختونين هو أحد الأسباب التي من أجلها تقوم المرأة في الحضارة الأمريكيّة بعمليّة مص القضيب بفمها معوّضة بهذا الأسلوب فقدان رطوبة القضيب الطبيعيّة بلعابها، وفقدان النسيج الأملس عند الرجل بالنسيج المخاطي الموجود في فمها. وهذا يفسّر أيضاً لماذا تسبق العلاقة الجنسيّة للمختونين عامّة مداعبة أقل. وهكذا يقوم الختان بحرمان كل من الرجل والمرأة من لذّة مرحلة الإعداد قَبل الإيلاج.

وبتر الغلفة يجعل العلاقة الجنسيّة ذاتها مؤلمة لكل من الرجل والمرأة. فالقضيب غير المختون عند ممارسة الجنس ينزلق دخولاً في مهبل المرأة وخروجاً منه ضمن جلده وغلفته وبطانة غلفته. وبفضل عضلات المهبل، تبقى الغلفة وبطانتها ملامسة للمهبل بينما القضيب يتحرّك داخله. أمّا إذا كان القضيب قد فقد غلفته (وبطانتها)، فإنه يتحرّك

مع جلده المشدود حوله داخل المهبل. ويسبّب ذلك احتكاكاً أشد والتهاباً أكبر للمهبل يؤدّي إلى متاعب وألم لكل من الرجل وشريكته تتحوّل إلى متاعب نفسيّة ونفور بينهما. ويضاف إلى شد جلد القضيب فقدانه لجزء كبير من المادّة المرطبة التي تلعب دور الزيت بين عجلات الآلة. ويشار هنا إلى أن المختونين يندفعون نحو الإيلاج ويتصرّفون بسرعة وعنف كبيرين واقتحام للفرج بشدّة للحصول على مثيرات كافية للوصول إلى اللذّة والارتواء، ممّا قد يؤدّي إلى كشط وإدماء وألم عند كل من الذكر والأنثى. وكلما تقدّم الرجل والمرأة في العمر، فإن العلاقة الجنسيّة تصبح أقل لذّة إذ تصبح الحشفة وإكليل الحشفة أقل حساسيّة، وعمليّة الإيلاج أكثر ألماً. ويشار إلى أن ممارسة العادة السرّية تختلف في أسلوبها عند المختون من غير المختون. فغير المختون يقوم بزلق جلد القضيب المتحرّك فوق الحشفة المرطبة ذهاباً وإياباً دون أن يكون هناك احتكاك والتهاب ودون مس الحشفة باليد.

ويشبّه طبيب أمريكي الرجل المختون بالموسيقي الذي يملك آلة موسيقيّة رديئة. فمهما كانت مقدرته الموسيقيّة فإنه لن يتمكن من أن يستخلص منها لحناً موسيقياً يتفق ومقدرته. هذا وسوف نرى لاحقاً كيف أن المختونين يحاولون الآن مط جلد القضيب حتى يسترجعوا بعض ما فقدوه بالختان من طول في الجلد وقوّة في اللذّة.

ج) مؤيّدو ختان الذكور في أيّامنا يرون فيه تقوية للذّة

قديماً أيّد رجل الدين ختان الذكور لأنه يضعف اللذّة الجنسيّة. ثم جاء معارضو الختان فرفضوه لأنه يضعف تلك اللذّة التي يعتبرونها حقاً طبيعيّاً للإنسان. ومع اختلاف القيم، أخذ مؤيّدو ختان الذكور يقولون بأن الختان لا يضعف اللذّة الجنسيّة، لا بل قد يقوّيها. فالمختونون وشريكاتهم لا يتذمّرون من حالهم. والختان يؤدّي إلى إبطاء في عمليّة القذف وإطالة في العلاقة الجنسيّة، ومن ثم مزيداً من اللذّة لكل من الرجل وشريكته. والنظافة الناتجة عن الختان تعمل على زيادة اللذّة. ولكن ما هي حقيقة الأمر؟

إن القول بأن ختان الذكور لا يضر لأن المختونين راضون عن ختانهم ليس له أساس علمي. فليس من السهل أن يتكلم الرجل عن متاعبه الجنسيّة إلاّ بحياء كبير وفي محيط يثق فيه، لأن ذلك متعلق برجولته. أضف إلى ذلك الهاجس الديني. وبدلاً من الاعتراف بنقصه يشدّد المختون على كونه بحالة جيّدة لحماية نفسه. ومن جهة أخرى لا يعرف كثير من المختونين ما فقدوا لأنهم لا يملكون وسيلة للمقارنة بين وضعهم الحالي وكيف كان يمكنهم أن يكونوا لو لم يختتنوا. فكل تجربتهم الجنسيّة تمّت بقضيب مختون. وهم في ذلك يشبهون فاقد تمييز الألوان. فهو يظن أن كل شيء على ما يرام وكما يراه ولا يعرف شكلاً آخر للألوان. من جهة أخرى يجهل هؤلاء المختونون تماماً ما هي

وظيفة الغلفة وكيفيّة عمل القضيب غير المختون. فالكتب الطبّية والشعبيّة تصوّر لهم القضيب دون غلفة.

وقد أجريت دراسة استطلاعية عام 1994 على 313 شخصاً مختوناً في الولايات المتحدة ينتمون إلى أوساط دينيّة وعرقيّة مختلفة ولهم صلة بمراكز مكافحة الختان واستعادة الغلفة. وتبيّن هذه الدراسة بأن 61% منهم يعانون من نقص في الحساسيّة، وأن هذا النقص أدّى إلى عرقلة العلاقة الجنسيّة من خلال مشاكل الانتصاب وصعوبة القذف أو عدم الوصول للارتواء الجنسي. وقد اضطر 40% منهم إلى اللجوء إلى مثيرات غير طبيعيّة. وأجاب عدد كبير منهم بأن العلاقة الجنسيّة العاديّة (ولوج الفرج) ليست كافية لإثارتهم للوصول إلى اللذّة والارتواء. وفي تقرير آخر تبيّن أن 50% من المختونين غير راضين عن ختانهم، مقابل فقط 3% من غير المختونين غير راضيين عن وضعهم. ويؤكد الذين يستعيدون غلفتهم بأنهم يشعرون بلذّة أكبر في العلاقة الجنسيّة ممّا كان عليه الأمر قَبل استعادة تلك الغلفة.

فيما يخص سرعة القذف يرى مؤيدو ختان الذكور أن بتر الغلفة يضعف حساسية الحشفة وينقص المساحة المهيجة من جلد القضيب مما يؤدّي إلى إبطاء القذف. ولكن هناك مشكلة تعريف سرعة القذف وأسبابه.

يعتبر الأطبّاء سرعة القذف عيباً إذا تم خارج المهبل بمجرّد ملامسته واستمر الحال عليه. وإذا كان القذف سريعاً داخل المهبل ووافق ارتواء الرجل ارتواء المرأة، فهذا أمر لا يعتبر عيباً. أمّا إذا تأخّر قذف وارتواء الرجل عن ارتوائها فقد يحس الرجل بانتقاص في قدرته الجنسيّة. وإذا كان ارتواؤه أسرع من ارتواء المرأة ثم أهملها ولم يوصلها للارتواء بدورها، فقد يشعر الرجل أن المرأة باردة، كما قد تشعر المرأة بالإحباط. وسرعة الارتواء عند الرجل والمرأة تتعلق بعوامل كثيرة من بينها عدم استطاعة الرجل السيطرة على العلاقة الجنسيّة، وتهيّج كبير لدى علاقة مع شريكة أو شريك جديد. وقد يلعب الدين دوراً في سرعة القذف أو في إبطائه. فاليهود الأرثوذكس يرون ضرورة القذف بأسرع وقت ممكن. وهذا يعني أن سرعة القذف هو مصطلح نسبي يختلف من شخص إلى آخر ومن شريك إلى آخر. ويلاحظ أن القذف عند الحيوانات يتم حال إدخال القضيب في مهبل الأنثى.

ولم يثبت علميّاً وجود علاقة بين سرعة أو إبطاء القذف وبين الختان. ولو كان قولهم صحيحاً لواجه غير المختونين مشاكل أكثر من المختونين. ومشكلة سرعة القذف توجد في الولايات المتحدة حتى بين المختونين. وارتفاع الختان في هذا البلد من 50% إلى 75% في عام 1980 لم يؤد إلى تقلص هذه المشكلة، لا بل زادها حدّة. واليهود

مثل غيرهم يتجهون للعيادات الطبّية لمعالجة سرعة القذف رغم ختانهم. وهناك شهادات بعض الأفراد الذين تم ختانهم كباراً. وهم يؤكدون أن الختان قد حسّن علاقاتهم الجنسيّة بإبطاء سرعة القذف. ولكن هذا قد يكون في زمن محدود بعد العمليّة، ثم ما يلبثوا أن يعودوا إلى سرعة القذف. وهناك شهادات مخالفة تماماً من أفراد ختنوا صغاراً ثم استعادوا غلفتهم عندما كبروا بالوسائل التي سنعرضها لاحقاً. وقد أدّى ذلك إلى إبطاء القذف وسيطرة أكبر على العلاقة الجنسيّة.

ويرى مؤيّدو ختان الذكور في أيّامنا بأن النساء تفضّل العلاقة الجنسيّة مع المختونين. ولكن هناك آراء تخالف ذلك. فموسى ابن ميمون يقول: «إنه من الصعب أن تفارق المرأة الأغلف الذي جامعها». أي أنها تجد مع غير المختون لذّة أكثر ممّا مع المختون. وقد تم استطلاع رأي 139 امرأة كان لهن علاقات جنسيّة مع مختونين وغير مختونين. وتبيّن منها ما يلي:

- أن الشريك المختون يصل إلى القذف قَبل الأوان بصورة أكبر من غير المختون.

- أن النساء أقل بلوغاً للارتواء الجنسي في العلاقة مع المختونين.

- أن النساء يقل إحساسهن بالارتياح وتقل عدد مرّات وصولهن إلى الارتواء الجنسي مع المختونين.

- أن إفرازات المهبل تضعف مع استمرار إيلاج المختون. وإذا ما كان الجماع طويلاً، تقل رغبة المرأة في استمراره.

- أن النساء التي يقل عمرهن عن 29 سنة يفضّلن الوصول إلى الارتواء من خلال العلاقة الجنسيّة بالفم مع المختونين.

- أن النساء يفضّلن العلاقة الجنسيّة بالفرج مع غير المختونين بدلاً من المختونين.

- أن النساء يشعرن بأن الرجال غير المختونين يجدون متعة أكثر في العلاقة الجنسيّة العاديّة، وأن المختونين أكثر ممارسة للعادة السرّية والجنس بالفم. وهذه الظاهرة قد تكون لأنهم لا يتمتعون كثيراً بالعلاقة الجنسيّة العاديّة.

- أن العلاقة الزوجيّة والشراكة الجنسيّة أطول مع غير المختونين ممّا مع المختونين. وهذا ما يؤكد مقولة ابن ميمون. فوجود الغلفة يؤدّي إلى ألفة أكبر بين الزوجين.

هذا وقد تلعب الثقافة ونفسيّة الإنسان دوراً في المفاضلة بين المختونين وغير المختونين. فالمرأة التي تعيش في مجتمع لا يختن الذكور، قد ترى في الختان عيباً وتصاب بصدمة من هذه الظاهرة. أمّا التي تعيش في مجتمع يختن الذكور، قد ترى في عدم الختان عيباً تتقزّز منه. والعكس صحيح. ففي تغيير السروج راحة، حسب قول المثل. وتقول «رومبيرغ» بأنه يجب تخطي مثل هذه الاختلافات السطحيّة التي لا أهمّية لها إذا ما قيست بقيم أخرى مثل اللطف والحرص على الآخر والمداعبة.

2) ختان الإناث واللذّة الجنسيّة

أ) مؤيّدو ختان الإناث قديماً يرون فيه إضعافاً للذّة

رأى مؤيّدو ختان الإناث قديماً فيه وسيلة لإضعاف لذّة المرأة وكبح جماحها لصدّها عن طريق الرذيلة والسيطرة عليها.

فإذا رجعنا إلى الأحاديث التي جاءت في ختان المرأة، وكلها مشكوك في صحّتها، وجدنا أن أهم حديث في هذا الخصوص يربط بين اللذّة وختان الإناث. وهذا الحديث ينقل قولاً للنبي لامرأة كانت تعمل خاتنة للجواري: «أشمّي ولا تُنهكي، فإنه أنور للوجه وأحظى للرجل». وهناك صوراً أخرى لهذا الحديث في نفس المعنى. واعتماداً على هذا الحديث، كتب الجاحظ:

> «والبظراء تجد من اللذّة ما لا تجده المختونة. فإن كانت مستأصلة مستوعبة كان على قدر ذلك [...]. قال النبي (ص) للخاتنة: يا أم عطيّة أشمّيه ولا تُنهكيه فإنه أسرى للوجه وأحظى عند البعل. كأنه أراد النبي (ص) أن ينقص من شهوتها بقدر ما يردّها إلى الاعتدال. فإن شهوتها إذا قلت ذهب التمتع ونقص حب الأزواج. وحب الزوج قيد دون الفجور [...]. وزعم جناب بن الخشخاش القاضي أنه أحصى في قرية واحدة النساء المختونات والمعبرات، فوجد أكثر العفائف مستوعبات [أي مختونات] وأكثر الفواجر معبرات [أي غير مختونات]، وأن نساء الهند والروم وفارس إنّما صار الزنى وطلب الرجال فيهن أعم لأن شهوتهن للرجال أكثر. ولذلك اتخذ الهند دوراً للزواني. قالوا: وليس لذلك عِلة إلاّ وفرة البظر والغلفة».

ويكرّر علينا الفقهاء نص الجاحظ هذا مع بعض الاختلافات. وذكر ابن تيميّة: «إن المقصود بختان الرجل تطهيره من النجاسة المحتقنة في الغلفة، والمقصود من ختان المرأة تعديل شهوتها، فإنها إذا كانت غلفاء كانت مغتلمة شديدة الشهوة». ويقول ابن قيّم الجوزيّة بأن في ختان الإناث (والذكور) تعديل للشهوة «التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات، وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات. فالختان يعدّلها ولهذا تجد الأغلف من الرجال والغلفاء من النساء لا يشبع من الجماع».

ب) معارضو ختان الإناث في أيّامنا يرون فيه أيضاً إضعافاً للذّة

يشدّد معارضو ختان الإناث في مصر على أن بتر البظر يؤدّي إلى انتقاص في اللذّة الجنسيّة عند المرأة. تقول الدكتورة نوال السعداوي:

«البظر [...] يتميّز بأنه العضو الوحيد الذي يشتمل على أنسجة قابلة للانتصاب أثناء الإثارة الجنسيّة وعلى أكثر الأعصاب حساسيّة بلذّة الجنس. وهو الذي يقود العمليّة الجنسيّة من أوّلها إلى آخرها. وبدونه لا تصل المرأة إلى قمة اللذّة التي يصاحبها الإنزال وتنتهي به العمليّة الجنسيّة».

ويقول الدكتور محمّد سعيد الحديدي:

«ما حال أحدنا إذا قطع لسانه لا سمح الله وأريد منه أن يتذوّق شيئاً ليحكم عليه. لا شك أنه يستحيل عليه ذلك. نعم قد يستسيغ الطعام الذي يأكله لأن له رائحة ذكيّة أو لأن شكله جميل أو لأنه يعرف عنه أنه غذاء لذيذ شهي فيقتنع من ناحية معنويّة فقط أن هذا الغذاء سيفيده. هذا بالضبط يا حضرات السادة سؤالي الذي أوجّهه إليكم اليوم والذي أريد منكم الإجابة عنه. ولا شك أنه بدهي تماماً. فكيف يمكن للزوجة المختّنة التي أستئصِل منها العضو الخاص بالحساسيّة الجنسيّة أن تتذوّق هذه الناحية من الشعور والإحساس. لا شك أن سبيل إقناعها من هذه الناحية يصبح عسيراً صعباً وطويلاً. وهذا ما نشاهده في جميع النساء المختّنات، وقد نتج عن نقص في الحساسيّة الجنسيّة تستعيض عنه المرأة بطول المدّة اللازمة لإقناعها من هذه الناحية وقلما يمكن إقناعها».

ويحاول الكتاب الغربيّون صياغة فكرهم بصورة علميّة. فيقول الدكتور «جيرارد تسفانج» أن النظام العصبي يكون عند الولادة في مراحله البدائيّة ويبدأ بالتطوّر بين سن الثانية والثالثة بواسطة اللمس اليدوي عندما يكتشف الطفل جسده. وتطوّر حلقة اللذّة الجنسيّة عند البنت متأخّر بالنسبة لتطوّر حلقة اللذّة عند الولد لأن قضيب الولد ظاهر بخلاف البظر عند البنت. فقد لوحظ أن هناك أطفال يمارسون العادة السرّية منذ وجودهم في رحم والدتهم. وعند البنت تتم حلقة أعصاب اللذّة وتصبح ذات فاعليّة ما بين سن السادسة والسابعة. ومع ممارسة العادة السرّية، يستمر تطوير تلك الأعصاب. وتطوّر الجنس عند البنات يتم فقط في الحقبة الثانية من عمرهن، أي بعد عمر عشر سنين. ففي هذا العمر يمكنهن أن يمارسن الجنس. وقد يحسسن باللذّة الجنسيّة من خلال أعصاب المهبل حتى وإن تم قطع البظر قَبل ذلك على شرط أن تكون أعصاب اللذّة قد تطوّرت قَبل قطع البظر. وهناك نساء مختونات تدّعي أنهن وصلن لذروة اللذّة. وقد يكون هذا ممكناً إذا تم ختانهن في عمر متأخّر بحيث كانت الأعصاب متطوّرة وتم تهييجها بواسطة المهبل. ولكن لإثبات تلك الادعاءات يجب القيام بفحوصات في المختبرات. ومثل هذه الفحوصات غير متوفرة لتبديد الشكوك.

ج) مؤيّدو ختان «السُنّة» في أيّامنا يرون فيه تعديلاً أو تقوية للذّة

يفرّق الكتاب المسلمون عامّة بين «ختان السُنّة» الذي يجرى عملاً بالحديث النبوي «أشمّي ولا تُنهكي»، والأنواع الأخرى الأكثر قسوة. وهم إذ يدينون هذه الأنواع، يقبلون بختان السُنّة ويعتبرونه وسيلة لعديل شهوة المرأة دون إلغاء لذّتها الجنسيّة. لا بل هناك من يرى في ذلك الختان وسيلة لزيادة لذّة كل من الرجل والمرأة. يقول الشيخ محمود شلتوت:

«إن تلك «الزائدة» من شأنها أن تحدث عند الممارسة مضايقة للأنثى، أو للرجل الذي لم يألف الإحساس بها، ويشمئز منها، فيكون خفضها مَكرُمَة للأنثى، وفي الوقت نفسه مَكرُمَة للرجل في الفترات المعروفة. وختان الأنثى بهذا الاعتبار لا يزيد عمّا تقتضيه الراحة النفسيّة واستدامة العاطفة القلبيّة بين الرجل وزوجته، من التزيّن، والتطيّب، والتطهير من الزوائد الأخرى التي تقترب من هذا الحمى».

وقد كتب الدكتور الأمريكي «راثمان» في عام 1959 مقالاً يقترح فيه قطع غلاف البظر إذ إن هذه العمليّة، في رأيه، قد أثبتت فائدتها منذ أكثر من 3000 سنة. بالإضافة إلى إمكانيّة اللجوء إلى هذه الوسيلة عندما يكون هناك حاجة لتصليح عيب في الشكل لتضخّم الغلفة أو عطل ميكانيكي، يرى هذا الطبيب فائدة من مثل هذا القطع في الحالات التالية:

- إذا كانت المرأة تجد صعوبة في الوصول إلى الارتواء الجنسي أو لا تصل إليه.
- إذا كانت المرأة غير راغبة في العلاقة الجنسيّة رغم أنه لا يوجد هناك عيب في الغلفة. وهنا تساعد العمليّة لحل مشاكلها النفسيّة.
- إذا كان الرجل بليداً ويصعب تثقيفه. فهذه العمليّة تساعده ليجد طريقه لبظر المرأة بسهولة.
- إذا كان البظر صغيراً. وهنا تساعد العمليّة في إبرازه.

وقد نشرت المجلاّت الشعبيّة الأمريكيّة مقالات مؤيّدة لختان الإناث. ففي عام 1973، نشرت مجلة Playgirl التي يقرأها ستة ملايين شخص، مقالاً عنوانه: «ختان المرأة ألطف قطع على الإطلاق». وبعد سنة ونصف من ذلك المقال نشرت مقالاً آخراً لنفس الكاتبة عنوانه «جراحة بمائة دولار لحياة جنسيّة تساوي مليون دولار». وبعث طبيب برسالة للمجلة شاكراً للمقال وقائلاً بأنه يجري تلك العمليّة وأن قرابة 15 إلى 20% من السيّدات قد تستفيد منها.

هذا ومن الصعب التعرف بدقّة على أثر ختان الإناث على اللذّة. فق ظهر من استطلاع تم في دولة مالي وساحل العاج بأن عدد الباردات جنسيّاً بين المختونات ليس أعلى من عدد الباردات جنسيّاً بين غير المختونات. ويشير البحث بأن الجدل العام حول هذا الموضوع أوجد كبحاً عند بعض النساء المختونات اللواتي يتساءلن بعد قراءاتهن عمّا

إذا كانت علاقاتهن الجنسيّة طبيعيّة أم لا. كما جاء في بحث لماري أسعد من أن مناقشة مع 135 ممرّضة في مصر أوضحت عدم وجود علاقة بين اللذّة الجنسيّة والختان. فقد ذكرت 90% منهن أنهن يتمتعن بالجنس. ولكنّها أضافت بأن هذه الأرقام يجب أخذها بتحرّز بسبب حساسيّة الموضوع.

وتختلف نظرة الرجال إلى الأعضاء الجنسيّة الأنثويّة حسب اعتقاداتهم. فالدكتور حامد الغوّابي يقول «كيف لرجل أن يختلط بزوجة وهي لها عضو كعضوه ينتصب كانتصابه. أليس ذلك أدعى إلى استئصال جزء من هذا العضو كما جاء في حديث رسول الله (ص)؟» وتقول كاتبة إفريقيّة أن أحد حجج مؤيّدي ختان الإناث هو الاعتقاد بأنه يحسّن القوّة الجنسيّة للذكور لأن البظر يتهيّج مثل القضيب ويؤدّي إلى سرعة القذف. وفي كثير من الجماعات الذكوريّة، يعتبر إنهاء العلاقة الجنسيّة بسرعة إهانة تؤدّي إلى خصومات في العلاقة الزوجيّة. فالرجل يعتقد بأنه هو الذي عليه أن يتحكم بالعلاقة الجنسيّة للمدّة التي يرغب فيها. ولذلك فإن ختان الإناث يساعد في عدم تدخّل المرأة في تلك المُهمّة.

هناك إذاً تضارب في الآراء حول علاقة ختان الإناث بلذّة الرجل. ولكن يجب الإشارة إلى أن الختان الفرعوني قد يؤدّي إلى علاقة جنسيّة مؤلمة جدّاً في بادئ الأمر لكل من الرجل والمرأة. ولا يمكن تصوّر حدوث لذّة في هذه العلاقة إلاّ إذا اعتبرنا أن الرجل والمرأة مصابان بمرض السادومازوشيّة. ففتح المرأة المختونة فرعونياً بقضيب الرجل قد يأخذ من أسبوع إلى عدّة أشهر. وقد يلجأ الزوج إلى شق فرج المرأة بسكين، أو قد يطلب مساعدة الداية في فتح الزوجة مقابل مبلغ من المال على أن لا تبوح بالسر. وفي بعض الأحيان يحدث قناة جانبيّة يمارس الجنس من خلالها دون علم أن ذلك ليس الفرج.

3) الختان وتعاطي المخدّرات

هناك جدل حول علاقة ختان الذكور والإناث بتعاطي المخدّرات. ولكن ما زالت تنقصنا الدراسات الجدّية في هذا المجال، ربّما لحساسيّة الموضوع. ولتشجيع الباحثين، نقدّم هنا عرضاً للآراء التي عثرنا عليها.

أ) ختان الذكور وتعاطي المخدّرات

كتب القليل عن علاقة ختان الذكور بتعاطي المخدّرات. يقول «جولدمان»، وهو معارض لختان الذكور، أنه إذا ما عرف الذكور المختونون أن الغلفة هي جزء من

أعضائهم، فإنهم سوف ينظرون لأنفسهم نظرة سلبيّة ممّا يحط من تقديرهم لأنفسهم، خاصّة أن العلاقة الجنسيّة لها صلة قويّة بتقدير الذات. وإذا قَبلنا بأن الختان ينقص اللذّة الجنسيّة، فيجب أن نعتبر أن الختان ينقص تقدير الذات. وهذا له أثر شخصي واجتماعي. فالذي لا يقدّر نفسه لا يقدّر الآخرين. ويؤدّي ذلك إلى الانعزالية، والإحباط واستعمال المخدّرات.

وقد نشرنا في المحلق 24 من كتابنا الموسّع نصّاً للشيخ محمود محمّد خضر يقول عكس ذلك. فهو يرى أن عدم الختان يؤدّي إلى شدّة الهيجان الجنسي أو سرعته ومن ثم إلى سرعة القذف. وغالباً ما يلجأ الرجل إلى المخدّرات لتبريد هذا الهيجان وإطالة أمد العمليّة الجنسيّة، وبعض الناس يستعين بالغطاء الذكري لإطالة العمليّة ولو لم يكن بحاجة إليه لمنع الحمل من الجماع.

ب) ختان الإناث وتعاطي المخدّرات

تشير كتابات مصريّة كثيرة إلى علاقة تعاطي المخدّرات بختان الإناث. فقد كتب أحمد أمين:

> «في هذه الأيّام من حياتي، أعني في سنة 1950 وما بعدها، نادى بعض الناس بقصر الختان على الذكور دون الإناث، وحجّتهم في ذلك أن ختان البنات قد سبّب انتشار عادة تعاطي الحشيش والمنزول والأفيون ونحو ذلك. وذلك بسبب أن البنت إذا اختتنت ثم كبرت فختانها يقلل من لذّتها الجنسيّة، فيضطر الرجل إلى استعمال المخدّرات التي ذكرناها لغيابه عند مضاجعتها. فنادوا بعدم ختانها حتى لا يضطر الرجل إلى مثل هذه المخدّرات؛ ولم تلقى هذه الدعوة في أوّل أمرها كثيراً من الاهتمام».

وقد رد مؤيّدو ختان الإناث على هذا الاتهام معتبرين أن عدم ختان الإناث هو الذي يؤدّي إلى الإدمان على المخدّرات وليس العكس. فهم يرون أن المرأة إذا لم تختن تبقى شديدة الميل جنسيّاً مع تقدّم العمر على العكس من الرجل الذي يفتر. وحتى يستطيع مضاهاتها، فإنه سوف يلجأ إلى استعمال المخدّرات. لكن «في الحالة التي تختتن فيها المرأة نصف اختتان، يكون إحساسها معقولاً، والزوج والزوجة في حالة متساوية».

ويقول مجدي فتحي السيّد متسائلاً: «ألم تختن النساء على ممر القرون الطوال، فلم يحدث أي تعكير للرجال، ولم يصدر في يوم من الأيّام أيّة علاقة تربط بين ختان النساء والمخدّرات». ويضيف: «كيف بعد دعوة الرسول (ص) إلى ختان النساء يقول لنا هؤلاء بأنه سبب رواج المخدّرات؟! ولكن إذا لم تستح فقل ما شئت، وأصنع ما شئت». ولكن صاحبنا بعد أن استنكر الختان كما يجرى في السودان وأعتبره حراماً

في دين الله وعملاً جاهليّاً، قال إن عواقبه وخيمة ويحرم الرجل والمرأة من اللذّة ويؤدّي أحياناً لشرب المسكرات والمخدّرات من جانب الرجال.

4) الختان والشذوذ الجنسي

الشذوذ الجنسي يعني ميل الرجل للعلاقة الجنسيّة مع رجل آخر، وميل المرأة للعلاقة الجنسيّة مع امرأة أخرى. وفي العلاقة بين رجلين هناك الداخل والمدخول، وقد يكون هناك تبادل للأدوار. ويمكن التفريق بين نوعين من الشذوذ الجنسي:

- الشذوذ الجنسي العضوي: إذا ما زادت هرمونات الأنوثة على هرمونات الذكورة عند الرجل، فإن هذا الرجل سيجد نفسه أكثر ميلاً للرجال. وإذا ما زادت هرمونات الذكورة على هرمونات الأنوثة عند المرأة، فإن هذه المرأة ستجد نفسها أكثر ميلاً للنساء.
- الشذوذ الجنسي الوضعي: هذا الشذوذ ناتج ليس عن تكوين عضوي، بل بسبب أوضاع خاصّة. فمثلاً إذا سجن رجال في غرفة واحدة لمدّة طويلة ولم يكن هناك منفذ للوصول إلى المرأة، فإن هؤلاء الرجال قد يلجأون إلى العلاقة الجنسيّة بينهم لسد حاجتهم. ونفس الأمر إذا ما حبست نساء في غرفة واحدة دون منفذ إلى الرجل، فإن هذه النساء قد يلجأن إلى العلاقة الجنسيّة بينهن.

والذي يهمّنا هنا هو الشذوذ الوضعي لمعرفة ما إذا كان الختان يجر الرجل أو المرأة إلى ممارسة علاقة جنسيّة شاذّة.

أ) ختان الذكور والشذوذ الجنسي

ليس هناك دراسة شاملة حول علاقة ختان الذكور بالشذوذ الجنسي بسبب حساسيّة الموضوع. وسوف نشير هنا إلى ما وجدناه في هذا المجال ضمن الكتابات العامّة.

يشار أوّلاً أن الغرب قد لجأ إلى الختان لمكافحة العادة السرّية التي تقود، في نظر مؤيّديه، إلى الشذوذ الجنسي.

وتقول «رومبيرغ» بأن أكثر الشاذّين جنسيّاً في الولايات المتحدة هم من المختونين، وأن هؤلاء الشاذّين يفضّلون العلاقة الجنسيّة الشاذّة مع رجال مختونين. وتضيف المؤلفة أن الشذوذ الجنسي موجود أيضاً في أوروبا وفي أجزاء أخرى من العالم حيث لا يمارس الختان بصورة واسعة مثل الولايات المتحدة. وهذا يعني أن الختان ليس العامل الوحيد للشذوذ الجنسي. ورغم هذا التحفظ، فإن هذه المؤلفة تعطي تفسيرين للشذوذ الجنسي عند المختونين:

- الختان قد يورث الخوف من الخصي عندهم. فبعد ختان شخص، أصبح هذا غير قادر على العلاقة الجنسيّة مع النساء. وكلما حاول دخول امرأة، أحس بألم كبير. وفي هذه الحالة، أدّى الختان إلى مضاعفات نفسيّة قادته فعلاً إلى الشذوذ الجنسي.
- الإحساس الجنسي عند الطفل يبدأ منذ الساعات الأولى من ولادته. فالطفل يتحسّس جسده بيديه في الدقائق الأولى من حياته. ومنهم من يعتاد على لمس أعضائه الجنسيّة، ومنهم من يلمس فمه ومنهم من يلمس أذنيه، متحسّساً الأعضاء التي يشعر أنها أكثر عذوبة له. وإذا ما اعتبرنا أن الطفل الأمريكي يبتر في الأيّام الأولى من ولادته، فماذا يمكن أن تكون ردّة فعله إذا اكتشف أن أعضاءه الجنسيّة تسبّب له ألماً، لا لذّة؟

ويقول «جولدمان» أن الشذوذ الجنسي عند الرجل هو بسبب عدم الرضى من العلاقة الجنسيّة مع المرأة. وقد يكون سبب عدم الرضى شعور الرجل بالخجل أو ضعف في تقدير الذات، ممّا يؤدّي إلى صعوبة في التفاعل في مرحلة الإعداد للعلاقة الجنسيّة أو إلى عجز جنسي. وهذا بدوره يؤدّي إلى بحث للذّة إمّا من خلال علاقة مع امرأة غير زوجته أو في علاقة شاذّة. ويضيف هذا المؤلف أن الختان يفقد الحشفة غلافها وحساسيّتها ويجعلها جافة وخشنة ويحرمها من المادّة المرطبة التي تساعد على إيلاج القضيب في الرحم. وقد يكون هذا هو السبب الذي يجعل ظاهرة ممارسة الجنس بالفم للحصول على اللذّة الجنسيّة أكثر انتشاراً في الولايات المتحدة ممّا في الدول الأخرى.

وتشير دراسة أن بقاء الغلفة ضروري للتصرّف الجنسي الطبيعي. فقد تبيّن أن حذفها عند الثدييات وعند الإنسان يؤدّي إلى تشويش في العلاقة الجنسيّة نتيجة تلف الخلايا الناقلة للحس واللذّة. وقد نشبّه ذلك بقطع بعض أسلاك الراديو الداخليّة ممّا يؤدّي إلى تشويش في استلام المحطات الإذاعيّة. وهذا ما جعل البعض يربط بين الختان والعادة السرّية والعلاقة الجنسيّة الشاذّة ومص القضيب. ففي حالة الختان يحاول الإنسان (والحيوان) التعويض عمّا خسره من خلايا ولذّة بالبحث عن اللذّة خارج مجراها الطبيعي.

ب) ختان الإناث والشذوذ الجنسي

سنرى لاحقاً أن الغرب لجأ لختان الإناث للحد من العادة السرّية التي تقود إلى الشذوذ الجنسي في نظره. وفي عام 1975، نشر الطبيب الأمريكي «جيمس بورت» كتاباً عنوانه «جراحة الحب» تأييداً لختان الإناث. وقد علل تأييده لهذه العمليّة بأنها تحد من الشذوذ الجنسي عند النساء.

وتشير مقابلات مع بعض نساء مصريّات أنهن يعتقدن بأن عدم ختانهن يؤدّي بهن إلى العلاقة الجنسيّة الشاذّة والجري وراء الجنس. ونجد هذا الفكر في كتاب «المنتخب من

السُنّة» الذي نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة في مصر. فهو يقول: « دلت الحوادث على أن ترك ختانهن يؤدّي بهن إلى أخطر العادات، حيث تشيع فيهن عادة السحاق. وقد ثبت من الإحصائيّات أنه لا وجود لهذه العادة إلاّ في البلاد التي لا تختتن فيها الإناث». وهذا القول يعني أن المرأة ستشعر أن عندها قضيب صغير، فتمارس دوراً شبيهاً بدور الذكر مع المرأة وتعاشر المرأة مثلها. ويرد الدكتور محمّد رمضان على هذا القول:

«الواقع يكذّب هذا، والشذوذ الجنسي هذا، هو انحراف في النفس والسلوك، وليس مرتبطاً بأي عضو من الأعضاء سواء كان العضو صغيراً أم كبيراً. ألا نرى أن عضو الرجل كبير وأنه وسيلته الأساسيّة في المعاشرة؟! فهل وجوده بهذا الحجم أدّى إلى انحرافه وممارسته الشذوذ؟ وكأنهم بهذا يلقون الذنب والخطأ على هذا العضو!! وهل العلاج أن تكون الوقاية قطع هذا العضو لكل النساء، وتقصيره لكل الرجال مثلاً؟!»

5) تأثير الختان على الزواج

العلاقة الزوجيّة مبنيّة على التفاهم وتلبية المصالح بين الزوجين، ومن بينها اللذّة الجنسيّة. وإذا ما أصاب العلاقة الجنسيّة ضرر، فإن ذلك ينعكس سلبيّاً على الحياة الزوجيّة. وهذا ما جعل البعض يرى أن الختان يؤدّي إلى الطلاق وتعدّد الزوجات.

أ) تأثير ختان الذكور على الزواج

يرى باحث أمريكي أن ختان الذكور سبباً لتعدّد الزوجات وعلاقات جنسيّة خارج الرابطة الزوجيّة بحثاً عن اللذّة المفقودة. كما أنه قد يؤدّي إلى تفكك العلاقة الزوجيّة والى الطلاق. وقد بيّنت دراسة بأن الشراكة الجنسيّة بين المرأة وغير المختونين تدوم مدّة أطول من الشراكة مع المختونين بسبب الألفة التي يحس بها الشريكين في العلاقة الجنسيّة. وهذا يبيّن صدق مقولة ابن ميمون بأن المرأة التي تمارس الجنس مع غير المختون يصعب فصلها عنه.

وقد تنبّه مؤيّدو ختان الذكور لهذه النظريّة فحاولوا إثبات العكس. فقد ذكرت دراسة نشرت عام 1998 أن الختان مثل بتر أي جزء من الإنسان يؤثر على الخلايا العصبيّة في المخ، خاصّة إذا تم ذلك البتر في سن مبكرة. وهذا بدوره يؤثر على التصرّف الجنسي للفرد، فلا يلغي الرغبة في الجنس ولكن يخففها. ونفس الأثر ينتج عن تخشّن الحشفة. فيكون الختان نوعاً من الخصي العصبي الضعيف. وتستشهد هذه الدراسة بقول ابن ميمون السابق الذكر في هذا المجال. ولكن هذه الدراسة ترى في ختان الذكور فائدة تساعد في بقاء الجماعة اليهوديّة للأسباب التالية:

- إضعاف الشهوة الجنسيّة يقلل من عنف الشباب وتنافسهم على النساء ممّا يمثل خطراً على بقاء الجماعة.
- إضعاف الشهوة الجنسيّة تجعل الرجل في مستوى المرأة التي هي أقل اندفاعاً من الرجل في العلاقة الجنسيّة.
- هذا التساوي يساعد في الحفاظ على متانة الزواج ويقلل من حالات الخيانة الزوجيّة.

وهذه الدراسة قد تأثرت في النقطتين الثانية والثالثة بالفكر الإسلامي الذي ذَكَرْته في مقال لي وضع في مراجع تلك الدراسة. فقد عَرَضْت في ذلك المقال أن المسلمين يرون في ختان الإناث إضعاف للغريزة الجنسيّة عند النساء ومساواة بينها وبين غريزة الرجل. وهذه الدراسة قامت فقط بقلب تلك النظريّة لصالح ختان الذكور.

ب) تأثير ختان الإناث على الزواج

يرى عامّة مؤيّدو ختان الإناث، أن الغاية منه منع انحراف البنت وتهذيب ميولها الجنسيّة. ويعتقدون أن الختان يؤثر أيضاً إيجابيّاً على العلاقة الزوجيّة. يقول الدكتور حامد الغوّابي:

«إن الرجل دائماً هو أكبر من زوجته في السن. وقد يكون الفارق بينهما عشر سنين أو خمس عشرة أو عشرين سنة أو أكثر كما نرى في بلادنا. فما بال هذا الرجل إذا بلغ سن الخمسين أو أكثر، وقد فتر نشاطه وضعفت حيويّته، وكانت زوجته لا تزال في سن الثلاثين أو أقل بأعضائها السليمة الحسّاسة؟! كيف لمثل هذا الرجل أن يحتفظ بصحّته وهو يجد أمامه زوجة لا تزال في عنفوان الشباب، قويّة الإحساس، وهو قد فتر إحساسه، شديدة الميل وهو قد قل ميله. فماذا تكون النتيجة؟ هنا يضطر الرجل إلى تناول المكيّفات كالحشيش، ولكن في الحالة الأولى التي تختتن فيها المرأة نصف اختتان، يكون إحساسها معقولاً، والزوج والزوجة في حالة متساوية».

ولكن يرى المعارضون أن العكس هو الذي يحدث. يقول الدكتور ماهر مهران:

«إن نسبة الضعف في التجاوب في التي أجريت لهن عمليّة الختان تصل إلى 54%. ويرجع هذا إلى استئصال المناطق الحسّاسة اللازمة للتفاعل الجنسي. وممّا لا شك فيه أن عدم تجاوب المرأة في اللقاء الجنسي يؤدّي إلى مشاكل عديدة أوّلها عدم تواصل التعاون الجنسي بين الزوج والزوجة، ممّا يؤدّي إلى احتقان مزمن في الحوض والألم وإفرازات مهبليّة بجانب التوتر العصبي والنفسي. وقد أدّى ذلك في كثير من الحالات إلى مشاكل أسريّة عنيفة قد تنتهي بالطلاق. كما أن ذلك سبب من الأسباب الهامّة التي أدّت إلى انتشار المخدّرات بين الأزواج متصوّرين أن في ذلك حلاً للمشكلة».

الفصل الرابع
الفوائد الصحّية المزعومة لختان الذكور والإناث

حاول مؤيّدو ختان الذكور والإناث عبر التاريخ إثبات أن للختان فوائد صحّية، منتقلين من حجّة إلى أخرى، مغتنمين الأمراض التي تزرع الرعب في قلوب الناس، آخرها الإدّعاء أن الختان يقي من مرض الإيدز. ويرد عليهم المعارضون بأن هذه الفوائد مزعومة وهي على كل حال لا تضاهي الأضرار الناتجة عن الختان، ولذلك لا تبرّره.

1) ختان الذكور والإناث للحفاظ على النظافة

أ) الختان والنظافة في الكتابات القديمة

إن كانت التوراة لا تتضمّن حجّة النظافة، إلاّ أنه من غير المستبعد أن تكون النظافة السبب الأكثر احتمالاً لممارسة الختان في القديم. وقد أشار هيرودوت إلى علاقة الختان بالنظافة عند المصريّين القدامى. فهو يقول: «بينما كل شعوب الأرض تبقي على الأعضاء التناسليّة كما هي، فإن المصريّين ومن تعلم منهم يمارسون عادة الختان». ويضيف «بأنهم يمارسون الختان حفظاً للنظافة، لأن النظافة عندهم أولى من الجمال». ثم يشرح كيف أنهم كانوا مثابرين عليها. فهم يشربون بأكواب من النحاس يغسلونها جميعها كل يوم ويلبسون ثياباً من الكتان نظيفة. والكهنة منهم كانوا يحلقون أجسادهم كل يومين حتى لا يبقى عليهم قمل أو نجاسات أخرى. وقد ذكر المؤلف اليهودي «فيلون» كلاماً مشابها عن علاقة الختان بالنظافة عند المصريّين القدامى.

ب) الختان والنظافة في المصادر الإسلاميّة والعربيّة

ليس في القرآن أي ذكر لختان الذكور والإناث. إلاّ أن بعض الأحاديث المنسوبة للنبي محمّد تذكرهما. ورغم تشكيكنا في صحّتها، إلاّ أنها توضّح أن عند واضعيها هناك علاقة بين الختان والنظافة. فأحد تلك الأحاديث يقول: «الفطرة خمس: الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط». وعلق ابن العربي على هذا الحديث: « [...] أمّا الختان فلنظافة الغلفة عمّا يجتمع من أذى البول فيها». ويقول ابن قيّم الجوزيّة: «وقد اشتركت خصال الفطرة في الطهارة والنظافة وأخذ الفضلات المستقذرة التي يألفها الشيطان ويجاورها من بني آدم، وله بالغرلة اتصال واختصاص».

ويفرّق الكتاب المسلمون عامّة بين ختان الذكور وختان الإناث في موضوع النظافة. فالشيخ محمود شلتوت يقول إن ختان الذكور قد أعتبر سُنّة لأنه به تتم النظافة والطهارة. «أمّا الإناث فلعدم تحقّق هذا الاعتبار الصحّي فيهن فقد نزل الحُكم فيهن عن درجة السُنّية إلى درجة المَكرُمَة». ولكن الدكتورة نور السيّد رشاد ترى ضرورة ختان الإناث بقطع غلفة البظر لأن هذا الغشاء

«يشبه الجراب، ممّا يجعله دائماً غير نظيف، نتيجة لدخول بعض الإفرازات المهبليّة وجزء من البول وتراكمها فيه، وهذه الإفرازات وبقايا البول تكوّن بيئة ملائمة لنمو وتكاثر أنواع عديدة من البكتيريا والفطريّات».

وتشير المؤلفة «لايتفوت كلاين» أن هناك اعتقاداً في الأوساط الشعبيّة السودانيّة بأن عدم الختان يجعل الفرج وسخاً ومليئاً بالديدان.

ج) الختان والنظافة في المصادر الغربيّة

حجّة النظافة هي أحد الأسباب الرئيسيّة التي يتذرّع بها مؤيّدو الختان. وهي وراء كل ادعاءاتهم الأخرى بأن الختان يمنع تفشّي الأمراض. فهم يرون أنه يصعب تنظيف القضيب إذا ما بقي على حاله. وعدم النظافة تؤدّي إلى تراكم المادّة المرطبة التي تصبح مرتعاً لجراثيم الأمراض الجنسيّة وسرطان عنق القضيب ومجرى التبوّل والبروستاتة وقد تصل إلى سرطان عام للقضيب. وعدم إمكانيّة النظافة تعني ضرورة بتر الغلفة. ولكن هذا الإدّعاء يخالفه الواقع حيث إن معظم رجال العالم غير مختونين، وهم لا يعانون من العاهات المذكورة. فلو كان الأمر كذلك لختنهم أطبّاء دولهم. ودولة مثل بريطانيا التي تركت الختان لم ترى ضرراً في ذلك ولم ترجع إلى ممارسته.

ويرى معارضو ختان الذكر أن ربط الختان بالنظافة في الغرب هو تعبير عن احتقار الأطبّاء للنساء. فرغم الحمّام اليومي في الولايات المتحدة في أيّامنا وتواجد وسائل النظافة المتعدّدة، إلاّ أن الختان ما زال منتشراً في هذا البلد. فالأطبّاء يعتبرون أن النساء غير قادرات على الحفاظ على نظافة أعضائهن الجنسيّة والأعضاء الجنسيّة لأطفالهن. وقد خلق موقف الأطبّاء هذا عند المرأة تخوّفاً من عدم مقدرتها بالقيام بتلك المُهمّة ممّا جعلها تقبل إتمام الختان على طفلها لكي تعفى من تلك المُهمّة.

ويرى طبيب أمريكي في الإدّعاء بأن ختان الذكور ضروري للنظافة مسبّة وإهانة للذكور. فهذا يعني أنهم لا يستطيعون نظافة أنفسهم. فأي شخص عنده قليل من الذكاء يمكنه أن يغسل عضوه التناسلي. فغسل القضيب ليس أصعب من غسل أحد أصابع اليد. ومن الجنون استعمال السكين بدلاً من الغسل البسيط للحفاظ على النظافة. فالطفل الذي يتعلم كيف ينظف أسنانه وانفه وأذنيه يمكنه أيضاً تنظيف غلفته وحشفته دون

حاجة للقطع. وقد تعلم الإنسان كيف يربط حذاءه وكيف يذهب إلى القمر فلماذا لا يمكنه التعلم كيف ينظف أعضاءه الجنسيّة؟ وإذا ما شدّدنا على ضرورة ختان الذكور للحفاظ على النظافة، فيجب أيضاً ختان الإناث لأن المحافظة على نظافة الأعضاء الجنسيّة للذكور بسبب بروزها أسهل بكثير من المحافظة على الأعضاء الجنسيّة للإناث التي تختفي ضمن التجاعيد. أضف إلى ذلك أن الأعضاء الجنسيّة للإناث أكثر قرباً من الشرج من القضيب وأكثر تعرّضاً للتلوّث.

2) ختان الذكور والإناث لمكافحة الاستمناء وعواقبه

الاستمناء، والذي يطلق عليه اسم «العادة السرّية» أو «جلد عميرة»، يعني طلب إخراج المني والوصول إلى اللذّة الجنسيّة بصورة عمديّة بغير جماع. ويختلف عن «الإمناء» أو «الإنزال» اللذان يحصلان في غير اليقظة ودون طلب. وهذا التعبير ينطبق على الرجل والمرأة. ويكون الاستمناء باليد أو غيرها من أنواع المباشرة، أو بالنظر أو بالفكر. ويكون من فعل الشخص أو فعل غيره.

أ) الاستمناء في المصادر العربيّة

ترى الكتب الإسلاميّة بصورة عامّة أن حُكم الشرع في الاستمناء هو الحرمة وارتكاب الإثم. وهي تعتمد على الآيات التالية من القرآن:

- «والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فألئك هم العادون» (المؤمنين 23:5-7).
- «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله» (النور 42:24).

وترى الحنفيّة والشافعيّة والإمام أحمد أن الاستمناء مكروه. ولكن إذا كان لتسكين الشهوة المفرطة الغالبة التي يخشى معها الزنى فهو جائز في الجملة، بل قيل بوجوبه، لأن فعله حينئذ يكون من قبيل المحظور الذي تبيحه الضرورة، ومن قبيل ارتكاب أخف الضررين. وينقل القرطبي عن أحمد: «أحمد بن حنبل على ورعه يجوّزه ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة». ويضيف القرطبي: «وعامّة العلماء على تحريمه».

وفي عصرنا، تشدّد رجال الدين المسلمون ضد الاستمناء، فلا يسمحون به إلاّ لتفادي الزنى. ولا يكتفون بالاعتماد على سورة المؤمنين 23:5-7 سابقة الذكر، بل يضيفون إليها آية «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» (البقرة 2: 195)، وحديث «لا ضرر ولا ضرار»، معتبرين أن الاستمناء محرّم ليس فقط لمخالفته التعاليم الدينيّة، بل أيضاً لمضارّه الجسميّة والجنسيّة والنفسيّة والعقليّة. وهو ما لم يقل بل أحد من الفقهاء

المسلمين القدامى. وهؤلاء الفقهاء ينصحون بالصيام والصلاة والزواج والانشغال كوسيلة للحد منه، ولكن لا يذكرون بتاتاً الختان. والغريب في الأمر أن بعض الكتاب المسلمين الجدد في أيّامنا قد استولوا على حجّة الاستمناء وجنّدوها في نضالهم لتأييد ختان الذكور والإناث، وهم عامّة يجهلون كيف نشأت هذه الحجّة في الغرب وأنها تكاد لا تذكر في أيّامنا هناك ولا يتمسّك بها إلاّ الذين أعمت التعاليم اليهوديّة بصائرهم.

ب) الاستمناء عند اليهود والمسيحيّين الغربيّين

يأخذ رجال الدين اليهود موقفاً متشدّداً من الاستمناء. وهم يعتمدون خاصّة على النص الآتي من سفر التكوين:

«واتخذ يهوذا زوجة لعير بكره اسمها تامار. وكان عير بكر يهوذا شرّيراً في عيني الرب. فأماته الرب. فقال يهوذا لأونان: أدخل على امرأة أخيك وقم بواجب الصهر وأقم نسلاً لأخيك. وعلم أونان أن النسل لا يكون له. فكان إذا دخل على امرأة أخيه، استمنى على الأرض، لئلاّ يجعل نسلاً لأخيه. فقبح ما فعله في عيني الرب. فأماته أيضاً» (التكوين 38:6-10).

وزواج الرجل من زوجة أخيه المتوفى التي لم تنجب منه فريضة في التوراة (تثنية 25:5-6)، وما زالت حتى يومنا عند اليهود. والذي يظهر من قصّة «أونان» أنه كان يمارس «العزل» (أي إنزال المني خارج الرحم) حتى لا تحمل امرأة أخيه منه. فأماته الله لرفضه تنفيذ الشريعة. إلاّ أن رجال الدين اليهود فهموا أن «أونان» كان يمارس الاستمناء، وأن هذا هو سبب موته.

ونجد إدانة للاستمناء في «المشنا» الكتاب الثاني بعد التوراة قداسة عند اليهود. فهي تقول: «يجب مدح يد المرأة التي تتفحّص بتكرار العضو الجنسي، ولكنّها إذا كانت يد رجل فلتقطع». ومدح يد المرأة سببه أنها تتفحّص أعضاءها التناسليّة لمعرفة درجة طهارتها والامتناع عن الأعمال التي لا يحق لها عملها في حالة النجاسة. وقطع يد الرجل سببه ممارسة الاستمناء. وقد ذكر لنا التلمود جدلاً كبيراً بين رجال الدين اليهود حول هذا النص. فهناك من اقترح قتل من يمارس الاستمناء ومنهم من رأى في الاستمناء كجلب الطوفان على الأرض.

وقد أدان رجال الدين المسيحيّون الاستمناء معتمدين على نص الكتاب المقدّس اليهودي السابق الذكر الخاص بـ «أونان» وأضافوا إليه نصّاً من رسالة للقدّيس بولس يقول:

«أما تعلمون أن الفجّار لا يرثون ملكوت الله. فلا تضلوا، فإنه لا الفاسقون ولا عبّاد الأوثان ولا الزناة ولا المخنّثون ولا اللوطيون ولا السرّاقون ولا الجشعون ولا السكيرون ولا الشتامون ولا السالبون يرثون ملكوت الله» (1 قورنتس 6: 9-10).

هذا وقد انتشر الخوف من الاستمناء خاصة بعد سنة 1715 عندما نشر دجّال إنكليزي مجهول الاسم كتيّباً تحت عنوان Onania في أقل من مائة صفحة حول مضار الاستمناء للذكور والإناث ووسائل مكافحته. وقد تتابعت طبعات هذا الكتيّب مع إضافات جديدة في كل طبعة حتى عام 1778 وترجم إلى عدّة لغات. وعنوان الكتاب هو إشارة للنص التوراتي المذكور سابقاً ومنها تحوّر ليصبح Onanism، ليعني الاستمناء. وهذا الكتاب يذكر بين مضار هذه العادة داء السيلان والضعف الجنسي والقرح والتشنج والصرع وعدم النمو. ويرسم للاستمناء صورة مخيفة ويقول إنه يؤدّي إلى الموت. وإن تمكن الرجل أو المرأة من الإنجاب، فأولادهما يموتون صغاراً. والمرأة التي تمارس الاستمناء تعرّض نفسها لخطر الإجهاض. ويضيف المؤلف أن الذين لا يشعرون بتلك العاهات في هذه الدنيا، فهم معرّضون للمصائب في هذه الدنيا وللعقاب الإلهي في الآخرة.

وأكبر تأثير لهذا الدجّال الإنكليزي كان على الطبيب السويسري «تيسو» (توفى عام 1797). فقد كتب هذا كتاباً باللاتينيّة عام 1758 حول حمّى المرارة ألحقها بنص حول الاستمناء ومضارّه. وعاد عام 1760 فنشر الملحق موسّعاً ضمن كتاب بالفرنسيّة. وقد طارت شهرة هذا الطبيب في كل أوروبا الغربيّة ممّا ساعد على اشتهار كتابه ضد الاستمناء فأعيدت طباعته سنوياً حتى عام 1782 وقد ترجم لعدّة لغات أوروبيّة. وقد أثر هذا الطبيب بدوره في الفكر الطبّي والفلسفي والتربوي الأوروبي في عصره. وقد بدأ تحت تأثيره منذ عام 1785 تصميم ملابس خاصّة تمنع الولد أو البنت من مس أعضائهم الجنسيّة لممارسة الاستمناء. وقد كان على علاقة ودّية مع «روسو» (توفى عام 1778) الذي مارس تلك العادة ونبّه ضد أضرارها معتبراً أنه من المفضّل أن يزني الإنسان ممّا أن يمارسها لأن الخروج من سيطرة النساء أسهل من الخروج من سيطرة تلك العادة. ونجد رأياً مماثلاً عند «كانت» (توفى عام 1804) الفيلسوف الألماني الشهير.

وقد انتشرت فكرة ضرر الجنس المفرط والاستمناء في كل الدول الغربيّة ولكن بدرجة أكبر في إنكلترا والولايات المتحدة تحت وطأة الفكر الفكتوري في عصر الملكة فكتوريا 1837-1901 حيث ترعرعت فكرة أن هناك عنصر بشري أعظم من غيره. وعلى العنصر الأعظم السيطرة على تصرّفه الجنسي لإبقاء سيطرته على الغير إذ إن التصرّف الجنسي المفرط يؤدّي إلى الخمول العقلي. وفي الولايات المتحدة كتب عالم الفيزياء «جورج بيرد» مطالباً بالحرص على النشاط العقلي عند المثقّفين، وهذا يعني السيطرة على النشاط الجنسي. وكان العصر الفكتوري معادي للجنس بسبب النظريّات الطبّية حول الاستمناء. وقد حدّدت العلاقات الجنسيّة حتى بين المتزوّجين إذ أعتُبِر بأن تلك العلاقة يجب أن لا تزيد عن مرّة واحدة في الشهر أو حصرها بالإنجاب فقط.

وكان يُظن أن المرأة التي تمارس العلاقة الجنسيّة خلال الحمل لا بد أن تفقد طفلها بالإجهاض.

ومن أكبر معادي الاستمناء الطبيب الأمريكي «جون هارفي كيلوج». ففي عام 1882 كتب أن الاستمناء خطيئة ضد الطبيعة ويساوي اللواط، لا بل هو أكثر خطورة منه لكثرة انتشاره. وكان يرى بأنه يسبّب ما يناهز 31 عاهة. وقد وضع عدّة معايير يمكن من خلالها معرفة الشخص الذي يمارس الاستمناء منها الأرق والخجل والأكتاف العريضة وعدم بروز الثدي عند المرأة والتدخين وحب الشباب وقرض الأظافر بالأسنان واستعمال الكلمات البذيئة. وقد اقترح لمكافحة الاستمناء تناول إفطاره المشهور الذي يحمل اسمه وإجراء عمليّة الختان.

ورغم استمرار معاداة التعاليم الدينيّة للاستمناء، فإن الطب أصبح تدريجيّاً أكثر تسامحاً معها. وقد بدأ الأمر في إنكلترا. ففي محاضرة نشرها الطبيب الإنكليزي «جيمس ماجيت» عام 1875 حول مرض الوهم الجنسي رأى أن الضرر ليس في الاستمناء ولكن في تكرارها الذي قد يؤدّي إلى التعب. ونفس النتيجة تنتج عن العلاقة الجنسيّة المتكرّرة.

أمام الخوف من الاستمناء وسيلان المني في النوم، كان لا بد من اللجوء إلى وسائل لمنعهما. فبالإضافة إلى الوسائل الروحيّة مثل التوبة والإماتة والأعمال الصالحة، كان الأطبّاء ينصحون بوسائل غير جراحيّة وجراحيّة من بينها الختان.

ومن بين الوسائل غير الجراحيّة كان الأطبّاء ينصحون الذكور والإناث بغسل الأعضاء الجنسيّة بالماء البارد، وممارسة الرياضة حتى يتعب الجسم ولا يفكر الإنسان في اللجوء لتلك العادة بل ينام حال ارتمائه في السرير. وكان عليهم تجنّب الألعاب الرياضيّة التي تسبّب احتكاك الأعضاء الجنسيّة مثل الانزلاق على خشبة الدرج أو التأرجح على آلة الحصان أو شد الحبل الملس، وتفادي بعض القراءات التي تهيّج المخيّلة، ومنها بعض نصوص التوراة مثل سفر «نشيد الأناشيد». كما كانوا ينصحونهم بإتباع نظام غذائي خاص. فالدجّال الإنكليزي السابق الذكر اقترح تجنّب أكل الفول والبازلاء والخرشوف لأنها تنفخ الأعضاء الجنسيّة. وإذا لم يتخلص الولد أو البنت من هذه العادة، كان الأطبّاء ينصحون الأهل بربط أيديهم بقضبان السرير أو إلباسهم إحدى المعدّات الميكانيكيّة والملابس والأحزمة الغريبة التي تحول دون لمس الأعضاء الجنسيّة. ففي كتاب «رعاية الطفل» الذي أصدرته عام 1921 «دائرة الأطفال» الحكوميّة الأمريكيّة نصيحة للأهل بأن يلجأوا إلى تلك المعدّات الميكانيكيّة لمنع الولد أو البنت من ممارسة الاستمناء الضار الذي يدمّره مدى الحياة. ولكن عام

1929 لم يعد هذا الكتاب يؤمن بتلك الوسائل وحظر على الأهل أن يلجأوا إليها لأنها قد تؤثر بهم نفسيّاً. وبدلاً من ذلك ينصح الكتاب أن يلهى الولد قَبل النوم بلعبة. وفي طبعة 1942 يقول الكتاب بأن الأم الحكيمة لن تهتم بهذه العادة التي يمارسها الأطفال بصورة طبيعيّة. وفي عام 1951 ينصح الأم بأن لا تقول للطفل كلمة «لا» لأن ذلك قد يزعجه.

بالإضافة إلى الوسائل غير الجراحيّة، نصح الأطبّاء بإجراء عمليّات جراحيّة لمن يتمكن من دفع تكاليفها، وخاصّة الطبقات العليا في المجتمع، تلك الطبقة التي يأتي منها أكثر الأطبّاء. وقد زاد من اللجوء إلى هذه العمليّات إدخال التخدير في الطب حوالي عام 1850. وقد تفنّن الأطبّاء فاقترحوا ثقب غلفة القضيب وشبكها بحلقة. وشبك الغلفة هذا لمكافحة الاستمناء نجده في كتب ألمانيّة من القرن الثامن عشر. وقد اقترح جرّاح ألماني عام 1827 بأن تمارس عمليّة شبك الغلفة لتحسين الجنس البشري ومن يزيل هذا الشبك يجب معاقبته بشدّة. وقد اقترح كتاب طبّي شعبي صدر عام 1920 في مقاطعة «اوهايو» الأمريكيّة أن يلجأ إلى شبك غلفة القضيب ضد الاستمناء.

كما أن الأطبّاء اقترحوا الختان بقطع الغلفة بمقص مفلول، وحتى الخصي. واقتراح الختان نجده عند الطبيب الفرنسي «كلود فرنسوا لالمان» (توفى عام 1853). وقد تسرّبت نظريّته هذه إلى الولايات المتحدة في كتابات الطبيب الأمريكي «ادوراد يكسون» (توفى عام 1880) الذي اقترح في كتاب صدر عام 1845 فرض ختان الأطفال كما هو الأمر عند اليهود. وقد ساعد في انتشار هذا الفكر في الولايات المتحدة الطبيبان اليهوديّان «موزيس» و «جاكوبي». فكل منهما ادّعى بأن اليهود لا يمارسون الاستمناء، وأن سبب ذلك هو الختان، وأن غير اليهود يميلون كثيراً للاستمناء، ولذلك فهم أكثر عرضة للأمراض الخطيرة بسبب وجود غلفة عندهم. وكانا يريان أن الغلفة تسبّب الصرع وضعف التغذية والهستيريا وكثيراً من الاضطرابات العصبيّة. وفي عام 1914 كتب الطبيب اليهودي الأمريكي «ابراهام وولبارست» أن من واجب كل طبيب أن يشجّع ممارسة الختان على الصغار. وفي عام 1932، كتب مقالاً يقترح فيه تعقيم من يمارس الاستمناء ومنعه من الزواج. ونتيجة لمواقف هذا الطبيب المؤيّدة للختان، تم إعادة كتابة كتب تعليم الطب لتحث أطبّاء التوليد بفحص كل طفل يولد. فإذا وجدوا أن غلفته لا ترجع إلى الوراء، كان عليهم قطعها حالاً.

ومع تراجع الخوف من الاستمناء، بدأ التراجع عن وصف الختان كوسيلة لمنعه. فقد أوصى الأطبّاء مثل الدكتور «بنجامين سبوك» عام 1942 بعدم اللجوء إلى الختان لمداواة الاستمناء رغم أنه كان ما زال يؤيّد ختان الأطفال حديثي الولادة. وقد تراجع عن تأييده للختان كلية عام 1976 إذ صرّح: «إني أؤيّد أن يترك القضيب على حاله.

إن الرأي في طب الأطفال يبتعد عن عمليّة الختان الروتينيّة لكونها عمليّة غير ضروريّة وأقل ما يقال عنها أنها خطيرة نوعاً ما. وإني أؤمن باحتمال حدوث ضرر حسّي بسبب العمليّة. يجب على الأهل أن يتأكدوا ما إذا كانت هناك أسباب مقنعة لأجل الختان - ولكن لا توجد مثل تلك الأسباب حسب معرفتي».

هذا وقد اقترح أيضاً الأطبّاء الغربيّون ختان الإناث لمعالجة الاستمناء والأمراض المرتبطة به مثل الهستيريا تحت تأثير العادات القبليّة الإفريقيّة حيث ذكرت تقارير الرحّالة وعلماء الإنسان أن النساء الإفريقيّات لهن بظر كبير وأنهن إذا بقين على حالهن دون ختان يصبحن هائجات. ومع موجة الخوف من الجنس الذي اجتاحت الغرب، تم تبنّي هذه العادة. وأوّل عمليّة ختان أنثى ذكرت في الغرب هي تلك التي تمّت في برلين عام 1822. وقد لجأ الطبيب «جيستاف براون» إلى ختان الإناث كوسيلة للحد من الاستمناء في فينا خلال الستينات من القرن التاسع عشر. وفي جدل دار في جمعيّة الجرّاحين في باريس عام 1864 ناقشوا خلاله عدّة وسائل لمنع الاستمناء منها بتر البظر عند الفتاة، ووضع أملاح البوتاسيوم عليه، أو كيّه. ولكن البعض فضّل إبقاء البظر وإخاطة الشفرين الكبيرين بحيث يغطيان البظر لمنع ملامسته وتهييجه مع إبقاء فتحة للبول.

وقد بلغت عمليّة ختان الإناث في بريطانيا ذروتها ما بين عام 1858 و 1866. وكان المدافع عن هذه العمليّة الدكتور «إسحاق بيكر براون» (توفى عام 1873) الذي أختير رئيساً للجمعيّة الطبّية في لندن عام 1865. ولكن سرعان ما أنتقد هذا الجرّاح من قِبَل الأطبّاء هناك وطرد من جمعيّة الجرّاحين عام 1867 وتخلى عن رئاسة الجمعيّة الطبّية. وهكذا سقطت عادة ختان الإناث في إنكلترا. إلاّ أنها أثرت على كثير من الأطبّاء في دول أخرى، وخاصّة في الولايات المتحدة. فقد أشارت إليها إحدى المجلاّت الطبّية الأمريكيّة عام 1866. ورغم ما دار من جدل ضد ختان الإناث في بريطانيا قام الأطبّاء الأمريكيّون بتبنّي هذه العمليّة وزيّنوا لها. وفي نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر قام طبيبان بإجراء عمليّة جراحيّة مزدوجة تم فيها قطع البظر واستئصال المبيضين. ويُظن أن عدد العمليّات التي أجريت هناك في هذا الشكل يصل إلى عدّة آلاف. ثم فصلت العمليّتان في الثمانينات من القرن التاسع عشر وتركت عمليّة استئصال المبيضين بينما أستمر في إجراء عمليّة ختان الإناث.

وقد انتشرت عمليّة ختان الإناث في الولايات المتحدة بصورة واسعة ما بين الثمانينات من القرن التاسع عشر والأربعينات من القرن العشرين لمكافحة الاستمناء. وفي عام 1941 أوصى كتاب كاثوليكي موجّه للكهنة في «كرسي الاعتراف» بأن ينصحوا قطع أو كي البظر بالنار كعلاج للنساء الشاذات جنسيّاً. وكانت عمليّة الختان تجرى

على النساء في كل الأعمار حتى سن اليأس، وحتى في الخمسينات. وكان هناك قرابة ثلاثة آلاف امرأة تختن سنوياً في السبعينات من القرن العشرين في المستشفيات الأمريكيّة. وفي عام 1973 نصحت مجلة طبّية ختان الإناث لمداواة البرود الجنسي. وكانت شركة التأمين Shield Blue تدفع تكاليف مثل هذه العمليّات عام 1977.

ومهما كان موقفنا من الاستمناء، يبقى السؤال الأساسي وهو: هل الختان يحمي فعلاً من الاستمناء؟ ولماذا؟ لا يرد مؤيّدو ختان الذكور والإناث على هذا السؤال الأخير. ولا توجد أيّة دراسة تثبت أن المختونين والمختونات يمارسون الاستمناء بصورة أقل من غير المختونين وغير المختونات. وإن كنّا اليوم نعتبر إجراء ختان الذكور والإناث لمنع الاستمناء شطحة من شطحات رجال الطب تحت تأثير الهوس الديني الذي أعمى بصائرهم، فإنهم لم يتوقّفوا عند هذا الحد. فقد اقترحوا إجراء الختان لأمراض أخرى آخرها مرض الإيدز.

3) ختان الذكور والإناث للوقاية من الأمراض الفتاكة

أ) الختان والوقاية في الكتابات القديمة

يذكر المؤلف اليهودي «فيلون» أن الختان يقي من مرض مؤلم يصعب شفاؤه يصيب الغلفة يدعى مرض «الفحم»، ويسبّب التهابات مستديمة تصيب غير المختونين. وفي مكان آخر، يقول إن الختان يمارس في المناطق الحارّة بين اليهود والمصريّين والعرب والأثيوبيين وتقريباً بين كل الذين يسكنون المناطق الجنوبيّة حيث الحرارة الشديدة. فالغلفة التي تحيط بالعضو التناسلي تسخن فتلتهب وتتجرّح، بينما إذا قطعت، فإن العضو التناسلي يتهوّى بتعريته، ممّا يبعد الأمراض. فالذين يسكنون المناطق الشماليّة والمناطق التي تكثر فيها الرياح لا يمارسون الختان لأن الحرارة أقل، ممّا يقلل من الأمراض. ويعطي برهاناً على ذلك أن الأمراض التي تصيب الأعضاء الجنسيّة تتفشى في الصيف وليس في الشتاء.

ب) الختان والوقاية في الكتابات الغربيّة

اقترح الأطباء أمام الأمراض التي لم يتمكنوا من شفائها إجراء العمليّات الجراحيّة بما فيها ختام الذكور والإناث. ويجب هنا الإشارة إلى نشاط جمعيّة ما بين عام 1890 و 1920 في الولايات المتحدة تدعى «جمعيّة جراحة الفتحات»، أسّسها الجرّاح «برات» في مستشفى بـ»شيكاغو». وكانت هذه الجمعيّة تمرّن على الجراحات التي تجرى على فتحات الجسم التي تقع تحت الخصر. وقد نشر مؤسّسها كتاباً عام 1890

أعيد طبعه عام 1925 يقول فيه إن ختان الإناث ضرورة كما هو الأمر في ختان الذكور. وكانت تلك الجمعيّة تصدر مجلة متخصّصة وتضم مئات من الجرّاحين وأخصّائي العظام وخبراء تقويم العمود الظهري، وقد أجروا عمليّات على آلاف المرضى. ونجد في مجلة تلك الجمعيّة مقالات حول عمليّات ختان الذكور والإناث أجريت للشفاء من أمراض مثل الصداع وانحناء الناتئ العظمي ومرض المفاصل والاستسقاء الدماغي. وقد علق بعضهم على أن 60% من الجنون صادر عن وضع غير طبيعي للأعضاء الجنسيّة. وفي أحد تلك المقالات نقرأ أن اليهود قليلاً ما يصابون بمرض المفاصل وسبب ذلك أنهم يختنون.

ولم يكتف الغرب باللجوء إلى الختان للوقاية من أمراض يجهلون سببها، بل اقترحوا إجراء ختان الأطفال في الصغر للوقاية من الختان الذي قد يضطر لإجرائه في الكبر لعلاج أمراض قد تصيبه. فبما أنه لا بد من إجراء العمليّة يوماً ما، من المفضّل إجراؤها بأسرع وقت ممكن باعتبار أن الأطفال أقل إحساساً للألم. وهذه الحجّة ما زالت تردّدها الكتب والمقالات الطبّية والشعبيّة.

ج) الختان والوقاية في الكتابات العربيّة والإفريقيّة

لقد أثر الفكر الغربي على الأطبّاء العرب منذ القرن الماضي. فقد أعاد علينا الطبيب المصري صالح صبحي التبريرات الغربيّة بخصوص ختان الإناث في كتابه الذي ألفه بالفرنسيّة عام 1894 عن رحلة الحج التي كان مشرفاً طبّياً عليها في ذاك الوقت:

«إن ختان الإناث هو قطع البظر. والهدف الرئيسي والوحيد هو الوقاية من الهستيريّة. وهذا المرض نادر في الدول التي تمارس هذا الختان، كما تبيّنه لنا التجربة كل يوم. فالحساسيّة الشديدة للبظر، بإشعاعها من خلال نظام الشرايين، يمكن أن تسبّب أمراضاً مختلفة خطيرة قد تصيب المبيضين وتجعل المرأة عاقراً. وقد تصيب الرئتين والقلب. وإذا ما انتقلت إلى المعدة فإنها تسبّب لها الاضطرابات كالمغص وفقدان الشهيّة والتقيؤ. وإذا ما أصابت الأمعاء، فقد تسبّب الإسهال أو الإمساك. وفي بعض الحالات تنتقل إلى المخ وتؤدّي إلى اضطرابات عصبيّة والجنون. وإذا أصابت العصب السمبتاوي، فإنه يؤدّي إلى اضطرابات في حيويّة الأنسجة والى تعب عام ينتهي بموت بطيء».

وهذا الطبيب يوصي بممارسة ختان البنات في جميع المجتمعات مهما كانت ديانتها، وخاصّة في العائلات المصابة بأمراض وراثية مثل الصرع، والهستيريا، والجنون، لتقليل احتمالات الإصابة بهذه الأمراض أو القضاء عليها. وأمّا بخصوص الآلام التي تسبّبها هذه العمليّة، فهو يؤكد بأنها ليست بالدرجة التي تظن. فالبنت المختونة تعود إلى حالتها المعتادة بعد ستة وثلاثين ساعة.

والخرافات الطبّية الغربيّة حول ختان لا تختلف عن الخرافات الأفريقية التي تعتقد بأن ختان الإناث يقي المرأة من أمراض صحّية وعقليّة كثيرة. وإذا ما كانت الفتاة ضعيفة، فإنه يُظن أنها مصابة بـ»مرض الدودة» وأن ختانها يشفي من هذا المرض.

هذا ويمكن القول بأن قليلاً من الأمراض لم تنسب في وقت أو آخر إلى عدم ختان الذكور والإناث، أو أعتُبِر الختان وسيلة للوقاية منها. ولكن تم في كل عصر التركيز على الأمراض التي تبث الرعب في النفوس، فأنتقل مؤيّدو الختان من الاستمناء وعواقبه التي ذكرناها إلى الأمراض الجنسية، فالسرطان، فالإيدز.

4) ختان الذكور والإناث للوقاية من الأمراض الجنسيّة

أ) المصادر العربيّة

بين يدينا كتابان للطبيبين العربيين المسلمين حسّان شمسي باشا ومحمّد علي البار تعرّضاً للختان كوسيلة للوقاية من الأمراض الجنسيّة. وهذان الطبيبان يعتمدان كلياً على الكتابات الغربيّة المؤيّدة لختان الذكور، وليس فيهما أيّة إشارة إلى الآراء المعارضة. ونكتفي هنا بذكر فقرة من كتاب الدكتور حسّان شمسي باشا:

«لا شك في أن كل الأمراض الجنسيّة أكثر شيوعاً عند غير المختونين منها في المختونين. فقد عدّد الدكتور «فينك» الذي ألف كتاباً عن الختان وطبع عام 1988 في كاليفورنيا في الولايات المتحدة أكثر من 60 دراسة علميّة أثبتت جميعها ازدياد حدوث الأمراض الجنسيّة عند غير المختونين».

ب) المصادر الغربيّة

زرعت الأمراض الجنسيّة في القرن التاسع عشر قَبل اكتشاف الجراثيم الرعب في الغرب. وكانت تعتبر جزاءاً إلهياً ضد الأعمال السيّئة، حتى أن بعض الأطبّاء رفضوا مداواتها.

وقد نُشرت عنها الكثير من الدراسات، من بينها تلك التي صدرت عام 1855 وعنوانها «تأثير الختان على الوقاية من الزهري». وقد بيّنت هذه الدراسة التي تمّت على مستشفى في لندن أن اليهود، بين جميع الطوائف الدينيّة، أقل تعرّضاً لتلك الأمراض التناسليّة كالزهري والتقرّح. وبما أن اليهود كانت المجموعة الوحيدة التي تمارس الختان بصورة واسعة، استنتجت تلك الدراسة أن الختان يقي من الأمراض الجنسيّة. وقد تم نشر هذه الدراسة في المجلاّت الطبّية خارج إنكلترا كما أستعملت أمام المحاكم كإثبات على ضرورة الختان. فقد رفض طبيب يهودي من فينا ممارسة الختان

على ابنه عام 1857. فتدخّل الحاخام «جوزيف هيرشفيلد» مقدّماً الدراسة المذكورة ليبيّن أنه يحق حرمان الأب من ولايته على ابنه وتسليمه لرجال الدين اليهود. وهكذا تم ختان الولد رغماً عن والده. وقد توصّلت دراسة أمريكيّة في عام 1884 إلى نتيجة مماثلة بينما كان المرض يتفشى هناك.

ولم يفكر أحداً حين ذاك في أسباب أخرى تفسّر عدم انتشار مثل هذا الوباء بين اليهود. ومن بين هذه الأسباب نذكر انعزال اليهود عن المحيط العام في «الجيتو» اليهودي الذي كان بمثابة حجر صحّي (كرنتينا) تحميهم من سريان تلك الأوبئة، والعلاقات العائليّة اليهوديّة المنغلقة. ويشار إلى أن القانون في القرون الوسطى كان يمنع العاهرات المسيحيّات من ممارسة الجنس مع اليهود ويعاقب بالموت كل من العاهرة واليهودي.

أدّى عدم النظر في هذه المعطيات وجهل الأطبّاء لأسباب الأمراض الجنسيّة إلى تبنّي خرافة أن الختان يقي من تلك الأمراض. وما زالت الكتابات الغربيّة تتناقل هذه الخرافة. وقام مؤيّدو الختان بإضافة تفسيرات طبّية لتثبيتها إذ اعتبروا أن الغلفة تخبئ المادّة المرطبة التي تصبح مرتعاً للجراثيم. وبإزالة الغلفة يسهل تنظيف القضيب وتُقوَّى الحشفة ممّا يجعل انتقال الجراثيم داخلها صعباً. وقد روّج لمثل هذه النظريّة الدكتور «ايجين هاند» من البحرّية الأمريكيّة في محاضرة ألقاها عام 1947 أمام «الجمعيّة الطبّية الأمريكيّة» آخذاً بالإعتبار الجنود في الحرب العالميّة الثانية، قال فيها إن الأمراض التناسليّة والسرطان عند اليهود أقل بكثير ممّا عند الزنوج والبيض غير المختونين.

وقد اغتنم الطبيب اليهودي «ابراهام رافيتش» هذه النظريّة فأصدر كتاباً عام 1973 عنونه «الوقاية من الأمراض التناسليّة والسرطان بواسطة الختان». وهذا الطبيب يرى ضرورة أن يفرض الختان على الجميع كما تُفرض اللقاحات. وهو يدافع عن تمزيق الغلفة بالإظفر كما تجرى عند اليهود لأن ذلك حسب رأيه يؤدّي إلى نزيف أقل من القطع. وهناك أغلاط كثيرة في هذا الكتاب قليلاً ما تعرّض لها المؤلفون، لا بل إن كثيراً من الأطبّاء ما زالوا يستعملون هذا الكتاب كمرجع في موضوع الختان.

وبعد استعراض المقالات التي كتبت في هذا المجال منذ عام 1855 حتى عام 1997، يقول طبيب أمريكي بأنه لا توجد أيّة دراسة لبحث أثر الختان على الأمراض الجنسيّة. وبدلاً من أن يكون وسيلة للوقاية من تلك الأمراض، قد يكون الختان وسيلة لتفشّيها. ويأخذ هذا الطبيب في الاعتبار أن الختان الروتيني في الولايات المتحدة قد تم تنفيذه

بصورة واسعة هناك، ولكن معدّل الأمراض االمنتقلة جنسيّاً في تزايد بدلاً من النقصان.

ويشار هنا إلى أن ما يكتب في الغرب حول علاقة الختان بالأمراض التناسليّة يدور حول ختان الذكور رغم أن تلك الأمراض تصيب الإناث أيضاً. وهي أشد سطوة عندهن ممّا عند الذكور لأنها لا تظهر دائماً للعيان كما عند الذكور، بل تكون داخل أعضائهن التناسليّة، وهن بدورهن قد يُعدن شريكهن. فإن كان الأمر صحيحاً، فكان يجب أيضاً ختان الإناث وإزالة أعضائهن الجنسيّة. والحل للأمراض الجنسيّة هو مداواتها وليس بتر الأعضاء السليمة.

5) ختان الذكور والإناث للوقاية من السرطان

أ) المصادر العربيّة

يرى مؤيّدو ختان الذكور أنه يقي من السرطان. فبعد أن بيّن أن ليس لختان الذكور والإناث دليل منقول من القرآن والسُنّة، رأى الشيخ محمود شلتوت بأن ختان الذكور، خلافاً لختان الإناث، فيه

> «مصلحة تربو بكثير عن الألم الذي يلحقهم بسببه. ذلك أن داخل «الغلفة» منبت خصيب لتكوين الإفرازات التي تؤدّي إلى تعفن تغلب معه جراثيم تهيئ للإصابة بالسرطان أو غيره من الأمراض الفتاكة. ومن هنا، يكون الختان طريقاً وقائيّاً يحفظ للإنسان حياته. ومثل هذا يأخذ في نظر الشرع حُكم الوجوب والتحتيم».

هذا وقد توسّع الدكتور حسّان شمسي باشا في نقله عن المصادر الغربيّة المؤيّدة لختان الذكور، وخاصّة من كتابات الطبيبين «شووين» و «وايزويل»، وهما من كبار المؤيّدين لختان الذكور الشامل في الولايات المتحدة. وقد تجاهل الدكتور باشا وغيره من المسلمين آراء المعارضين في هذا المجال. وبعض مؤيّدي ختان الإناث يرون فيه أيضاً وسيلة لحمايتهم من السرطان.

ب) المصادر الغربيّة

بدأت النظريّة القائلة بأن الختان يقي من السرطان بمقال كتبه الطبيب اليهودي الأمريكي «ابراهام وولبارست» عام 1932 معتمداً على حديث أجراه مع مسؤولين في أربع مستشفيات في الهند حول معدّلات السرطان هناك. وقد ادّعى هذا الطبيب أن السبب في سرطان القضيب هو وجود المادّة المرطبة تحت الغلفة. وبإزالة الغلفة

بالختان، فإنه يتم التخلص من هذه المادّة. واستنتج أن الختان هو سبب حماية اليهود من هذا الداء.

وقد أضاف الطبيب اليهودي «ابراهام رافيتش» عام 1942 إلى تلك النظريّة أن ختان الذكور يحمي أيضاً من سرطان البروستاتة وعنق الرحم. وهذا الطبيب كان يعمل في مستشفى «إسرائيل صهيون»، أحد أكبر الداعين لإجراء الختان على الأطفال بصورة شاملة. وقد أعاد الطبيب «ايجين هاند» هذه النظريّة في محاضرة ألقاها عام 1947 أمام الجمعيّة الطبّية الأمريكيّة آخذاً بالاعتبار الجنود في الحرب العالميّة الثانية، مدّعياً أن الأمراض التناسليّة والسرطان عند اليهود أقل بكثير من الزنوج والبيض غير المختونين. وكرّر «ابراهام رافيتش» نظريّته في مقال آخر عام 1951 عنونه «الوقاية من سرطان البروستاتة والقضيب وعنق الرحم بواسطة الختان» مدّعياً أن 32000 شخص يتوفون سنوياً من السرطان الناتج عن الغلفة. ولذا يجب إجراء الختان بصورة عامّة على جميع الأطفال.

ومجمل ما تقوله هذه النظريّة هو أن اليهود أقل من يصاب بسرطان القضيب والرحم لأنهم يختنون في اليوم الثامن. ثم يأتي بعدهم المسلمون، لأنهم يختنون بعد اليوم الثامن. ثم يلحق بهم غير المختونين. وقد تم تكرار هذه النظريّة في مقالات تعتمد على مقالات تسبقها كلها تعود إلى ما كان قد كتبه «ابراهام وولبارست» عام 1932. وأصحاب هذه المقالات هم أفراد يهود أو ذوو نزعة يهوديّة وتعتمد على معطيات مغلوطة لأسباب عقائديّة دينيّة وليست علميّة. فهي ترى دون إثبات أن المادّة المرطبة هي التي تسبّب السرطان، وتعتمد على أرقام مبالغ فيها أو غير موثوق بها، وقد فنّدت الجمعيّات الطبّية تلك النظريّة. والوقاية بالختان أخطر من الداء وليست أخلاقيّة، فهناك وسائل أخرى للوقاية أنجع وأخف من الختان. وهذا ما سوف نراه في النقاط التالية.

المادّة المرطبة ليست سبباً للسرطان

يتهم مؤيدو الختان المادّة المرطبة بأنها المسؤولة عن تكوين السرطان، وبالختان يتم إزالة الغلفة التي تختبئ داخلها هذه المادّة. وحقيقة الأمر أن لا علاقة بين تلك المادّة والسرطان. فقد قام بعض الباحثين بتجارب على الحيوانات التي تفرز المادّة المرطبة مثل الإنسان. كما قام البعض بإدخال المادّة المرطبة البشريّة أسبوعياً لمدّة تتراوح بين سنة وثلاث سنين في رحم إناث القردة والفئران ولم يكتشف أي تأثير لها في تكوين سرطان عنق الرحم. بينما عندما وضعت مادّة مولدة للسرطان كانت النتيجة أن الحيوانات أصيبت بسرطان عنق الرحم. وتوجد المادّة المرطبة عند الذكر كما عند الأنثى بين غلفتها وبظرها، كما أنها موجودة عند كل الحيوانات اللبونة، ذكوراً وإناثاً.

وإن صح أن المادّة المرطبة تسبّب السرطان، يعني ذلك ضرورة ختان الإناث بصورة روتينيّة كما تفعل بعض الشعوب مع الذكور، وضرورة ختان جميع تلك الحيوانات لحمايتها من السرطان. ولكن لا يجرؤ أحد على تقديم اقتراح مثل هذا.

ولو كان صحيحاً أن المادّة المرطبة عند الذكر هي التي تسبّب السرطان فإن نسبة سرطان القضيب يجب أن تكون أعلى عند غير المختونين من نسبة سرطان عنق الرحم لأن المادّة المرطبة في اتصال متواصل بالقضيب. ولكن الأرقام تشير إلى عكس ذلك تماماً. ففي عام 1977 سجّلت الولايات المتحدة 20.000 وفاة بسبب سرطان البروستاتة و 7.600 وفاة بسبب سرطان عنق الرحم مقابل 225 وفاة بسبب سرطان القضيب.

الأرقام مبالغ فيها أو غير موثوق بها

غالى مؤيّدو الختان في التخويف من سرطان الرحم. فسرطان عنق الرحم يمثل أقل من 5% من حالات الموت بسبب السرطان بجميع أشكاله التي تصيب المرأة. ولكن مؤيّدو الختان يبالغون مدّعين أن سرطان عنق الرحم يمثل 35%. وعندما يتكلمون عن مستوى سرطان عنق الرحم عند النساء اليهوديّات ينقصون هذه الأرقام ويجعلونها تساوي ما يقارب الصفر. والواقع يبيّن فعلاً أن مستوى سرطان عنق الرحم عند اليهوديّات منخفض. وهم يرجعون السبب إلى ممارسة الختان عند اليهود. إلاّ أن الأبحاث التي أجريت بين عام 1900-1910 أرجعت السبب إلى الحمّام الطقسي الذي تفرضه الديانة اليهوديّة على المرأة بعد الحيض. وقد أُهمل هذا السبب لاحقاً حتى يبرهن أن ختان الذكر هو السبب.

وذكر الدكتور «ديركينيون» ورفاقه عام 1973 أن سرطان القضيب في الولايات المتحدة يمثل أقل من 1% من الأمراض التي تصيب الرجل، بينما هذا العدد يصل إلى 12% في الهند. وقد اعتمد على مقال في مجلة طبّية تصدر في أستراليا ونيوزيلندا. ولكن المقال الأصلي يذكر ليس 12% بل 2%. فأضاف الدكتور المذكور 10% من عنده. وكل ذلك ليبرهن بطبيعة الحال أن الختان في الولايات المتحدة يحمي من ذلك المرض الخبيث. ويعطي «فالرشتاين» عدّة أمثلة لمثل تلك المبالغات والمغالطات التي لا أساس لها.

وقد كتب الطبيب «وايزويل» عام 1992 بأنه توفى أكثر من سبعة آلاف شخص من سرطان القضيب خلال الخمسين سنة الماضية. وفي عام 1997، كتب هذا الطبيب أنه توفى أربعة أطفال بسبب الختان في الخمس وأربعين سنة الماضية، بينما مات 11

ألف شخص غير مختون بسبب سرطان القضيب. ويرد عليه الطبيب «فلايس» بأنه لا يوجد أي إثبات حول الأرقام التي يقدّمها، وليس هناك إحصائيّات تبيّن حالات الوفيّات التي تحصل بسبب ختان الذكور في الولايات المتحدة.

تفنيد الجمعيّات الطبّية لتلك النظريّة

أكدت الأكاديميّة الأمريكيّة لطب الأطفال منذ قرارها لعام 1975 بأنه لا يوجد سبب طبّي قاطع لإجراء عمليّة الختان بصورة روتينيّة للأطفال حديثي الولادة. وأضافت بأن الختان قد يقي من سرطان القضيب، ولكن نظافة القضيب غير المختون تقي أيضاً من ذلك المرض. وقد أكدت بأنه لا يوجد إثبات بأن عدم ختان الذكر يؤدّي إلى ارتفاع في الإصابة بسرطان الرحم عند المرأة التي يمارس معها الجنس. وقد جاء في رسالة بعثت بها الجمعيّة الأمريكيّة للسرطان إلى الأكاديميّة الأمريكيّة لطب الأطفال بتاريخ 16 فبراير 1996:

«كممثلين عن الجمعيّة الأمريكيّة للسرطان نود أن نصد الأكاديميّة الأمريكيّة لطب الأطفال عن تشجيع ختان الذكور الروتيني كوسيلة للوقاية من سرطان القضيب أو سرطان عنق الرحم. فالجمعيّة الأمريكيّة للسرطان لا تعتبر الختان الروتيني وسيلة ناجعة أو فعّالة للوقاية من مثل هذه السرطانات... إن اعتبار الختان الروتيني وسيلة فعّالة للوقاية تشتت الجموع عن واجب تفادي التصرّفات المثبتة والتي تساعد على نشوء سرطان القضيب وسرطان الرحم خاصّة التدخين والعلاقات الجنسيّة غير المحميّة مع عدد من الشركاء الجنسيين. إن تخليد الاعتقاد المغلوط بأن الختان يقي من السرطان أمر غير مناسب».

الوقاية بالختان أخطر من الداء وليست أخلاقيّة

يقول الدكتور «دينيستون» بأن نسبة سرطان القضيب هو 1 من بين 100.000 شخص، وليس هناك أي برهان علمي بأن الختان يحمي من السرطان، بينما من المعروف والثابت أن التدخين يسبّب مثل هذا السرطان، كما أن من عوامل العدوى به المداومة على شرب الكحول والعدوى بالأمراض التناسليّة والضعف وكثرة تغيير الشريك الجنسي. وليس معقولاً أو أخلاقيّاً قطع 100.000 طفل بهدف تخليص رجل بالغ واحد من مثل هذا السرطان. وبالمقارنة، فإن خطر الإصابة بسرطان الثدي عند النساء هو مائة مرّة أكبر من الإصابة بسرطان القضيب، وليس هناك شخص واحد يقول ببتر ثدي البنات للوقاية من هذا المرض الفتاك.

6) الختان لعلاج ضيق الغلفة وضيق الغلفة الخلفي

يرى مؤيّدو ختان الذكور ضرورة إجراء هذه العمليّة بسبب ضيق الغلفة phimosis وضيق الغلفة الخلفيparaphimosis محاولين رسم صورة مرعبة لهاتين الحالتين.

أ) المصادر العربيّة

نقرأ عند الطبيب العربي الشهير الزهراوي (توفى عام 1036) ما يلي:

«وأمّا التصاق الغلفة بالكمرة وهذا الالتصاق إنّما يحدث فيمن كانت غلفته صحيحة ولم يجب عليه اختتان وقد يعرض التصاقها من قِبَل جرح أو ورم، فينبغي أن تسلخها بمبضع أفطس حتى ينحل الرباط وتتخلص الكمرة من كل جهة. فإن عسر تمييزها على الاستقصاء فينبغي أن تسلخ شيئاً من الكمرة ومن الغلفة وذلك أن الغلفة رقيقة فربّما انثقبت لرقّتها سريعاً. ثم فرّق بين الغلفة والكمرة بخرقة كتان رقيقة قد بلت في ماء بارد لئلاّ تلتصق أيضاً، ثم يعالج بشراب قابض حتى تندمل».

الظاهرة التي وصفها الزهراوي يطلق عليها اليوم اسم «ضيق الغلفة». وعلى العكس من أطبّاء عصرنا الذين يسارعون باقتراح الختان، فإن الزهراوي يتفادى هذه العمليّة ويقترح بدلاً منها سلخ الغلفة عن الكمرة والتفريق بينهما. وقد أثار تصرّف الزهراوي هذا تعجّب الدكتور «سعيد مستيري» في ترجمته الفرنسيّة لكتابه. فيقول: «نتساءل هنا لماذا في حالات ضيق الغلفة التي تتواجد خاصّة عند غير المختونين لا يقترح الزهراوي فقط الختان الطقسي أو عمليّة مشابهة». واقتراح الختان للوقاية من ضيق الغلفة وعلاجها نجده في الكتابات الطبّية العربيّة الحديثة.

ب) المصادر الغربيّة

اعتبر الأطباء الأمريكان أن ضيق الغلفة يؤدّي إلى أمراض كثيرة مثل الفتق وصعوبة الهضم والتهابات المثانة وعدم الرشاقة والشلل والصرع. وقد نصح الطبيب اليهودي الأمريكي «لويس سيير» (توفى عام 1900) بأن يتم فحص كل طفل عند ولادته وبتر غلفته إذا ما تبيّن أنه مصاب بضيق الغلفة. وقد نشر مئات من الأطبّاء الأمريكيّين دراسات لتؤكد على صحّة نظريّات هذا الطبيب معتبرين أن ضيق الغلفة هو السبب في الاستمناء والتشنّج والشلل والتواء القدم وانتشار البثور وصعوبة الهضم والإسهال المستعصي والتبوّل اللاإرادي وعدم إمكانيّة التحكم في الأطراف وسرعة الغضب والعصبيّة والبلاهة والفتق والسكري والصرع والهزال وسقوط المستقيم. وقد أضيفت أمراض أخرى على هذه الأمراض سنة بعد سنة إلى أن أخرج الدكتور اليهودي

«ابراهام وولبارست» للناس نظريّته المشهورة عام 1932 بأن ضيق الغلفة يسبّب السرطان.

وفي عام 1949نشر الدكتور البريطاني «دوجلاس جيرتنر» مقال شهير تحت عنوان «مصير الغلفة» قلب فيه كل تلك النظريات. فقد تبيّن لهذا الطبيب من خلال مراقبة 100 طفل حديثي الولادة و 200 طفل تصل أعمارهم حتى خمس سنين أن ظاهرة عدم رجوع الغلفة إلى الخلف وطولها عند الأطفال أمر طبيعي وليس مرضي. وقد وجد أن 4% من الأطفال يمكن شد غلفتهم عند ولادتهم، وارتفعت هذه النسبة إلى 90% في عمر ثلاث سنين. ويمكن شد كل الغلفات تقريباً إلى الخلف بقوّة ولكن ذلك قد يؤدّي إلى جروح وتقيّحات. وقد اعتبر الدكتور المذكور الأطفال تحت الخامسة طبيعيين في حالة عدم إمكانيّة شد الغلفة إلى الخلف، وأنه يمكن شد الغلفة بسهولة بعد سن الخامسة دون إجراء عمليّة جراحيّة. وهكذا استطاع هذا الطبيب كسر خرافة فوائد الختان. وعلى أساس هذه الدراسة قرّرت هيئة «الخدمة الصحّية البريطانيّة» عدم تغطية مصاريف ختان الأطفال، ممّا أدّى إلى هبوط كبير في معدّلاته في ذلك البلد.

وجاء بعد ذلك الطبيب الدانمركي «جاكوب اوستير» فأجرى عام 1968 بحثاً على 1968 طفلاً من أطفال المدارس تتراوح أعمارهم بين 6 إلى 17 السنة وقد بيّن هذا الطبيب غلط خرافة ضيق الغلفة التي كان على أساسها يجرى ختان الذكور. وقد أوضح أن التصاق الغلفة تطوّر طبيعي قد يستغرق عقداً كاملاً من العمر لفصل الغلفة عن الحشفة، وأن كل محاولة لإجبار الغلفة على الانفصال عن الحشفة يؤدّي إلى مضاعفات طبّية بالنسبة للغلفة التي لم تكتمل بعد. وقد لاحظ أن عدم رجوع الغلفة إلى الخلف موجود في 8% من الأطفال بين عمر 6-7 سنين، و6% من الأطفال بين عمر 8-11 سنة، و 3% من الأطفال بين عمر 12-13 سنة. وبيّن أن التصاق الغلفة بالحشفة ينتهي تدريجيّاً. وقد رأى أن ثلاث حالات فقط استوجبت الختان. وهو يعتبر أنه كان من الممكن تفادي الختان في هذه الحالات الثلاث لو أن الغلفة لم تمط بشدّة. أي أن الختان قد تم في هذه الحالات لإصلاح خطأ طبّي. ممّا يعني بأن القول بضرورة الختان لتفادي ضيق الحشفة قول مغلوط.

وهذه الحقائق التي كشف عنها الطبيبان البريطاني والدانمركي لم تلق طريقها إلى الولايات المتحدة حيث استمر ختان حديثي الولادة بمعدّل 90% في بعض المناطق. ولكنّها أثرت على تشخيص ضيق الغلفة من قِبَل الأطبّاء الأوروبيين واليابانيين الذين فرّقوا ما بين ضيق الغلفة المرضي، وضيق الغلفة الطبيعي. وضيق الغلفة المرضي هو ذلك الضيق الناتج عن وجود ندوب وتصلب في رأس الغلفة وتظهر من خلال التحليل البكتيريولوجي بأنه مصاب بـ»التهاب جاف».

ويبقى السؤال: ما العمل إذا كانت غلفة الطفل لا ترجع إلى الخلف؟ والجواب بسيط: يجب إبقاؤها على حالها إلى أن يكبر الطفل فيسحبها هو ذاته بيده دون ألم لأن تلك هي الحالة الطبيعيّة عند غالبيّة الأطفال. فيجب الاكتفاء بغسل العضو التناسلي كاملاً وتفادي شد الغلفة بالقوّة. فشد الغلفة بالقوّة عند الطفل يؤدّي إلى تمزّق بالإضافة إلى التهاب الحشفة، وينتج عنه ندب وضيق الغلفة الخلفي. ولذلك من الغلط تعليم الأم إرجاع الغلفة عن الحشفة بشدّها. وفي الحالات الصعبة، يمكن تدليك الغلفة بماء ساخن ومرهم (وليس بالصابون الذي قد يخلق التهابات). وفي الحالات القصوى، وهي نادرة، يمكن إجراء شق جراحي للغلفة. ولكن في كل الأحوال يجب تفادي بترها بالكلية لأنها عضو له وظيفة مُهمّة في حماية الحشفة وفي العلاقة الجنسيّة. وهذا يوضّح غباء من يجري عمليّة الختان في الأيّام الأولى من ولادة الطفل لأن مثل هذه العمليّة تؤدّي إلى شد الغلفة وتمزيق الحشفة ومزيد من النزيف.

وفيما يخص «ضيق الغلفة الخلفي» يرى طبيب معارض لختان الذكور أن هذه الحالة النادرة جدّاً تنتج في حقيقة الأمر بسبب جهل الطبيب أو الممرّضة أو الأم الذين يحاولوا شد غلفة الطفل لإرجاعها بالقوّة خلف الحشفة. فهذا التصرّف بحد ذاته مغلوط ويؤدّي إلى تورّم الحشفة. واللجوء إلى الختان في هذه الحالة هو غلطة إضافيّة لأن قطع الغلفة يؤدّي إلى فقدان الحماية للحشفة. لذا بدلاً من قطع الغلفة، يجب كبس الحشفة بين الإبهام والسبّابة وإرجاع الغلفة عليها. ويذكر طبيب آخر بأن ضيق الغلفة الخلفي ليس مرض ولكن ناتج عن التصرّف المتعسّف بغلفة الطفل من قِبَل أطفال تم تعليمهم بأنه عليهم شد الغلفة إلى الخلف دون إرجاعها إلى الأمام بعد ذلك. ويحدث ذلك عند الأولاد الأكبر سنّاً في حالة المراهنة. ويمكن حل هذه المشكلة من خلال شق الغلفة. والختان ليس ضروريّاً عمله إلاّ في الحالات التي يتكرّر فيها هذا الوضع.

7) الختان لعلاج التهاب المسالك البوليّة

أ) المصادر العربيّة

نقل الدكتور حسّان شمسي باشا في كتابه «أسرار الختان تتجلى في الطب الحديث» فقرات مطوّلة عن أبحاث جرت خاصّة في الولايات المتحدة نقتبس منها ما يلي:

«أكدت العديد من الدراسات الحديثة المنشورة عام 1989 أن احتمال حدوث التهاب المسالك البوليّة عند الأطفال غير المختونين يبلغ 39 ضعف ما هو عليه عند المختونين. ففي دراسة أجريت على أكثر من 400.000 طفل وطفلة خلال عشر سنوات وجد الدكتور «وايزويل» وزملاؤه ارتفاع نسبة التهاب المسالك البوليّة عند الأطفال الذكور وذلك نتيجة لحدوث الالتهاب عند الأطفال غير المختونين. وقد قدّر الباحثون أنه لو لم يجر الختان في الولايات المتحدة فإنه ستكون هناك عشرون ألف حالة أخرى من التهاب البويضة والكلية سنوياً».

ونجد أقوالاً مشابهة عند الدكتور محمّد علي البار. وكلا الطبيبين يعتمدان على كتابات مؤيّدي ختان الذكور، وخاصّة الدكتور «وايزويل»، أحد كبار الداعين للختان على جميع الأطفال. ولم يذكرا أي مصدر معارض لتلك الآراء.

ب) المصادر الغربيّة

لقد تم صياغة النظريّة القائلة بأن ختان الذكور يقي من التهاب المسالك البوليّة في أواسط الثمانينات من القرن العشرين. وأهم دراسة في هذا الموضوع هي تلك التي قام بها الطبيب «وايزويل» على 5261 طفل في المستشفيات الأمريكيّة. وقد استنتج أن التهابات المسالك البوليّة تصيب1,4% من الأطفال غير المختونين، بينما لا تصيب إلاّ 0,14% من الأطفال المختونين. وهذا يعني أن الأطفال غير المختونين أكثر عرضة بعشر مرّات لتلك الالتهابات من الأطفال غير المختونين في السنة الأولى من حياتهم. وقد أثرت هذه النظريّة على انتشار ختان الذكور في الولايات المتحدة لأن التوقيع بالموافقة على إجراء الختان تقوم به الأمّهات، وليس الآباء. والنساء، كما هو معروف، أكثر عرضة لالتهاب المسالك البوليّة. وهكذا تم تخويف الأمّهات وإجبارهن على قبول ختان الذكور.

ويرى معارضو الختان أن الدراسات التي بنيت عليها هذه النظريّة مشبوهة بسبب تحيّز أصحابها الواضح لصالح الختان بالإضافة إلى عدم وجود برهان علمي لهذه النظريّة.

فقد قام طبيب بدراسة على 25.000 طفل وتبيّن له بأن الختان لا يؤثر بدرجة ملحوظة على عدم الإصابة بمثل تلك الالتهابات. وهذا يعني أن الاختلاف بين استنتاج «وايزويل» واستنتاج غيره يعود إلى اختلاف في طريقة البحث. فالمستشفيات العسكريّة التي قام فيها «وايزويل» ببحثه لا تعطي معلومات مطمئنة حول أسلوب تعامله مع غلفة الطفل. فهو مثلاً يشد الغلفة لإرجاعها بقوّة إلى الخلف، ممّا يؤدّي إلى انتقال الجراثيم عبر فتحة البول. كما أنه يغسل القضيب بالصابون ممّا يقتل البكتيريا الضعيفة ويترك البكتيريا القويّة في مكانها. وهذه التصرّفات غير الصحيحة تضعف مناعة الطفل. فإذا كانت أرقام «وايزويل» صحيحة، فهي تعني أن الالتهابات هي نتيجة الغسيل بالصابون وشد الغلفة وليس نتيجة بقاء الغلفة.

ويقول طبيب بريطاني بأنه إذا ما قُبلت أرقام «وايزويل» وغيره فإن هذا يعني بأنه يجب ختن 100 طفل حتى نتمكن من التقليل من خطر إصابة طفل واحد من التهاب المسالك البوليّة، دون إلغاء هذا الخطر تماماً. وإذا ما قارنّا التكلفة بالفائدة، فإن ذلك لن

يغيّر طريقة تصرّف الأطبّاء في أوروبا. والحالات الوحيدة التي يمكن فيها إجراء الختان هو عندما يكون الطفل مصاباً بعاهة بوليّة تؤدّي إلى التهاب المسالك البوليّة دون حصول فائدة من المضادّات الحيويّة.

8) ختان الذكور والإناث للوقاية من الإيدز

آخر حجّة يرددها مؤيدو ختان الذكور والإناث هي أن الختان يقي من مرض الإيدز.

أ) المصادر العربيّة

لقد اغتنم الكتاب العرب ظهور نظريّة علاقة الختان بالإيدز فأخذوا يردّدونها في كتاباتهم منتقين الآراء التي تناسبهم وتتفق مع هدفهم الذي هو إثبات أن المعطيات العلميّة تدعم معتقداتهم الدينيّة. فقد كتب الدكتور حسّان شمسي باشا:

«الختان يقي من مرض الإيدز». ذلك هو موضوع مقال نشر حديثاً عام 1989 في مجلة Science الأمريكيّة. فقد أورد الدكتور «ماركس» في مقالته هذه ثلاث دراسات علميّة أجريت في الولايات المتحدة وإفريقيا. وكانت هذه الدراسات تشير إلى انخفاض نسبة الإصابة بمرض الإيدز عند المختونين. وخلص الدكتور «ماركس» إلى القول باحتمال وجود علاقة بين عدم الاختتان وبين مرض الإيدز. وقد وجد باحثون آخرون (دكتور سيمونسن وزملاؤه) أن احتمال الإصابة بمرض الإيدز بعد التعرّض للفيروس عند غير المختونين يبلغ تسعة أضعاف ما هو عليه عند المختونين».

وقد علق الدكتور حسّان شمسي باشا على هذه النظريّة قائلاً:

«أليس هذا بالأمر العجيب. حتى أولئك الذين يجرأون على معصية الله بالشذوذ الجنسي يجدون خصلة من خصال الفطرة يمكن أن تدفع عنهم غيلاء هذا المرض الخبيث».

وقد نشرت صحيفة «عقيدتي» المصريّة مقالاً في 1995/9/5 تحت عنوان: «وشهد شاهد من أهلها: الختان يمنع الإصابة بالإيدز» بقلم الدكتور أحمد شفيق. يقول المقال: «اعترفت إحدى الدوائر الطبّية في أوروبا بأن الختان يمنع الإصابة بمرض الإيدز، طاعون العصر». وأضاف المقال: «ولعّل هذا الاعتراف من إحدى الدوائر الطبّية يعتبر أبلغ وأقوى رد على الحملة الشرسة التي قامت بها محطة «سي إن إن» التلفزيونيّة كمحاولة منها للهجوم على الإسلام الذي يؤكد عمليّة الختان». والإشارة هنا هي إلى الفيلم الذي كانت قد عرضته هذه المحطة عن ختان الإناث في 1994/9/7.

ونشرت صحيفة «صوت الأمّة» المصريّة في 1997/9/9 مقالاً تحت عنوان: «الختان يحمي الأنثى من الإيدز». ونقل المقال عن الدكتور عزّت الصاوي، أخصّائي أمراض النساء والتوليد، ما يلي:

«إذا كانت الدوائر الطبّية الغربيّة قد توصّلت إلى أن الختان يحمي من الإصابة بالإيدز وسرطان العضو الذكر، فإن هذا لا يدعو إلى الاستغراب لأن ختان الإناث لا غبار عليه ولا خوف منه على الإطلاق». وينتهي المقال معاتباً مناهضي ختان الإناث، طالباً منهم أن «يكفوا عن الاجتهاد والأفكار ومساندة الموجة ويلتزموا بالكتاب والسُنّة ولا يشككوا أو يتشككوا ليأتي انهيار اجتهاداتهم وتأكيد السُنّة والفطرة من علماء لا ينتمون للإسلام ولا يعتنقونه».

ومن الواضح أن هذه المقالات تحاول إيهام القارئ المصري بأن ختان الإناث يقي من مرض الإيدز حسب شهادة «الدوائر الطبّية في أوروبا». وهذا تزوير خطير للمعلومات. فما نشر في الغرب - فضلاً عن عدم صحّته - لا يخص ختان الإناث، بل فقط ختان الذكور.

وخلافاً لما يقوله مؤيّدو ختان الإناث، يرى معارضوه في مصر أن ختان الإناث يساعد على انتشار الإيدز وأمراض أخرى مثل التهاب البول والتهاب الكبد الوبائي. ويعلل ذلك الدكتور أشرف فودة، أستاذ الكلى والمسالك البوليّة بطب القاهرة بأن الآلات التي تستخدم في هذه العمليّة على أيدي أشخاص غير مؤهّلين تكون غير نظيفة وغير معقّمة. وتقول الدكتورة سامية سليمان رزق: «أوضحت بعض البحوث التي أجريت في إفريقيا حديثاً أن الإصابة بمرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) قد يحدث نتيجة لتلوّث جرح الختان في الأنثى».

ب) المصادر الغربيّة

في نهاية الثمانينات ادَّعت بعض الدراسات الإفريقيّة أن هناك علاقة بين فيروس فقد المناعة والذكر غير المختون. وقد اغتنم مؤيّدو الختان هذه النظريّة فقاموا بحملة دعائيّة بدأت برسالة بعثها طبيب يهودي اسمه «ارون فينك» إلى مجلة طبّية عام 1986. إلاّ أن هذا الطبيب أوضح لصحفي بعد ذلك بأنه لا يمكنه إثبات هذا الأمر. وهذا الطبيب هو من كبار الداعين لإجراء الختان على جميع الأطفال. وقد دعم فكرة الختان الروتيني للأطفال بحجّة الوقاية من مرض الإيدز عدد من الأطبّاء أكثرهم، أن لم يكن كلهم، من اليهود. ولكن ماذا تقول الأرقام؟

أعلى دولة غربيّة في نسبة ختان الذكور هي الولايات المتحدة. وفي هذا البلد، غالبيّة الرجال في سن النشاط الجنسي مختونين. ولو كانت النظريّة السابقة صحيحة، كان يجب أن تكون بين الدول الأقل انتشاراً لمرض الإيدز. ولكن الأرقام تبيّن أن الولايات المتحدة هي سادس أكبر دولة لانتشار الإيدز في العالم وأعلى دولة بين الدول المتقدّمة. ومؤيّدو نظريّة الإيدز بطبيعة الحال يتجاهلون هذه الحقيقة. وقد قدّرت منظمة الصحّة العالميّة أن بين 18,5 مليون مصاب بهذه الجرثومة في العالم، يوجد 1,1 مليون رجل

أمريكي شمالي، بينما لا يوجد إلاّ 600.000 مصاب من أوروبا الغربيّة. وقد بيّنت دراسة أمريكيّة أنه بين كل 20 مواطن أمريكي شمالي يوجد شخص مصاب بهذا المرض عام 1994. وكل المصابين بهذا المرض في الولايات المتحدة تقريباً من المختونين.

ويذكر طبيب أمريكي بأن الولايات المتحدة تكوّن 5% من سكان العالم ولكنّها تحتوي على 65% من حالات الإصابة بمرض الإيدز في العالم.

وفي غياب دراسة جدّية تثبت أن الختان عنصر وقاية من الإيدز، يجب علينا أن نرجع إلى البديهيّات البسيطة التي يمكن أن يتقبّلها العقل، دون الدوخان في أرقام وحسابات معقّدة لا نهاية لها. وهذه البديهيّات هي:

- الختان يجعل جلد القضيب أكثر انشداداً وخشونة وأقل رطوبة ويترك فيه ندب. وبالتالي فإن المختون يكون أكثر عرضة للتجرّح ودخول فيروس الإيدز في جسمه.
- ترى بعض الدراسات أن المختونين أكثر ميلاً لممارسة الجنس من خلال الشرج والفم، كما إنهم أكثر ميلاً للعلاقات الجنسيّة الشاذّة، كما رأينا سابقاً. وهذا عامل يزيد في إمكانيّة التجرّح ودخول الفيروس.
- المختونون أكثر ميلاً إلى البحث عن عدد أكبر من شريكات العلاقة الجنسيّة، ومن ثم أكثر تعرّضاً للفيروس.
- المختونون أقل ميلاً لاستعمال العازل. وأحد الأسباب التي تقدّم لذلك هو أنه يضعف من الحساسيّة بسبب تغليف القضيب. والمختون يكون عامّة قد فقد جزءاً من تلك الحساسيّة بسبب الختان واحتكاك الحشفة بالملابس وجفاف القضيب. فإضافة عازل على القضيب يزيد من إضعاف حساسيّته. كما أن الختان يقلل من مدّة المداعبة قَبل الولوج وهذا يؤدّي إلى تجريح أكبر في الأنسجة.
- حتى وإن قَبلنا بأن الختان قد يحمي من مرض الإيدز فإنه يجب عمل 23148 ختاناً في الولايات المتحدة بتكلفة قدرها 9,6 مليون دولار لكي يقي من إصابة واحدة بمرض الإيدز. وهذا يعني أننا سوف نعرّض عدداً كبيراً لمخاطر الختان الأخرى ومن بينها الوفاة لوقاية فرد واحد. ومخاطر الختان في دول العالم الثالث أعلى ممّا هي عليه في الدول المتقدّمة. والدراسات تبيّن أن وجود الغلفة ليس عاملاً مُهمّاً في مدى انتشار الفيروس. وإن كان عاملاً فالمخاطر الناتجة أكبر من الفوائد المرجوّة.
- القول بأن الختان يقي من الإيدز قد يفهمه البعض بأنه يعطيهم مناعة ضد هذا المرض، فلا يأخذون حرصهم منه ويمارسون الجنس بكل حرّية مع أشخاص مصابين بهذا المرض.

ممّا سبق يتضح أن ختان الذكور والإناث ليس وسيلة للوقاية من الإيدز، لا بل قد يكون عاملاً مساعداً على انتشاره. والوقاية من مرض الإيدز تكمن في حماية الفرد من التعرّض للجراثيم الناقلة لهذا المرض وتثقيف الناس عن العلاقة الجنسيّة السليمة، وليس بقطع أجزاء سليمة من جسم الإنسان.

9) موقف المنظمّات الطبيّة

أخذت عدد من المنظمات الطبية قرارات قاطعة ضد ختان الإناث كما أخذت بعض القرارات التي لا تدين ختان الذكور ولكن لا ترى فيه فائدة طبّية.

فقد نشرت «الجمعيّة الطبّية البريطانيّة» عام 1996 تعليمات بخصوص ختان الأطفال تقول فيها أن «ختان الأطفال نادراً ما يكون ضروريّاً لسبب طبّي» وأن «الدافع الرئيسي للختان هو ثقافي وديني وليس طبّي أو علمي».

وأصدرت الكلية الأستراليّة لجراحي طب الأطفال الذكور عام 1996 قراراً يقول:

«إن الكلية الأستراليّة لجراحي طب الأطفال لا تدعم الختان الروتيني للذكور حديثي الولادة. فليس من الملائم ولا من الضروري إزالة الغلفة بصورة روتينيّة [...]. نحن لا ندعم إزالة جزء طبيعي من الجسم إلاّ إذا كان هناك معطيات تبرّر المضاعفات والمخاطر التي يحتمل أن تنتج عن ذلك. ونحن نعارض بصورة خاصّة أن يخضع الأطفال لعمليّة لو تركت لاختيارهم في عمر كاف للمقارنة بين الفوائد والمضار لكانوا قد اختاروا رفض العمليّة والإبقاء على غلفتهم [...]. إن إجراء الختان على أطفال حديثي الولادة لا مبرّر طبّي له وهو عمليّة تحدث صدمة لديهم».

وقد نشرت «الجمعيّة الطبّية الأستراليّة» تصريحاً عام 1997 تقول فيه: «إن الجمعيّة الطبّية الأستراليّة سوف تعيق ممارسة ختان الأطفال تمشّياً مع قرار الكلية الأستراليّة لجرّاحي طب الأطفال» وتضيف بأن «بعض الأهل قد يقرّرون إجراء الختان لاعتبارات طبّية أو اجتماعية أو دينيّة أو عائليّة. وفي هذه الحالة، على الطبيب أن يوصيهم بأن يتم الختان في عمر وتحت ظروف تقلل من مخاطره إلى أدنى درجة».

وأخيراً جاء في تقرير الأكاديميّة الأمريكيّة لطب الأطفال الذي صدر في مارس 1999:

«إن المعطيات العلميّة توحي بوجود فوائد طبّية محتملة لختان الذكور حديثي الولادة، ولكن هذه المعطيات لا تكفي للتوصية بإجراء الختان على الأطفال حديثي الولادة بصورة روتينيّة. ففيما يخص الختان هناك فوائد محتملة ومخاطر، ولكن تلك العمليّة ليست ضروريّة لرفاهيته الحاليّة، وعلى الأهل التقرير ما هو في صالح الطفل. وحتى يتمكن الأهل من بلوغ قرار مستنير، يجب أن يعطى للأهل معلومات دقيقة وغير منحازة وإمكانيّة مناقشة القرار. وللأهل الحق في الاعتماد على العادات الثقافيّة والدينيّة والعرفيّة بالإضافة إلى العوامل الطبّية في اتخاذ قرارهم».

ومن الواضح من هذا القرار الأخير بأنه لا يرى في الختان ضرورة طبّية. ولكنّه في نفس الوقت يترك للأهل الحق في اتخاذ القرار في إجرائه لاعتبارات غير طبّية. وهذا

بحد ذاته مخالف للأخلاق الطبّية التي لا تسمح بالتعدّي على سلامة الجسد إلاّ في حالة الضرورة الطبّية وموافقة مستنيرة من قِبَل المريض أو وليّه، وهما شرطان لا يتواجدان في ختان الذكور.

الفصل الخامس
المعالجة الطبّية لآثار الختان الضارّة

ختان الذكور والإناث عملية طبيّة يتم فيها بتر عضو سليم في أغلب الحالات وينتج عنها أضرار جسدية وجنسية ونفسية. وبما أنه من غير الممكن الرجوع للوضع الأصلي، يحاول بعض المختونين إيجاد حل لتخفيف تلك الأضرار. ويجد القارئ في الكتب والمقالات الطبّية ذكر لعمليّات مختلفة يقصد منها استعادة وظيفة القضيب ولو جزئيّاً أو لإزالة التشويه الخارجي الحادث له. وفي بعض الأحيان يقوم الطبيب بإزالة ما تبقّى من الأعضاء التناسليّة للذكر وعمل ثقب له وتحويله إلى أنثى. وسوف نكتفي هنا بظاهرة استرجاع الغلفة غير الجراحي.

1) عمليّة استرجاع الغلفة في التاريخ

تقول الروايات اليهوديّة أن عيسو ابن إسحاق هو أوّل من قام بشد غلفته لإطالتها وإلغاء علامة الختان، وأن هذا هو سبب لعنه من الله. وفي العصر اليوناني (323-30 ق.م) خضع كل اليهود تحت سيطرة اليونان بعد فتح الاسكندر الكبير لمنطقة الشرق الأوسط. وتذكر التوراة أن بعض اليهود قد قَبلوا الاندماج في المجتمع الجديد. فبنوا ملعباً رياضيّاً في القدس. وقام بعضهم بترك الختان وإلغاء علامة الختان بمط جلد القضيب لاسترجاع الغلفة (1 المكابيين 1:15 48). وقد ساند موجة الاندماج هذه إصدار الملك أنطيوخس قوانين عام 168 قَبل المسيح تمنع الختان باعتباره علامة تمييز بين الشعوب ورفضاً للاندماج. وكان مراقبو الملك، بمقتضى هذه القوانين، «يقتلون النساء اللواتي ختن أولادهن، ويعلقون أطفالهن في أعناقهن، ويقتلون أيضاً أقاربهن والذين ختنوهم» (1 المكابيين: 1: 60-61). وقد حدث من جرّاء ذلك ثورة من رجال اليهود المتزمّتين بين عام 167-160 قَبل المسيح ختنوا خلالها «بالقوّة كل من وجدوه في بلاد إسرائيل من الأولاد الغلف» (1 المكابيين: 2: 46).

وقد جاء في رسالة للقدّيس بولس ذكر لعمليّة استرجاع الغلفة. فهو يقول:

«فليسر كل واحد في حياته على ما قسم له الرب كما كان عليه إذ دعاه الله. وهذا ما أفرضه في الكنائس كلها. أدعي أحد وهو مختون؟ فلا يحاولن إزالة ختانه. أدعي أحد وهو أغلف؟ فلا

يطلبن الختان. ليس الختان بشيء ولا الغلف بشيء. بل الشيء هو حفظ وصايا الله. فليبق كل واحد على الحال التي كان فيها حين دعي» (1 قورنتس 7:17-20).

وقد تكون ظاهرة استعادة الغلفة التي يتكلم عنها القدّيس بولس مرتبطة برغبة بعض اليهود في قطع الصلة مع دينهم القديم عند تحوّلهم إلى المسيحيّة. ولكن بولس اعترض على هذا الفعل. وهناك ذكر لعمليّة استرجاع الغلفة في التلمود.

وقد وصف الطبيب الروماني «شيلسوس» (توفى قرابة عام 50) عمليّتين جراحيّتين الغاية منهما تغطية الحشفة لمن كان عنده نقص في جلد القضيب وذلك «لأجل الزينة». تجرى إحدى هاتين العمليّتين بقص جلد القضيب فوق العانة ومط الجلد وربطه فوق الحشفة مع إبقاء ثقب للبول حتى يشفى الجرح. وأمّا العمليّة الثانية والتي يقترحها «لمن ختن حسب عادات بعض الأجناس»، فتتم بمط الجلد فوق الحشفة وإبقائه ممطوطاً من خلال ضمّادة على طول القضيب من قاعدته.

ولفهم ظاهرة استرجاع الغلفة يجب أن نعرف أن ظهور الحشفة وانتصاب القضيب في أماكن اللعب والحمّام والمسارح، حيث المشاركون عراة، كان مخالفاً للموازين الأخلاقيّة والجماليّة عند اليونانيين والرومان، ومن تظهر حشفته كان محل سخرية الجمهور. ولتفادي ذلك كانت العادة أن يشد الرجل غلفته ويشبكها بخيط أو بملقط فوق الحشفة حتى يغطيها، أو كان يمرّر القضيب عبر أنبوب معدني ثقيل على شكل قمع يدعى «الثقل اليهودي» تكون حافته الضيّقة خلف الحشفة بعد شد الغلفة عليها، فيمنع هذا الثقل رجوع الغلفة إلى الوراء.

ويشار هنا إلى أن الإمبراطوريّة الرومانيّة أعفت اليهود من الانخراط في الجيش والمشاركة في القرابين التي تقدّم للآلهة. وقد فرض الإمبراطور «دوميسيانوس» (توفى عام 96) ضرائب بديلة عليهم تدعى «الضريبة اليهوديّة». وقد كان الختان علامة للتحرّي عن هويّتهم، ممّا دفع بعض اليهود المتهرّبين من الضريبة إلى مط غلفتهم حتى يظهروا غير مختونين. وعلى العكس من اليهود، كان بعض المسيحيّين يلجأون للختان ليستفيدوا من الإعفاء المذكور ويتخلصوا من اضطهاد اليهود لهم. وقد ألغى الإمبراطور «نيرفا» عام 96 أسلوب التحرّي هذا دون إلغاء الضريبة ذاتها.

وحتى يعقّدوا عمليّة استرجاع الغلفة، تشدّد رجال الدين اليهود في الختان فأدخلوا عمليّة السلخ (بيريا). وكانوا يطالبون من استعاد غلفته بأن يختن من جديد.

وقد عاد ظهور استعادة الغلفة بين اليهود في زمن اضطهادهم في الحرب العالميّة الثانية تحت الحُكم النازي 1930-1945. فقد كان الختان علامة للتعرّف عليهم لأنهم

كانوا المجموعة الوحيدة التي تختن إذا ما استثنينا بعض الأفراد. حتى أن المسيحي المختون كان عليه أن يحمل شهادة العمّاد لإثبات كونه غير يهودي. فحاول بعض اليهود إبقاء أطفالهم غير مختونين للهرب من الاضطهاد، وأمّا المختونون فقد حاولوا استعادة غلفتهم بالأساليب الجراحيّة مقابل مبالغ طائلة لدى أطبّاء بولنديين كانوا يستغلون ضيقتهم. ولا يعرف مدى نجاح تلك العمليّات.

2) كيفيّة استرجاع الغلفة بأسلوب غير جراحي

ترعرعت ظاهرة استرجاع الغلفة ضمن حركة مكافحة الختان التي شهدتها الولايات المتحدة في العقدين الأخيرين حيث تم تطوير أسلوب غير جراحي لهذا الغرض. وقد تم تأسيس مجموعات تعطي المشورة مجّاناً في هذا المجال ولها مواقع على الانترنيت يمكن البحث عنها من خلال كلمة Foreskin restoration أو Restauration du prépuce. وفي عام 1991 نشر «جيم بيجلو»، مؤسس إحدى تلك المجموعات، كتاباً في هذا الموضوع هو الآن في طبعته الثالثة يحتوي على معلومات قيّمة عن ختان الذكور في التاريخ وخاصّة في الولايات المتحدة. وقد بيع منه أكثر من عشرة آلاف نسخة. وقد تبنّت فكرة استعادة الغلفة المجموعات المختلفة التي تناهض الختان داخل وخارج الولايات المتحدة.

ويقدّر «وين جريفيتس»، أحد مؤسّسي «الجمعيّة الوطنيّة للرجال الذين يستعيدون غلفهم» عدد الذين استعادوا الغلفة بهذه الطريقة بقرابة 7000 شخص. وهذه الجمعيّة لها 20 فرعاً في دول مختلفة. وقد استلم مؤسّس الجمعيّة الأم أكثر من خمسة آلاف رسالة تستفسر عن الموضوع. وهذه الأعداد هي دليل على وجود تمرّد فعلي ضد ختان الذكور وإحساس بعدم الرضى عند ضحاياه.

تعتمد عمليّة استرجاع الغلفة بأسلوب غير جراحي على مبدأ أن الجلد له خواص مطاطيّة. فإذا مورس ضغط على الجلد بمدّه، فإن الجلد يكوّن خليّات جديدة. ولتعويض ما قطع بالختان، يتم مط جلد القضيب حتى يغطي الحشفة وذلك باستعمال شريط لاصق وأثقال مختلفة تتدلى من القضيب تشبه الثقل الذي يستعمل لإبقاء صنّارة صيد السمك تحت الماء. ويمكن الاستمرار بعمليّة شد الغلفة لمدة تختلف حسب مقدار الغلفة التي يراد استرجاعها. وقد تصل إلى قرابة ثلاث سنين.

ولكن استرجاع الغلفة لا يعني بالضرورة الرجوع إلى وضع كأن الختان لم يكن. فـ«ما أعطبه الدهر لا يصلحه العطارون». فالختان يقطع الجزء العلوي من جلد القضيب. وهذا الجزء ذو طبيعة خاصّة تنكمش حول الحشفة. ومن يريد انكماش جلده فوق

الحشفة عليه بالإضافة إلى مط الجلد إجراء عمليّة لتضييق الفتحة التي تلامس الحشفة. من جهة أخرى، اللجام الذي يربط جلد القضيب بالحشفة يتأذى بالختان وقد يقطع. وللجام دور في العلاقة الجنسيّة إذ يعيد الغلفة فوق الحشفة عند الارتخاء. وفي حالة قطع اللجام واسترجاع الغلفة بمط الجلد، فإنه يجب إعادة الغلفة باليد فوق الحشفة عند الارتخاء. وقد يؤدّي مط جلد القضيب إلى تغطيته بشعر العانة الذي يمكن تنحيته بعمليّة تدعى التحلل الكهربائي.

3) موقف مؤيّدي الختان من استعادة الغلفة

يعتبر مؤيّدو ختان الذكور من يقومون باستعادة غلفهم بأنهم مصابون «بمرض عقلي خطير جدّاً»، كما جاء في رسالة بعثها لي «شيمون جليك»، رئيس التعليم الطبّي في جامعة بن غوريون. وقد كتب طبيب يهودي فرنسي أن هناك تزايد في طلب استعادة الغلفة لدى أمريكيّين شاذّين جنسيّاً غير يهود وغير مصابين بأمراض عقليّة ختنوا عند ولادتهم. وهذا الطبيب يجهل أو يتجاهل أن اليهود أيضاً يلجأون لمثل تلك العمليّة. وتهجّم هذين الطبيبين اليهوديين له صلة واضحة باعتقادهم الديني. ويرد «جيم بيجيلو» على هؤلاء بأنه أمر مقلق أن لا يرى البعض أهمّية الشعور بكمال الجسم. فهؤلاء المتهكمين لا يرون مانعاً من أن تقوم امرأة بعمليّة تجميليّة بعد فقدها ثدييها، بينما يعترضون على أن يقوم الرجل بعمليّة مماثلة لاستعادة غلفته. وهذا التهكم سببه هو عدم تفكيرنا بأنه يمكن أن يحس الإنسان بنقص جسدي عندما يكون مختوناً.

الجزء الرابع
الختان والجدل الاجتماعي

الختان ظاهرة جماعيّة. وككل ظاهرة جماعيّة، لا بد أن تبدأ بفرد يعتبر «شاذاً» يقوم بختان نفسه لأسباب مختلفة، منها الديني، والجنسي، والمرضي. ثم تنتقل من الفرد إلى الجماعة فتفقد طابعها «الشاذ» وتصبح عادة وظاهرة ثقافيّة مع الوقت تحت تأثير عدوى المحيط، والدين، والنزوات الجنسيّة، والزواج، والنظام القبلي والطائفي، وغريزة التسلط، والعوامل الاقتصادية، والدوافع السياسيّة. والختان كـ «منتوج جماعي» يتحوّل إلى «عامل» مؤثر على المجتمع. وقد رأينا تأثيره على الحياة الزوجيّة والشذوذ الجنسي وتناول المخدّرات في الجزء الطبّي، وسوف نرى هنا نتائجه النفسيّة والاجتماعية الأخرى. وننهي هذا الجزء بعرض الوسائل التربويّة والنفسيّة لمعالجة آثار الختان والقضاء عليه.

الفصل الأوّل
الختان من بتر الذات الشاذ إلى التصرّف الجماعي الثقافي

لقد عرّض الإنسان نفسه وغيره عبر العصور إلى أنواع شتى من البتر والتشويه، من بينها بتر الأعضاء الجنسيّة، وخصوصاً ختان الذكور والإناث. وتبدأ ظاهرة بتر الذات بفرد شاذ نفسيّاً، ثم تصبح مع مرور الوقت ظاهرة ثقافيّة.

1) بتر الذات الشاذ من الجن إلى علم الطب النفسي

تذكر التوراة أن إبراهيم قد ختن نفسه بأمر من الله. ويحكي لنا الإنجيل شفاء المسيح لرجل «فيه روح نجس قد خرج من القبور [...] وكان طوال الليل والنهار في القبور والجبال، يصيح ويرضّض جسمه بالحجارة». فسأل المسيح الروح النجس عن اسمه أجاب: «جيش، لأننا كثيرون». وعندما أخرجه من المريض سمح له دخول في قطيع خنازير فوثبت إلى البحر وهلكت (مرقص 5:2-31؛ لوقا 8:72-33). وما زلنا حتى اليوم نقول عن المختل عقليّاً بأنه مجنون أو «لابسه الجن». إلاّ أن علماء النفس يشخّصون هذه الأمراض بأنها أمراض عصبيّة وهوسيّة وعضويّة يلعب الدين والجنس وعوامل أخرى دوراً في نشوئها.

2) دور الدين والجنس

ويقول طبيب النفس «فافاتزا» إن الأشخاص المصابون بالهلوسة يسمعون أصواتاً ويرون رؤى تطالبهم ببتر أنفسهم. وعندما يكون البتر تنفيذاً لما يعتقدونه أمراً إلهياً، ينتاب الأشخاص الذين يبترون أنفسهم شعور بالقوّة أو الأهمّية لاعتقادهم أن الله قد اختارهم. وقد تكون تلك الهلوسة في درجات مختلفة من الشدّة. فمنهم من تلاحقهم باستمرار وقد تكون في شكل رؤيا مخيفة خاصّة تحت تأثير المخدّرات. ونقدّم هنا مثالين نقتبسهما من كتاب هذا الطبيب:

- شاب عمره 32 سنة كان يبحث عن تطهير نفسه لمدّة ست سنوات كارزاً في الجموع وحاملاً إشارات دينيّة وحالقاً رأسه ومتأمّلاً في التلال. وقد انتابه شعور بالذنب بسبب علاقات جنسيّة غير مشروعة وحالات سكر مر بها من قَبل. فقطع خصيتيه وقدّمهما قرباناً لله. وبعد وفاة أبيه، مارس علاقات جنسيّة شاذّة حتى اشمأز من نفسه. فوقع على نص الإنجيل الذي يقول «هناك خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات» (متى 11:19). عندها قام بقطع قضيبه بشفرة ثم حرقه بالنار. وقد برّر عمله بقوله: «حتى وإن تم الحُكم علي بأني مجنون، إلاّ أنه من الأفضل لي إن أطهّر نفسي».
- حالات قلع العين: هذه الظاهرة تكاد لا توجد إلاّ في المحيط المسيحي. وهي تعتمد على نص إنجيلي يقول: «وسمعتم أنه قيل لا تزني. أمّا أنا فأقول لكم: من نظر إلى امرأة بشهوة، زنى بها في قلبه. فإذا كانت عينك اليمنى سبب عثرة لك، فاقلعها وألقها عنك. فلأن يهلك عضو من أعضائك خير لك من أن يلقى جسدك كله في جهنّم» (متى 5:27-29؛ أنظر أيضاً مرقس 47:9). ويقدّر عدد الذين يقلعون أعينهم سنوياً في الولايات المتحدة بـ 500 حالة، يضاف إليها حالات كثيرة يتم فيها وضع أشياء مؤذية في العين. وإحدى تلك الحالات تخص مسيحيّاً مصرياً خدش عينيه بعدما أحس بالذنب لمعاينته ملهى عاريات. وقد ادّعى أن العذراء مريم ظهرت له وطلبت منه أن يقلع عينه فأدخل في مستشفى بعد أن حاول القيام بذلك.

من خلال المثلين السابقين، نرى أن للجنس دور هام في حالات بتر الذات. ولكن أكثر هذه الحالات تخص الذكور، لأن أعضاءهم الجنسيّة أكثر ظهوراً من أعضاء النساء.

3) تأثير المازوشيّة

عمليّات تعذيب الذات منتشرة في كل المجتمعات البدائيّة مثل المتحضّرة. وهناك علاقة بين الدين والجنس والتعذيب. وقد تأخذ هذه التصرّفات منحاً خطيراً فتصب في خانة الجنون والأمراض النفسيّة. والحد بين ما هو مقبول وبين ما هو شاذ يصعب تحديده ويختلف حسب الثقافات. ويصنّف علماء النفس ظاهرة مرضيّة نفسيّة تحت اسم المازوشيّة، نسبة ل «ليبولد ساشر مازوش» (توفى عام 1895) الذي مجّد في كتاباته وتصرّفاته الجنس المصحوب بتعذيب الغير له. وقد بين الدكتور «فافاتزا» أن بين

250 حالة بتر الذات 2% كانوا هائجين جنسيّاً عندما بتروا أنفسهم، و 3% كان عندهم شعور بالهيجان الجنسي، وأن 20% قد لجأوا لعمليّة بتر الذات للسيطرة على شعورهم الجنسي. وهناك من يشعر بالهيجان الجنسي عند قطع أطرافه مثل قطع الساق أو أصابع القدم. وهناك من يتلذّذون بالألم عندما يقومون بالعلاقة الجنسيّة، مثل وضع شمع يغلي على أجسامهم أو جلدهم. وهذا ما يطلق عليه اسم المازوشيّة الشبقيّة، أي أن الإنسان يبحث عن اللذّة من خلال الألم. ومن المعروف منذ القديم أن اللذّة الجنسيّة لها صلة بالإذلال والألم لدى بعض الناس.

4) غريزة الحياة والموت

أثر فرويد (توفى عام 1939) على الطب النفسي من خلال نظريّته القائلة أن الإنسان لديه «غريزة الحياة» التي تتحكم في تصرّفاته. وربّما بسبب تجربة الحرب العالميّة الأولى أوجد فرويد عام 1920نظريّة معاكسة أسماها «غريزة الموت» التي تدفع الإنسان إلى العنف والانتحار وتجريح الذات بحثاً عن الموت. وقد قام عالم النفس «مينينجر» بتفسير البتر بأنه وسيلة علاج يلجأ لها الفرد حتى يتفادى إفناء ذاته. ونجد التقاء بين هذه النظريّة وقول المسيح السابق الذكر أنه من الأفضل أن تقلع عينك وتقطع يدك بدلاً من أن تهلك كلك في الجحيم. ويعلق «فافاتزا» على هذه النظريّة قائلاً بأن البتر يساعد في بعض حالات على تفادي الانتحار.

ويتبع حالات البتر إحساس بالراحة. وقد بنيت نظريّات كثيرة لتفسير هذه الظاهرة. فمنهم من رأى تشابهاً بين هذا الإحساس وبين الإحساس الناتج عن تمارين رياضيّة أو بلوغ الارتواء الجنسي أو ارتخاء العضلات والتأمل الروحي. وقد عللوا ذلك بأن المخ يعمل بصورة مثالية تحت ضغط معيّن. وإذا ما ارتفع الضغط كثيراً، قام المخ روتينيّاً بتنظيم هذا الضغط بتخليه عن جزء من هيجانه. ولذا يعبّر الذين يقطعون أنفسهم بأن القطع كفقع البلون أو كتنفيس طنجرة تغلي.

5) تأثير المحيط

إذا وضعت الحيوانات في محيط غير طبيعي مثل حدائق الحيوانات أو الأقفاص، تقوم ببتر أنفسها. ويزيد في نسبة هذه الظاهرة العزلة والفشل في العلاقة الجنسيّة والتهديد والخوف. وهذا ما نجده عند الإنسان. فقد لوحظ ارتفاع نسبة البتر عند السجناء وعند الأشخاص الذين مرّوا بتجارب قاسيّة في طفولتهم ولم يجدوا الحنان والحب من أهلهم، أو تم اغتصابهم، أو عوملوا بصورة تعسّفيّة، أو كانوا في حالة عزلة. والفرق بين

الحيوان والإنسان هو قدرة الإنسان في إعطاء معنى رمزي لأفعاله ممّا يجعل فهم تصرّفاته أكثر تعقيداً.

6) الحيلة والصوريّة

يقوم بعض الأفراد ببتر أنفسهم للحصول على فوائد ذاتيّة عبّر عنها مثل عربي قديم يقول «لأمر ما جدع قصير أنفه». ومن المعروف أن كثيراً من الأفراد يتصنّعون المرض أو يبترون أحد أعضائهم لجلب الشفقة أو للتسول، وهذا ما عبّر عنه المثل العامّي: «اقطع ايدك واشحد عليها». كما قد يكون القصد التهرّب من الجنديّة، وهو ما تعاقب عليه القوانين. وقد يُقصد بالبتر إغاظة الآخرين، كما يشير مثلان عامّيان كويتيان: «عاند أم عياله وقص أيره وخصيانه»؛ «عاند مرته وقص طيزه».

وهناك ظاهرة تسمّى «هوس العمليّات الجراحيّة». فبعض الأشخاص يتظاهرون بأنهم في حاجة لعمليّة جراحيّة ويقنعون الطبيب بأساليب تحايلية بإجراء تلك العمليّات. والمصابون بهذه الظاهرة يتعمّدون عرض جراحهم على الغير. وهناك من يتلذّذ بالنظر إلى تلك الجراح. وهناك ظاهرة موازية تدعى «هوس العمليّات الجراحيّة بالوكالة» مفادها افتعال ضرورة إجراء عملية بتر على الغير كما هو الأمر في الختان الذي عامة يتم على الأطفال دون سبب طبّي حقيقي.

7) التحليل النفسي لختان إبراهيم

قليلاً ما يتم إخضاع الأنبياء للتحليل النفسي بسبب القدسيّة التي تحيط بهم. ونحن نرى ضرورة إجراء تحليل نفسي لحادثة ختان إبراهيم التي أدّت إلى بتر الملايين من الأطفال، إذا ما أردنا الإقلاع عن هذه العادة. ونعتمد في تحليلنا هذا على نص التوراة الذي يتضمّن تفاصيلاً لا يذكرها القرآن.

كان إبراهيم، حسب التوراة، يعاني من حياة عائليّة مضطربة. فقد ترك أهله ورحل بعيداً عنهم (التكوين 12:1-4). وسلم زوجته سارة لفرعون ليمارس الجنس معها مدّعياً أنها أخته حتى ينجو من القتل ويحسن فرعون إليه (التكوين 12:10-20). وكانت سارة عاقراً ولم يأته منها إلاّ ولد في سن متأخّرة. وكان يشعر مراراً بأن روحاً يكلمه. فالروح هو الذي أمره بترك أهله (التكوين 12:1-4)، وختان نفسه ونسله وعبيده (التكوين 17:1-14)، وطرد امرأته الثانية هاجر مع ابنها (التكوين 21:12-13)، وتقديم ابنه إسحاق محرقة (التكوين 22:1-2). ولحسن الحظ، تراجع ذلك الروح عن مطلبه واكتفى بكبش بدلاً منه (التكوين 22:11-13). وقد توعّد هذا الروح

بتدمير سدوم (التكوين 18:16-33). وعندما ظهر الروح ليطلب من إبراهيم تنفيذ أمر الختان، وقع إبراهيم على وجهه (التكوين 3:17). وكان عمره حينذاك 99 سنة. وتقول رواية يهوديّة أن إبراهيم وجد نفسه مختوناً بقرصة عقرب بعدما قام من وقعته. ولكن قد يكون وقوعه مغماً عليه بسبب قطعه غلفة قضيبه. وقد يكون ختانه بسبب شعوره بالذنب بسبب تصرّفاته وعلاقته المتوترة مع امرأته سارة. وبعد ختانه صار عنده شعور بالاعتزاز لأنه سيكون عنده نسل وأرض، كما وعده الروح الذي كان يكلمه.

وإذا ما حللنا هذه التصرّفات على ضوء ما شرحنا سباقاً، لرأينا فيها عوارضاً لمرض الفصام العقلي وهوس المبالغة. وقد يظن البعض أن عمر 99 سنة لم يكن ذو أهمّية إذ إن التوراة تحكي أن إبراهيم مات وعمره 175 سنة (التكوين 7:25). إلاّ أن التوراة تقول إن إبراهيم كان عندما بشّره الله بميلاد إسحاق «شيخاً طاعناً» (التكوين 11:18). وللعمر في تصرّفات البشر أحكام لا تخفى على أحد، لا ينجو منها لا الفلاّح الفقير ولا الملك القدير.

هذا وقد سألني كويتي: لماذا ختن إبراهيم نفسه؟ وأجاب هو عن هذا السؤال مستشهداً بالمثل العامّي الكويتي السابق الذكر: «عاند أم عياله وقص أيره وخصيانه»! أي أن الختان كان وسيلة من إبراهيم لإغاظة سارة العاقر التي كانت تختلق المشاكل مع هاجر. وأضاف كويتي آخر مستشهداً بالمثل الكويتي: «إبراهيم ما عليه شرهه». وقد سألته عن مغزى هذا المثل فأجاب في رسالة بتاريخ 1998/12/14:

«إذا كان أحد الأشخاص اسمه إبراهيم وارتكب خطأً، يلومه البعض - سواء في حضوره أم غيابه - قائلاً له أو عنه ما يلي: «إبراهيم ما عليه شرهه» بمعنى «ما عليه عتب»، وهذا المثل متداول في العالم العربي بأسره. وهذا المثل يذكرني بمثل آخر يحمل نفس المعنى. يقول المثل: «ليس على المجنون حرج». والمثل الأوّل بالتأكيد منسوب بالأصل إلى سيّدنا إبراهيم. وهذا أمر معروف للجميع».

نذكر هذا الخبر الأخير «على ذمّة الراوي». وإن أفتى علماء اللغة والتاريخ بصحّة نسبة هذا المثل الأخير إلى إبراهيم، فهذا يعني وجود فرق شاسع بين ما يعتقده العامّة عنه وبين تقديس رجال الدين اليهود والمسيحيّين والمسلمين له.

8) وسائل معالجة بتر الذات الشاذّة

رأينا أن السيّد المسيح قد شفى مجنوناً بإخراج الروح النجس منه. وحتى يومنا هذا يعالج رجال الديانات السماويّة ظاهرة الجنون بترديد الصلوات والآيات، وفي بعض

الأوقات بتعذيب المريض جسديّاً. أمّا علماء طب النفس فإنهم يحاولون التصدّي لمثل هذه الظواهر بوسائلهم الخاصّة.

ومن بين تلك الوسائل ينصح علماء طب النفس منع من يعانون من مرض الهلوسة وعقدة الاضطهاد وعقدة الذنب الجنسي من قراءة الكتب المقدّسة التي تتحدّث عن البتر والتي قد تقدّم لهم تبريرات لتصرّفاتهم. وإذا كان القطع تعبيراً عن الرغبة في العلاقة الجنسيّة مع الأب والخوف منها أو بسبب علاقة مضطربة بين الأم والشخص خلال الطفولة، يجب لعب دور الأم وتوعية المريض وتثقيفه في مجال العلاقات الجنسيّة. وإذا كان القطع نتيجة لفقدان الأب، يجب محاولة لعب دور الأب. وفي حالة القطع الكبير، يمكن اللجوء إلى المهدّئات القويّة التي تقاوم الفصام العقلي والهوس والكآبة. ويجب أحياناً الحد من حرّية الشخص جسديّاً إلى أن يأتي الدواء أثره. وإن كان الشخص دون عمل يجب على الطبيب مساعدته لإيجاد عمل ليشغله عن نفسه، كما أنه يبعده عن محيط خطير. وهناك أيضاً إمكانيّة تغيير الجينات المسؤولة عن اضطراب عصبي بجينات سليمة، وإجراء عمليّات جراحيّة دقيقة على المخ للقضاء على الأجزاء المسؤولة عن الانفعالات. ولكن الطب النفسي ينظر إلى العمليّات الجراحيّة على المخ نظرة سيّئة وليس من المنتظر أن تستعمل لمداواة الذين يبترون أنفسهم.

9) تحوّل الشذوذ الفردي إلى تصرّف جماعي ثقافي

إذا ما تعرّض شخص لعمليّة بتر، بإرادته أو غصباً عنه، فإن هذا الحدث قد يبقى حدثاً معزولاً. ولكن قد يثير انتباه المجتمع ويصبح المبتور محل تبجيل، فيعدي غيره. وهكذا يتحوّل الحدث الفردي إلى ظاهرة جماعيّة. فينتقل الإيمان الفردي بسماع أوامر إلهيّة تأمر ببتر الجسم كما حدث مع إبراهيم إلى إيمان جماعي بوجود مثل تلك الأوامر وبضرورة ممارسة هذا البتر كسمة اجتماعية وثقافيّة مُهمّة. وهذا ما يطلق عليه اسم «الجنون المعدي»، الذي يطبّقه علماء النفس على الختان بالذات. وتدريجيّاً تصبح العادة تبريراً لتصرّفات الأفراد والمجتمع. والخروج عن العادة يعتبر خروجاً عن المجتمع له عواقبه الخطيرة. فإتباع الجماعة راحة. وهناك عدّة أمثلة عاميّة تعبّر عن أهمّية التشابه بين أعضاء المجتمع نذكر منها: «في بلد العوران اعور عينك»؛ «إذا إنجن أهل بلدك شو بنفعك عقلك»، «حط حالك بين التيوس وقول يا قطاع الروس».

ونشوء العادة في المجتمع واستمرارها يكون بسبب عدوى المحيط وتأثير ديني وجنسي وعائلي وقَبلي وسياسي واقتصادي سوف نراها في الفصول القادمة.

الفصل الثاني
الختان وتأثير المحيط

رأينا في الفصل الأوّل أن ظاهرة البتر الفردي الشاذ تنتقل بعدوى المحيط. وهذا ينطبق على الختان كظاهرة جماعيّة ثقافيّة. فهناك العدوى العائليّة، والعدوى الاجتماعية، والعدوى المهنيّة، وعدوى الثقافة الغالبة. فمن طبع الإنسان أن يتأقلم مع محيطه ويتأثر به. وهناك مثل عامّي يقول: «اربط الحمار عند الحمار، يا بعلمه الشهيق أو النهيق».

1) الختان والتأثير العائلي

للعائلة دور هام في تشكيل طباع وأجسام أفرادها الذين يصعب عليهم الإفلات من سلطة الأب، وفي بعض الأحيان من سلطة الأم. وأحد الأسباب الهامّة التي من أجلها يمارس الختان في الولايات المتحدة هو التشابه بين الأب والابن. فقد بيّنت دراسة أجريت على أهالي 124 طفل ولدوا في مستشفى «دينفير»، أن 90% من الآباء المختونين قرّروا ختان أولادهم، وكان السبب الرئيسي هو الرغبة في أن يكون الابن مثل الأب. بينما 23% فقط من الأباء غير المختونين قرّروا ختان أولادهم.

وكثيراً ما تستعمل حجّة التشابه كغطاء لأسباب أكثر حساسيّة لا يريد المرء البوح بها. فالأب هو الذي يرى ابنه عارياً وليس العكس. والرغبة في تشابه الطفل مع أبيه هو في حقيقته حجّة من الأب لحماية نفسه وليس لصالح الابن. فإذا لم يختن الأب ابنه، فهذا إقرار من الأب بأنه يعتبر نفسه ضحيّة وأنه يعاني من مشاكل جنسيّة. ولأن الأم لا تعاني من عقدة الضحيّة هذه، فإنها أقل ميلاً من الأب إلى تأييد ختان الابن.

وتأثير عامل التشابه في ختان الإناث واضح من دراسة مصريّة رائدة أجريت على 500 طبيب وطبيبة من العاملين في وزارة الصحّة وكليات الطب في جامعات القاهرة وعين شمس والأزهر لمعرفة موقفهم من ختان الإناث. فقد بيّنت الدراسة تأثير الموقف العام للأسرة التي نشأ فيها الأطبّاء إذ يزيد الميل لمعارضة ختان الإناث بين أبناء الأسر التي لم تختن بناتها، بينما يزيد الميل لتأييده بين الأسر التي ختنت بناتها.

2) الختان والتأثير الاجتماعي

بعد أن استعرض المؤلف المغربي عبد الحق سرحان الأسباب النفسيّة والاجتماعية التي من أجلها يتم الختان، يرى أن سبب هذه العمليّة بسيط. وهو الرغبة أو الضرورة

للتصرّف مثل الآخرين: «هذا ما جرى عليه الأمر دائماً وعلى جميع الأطفال، فلماذا لا نجريه على أطفالنا؟»

وفي المجتمع الأمريكي يرى الأهل أن ترك الطفل غير مختون قد يجعله موضع سخرية من المختونين أو قد يترك عنده شعوراً بالشذوذ، خاصّة في مجتمع يتسامح نوعاً ما مع العرى ويسمح للأطفال والشباب أو حتى الرجال بالسباحة والاستحمام سوياً في حالة عرى بعد الرياضة وفي الخدمة العسكريّة.

والرغبة في التشابه تلعب دوراً كبيراً في تثبيت ختان الإناث. ففي المجتمعات التي تمارسه ينظر إلى البنت غير المختونة نظرة استهجان، وتُعيَّرها رفيقاتها، ممّا يدفعها إلى طلب الختان بذاتها. والمجتمع السوداني يضع غير المختونات ضمن ثلاث خانات: الأطفال والمجنونات والعاهرات وبناتهن. وتشير دراسة ميدانيّة أجريت في الصومال أن الفتيات اللاتي يتركن بلا ختان لمدّة طويلة يطالبن تكراراً بختانهن لأن عدم ختانهن يجعل منهن منبوذات في محيطهن ولا يمكنهن أن يجدن زوجاً إلاّ خارج مجتمعهن. وقد صرّحت إحدى الممرّضات غير المختونات بأنها تعيش مأساة وتفضّل ألف مرّة الموت على حالة النبذ التي تعيشها.

ولا تتوقّف الرغبة في التشابه على المظهر بل تمتد إلى الآثار. فعلماء النفس يؤكدون أن الشخص الذي أُنتهك صغيراً سوف ينتهك غيره، وكل شخص يقتل أو يجرح غيره إنّما يفعل ذلك مدفوعاً بعوامل داخليّة وقع تحت تأثيرها في صغره. وقد أخبرت امرأة سودانيّة الكاتبة «لايتفوت كلاين» بأن المرأة التي تشعر بالحرمان تصب غضبها عندما تكبر على الصغار لتحرم بناتها وبنات بناتها ممّا حرمت منه وتجعل من أزواجهن رجالاً تعساء انتقاماً لما عانته من زوجها.

3) الختان والتأثير المهني

اكتسب الختان في بعض المجتمعات صفة العادة ليس فقط في الأوساط العامّة، بل أيضاً في الأوساط الطبّية. فمهنة الطب كغيرها من المهن تهتم ببقائها في الوجود، فتأخذ مواقف تتفق والمجتمع وتتلوّن بثقافته وتدافع عن قيمه حتى لا تفقد مصداقيّتها. فالطبيب يقوم بإجراء الختان دون حاجة لمبرّر أو يختلق المبرّرات التي لا تصمد أمام النقد، من بينها القول بأن الطفل لا يتألم من الختان، وأن الغلفة والبظر عضو زائد لا فائدة فيه. وإذا ما نقصته الحجّة العقليّة، يلجأ إلى الاتهامات بمعاداة الأديان والساميّة والخيانة القوميّة كما سنرى لاحقاً.

ويشار إلى أن الطبيب الذي يجري الختان لأوّل مرّة يقوم بهذه العمليّة تحت إشراف طبيب مدرّب أكبر وأكثر خبرة منه. ولذا فهو يتخلى عن مسؤوليّة اتخاذ القرار ذاتيّاً وينفذ العمليّة طاعة لأوامر الطبيب المدرّب. ونادراً ما يرفض طبيب حديث التخرّج الرضوخ لمدرّبه. وبعد أن يقرّر الطبيب عمل العمليّة، يصعب عليه التراجع عن قراره لأن ذلك يعني أنه يستنكر ما قام به. فيوهم نفسه أنه لا يؤلم الطفل. ويشير طبيب أمريكي أن كثير من زملائه يتخوّفون من معارضة الختان لأن ذلك يعني حرمانهم من ممارسة الطب. فلن يجدوا طبيباً متمرّساً يساندهم. وبعض الأطبّاء يفقدون عملهم فعلاً لأنهم يرفضون ممارسة الختان.

وإن كان ما ذكرناه سابقاً عن العدوى المهنيّة ينطبق على كثير من الأطبّاء، إلاّ أن بعضهم كفوا عن اختراع تبريرات مفتعلة مفضّلين الاعتراف بغلطهم بعدما أن أوقعوا كثيراً من الضحايا الأبرياء. ومن هؤلاء طبيب الأطفال الشهير «بنجامين سبوك» الذي صرّح في مقال صدر عام 1989 تحت عنوان «الختان ليس ضروريّاً»: «لو أن الحظ أسعفني ورزقت ابناً آخر، فإني سوف أفضل ترك قضيبه الصغير سليماً».

4) الختان وتأثير الثقافة الغالبة

عامة يقوم الناس بالتشبّه بمن له الغلبة. وهذا التشبّه قد يكون إرادياً من قِبَل المغلوب أو مفروضاً عليه من قِبَل الغالب. وهذه الظاهرة نجدها في كل من الختان ذي الطابع الديني وغير الديني. فقد فرض اليهود ختان الذكور على عبيدهم وعلى الشعوب التي سيطروا عليها. وقد بيّنا سابقاً أن المسلمين قد أخذوا عن اليهود عادة ختان الذكور.

وقد لعب انتشار الإسلام دوراً مماثلاً لدور اليهوديّة في ممارسة الختان. وهناك معلومات تفيد بأنه يتم خطف الأولاد والبنات من قبيلة الدنكا السودانيّة ويباعون كعبيد للعرب الذين يفرضون الختان عليهم ضمن محاولة إجبارهم على التحوّل إلى الإسلام. ويذكر تقرير للأمم المتحدة لعام 1992 أن مسلمين ومجاهدين، بعضهم من أفغانستان والسعوديّة، قد أجروا بصورة روتينيّة عمليّات ختان وحشيّة ومشوّهة بلا مبرّر طبّي للجنود الصربيين من البوسنا. ويتحوّل إلى الإسلام كثير من أفراد الجاليات الأسيويّة الفقيرة العاملة في السعوديّة والتي يرتبط مصيرها الاقتصادي ببقائها في تلك الدولة. وتحوّلها للإسلام هو أسهل الطرق للبقاء هناك. والختان هو شرط من شروط هذا التحول.

وقد أدّى تواجد الجيش الأمريكي في كوريا الجنوبيّة إلى انتشار ختان الذكور هناك بنسبة 91%. وهناك معلومات تفيد أن القواعد العسكريّة الأمريكيّة في إيطاليا وألمانيا

تؤثر على انتشار ختان الذكور هناك. وتأثير الأمريكيّين يظهر أيضاً على الرياضيين الإيطاليين الذين يتمرّنون في الولايات المتحدة إذ يعود عدد منهم مختونين.

الفصل الثالث
الختان والدين

الدين هو أحد عوامل البتر الفردي الشاذ، ويلعب كذلك دوراً هامّاً في ممارسة الختان على المستوى الجماعي. فالأساطير الدينيّة هي المرجع الأساسي للختان. والختان يدخل ضمن التضحيات التي تفرض طاعة للآلهة. كما أن الدين يستعمل عامل مساعد لمبرّرات الختان.

1) الأساطير الدينيّة كمفسّر لنشأة الختان

تكشف الأساطير عن اعتقادات جماعيّة مضى عليها الزمن وتساعد في تفسير نشوء العادات البشريّة وقد تؤثر في بقائها.

يسيطر البتر على الفكر الأسطوري في حضارة الشرق الأوسط. ومن بين تلك الأساطير قصة الإله «أوزيريس» الذي قطعه «سيث»، فحاولت الإلهة «إيزيس» أن تجمع جسمه ولكنّها لم تجد قضيبه الذي ابتلعته ثلاث سمكات تمثل قوى الشر. وهذه الأسطورة قد تكون أساس ختان الذكور عند المصريّين القدامى. وللقبائل البدائيّة الإفريقيّة أساطير تتعلق بالختان لا تختلف في نظر أتباعها عن الأسطورة التوراتيّة التي تتكلم عن عهد قطعه الله مع إبراهيم بأن يكثر نسله ويعطيه أرض كنعان مقابل إجرائه عمليّة الختان. وهذه الأسطورة ما زالت مسيطرة على عقول اليهود والمسلمين ويروح ضحيّتها ملايين من الأطفال.

2) الختان أحد التضحيات للآلهة

رأينا كيف يقوم البعض ببتر أعضائهم اعتقاداً منهم بأن ذلك يهدئ غضب الآلهة ويؤهلهم لقبول النعم الإلهيّة. وهذه الاعتبارات تنتقل من الفرد إلى المجتمع وتأخذ شكل طقس ديني جماعي تسيطر عليه فكرة التقدمة والتضحية التكفيريّة التي قد تأخذ أشكالاً مختلفة. وكما يتفنّن الإنسان في إعداد طعام ضيوفه فقد تفنّن أيضاً في إعداد ما يرضي الآلهة. فقدّم لها الأطفال والحيوانات محارق. وقد أعتبِرت الأعضاء الجنسيّة واهبة الحياة الطعام المفضّل عند الآلهة. فبعض القبائل الإفريقيّة تضحي بالخصية اليسرى،

وبعضها بالخصية اليمنى، ولا يحق لرجل أن يقرب امرأة إلاّ إذا تمّت هذه العمليّة عليه.

ومن عادات المصريّين القدامى إلقاء دمية على شكل فتاة جميلة يزيّنوها كعذراء يوم عرسها ويلقونها في النهر. وكانوا يعتقدون أنهم إن لم يفعلوا ذلك فإن النهر قد يغضب عليهم ويكف عن الإنعام عليهم بفيضانه. وكان موسم وفاء النيل هو الوقت المناسب لختان البنات. فتقوم الدايات بختانهن في ذلك الوقت. وكانوا يحتفظون بتلك الأجزاء التي تقطع من الأعضاء الجنسيّة للفتاة ويربطونها بخيط حول عنقها. وفي يوم الاحتفال بعيد فيضان النيل، كانوا يلقون بتلك الأجزاء في مجرى النهر معتقدين أن الفتاة التي لا تفعل ذلك تبقى عانساً بغير زواج، أو أنها إذا تزوّجت فإنها لا تنجب أطفالاً على الإطلاق، أو حتى إذا أنجبت أطفالاً فإن أولئك الأطفال لا يعيشون أو يموتون صغاراً. وهذا الأمر ينطبق على الأولاد أيضاً.

ونجد عادة إرضاء الآلهة بتضحية بشريّة في رواية إبراهيم الذي عزم أن يقدّم ابنه محرقة لإلهه «يهوه» لولا أن ملاكاً منعه من إتمام مخططه (التكوين، فصل 22). وقد استمر اليهود في ممارسة المحارق البشريّة من بعده. ويظن أن الختان هو بديل للمحارق البشرية.

3) الدين عامل مساعد لمبرّرات الختان

قد يكون للتعاليم الدينيّة أثر مباشر في انتشار عادة ما. ومثالاً للتأثير المباشر النص التوراتي الذي ينقل لنا أمر «يهوه» لإبراهيم بختان نفسه ونسله من بعده، واعتقاد أكثر المسلمين بأن ختان الذكر من صميم تعاليم «الإسلام»، واعتقاد بعضهم أن ختان الإناث أيضاً ينتمي إلى تلك التعاليم. ولكن قد يكون هناك تأثير غير مباشر مبني على القاعدة التي تقول: «ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب». وهذه بعض الأمثلة على ذلك فيما يخص انتشار ختان الذكور والإناث بين المسلمين رغم أن القرآن لم ينص عليهما ورغم أن الأحاديث النبويّة المتعلقة بهما ضعيفة:

- يعتقد المسلمون بأن التعاليم الدينيّة تفرض على الفتاة أن تصل إلى الزواج عذراء. وحتى تتمكن من الحفاظ على عفتها، يعتقد بعضهم أنه لا بد من الحد من شهوتها من خلال ختانها. وعليه يصبح الختان ضرورة دينيّة.

- تفرض التعاليم الإسلاميّة دفع مهر لصحّة الزواج. وبما أن قيمة المهر مرتبطة ببكارة البنت، وبما أن البنت لا يمكنها، في اعتقاد بعضهم، الحفاظ على بكارتها دون

ختانها على الطريقة الفرعونيّة، لذلك رأى البعض في الختان الفرعوني جزء من تعاليم الدين الإسلامي.

- تسمح التعاليم الدينيّة الإسلاميّة للرجل بالزواج من أربع نساء في آن واحد. وبما أنه من غير الممكن أن يرضي جميع هؤلاء النساء، وفي نفس الوقت لا تسمح التعاليم الدينيّة لهؤلاء النساء بالبحث عن اللذّة خارج إطار العلاقة الزوجيّة، لذلك فإن الرجل يلجأ لختان الإناث اعتقاداً منه أنه بهذه الوسيلة يحد من شهوتهن.

- يعتقد بعض المسلمين بأن العادة السرّية مخالفة للتعاليم الدينيّة. وبما أن الختان في اعتقادهم يساهم في الحد من هذه العادة، لذلك يلجأون للختان كوسيلة للحد منها.

الفصل الرابع
الختان وكبح النزوات الجنسيّة والأعداد للزواج

رأينا كيف أن الجنس هو أحد أسباب بتر وتشويه الجسم على المستوى الفردي الشاذ. والجنس يلعب دوراً مهماً أيضاً في التصرّفات ذات الطابع الجماعي الثقافي ومن بينها ختان الذكور والإناث.

1) ختان الذكور وسيلة من وسائل الكبح الجنسي

بالإضافة إلى العقاب والصلاة والصوم والحجاب والحيطان، لجأ الإنسان إلى وسائل مباشرة للكبح الجنسي بالتعدّي على الأعضاء الجنسيّة ومنع وظيفتها. فقام عند الذكور بفرض حزام العفة أو شبك الغلفة أو بترها جزئيّاً أو كلياً أو بتر القضيب والخصيتين معاً أو منفصلتان. وقد رأينا في الجزء الطبّي كيف أن «فيلون» وابن ميمون وتوما الأكويني وابن العسّال وابن قيّم الجوزيّة قد اعتبروا ختان الذكور ببتر الغلفة وسيلة لكبح الجنس والحد من اللذّة. وقد تم اللجوء إلى هذه العمليّة لاحقاً لمكافحة العادة السرّية في الغرب. وقد أخذ الكتاب المسلمون في أيّامنا يردّدون هذه الحجّة متناسين أنها قد فقدت قيمتها عند أصحابها ذاتهم. ونعيد القارئ لما قلناه في الجزء الطبّي.

2) ختان الإناث وسيلة من وسائل الكبح الجنسي

قام الإنسان عند الإناث بتصرّفات مماثلة لما قام به عند الذكور ففرض حزام العفة، وشبك الفرج أو اخاطته، وبتر الغلفة والبظر والأشفار جزئيّاً أو كلياً، معاً أو على انفصال.

وقد كانت عمليّة شبك الفرج تتم سابقاً ليس بخياطته كما هو الأمر اليوم، ولكن بامرار حلقة من معدن في شفري الفتاة يتم لحامها بالنار عند الحداد. وأمّا النساء المتزوّجات، فقد كان يمر في شفريها حلقة مجهّزة بقفل يحتفظ زوجها بمفتاحه. ولقد لجأ لهذه العادة الفقراء ممّن لم يكن في إمكانهم اقتناء الخصيان للحفاظ على حريمهم. وهكذا يكون شبك الفرج في حقيقته حزام عفة على الطريقة البدائيّة للمعدمين، له نفس هدف حزام العفة: منع العلاقة الجنسيّة.

وشبك الفرج واسع الانتشار في بعض الدول الإفريقيّة، وخاصّة السودان والصومال وجيبوتي وإرتريا والحبشة وجنوب مصر بنسبة تزيد عن 90%. ويطلق عليه اسم «الختان الفرعوني» أو «الختان السوداني». وتقدّر نسبة مشبوكات الفرج بـ 15 إلى 20% من المختونات في العالم. والذين يمارسونه يرون فيه وسيلة لحماية بكارة بناتهم، ممّا يتيح لهم الحصول على مهر مرتفع عند زواجهن. وفي تلك المجتمعات تقوم المرأة برعاية الماشية بعيداً عن مكان سكناها. وهكذا يلعب شبك الفرج دور حزام العفة لمنع اغتصابها. والمرأة التي لم يشبك فرجها تعتبر عاهرة. والبكارة هناك لا تقاس بوجود غشاء البكارة، بل بضيق فتحة الفرج. ففي الصومال يتم دحرجة حبّة ذرة أو سمسم على خياطة الفرج. فإذا انزلقت دون توقّف، أعتُبِر الختان ناجحاً، وأمّا إذا توقّفت في الثقب، شُق الفرج وأعيد تضييق فتحته.

3) الختان كعمليّة تمييز بين الذكور والإناث

يعتقد المصريّون القدامى بأن آلهتهم مزدوجة الجنس، ذكوري وأنثوي. وعلى غرارها يحمل الرجل في طيّاته معالم أنوثيّة تتمثل في غلفته، والمرأة معالم ذكوريّة تتمثل في بظرها. وحتى تتم ذكورة الرجل وأنوثة المرأة يجب إجراء الختان لهما لبتر هذه المعالم الخارجة عن طبيعتها. ولم نجد أي صدى لهذه الاعتقادات في كتابات الفقهاء المسلمين القدامى. إلاّ أنها ما زالت منتشرة عند نساء مصر. ففي إحدى الأبحاث الميدانيّة أكدت 5% منهن أن هذه العمليّة تجرى للفتاة من أجل اكتمال أنوثتها وإزالة العضو القبيح. تقول ماري أسعد أن المرأة في مصر تعاير زميلتها التي لم تجر عليها هذه العمليّة وتشبّهها بالرجل، ممّا يجعلها غير صالحة للزواج. وتشير الدكتورة سهام عبد السلام إلى اعتقاد بأن الختان يجعل الفتاة أكثر أنوثة: «فيقول الناس أن الفتاة التي لا تمارس عليها هذه العمليّة تتحوّل إلى ذكر». ونجد هذه النظرية أيضاً عند القبائل الأفريقية.

هناك صدى لنظريّة ازدواج الجنس عند فرويد والكاتبة الفرنسيّة «اليزابيت بادانتير». إلاّ أن عالم الجنس، الدكتور جيرارد تسفانج، ينتقد هذه النظريّة التي برّرت بتر

الأعضاء الجنسيّة، ويرى فيها تعبيراً عن الغباء المطبق. فالإنسان يولد إمّا ذكراً أو أنثى كما هو الأمر عند كل الحيوانات اللبوءة، ولا يوجد إلاّ عدد قليل جدّاً من الشواذ في هذا المجال.

4) الختان كعمليّة تجميليّة جاذبة جنسيّاً

أ) الختان كتجميل للأعضاء التناسليّة الذكوريّة

يعتبر اليهود والمسلمين الغلفة نجسة يجب قطعها. وليس في مؤلفات اليهود والمسلمين القديمة أيّة إشارة إلى جمال القضيب المختون، ولكن إذا ما تكلمت مع اليهود والمسلمين، تسمعهم يقولون بأن القضيب المختون أجمل من القضيب غير المختون. وتعرض المجلاّت الخليعة عامّة صوراً لذكور مختونين. فحشفة المختون تكون ظاهرة حتى في حالة استرخاء القضيب، ويكون جلد القضيب مشدوداً عند الانتصاب بسبب قطع جزء منه. وهناك مجموعة ألمانيّة تدعو للختان لاعتقادها أن القضيب المختون أجمل من القضيب غير المختون.

ويرفض معارضو ختان الذكور الإدّعاء بأن الختان يعطي صبغة جماليّة للقضيب، معتمدين في ذلك على معايير النحّاتين والرسّامين في العصر اليوناني والروماني وعصر النهضة الأوروبيّة. فقد صوّر ونحت هؤلاء القضيب في حالة غير مختونة، حتى عندما يكون الشخص قد ختن. فرسموا الطفل يسوع في حضن أمّه غير مختون، رغم معرفتهم أنه كان مختوناً. وكذلك نحت «ميكيل انجلو» (توفى عام 1564) تمثال داود العاري غير مختوناً. فهؤلاء الفنّانون أرادوا التعبير عن جسم كامل وليس جسم مبتور. فقد كانوا ينظرون إلى الختان كعمليّة تشويه.

وإذا ما نظرنا إلى مخاطر عمليّة الختان التي تفرض في بعض الأحيان على الطبيب ترقيع جلد بدلاً من الجلد الذي يزال، أو تترك ندباً في الجلد، أو تشوّه الحشفة، فلا يمكننا اعتبار الختان عمليّة تجميل بل عمليّة تشويه لخلق الله.

ب) الختان كتجميل للأعضاء التناسليّة للإناث

اعتبر الرحّالة الإسكتلندي «جيمس بروس» في القرن الثامن عشر أن الختان يجري في إفريقيا لأسباب جماليّة. فهو يقول:

«أن البظر الذي سترته الطبيعة تماماً في مناخنا، يكبر ويطول في وسط إفريقيا بصورة لا تصدّق إلى درجة أنّه لا يوحي إلاّ بالاشمئزاز وقد يؤدّي إلى مساوئ أخرى تخالف مقاصد الطبيعة. وبما أن المشرّعين في كل زمان وبلاد قد أعطوا اهتماماً كبيراً للإنجاب، تم الحُكم

على ضرورة بتر جزء يضر بسبب تضخّمه المشوّه. ولذلك يخضع كل المصريّين والعرب وكل الأمم في وسط إفريقيا والأحباش [...] بناتهم للختان [...] قَبل أن يصلن إلى سن الزواج».

لم تثبت الأبحاث العياديّة التي أجريت في إثيوبيا في مراكز مراقبة الإنجاب هذه النظريّة. ولكن هذا لا يمنع وجود حالات تشويه خلقي استثنائية بالإضافة إلى تفاوت أحجام الأعضاء الجنسيّة من سيّدة إلى أخرى كما هو الأمر في أعضائها الأخرى، لا يتعدّى حجمها نطاقاً معيّناً. والجمال في حجم الفرج يبقى أمراً نسبياً. ولو اكتفى الكتاب المسلمون الحاليّون بتأييد ختان الإناث في حالات التشويه الخلقي الشاذّة، لما كان أحد يلومهم. والمشكلة تكمن في أنهم يؤيّدون إجراء الختان على جميع النساء دون استثناء، معتبرين ذلك صبغة جماليّة. ويرفض معارضو ختان الإناث اعتبار هذه العمليّة عمليّة تجميليّة.

5) الختان كإعداد وشرط للزواج

رأينا فيما سبق أن مؤيّدي الختان اعتبروه وسيلة للتمييز بين الذكور والإناث وعمليّة تجميليّة. وهم بذلك يعتبرونه إعداد للزواج وشرط من شروطه.

أ) ختان الذكور كإعداد وشرط للزواج

يقول المؤلف اليهودي «فيلون» إن المصريّين كانوا يختنون كل من الذكر والأنثى عندما يبلغون سن الرابعة عشر، أي عندما يبدأ «الخطيب» بالإمناء و «الخطيبة» بالعادة الشهريّة.

وقد ذكرنا سابقاً كيف أن اليهود يحرّمون زواج اليهوديّة من غير المختون. ونحن نجد صدى لهذا الفكر اليهودي عند بعض الفقهاء المسلمين. فهم يحرّمون زواج المسلمة من مسلم غير مختون، كما يحرّمون على المسلم غير المختون الزواج من الذمّية ويرفضون ولايته في تزويج نفسه أو في تزويج إحدى نسائه. وما زال بعض الكتاب المسلمون يعيدون علينا هذه القاعدة ويسمحون للمرأة المسلمة التي تتزوّج من مسلم غير مختون أن تطلب من القاضي طلاقها منه.

ويذكر عبد الوهاب بوحديبة: «تقبّلت تونس في السنوات الأخيرة احتمال زواج المسلمة بغير المسلم، والغريب أن ما استهجنه البعض انحصر في كيفيّة مضاجعة رجل غير مختن لامرأة مسلمة».

ب) ختان الإناث كإعداد وشرط للزواج

أفادت دراسة أجريت على قرية دير البرشا ذات الأغلبيّة المسيحيّة التي تخلت عن ختان الإناث أن أكثريّة الناس كانوا يرفضون مساعدة الغير في عدم ختان بناتهم وكان سبب رفضهم هذا ما يلي: «كل واحد يحكم على بيته. لنفرض أنني نصحت أم بعدم ختان بنتها ثم لم تتزوّج فماذا سيكون موقفي؟» وهناك من يعيد عليك قصّة الفتاة التي أعادها زوجها إلى أهلها بعد الزواج لأنها لم تكن مختتنة.

وفي السودان، تلقّن الفتاة منذ صغرها عبارات تفيد بأن لا أحد سيقبل الزواج منها إن لم تختن. وتلبس استعداداً لختانها أجمل ثيابها وحليّها وتحنّي كفيها وقدميها وتتعطر، ويطلق عليها في بعض الأحيان لقب «العروسة». وتشير المؤلفة «لايتفوت كلاين» بأن أحد زعماء القرى السودانيّة قد طالب الناس هناك بإجراء «ختان السُنّة» بدلاً من «الختان الفرعوني». ولكنّهم رفضوا ذلك لأن الرجال لا يقبلون الزواج بامرأة غير مغلقة الفرج.

وتقول الصوماليّة «واريس ديري»: «إن المرأة غير المختونة تعتبر غير طاهرة، يسيطر عليها الجنس ولا يمكن تزويجها. في ثقافة بدويّة كالتي تربّيت فيها لا مكان للعزباء. وتظن الأمّهات أن من واجبهن عمل كل ما يمكنهن حتى يكون لبناتهن أكبر حظ تماماً كما تفعل العائلات الغربيّة التي تصر على إرسال فتياتهن إلى أفضل المدارس».

الفصل الخامس
الختان والنظام القَبلي والطائفي

بعد الانتهاء من عرض علاقة الختان بالجنس والزواج ننتقل إلى دائرة أوسع وهي علاقة الختان بالنظام القَبلي الطائفي، وهما نظامان متحدان في التاريخ إذ إن القبيلة عامّة تجتمع حول دين واحد وعادات واحدة، تربط بين أفرادها عصبيّة واحدة. والختان يساعد في تقوية هذه العصبيّة بشكل أو آخر. فقد يكون علامة انتماء وتمييز وتعارف، وعلامة عهد وتضامن، ومرحلة تدريب وامتحان، وأخيراً وسيلة لدفع العنف وحماية المجتمع.

1) الختان كعلامة انتماء وتمييز وتعارف

تلجأ الدول اليوم إلى البطاقة الشخصيّة وجواز السفر للتعرّف على مواطنيها. أمّا القبائل، فكانت تلجأ في الماضي إلى وضع علامة جسديّة مميّزة، وما زالت تلك العلامة تستعمل في التعرّف على ملكيّة الحيوانات.

وأوّل مرّة تذكر فيها التوراة الختان تعتبره علامة «عهد» بين الله وإبراهيم ونسله. ولحاملي هذه العلامة حقوق حدّدتها التوراة ما زلنا نعاني منها حتى يومنا، أي الحق في اغتصاب أرض فلسطين: «سأجعل عهدي بيني وبينك [...]. وأعطيك الأرض التي أنت نازل فيها، لك ولنسلك من بعدك، كل أرض كنعان، ملكاً مؤبّداً [...]. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يختتن كل ذكر منكم [...]. وأي أغلف من الذكور لم يختن في لحم غلفته، تفصل تلك النفس من ذويها، لأنه نقد عهدي» (التكوين 17: 2، 8، 10، 14).

ورغم أن كثيراً من اليهود لا يؤمنون بالتوراة ككتاب منزل، فإنهم يستمرّون في إجراء الختان، ليس لوازع ديني، بل لخوفهم من عدم الانتماء للجماعة اليهوديّة. فيعتبر الختان جزءاً من الهويّة اليهوديّة. ويعتبر تحدّي الختان تحدّياً لبقاء اليهود ذاته.

ونجد هذا الأمر أيضاً في المجتمعات الإفريقيّة التي تمارس ختان الذكور والإناث. فتعتبر تلك المجتمعات غير المختون غريباً وغير مقبولاً.

2) الختان كعلامة عهد وتضامن

ذكرنا أن التوراة اعتبرت الختان علامة «عهد». ويسمّيه اليهود بالعبريّة: «بريت ميلا»، أي «عهد القطع». والعرب تقول: «قطعت عهداً»، بمعنى «عاهدت»، وقد تكون هذه العبارة مأخوذة من اليهود. فالختان إذاً تعهّد يؤخذ على الأعضاء التناسليّة من خلال قطعها. ويشير موسى ابن ميمون إلى طبيعة الختان كعهد وتضامن، ليس بين الله واليهود فقط، بل بين اليهود فيما بينهم. يقول:

«وفي الختان أيضاً عندي معنى آخر وكيد جدّاً وهو أن يكون أهل هذا الرأي كلهم، أعني معتقدي توحيد الله، لهم علامة واحدة جسمانيّة تجمعهم، فلا يقدر من ليس هو منهم يدّعي أنه منهم، وهو أجنبي، لأنه قد يفعل ذلك كي ينال فائدة، أو يغتال أهل هذا الدين. وهذا الفعل لا يفعله الإنسان بنفسه، أو بولده إلاّ عن اعتقاد صحيح. لأن ما ذلك شرطة ساق أو كيّة في ذراع، بل أمر كان مستصعباً جدّاً جدّاً. معلوم أيضاً قدر التحابب والتعاون الحاصل بين أقوام كلهم بعلامة واحدة وهي بصورة العهد والميثاق. وكذلك هذه الختانة هي العهد الذي عهد إبراهيم أبونا على اعتقاد توحيد الله. وكذلك كل من يُختن إنّما يدخل في عهد إبراهيم والتزام

عهده لاعتقاد التوحيد: لأكون لك إلهاً ولنسلك من بعدك (سفر التكوين 7:17). وهذا أيضاً معنى وكيد مثل الأوّل في تعليل الختان، ولعله أوكد من الأوّل [أي تقليل النكاح]».

ويذكر «موريس بلوخ» أن قبائل «ميرنيا» في «مدغشقر» تعتبر الختان طقس بركة يتم من خلاله نقل قوّة الأجداد للأطفال. وفي هذا الطقس المعقّد جدّاً والمليء بالرموز يجتمع كثير من الأقارب تعبيراً عن وحدتهم فيعدّون ملابسهم ويطبخون ويأكلون سويّة. ويتم طقس الختان في الركن الشرقي الشمالي للبيت الذي يعتبر مكاناً مقدّساً عندهم مثله مثل قبر الأجداد، توضع فيه نباتات متعدّدة ترمز إلى القوّة والاتحاد من بينها القرع الذي يطلق عليه اسم «ألف رجل». وهذه العبارة اختصار لمثل يقول: «ألف رجل لا يموتون في يوم واحد». والاتحاد يعني هنا التواصل بين الأجداد وفروعهم. ويقوم رجلان وامرأة قَبل عمليّة الختان برفع صلوات لله وللأجداد طالبة منهم الحضور لإعطاء بركتهم للجميع وخاصّة للمختون. ثم يقوم الداعون بمباركة الطفل والحضور برش الماء. ويقوم رجل مسن ببلع غلفة الطفل بين شريحتي موز. وقد اغتنم ملك مدغشقر في نهاية القرن الثامن عشر معنى التضامن الذي يحيط بالختان في ذلك البلد. فوضع قوانين تفرض الختان على جميع الأطفال كل سبع سنين في زمن محدّد، ويشارك الملك في طقس الختان. وقد خلق هذا الطقس رباطاً بين الدولة والناس الذين كان عليهم أن يدفعوا ضريبة للملك عن كل ختان. فتحوّل الختان هكذا من نظام يربط بين أفراد القبيلة إلى نظام يربط الناس بالسلطة الحاكمة المركزيّة. وكان الختان شرطاً للقبول في الجيش أو وظيفة حكوميّة. وبتأميمه الختان أوجد الملك لنفسه شرعيّة قوميّة في أعين الناس. وقد وضع الاستعمار الفرنسي حداً لطقس الختان الملكي بهدف كسر الرابطة بين الشعب وبين سلطاته الوطنيّة، ولكن طقس الختان ذاته على المستوى القَبلي ما زال مستمرّا في أيّامنا في مناطق الأرياف رغم معارضة رجال الدين المسيحيّين.

3) الختان كمرحلة تدريب وامتحان

يمر الإنسان في المجتمع «الحضري» بمراحل مختلفة: مرحلة الطفولة، ثم مرحلة التعليم في المدارس والجامعات والمراكز المهنيّة. وإذا انتمى إلى هيئة مثل نقابة الأطبّاء أو المحامين، فإنه يمر بمرحلة تدريب وامتحان قَبل قبوله فيها. ونجد نظاماً مشابها في المجتمع «البدائي» الإفريقي حيث يمر الذكور والإناث في أطوار مختلفة من الطفولة إلى الصبا، ثم إلى البلوغ. وللوصول إلى هذا الأخير يجب الخضوع إلى طقس يطلق عليه «طقس التدريب» يتضمّن عند بعض القبائل ممارسة الختان الذي تصاحبه شعائر دينيّة.

أ) طقس تدريب وختان الذكور

تمارس بعض القبائل هذا الطقس كل سنتين أو أربع سنوات، أو عندما يتوفر عدد كاف من الذكور للمشاركة فيه، أو عندما يكون الموسم جيّداً. وكان هذا الطقس يجرى سابقاً في سن الزواج. ومع تطوّر العادات، يحدث أن يتم ختان شاب وأبيه في نفس الوقت. ويحدّد الوقت ساحر القبيلة، الذي يلعب دور رجل الدين. وفي بداية الطقس يتم ذبح ثور أو ديك أو دجاجة تكريماً للآلهة. وخلال طقس التدريب يتم عزل المتدرّبين مدّة تتراوح بين أسبوع وعدّة أشهر، يتعلمون خلالها أسرار الحياة والطقوس والعادات ومعاني الأقنعة التي تلبسها القبيلة في المراسيم الدينيّة. كما يقومون بإجراءات تطهيريّة مثل حلق شعر الرأس. ويخضعون لعدّة امتحانات جسديّة جماعيّة تتضمّن الصبر على النار وقرص النمل والجلد وشرب البول وأكل البراز.

وفي يوم الختان، يقوم المتدرّبون بغسل ذكورهم في مياه النهر حسب الطقس الديني. وفي قبيلة «ناندي»، عليهم أن يعترفوا بكل علاقاتهم الجنسيّة مع امرأة مختونة. ثم يدهن رجل عجوز شعر الشباب بخليط من الحليب والصلصال لإبعاد الأرواح الشرّيرة عنهم التي قد تهاجمهم مغتنمة ضعفهم بعد العمليّة.

وبعد انتهاء طقس التدريب، يتم إدماج المختونين في الحياة الاجتماعية. وفي قبائل مختلفة، تنظم بعد الختان عروض يحمل فيها المختونون أقنعة ذات رمز جنسي مثل قضيب كبير يرقصون به. وتشجّع القبائل الشباب في التعبير عن ميولهم الجنسيّة وتعطيهم حرّية جنسيّة واسعة. وتعتبر النساء العلاقة الجنسيّة مع مختون جديد علاقة مقدّسة.

ب) طقس تدريب وختان الإناث

تنظم قبائل «ناندي» هذا الطقس كل أربع سنوات ونصف إذا ما تم جمع عدد كاف من الفتيات التي تناهز أعمارهن 12 سنة. وتنظم قبائل «مالينكي» هذا الطقس كل سنتين ويتم على فتيات يتراوح أعمارهن بين 13 و 15 السنة. وتلعب العرّابة في قبائل «كيكويو» دوراً كبيراً في إعداد الفتاة لطقس التدريب. فهي التي تراقب بكارتها وتحرص على أن تجرى العمليّة قَبل 20 يوماً على الأقل من حيضها. ويجب على الفتاة الاعتراف بخطاياها عندها. وإذا اقترفت خطايا، فيجب أن تبحث العرّابة لها عمّن يطهّرها.

ويتم طقس التدريب في مكان يحدّده الساحر. ويصاحب هذا الطقس احتفالات وغناء، وتتسابق الفتيات فيه للبحث عن الشجرة المقدّسة. وأوّل فتاة تجد هذه الشجرة تتلقّى أكثر طلبات زواج.

وعشيّة إجراء الختان تشعل قبيلة «ناندي» النار المقدّسة قرب شجرة زرعت خصّيصاً لهذه المناسبة. وتقوم الخاتنة بجني نوع من نبات يشبه القرّاص تفرك به بظر البنت حتى ينتفخ. وفي اليوم التالي، يوضع على النار خشب الشجرة المقدّسة. ثم تأخذ الخاتنة بمعلقة قبساً من النار وتضعها على بظر البنت بينما ترفع النساء أصواتهن بالغناء لتغطية صراخ البنت. ففي هذه القبيلة يتم الختان بواسطة الكي.

هذا وترفض الحركات النسائيّة إطلاق تعبير طقس التدريب على ختان الإناث كما يفعله مختصّو علم الأعراق أو الصحفيّون لأن مثل تلك التسمية تمويه لعمليّة تعذيب ليس إلاّ، ووسيلة للسكوت عنها وعدم فضحها.

ولن نطيل على القارئ في عرض طقوس التدريب في القبائل البدائيّة التي يتم خلالها ختان الذكور والإناث. وكل ما نود أن يعيه هو أن تلك الطقوس لها معنى ديني لا يقل عن المعنى الديني الذي يسبغه اليهود أو المسلمين على الختان عندهم. وإن كان لليهود والمسلمين حق في إدّعاء أن ختان الذكور جزء هام من معتقدهم الديني، فالقبائل الإفريقيّة لها حق مماثل في الإدّعاء بأن ختانها هو أيضاً جزء من معتقداتها ونظامها. ونحن نرى أن الطقس الديني، مهما كانت طبيعته، لا يبرّر التعدّي على حق الأفراد في سلامة جسدهم.

4) الختان كوسيلة لدفع العنف وحماية المجتمع

فسّر علماء النفس عمليّات البتر الشاذّة كبديل للانتحار، ولاحظوا أن الشخص الشاذ يشعر بالراحة بعد بتر نفسه. ولكن قد يكون الثمن باهظاً. فهناك من يقلع عينه أو يشوّه جسمه بصورة خطيرة. وقد مد عالم النفس «فافدتزا» هذا التصرّف الفردي الشاذ إلى تصرّفات الجماعات البشريّة، معتبراً أن عمليّات البتر الجماعيّة قد يكون المقصود منها المصلحة العامّة وخلاص الجماعة في هذه الحياة وفي الآخرة. ويقع اختيار الضحيّة على أفراد خارج الجماعة أو غير مقبولين كلياً ضمنها مثل سجناء الحرب، والعبيد، والأطفال الصغار، والمعوّقين. ونجد صدى لهذه النظريّة في قول «قيافا» عظيم الكهنة تبريراً للحُكم على المسيح: «أنه خير أن يموت رجل واحد عن الشعب» (يوحنّا 14:18). ونقرأ في رسالة بطرس الأولى: «تألم المسيح أيضاً من أجلكم [...].

هو الذي حمل خطايانا في جسده على الخشبة [...]. وهو الذي بجراحه شفينا» (1 بطرس 21:2، 24). والختان يُعتبر عند اليهود وسيلة للخلاص الجماعي.

5) من سيطرة القبيلة إلى سيطرة الأطبّاء والجيش

في المجتمعات التي فقدت العصبيّة القبليّة، تحوّلت السلطة إلى يد الأطبّاء في مجال الختان. فالأطبّاء يستعملون نفوذهم في المجتمع الغربي لإجرائه وخاصّة في المستشفيات التي تتبع الجيش. هذه هي النتيجة التي يمكن أن يتوصّل لها المتتبّع لظاهرة ختان الذكور والإناث في الولايات المتحدة.

ففي هذه البلد تزامن تزايد ختان الذكور والإناث مع تزايد عدد الأطبّاء وإجراء الولادة في المستشفيات. ففي بداية القرن العشرين، كان أقل من 5% من الأمريكيات يلدن في المستشفى. وفي العشرينات، ارتفعت هذه النسبة إلى ما بين 30% إلى 50% في المدن الأمريكيّة الكبرى. وفي الثلاثينات، أصبحت النسبة تتراوح ما بين 60% إلى 70% في المدن المختلفة. وفي نفس البرهة الزمنيّة، بدأ ارتفاع عدد الختان حتى تعدّت نسبته 50% من أطفال أمريكا. فإذا ولد طفل في البيت، يكون على الأهل إذا أرادوا ختانه أن يتوجّهوا أوّلاً للطبيب ممّا يتيح لهم فرصة للتفكير في ذلك مليّاً. أمّا إذا ولد الطفل في المستشفى، فالطبيب حاضر هناك وله السلطة العليا في المستشفى. وسيطرة الطبيب لم يقع ضحيّتها فقط الطفل الذي يختن، بل أيضاً الأم. فقد تزايدت حالات الولادة بالعمليّة القيصريّة، كما تزايدت حالات شق العجّان.

ويشار إلى أن الأطبّاء الذين يعملون في إطار الجيش الأمريكي ومستشفياته قد ساهموا كثيراً في انتشار ختان الذكور لاعتقادهم أن الختان يحافظ على صحّة الجنود ويبقيهم في حالة استعداد للقتال. ولذلك كانوا يفرضون الختان على الجنود تحت طائلة محاكمتهم عسكرياً. هذا وما زالت العائلات الأمريكيّة تقدّم سبباً لختان أطفالها بأن الالتحاق بالجيش يتطلب مثل تلك العمليّة رغم أنه لا يوجد أي قانون في هذا الخصوص. وتعطي «رومبيرج» عدّة شهادات من جنود أمريكيّين تم ختانهم قصراً من قِبَل هؤلاء الأطبّاء حال التحاقهم بوحداتهم، دون أن يتمكنوا من معارضة أوامرهم. وقد علق أحد الأطبّاء على تصرّف الجيش الأمريكي هذا بأن فرض الختان قد يكون سببه إعطاء فرصة للجرّاحين الشباب للتمرّن على العمليّات الجراحيّة. وهناك من يفسّر الختان في الجيش الأمريكي بأنه وسيلة لتدريب الجندي على العنف نحو الآخرين. فببتر جسمه وإيلامه يصبح أكثر عدوانيّة وأكثر استعداداً لكي يقتل ويجرح الآخرين دون أن يشعر بألمهم.

الفصل السادس
الختان وغريزة التسلط

إن كانت المواثيق الدوليّة تنادي بالمساواة وتشدّد عليها، فما ذلك إلاّ لأن غريزة التسلط هي من الغرائز المتجذّرة في أعماق الإنسان. ولا يمكن لهذه المواثيق حذف هذه الغريزة بل تحاول تهذيبها حتى لا تسود شرعة الغاب. وقد رأي علماء النفس أن الختان يدخل ضمن مفهوم غريزة التسلط التي تتبلور في عقدة أوديب وعقدة الخصي. وبعضهم ربط الختان بالحيلة وبالسادية.

1) الختان وعقدة أوديب وعقدة الخصي

حاول علماء النفس تفسير ظاهرة الختان بدراسة أساطير القبائل البدائيّة وتصرّفاتها، ومعاينة المرضى العقليين. فهم يعتقدون أن عوامل لاشعوريّة مختزنة في أعماق البشريّة تتحكم في الناس، من بينها ما أطلقوا عليه «عقدة أوديب» التي استلهموها من رواية «الملك أوديب» للروائي اليوناني «سوفكل» (توفى عام 406 ق.م) والتي تفيد بأن «أوديب» قام بقتل أبيه الملك وتزوّج من امرأته. وفي هذه الرواية عبارة تقول: «انك، دون أن تشعر، مرتبط بعقدة قذرة بمن تحبّه ولا تشك في مدى تعاستك».

و «عقدة أوديب»، حسب «فرويد» (توفى عام 1939) وتلامذته، هي مجموعة من الرغبات الغريزية الجنسيّة والعدائيّة لدى الطفل تجاه أهله. فالطفل يميل، لاشعوريّاً، كما في رواية «أوديب»، إلى قتل منافسه من نفس الجنس للاستيلاء على الجنس المخالف. وهذه العقدة تستحوذ على الطفل الذكر ما بين عمر 3 إلى 5 سنين حيث يتمسّك الطفل بشدّة بأمّه ويغار عليها ويطالبها بكل محبّتها باغضاً أبيه المنافس له عليها. وفي هذا العمر، ينمّي الطفل اهتماماً خاصاً بقضيبه الذي يمسّه باستمرار بحثاً عن اللذّة، دون أي حرج خارجي، أمام أمّه، وكأنه يريد أن يغريها جنسيّاً. إلاّ أنه يجبر على التحفظ في تصرّفاته أمام تهديد أبيه بقطع قضيبه. ويقوّي هذا الخوف في مخيّلته أن أمّه لا قضيب لها. فينمو عند الطفل شعور بالخوف من الخصي والخوف من الأب منافسه الذي يبغضه ويرغب موته لأنه قد يخصيه. ويقود هذا الشعور الطفل إلى التخلي عن علاقته الاستبدادية بأمّه. وتدريجيّاً يتقبّل الابن سلطة الأب والمحرّمات التي يفرضها عليه، ويتخلى عن أمّه، وينجّي قضيبه من القطع.

بداية من هذا المنطلق، يحاول «فرويد» توضيح المراحل التاريخيّة التي مرّت بها ظاهرة بتر الأعضاء الجنسيّة لتصل إلى الختان. فهو يرى أن في القديم كان الشخص القوي يقتل أو يخصي منافسيه. وأمّا اليوم فنكتفي بالتهديد بخصي الطفل. والختان يقع

بين المرحلتين. فبقطع غلفة الطفل نهدّده بأنه إن لم يكف عن منافسته، فإنه سوف يتم قطع قضيبه كاملاً. وهذا ما أطلق عليه «عقدة الخصي».

وإذا تركنا نظريّة «فرويد» جانباً، وجدنا أن ختان الذكور قد يعني وسيلة لفصل الابن عن أمّه. فالرجل قد يحرم من ممارسة الجنس بعد الولادة لمدة قد تصل في بعض الأحيان إلى سنتين وهي مدّة الرضاعة. وهذا يؤدّي إلى انفصال في المنام بين الرجل والمرأة وتعلق الطفل بأمّه. فيقوم الأب بختان ابنه لفصله عن أمّه وفرض سلطته. وإن كان ختان الذكور علامة سيطرة مباشرة على الذكور، فهو أيضاً علامة سيطرة غير مباشرة على الإناث. فالأب الذي يختن ابنه يبعث بذلك رسالة للأم بأن باستطاعته فصله عنها وبتره دون إذنها.

ويشار هنا إلى أن مؤامرة الصمت إحدى وسائل إحكام السيطرة. فمن المعروف أن الحركات السياسيّة والإرهابيّة تعتمد على السرّية لتنفيذ خططها. وكذلك يفعل المغتصب مع ضحيّته عندما يكمّم فمها أو يتهدّدها بالقتل إن باحت بعلاقته معها. هذه المؤامرة نجدها في ختان الذكور. فالرجال الذين يعانون من متاعب جرّاء الختان يلاقون صعوبة في التكلم عنها، كما يرفضون الدخول في جدل حول الختان بينما يستمرّون في ختان أطفالهم. وهؤلاء بدورهم يأخذون موقفاً مشابهاً مع أطفالهم عندما يكبرون. نحن إذاً أمام مؤامرة الصمت: نرفض السؤال عن الختان كما نرفض الرد على أسئلة عنه. ويشارك في مؤامرة الصمت كثير من النساء. فأكثر الحركات النسائيّة التي تكافح ضد ختان الإناث ترفض أخذ موقف ضد ختان الذكور.

2) الختان بين المحبّة والعنف والساديّة

هناك ظاهرة مرضيّة تسمّى «المازوشية» نسبة إلى «ليبولد ساشر مازوش» (توفى عام 1895) الذي كان يتلذّذ بإيلام نفسه وبتر أعضائه. كما هناك ظاهرة معاكسة يُطلق عليها «الساديّة» نسبة إلى المركيز «دي ساد» (توفى عام 1814) الذي قضى 16 سنة في السجن و 11 سنة في مستشفى للأمراض العقليّة. والمصاب بهذا الداء يتلذّذ بإيلام غيره.

وإن كنّا موضوعيين، فعلينا اعتبار ختان الذكور والإناث نوعاً من الساديّة والانتهاك الجنسي للأطفال. فهو يتم تحت ستار الدين والطب على أطفال دون سبب طبّي، وعامّة دون إجراء تخدير. ويزعم الخاتن بأن الطفل لا يتألم وأنه لا يسمع صوته، وهذا من ميّزات الساديّة. ويشار هنا إلى أن الخاتن اليهودي يقوم بمص قضيب الطفل بعد قطعه. وظاهرة مص دم الضحيّة معروفة عند علماء النفس. ولا يتورّع بعض الأطبّاء

من التفوه بالتعليقات المنافية للآداب وهم يقومون بالختان أمام الممرّضات. ويتم الختان عامّة في حضور جماعة يظهرون الفرح من حول الطفل الذي يصيح ويحاول الإفلات من الألم. وهكذا يكون الختان ظاهرة ساديّة جماعيّة، يتلذّذ الحضور فيها بألم الغير.

وبطبيعة الحال يثير وصف الختان بأنه ابتذال جنسي تحفظاً كبيراً. فتنصح «رومبيرج» عدم اللجوء إليه لأنه قد يغضب البعض ويبعدهم عن قضيّة إلغاء الختان. وتذكرنا المؤلفة بقول المسيح: «لا تدينوا لئلاّ تدانوا» (متى 7:1-2). وهذا يعني بأنه علينا القبول بختان آلاف الأطفال من قِبل أناس يتمسّحون بالدين!!

3) الختان والحيلة والصوريّة

تحكي لنا التوراة أن أولاد يعقوب طلبوا من مغتصب أختهم دينة أن يختتن هو وذكور مدينته كشرط لزواجها منه. وبعد الختان، لم يكن باستطاعة رجال المدينة المدافعة عن أنفسهم بسبب الألم. فدخل أولاد يعقوب عليهم وأخذوا أختهم وقتلوا كل ذكر بحد السيف وسلبوا كل ثروتهم وسبوا جميع أطفالهم ونسائهم (التكوين 24:1-29). وذكرت جريدة «الخبر» الجزائريّة بتاريخ 23 أغسطس 1999 أن إسلاميين حضروا حفل ختان طفل في بلديّة «وزرة» وهم متنكرين. وبعد انتهاء تناول العشاء، شرعوا في قتل المدعوّين بالسلاحين الناري والأبيض فراح ضحيّة هذا الاعتداء 17 شخصاً من بينهم الطفل المختون ووالده.

ويرى كاتب روماني من القرن الرابع الميلادي أن موسى قد ختن غلطاً من طبيب. وحتى لا يحس بالنقص أمام اليهود، فرض عليهم الختان كأمر إلهي. ويذكر المؤرّخون أن ابن سعود قد لجأ إلى حيلة ختان الجنود الإنكليز الذين قاتلوا معه لتهدئة البدو، مستعيناً بفتاوى رجال الدين ومدّعياً أنه استولى عليهم كغنائم من الشريف حسين الذي كانوا يقاتلون معه.

وتلجأ الشابّات السودانيّات اللاتي مارسن الجنس قَبل الزواج لخاتنة تجري لهن الختان الفرعوني مقابل مبلغ لحفظ السر. كما تلجأ للحيلة العائلات السودانيّة التي لا ترغب في إجراء الختان الفرعوني دون أن يفتضح أمرها عند الناس. فتنظم احتفالاً وتدعو إليه الأقارب ويتم سرّاً الاتفاق مع الخاتنة بأن تجري على الفتاة عمليّة ختان بسيطة دون أن تبوح بذلك للمدعوّين. وقد يتم أيضاً ترك الفتاة غير مختونة مع الإعلان عن ختانها. وبطبيعة الحال، يكشف الأمر بعد الزواج، ممّا يخلق مشاكل عائليّة، إلاّ إذا كان الزوج من الطبقة المثقّفة الذي قد يعتبر ذلك مفاجأة سعيدة.

وفي الجيش الأمريكي يقوم بعض الجنود بطلب إجراء الختان عليهم، فيبقون في المستشفى العسكري بعض الأسابيع على حساب الجيش في حالة نقاهة بدلاً من الذهاب إلى ساحة المعركة. وقد أخبرني صديق بأن الجنود المسيحيّين في سوريا يتذرّعون بإجراء عمليّة الختان ليحصلوا على إجازة أسبوعين تهرباً من الجيش.

وقد يكون الختان وسيلة لتفادي الاضطهاد. ففي سفر أستير نقرأ أنه بعد تتويج أستير ملكة في فارس تحوّل عدد كبير من الناس إلى اليهوديّة خوفاً من سطوة اليهود (أستير 17:8) الذين انتقموا من أعدائهم بحد السيف (أستير 5:9). ويذكر المؤرّخ اليهودي «يوسيفوس» هذا الحدث قائلاً إن كثيراً من الشعوب ختنوا أنفسهم خوفاً من اليهود وهكذا استطاعوا النجاة. ويعتقد البعض أن اليهود أجروا الختان لغير اليهود في الولايات المتحدة وقاموا بالدعاية له حتى لا يكونوا المختونين الوحيدين هناك. وهكذا يصعب التعرّف عليهم في حالة عودة الاضطهاد ضدّهم كما حدث في الحرب العالميّة الثانية. ولنا عودة لهذه النقطة عندما سنتكلم عن الختان والسياسة.

الفصل السابع
الختان والعوامل الاقتصادية

1) الجذور الاقتصادية لنشوء وتطوّر الختان

يرى اليهودي المؤمن في الختان أمراً إلهياً موجّهاً إلى إبراهيم ونسله (التكوين 10:17). وتوارث المسلمون هذا الرأي عن اليهود، وبعضهم زاد عليه بأن الختان كان سُنّة لآدم وأولاده من بعده. ولعّل أولاده تركوه، فعاد الله وأمر إبراهيم بإحيائه. وللمؤمن أن يعتقد ما يشاء في العِلة الأولى للختان. أمّا علماء الاجتماع والمفكرون فإنهم يرجعون نشوء الختان وتطوّره إلى أوضاع اقتصادية.

تقول الدكتورة نوال السعداوي:

«إذا عرفنا من التاريخ أن الأب لم يكن حريصاً على معرفة أطفاله إلاّ من أجل أن يورثهم أرضه فإننا ندرك أن السبب الرئيسي لنشوء الأسر الأبويّة كان سبباً اقتصاديّاً. ومن أجل أن يحمي المجتمع مصالحه الاقتصادية فإنه يدعمها بالقيم الأخلاقيّة والدينيّة والقانونيّة. وعلى هذا فإن دراسة التاريخ توضّح لنا أن حزام العفة الحديدي وعمليّة الختان ومثيلاتها من العمليّات الوحشيّة ضد رغبة المرأة الجنسيّة لم تنشأ إلاّ لأسباب اقتصادية. بل إن استمرار مثل هذه العمليّات في مجتمعنا حتى اليوم إنّما هو أيضاً لأسباب اقتصادية. إن آلاف الدايات والحكيمات والأطبّاء الذين يثرون على حساب عمليّة ختان البنات لا يمكن إلاّ أن يقاوموا أيّة محاولة للقضاء على مثل هذه العادات الضارّة. وفي المجتمع السوداني جيش هائل من الدايات

يعشن على هذه العمليّات المتكرّرة من فتح أعضاء المرأة وإغلاقها في مناسبات متعدّدة ما بين زواج وولادة وطلاق وزواج مرّة أخرى».

وتربط نظريّة حديثة نشوء كل من ختان الذكور والإناث بعنصر جغرافي واقتصادي. تقول هذه النظريّة بأنه قَبل 6000 سنة حدثت تقلبات مناخيّة قاسيّة في المناطق التي يطلق عليها اسم «صحرآسيا» الممتدة من شمال إفريقيا إلى أواسط آسيا. ومن جرّاء هذه التقلبات حل «النظام الأبوي» العنيف محل «النظام الأمي» المسالم الديمقراطي الذي كانت تسيطر عليه الأم. وهذه المجتمعات التي يسيطر عليها «النظام الأبوي» تنظر نظرة قلقة للجنس ويسيطر فيها الرجل على المرأة ويحتل فيها الإله دوراً كبيراً.

وتقول هذه النظريّة أنه في زمن المجاعة يصبح اهتمام الأهل بالطفل أضعف ورد فعلهم لصراخه أقل. والأم في بحثها المتواصل عن الطعام القليل لا تستطيع أن تعطيه الحنان الضروري، خاصّة إذا كانت هي ذاتها محرومة من الحنان في طفولتها. وكما مع القردة الأم التي ربّيت دون أم، فإنها تصبح أقل اعتناءاً بأطفالها. وهكذا تنمو القساوة في العلاقة بين الأهل وأطفالهم. وبعدها تنشأ عند المجتمع نظرة غاضبة وقلقة نحو الأم. فتتدخّل المعتقدات والقوانين والعادات والطقوس لكي تسن عدد من المحرّمات بخصوص المرأة. ويؤدّي إضعاف العلاقة بين الأم وابنها إلى إضعاف العلاقة بين المرأة والرجل. وهذا بدوره يؤدّي إلى تطوّر العنف والساديّة التي تدور حول الأعضاء الجنسيّة، ومن بينها عادة ختان الذكور والإناث. وبعد تغلغل هذه الطباع في المجتمع تصبح صفة مميّزة يحملها أفراده في هجراتهم وتصيب العدوى غيرهم من الشعوب. وحتى إن تغيّرت الظروف الجغرافيّة التي كانت الدافع الأوّل لنشوء مثل هذه الطباع، فإن هذه الأخيرة تستمد قوّتها من كونها أصبحت تشريعاً وعادة. ولكي يتم إنهاء الختان لا بد من تغيير النظام الاجتماعي الأبوي العنيف الذي يصاحبه.

وتلاحظ هذه النظريّة أن بؤرة ختان الذكور والإناث نشأت في المناطق الشرقيّة الشماليّة لإفريقيا أو في الجزيرة العربيّة ومنها انتقلت إلى مناطق أخرى مع الهجرات البشريّة وخاصّة الفتوحات الإسلاميّة. وموازياً لهذه المنطقة، هناك مناطق جغرافيّة أخرى مستقلة مارس سكانها كل من ختان الذكور والإناث، مثل القبائل الأستراليّة وبعض قبائل الأمريكتين. وفي هذه المناطق أيضاً رافق الختان تقلبات مناخيّة قاسيّة.

وإن كان للعامل الاقتصادي دور في نشوء الختان، فله أيضاً دور في تحوّله من طقس ديني إلى طقس طبّي. فهناك كثير من اليهود الذين يفضّلون إجراء عمليّة الختان في المستشفى على يد طبيب في الأيّام الأولى بعد ولادة الطفل مخالفين في ذلك التعاليم

الدينيّة التي تفرض إجراء الختان ضمن طقس ديني وفي اليوم الثامن. وهذا التصرّف نابع من كون الختان في المستشفى أقل كلفة من الختان الديني الذي يتطلب إحضار خاتن من مدينة أخرى وتعويضه ماليّاً حسب المسافة التي يقطعها. ويلاحظ هذا التحوّل فيما يخص ختان الذكور والإناث في المجتمعات الأخرى. فالختان الطقسي تتبعه احتفالات يشارك فيها الكثيرون وتكلف مصاريف ليس في مقدور كل واحد تحمّلها. لذا تم التخلي عن المظاهر الخارجيّة مع الإبقاء على الختان الذي أصبح يجرى في المستشفى فور الولادة. ويشار إلى أن الختان الفرعوني حل محل حزام العفة المكلف والذي يتطلب معرفة فنّية، كما حل محل نظام الحريم الذي لم يعد من السهل تأمين الخصيان له وتحمّل تكاليفه.

وتغيير الأوضاع الاقتصادية من أهم العوامل التي يمكن من خلالها القضاء على ختان الإناث. فالمرأة التي لها عشرة أطفال عليها أن تسعى لإطعامهم. وسوف تسعى لتزويج بناتها إذا كان الزواج هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من أعبائهن. وإذا ما فرض الرجال الختان كشرط للزواج، فإن المرأة سوف تخضع لشروطهم. أمّا إذا كانت للبنات إمكانيّة للعيش اقتصاديّاً دون زواج، فإن أمّهن لن تقبل بشروط الرجال. ولذا يجب إعطاء النساء والفتيات وسيلة اقتصادية للعيش حتى لا يتمكن الرجال من فرض شروطهم عليهن. وعلى الدول الغربيّة التي تكافح للقضاء على ختان الإناث في الدول الإفريقيّة تخصيص جزء من أموال التنمية لصالح النساء الإفريقيّات لتأمين استقلالهن الاقتصادي.

2) الختان مصدر ربح للأطبّاء والخاتنين وغيرهم

إن الهدف الأوّل والوحيد للطبيب من إجراء الختان قد لا يكون دائماً الحصول على ربح مادّي. ولكن من المؤكد أن الطبيب الأمريكي الذي يرفض إجراءه يتعرّض لخسارة ماليّة قدّرتها مؤلفة أمريكيّة بـ 10000 دولار سنوياً. وهذا المبلغ الذي يخسره الطبيب الرافض سوف ينتهي إلى جيب طبيب منافس آخر. ولذا يمكن اعتبار رفض ذاك الطبيب إجراء الختان من الأعمال البطوليّة حقاً.

ويتضح دور ربح الطبيب في معدّل الختان ممّا حدث في إنكلترا. ففي بداية الحرب العالميّة الثانية كان معدّل الختان في الطبقات المرفهة هناك يصل إلى 80%، وفي الطبقة العاملة إلى 50%. وكان الأطبّاء هناك يتذرّعون بمكافحة العادة السرّية. ولكن بعدما أخذ هذا البلد بنظام التأمين الاجتماعي انخفض معدّله تدريجيّاً إلى أن وصل إلى ما يقارب الصفر في السبعينات. لقد فقد الأطبّاء الإنكليز السبب الحقيقي الذي كانوا من

أجله يجرون الختان: أي الربح المالي، إذ لم يعد هناك فرق في معاشهم، أجروا العمليّة أم لم يجروها.

ويثير معارضو ختان الإناث نفس المشكلة. فهم يرون أن الربح عامل انتشار لهذه العادة في الدول الإفريقيّة. فكثير من الخاتنات تعتمد على هذه العمليّة كوسيلة لكسب لقمة العيش. وحتى تنجح حملة مكافحة ختان الإناث، تبيّن أنه من الضروري الاعتناء بالخاتنات وتعليمهن مهنة يكسبن منها لقمة العيش حتى يتخلين عن إجراء ختان الإناث.

3) الختان وتجارة الآلات الطبّية

عندما أخذ الأطباء بإجراء الختان كان لليهود السبق في اختراع آلات تحل محل السكين والمقص. وقد ساعدت هذه الآلات في تثبيت عادة الختان إذ إن من يشتريها لا بد له من أن يستعملها لتغطية تكاليفها. وقد قامت الشركة الأمريكيّة المصنّعة لملزم «جومكو» بالدعاية له في الدول التي لا تمارس الختان مثل ألمانيا الغربيّة والشرقيّة. ففتحت مركزاً للتوزيع في مدينة «اولم» الألمانيّة عام 1957. وقد تم ختان 150 طفلاً في مستشفى دون تخدير بواسطة هذا الملزم في مدينة «دارمشتادت» عام 1959 ضمن حملة للترويج له. وفي عام 1968، كان هناك اتفاق لختان 2832 طفلاً في ألمانيا الشرقيّة بواسطة هذا الملزم أملاً في انتشاره في هذا البلد. إلاّ أن هذه الحملة توقّفت بعد نقد الأوساط الطبّية الألمانيّة للختان في أوائل السبعينات. وقد انتقلت الشركة إلى محاولة ختان أطفال الدانمارك فتم ختان 18 طفلاً عام 1973 بهذا الملزم ونشرت دعايات له في المجلاّت الطبّية الدانمركيّة. ولكن كان هناك رفض شعبي لمثل هذه الإجراءات.

4) الختان وتجارة الغلفة

كانت الغلفة وما زالت تعتبر عند البعض عضواً نجساً. وقد تعبّد البعض بها أو أستعملها لمداواة العقم. ومنهم من وضعها في فم طفل قَبل ختانه لتقيه هجوم الأرواح الشرّيرة. ومنهم من دفنها مع الخاتن لتضمن ثوابه في الآخرة. وبجانب هذه الاعتقادات الخرافيّة، هناك من رأى في الغلفة سلعة تجاريّة. فقد أصبحت للغلفة استعمالات صناعيّة وطبّية. فهي تدخل في صنع بعض مستحضرات التجميل كما تستعمل في إجراء التجارب الطبّية وفي ترقيع المحروقين. فكلما كان الجلد حسّاساً وخلاياه قادرة على التمدّد، كلما كان تكثيره أسهل وأفضل. وهاتان الميّزتان تتواجدان في الغلفة.

منذ الثمانينات، بدأت بعض المستشفيات الخاصّة بتزويد الشركات والمعامل الطبّية والدوائيّة بغلفات جنت من ورائها أرباحاً طائلة. فقد تباهت شركة عام 1996 بأن رأس مالها يقدّر بـ 663,9 مليون دولار. وفي مقال صدر عام 1992، قدّرت المعامل الطبّية أن تجارة زراعة الجلد ستصل إلى مبالغ تراوح المليار والنصف إلى ملياري دولار سنوياً في نهاية التسعينات.

وبما أنه ليس لعمليّة الختان أسباب طبّية، بل رغبة الطبيب في تحقيق ربح من ورائها، فإن معارضي ختان الذكور يرون في تجارة الغلفة مشكلة جديدة تعرقل حملتهم. فما دام هناك طلب على الغلفة، فلا بد من توفيرها بختان أكبر قدر ممكن من الأطفال. فأخذ المعارضون يحذّرون الأهل من أن المستشفيات والأطبّاء الذين يجرون عمليّة الختان يسرقون غلف أطفالهم ليبيعوها. فأحد تلك المستشفيات في الولايات المتحدة يبيع الغلفة بـ 35 دولار.

5) الختان والتأمين

حاول معارضو ختان الذكور لفت نظر شركات التأمين إلى أن عمليّة الختان ليست ضروريّة طبّيا، حتى لا تقوم بدفع تكاليفها. إلاّ أن لتلك الشركات منطق آخر. فقد ردّت شركة تأمين تقول:

> «نحن على علم بأنه لا حاجة طبّية لهذه العمليّة [...] ونحن نشجّع مشتركينا على عدم إجرائها. إلاّ أن إجراءها لا يكلفنا شيئاً بسبب طبيعة العقد مع المستشفيات. فنحن ندفع تكلفة يوميّة مهما كانت الخدمة المقدّمة. ولذلك اخترنا الاستمرار في دفع العمليّة لأننا نشعر بأن عدداً كبيراً من مشتركينا يريدون ذلك. وإذا رفضنا دفعها فقد يكون رد فعل مشتركينا سلبيّاً [...]. لذلك قرّرنا الاستمرار في تقديم هذه الخدمة لهم. إن الخلفيّة التي تدعم الختان ثقافيّة واجتماعيّة وليست طبّية. ونحن نستجيب لطلب اجتماعي وثقافي بدفعنا هذه العمليّة».

ونشير هنا إلى أن بعض شركات التأمين تخلت عن دفع تكاليف الختان. فقد أرسلت إحدى تلك الشركات واسمها Pennsylvania Blue Shield في أوّل يناير 1987 رسالة لمشتركيها تعلمهم فيها أنها لن تغطي من الآن فصاعداً تكاليف عمليّة ختان حديثي الولادة بناءاً على «أبحاث طبّية تفيد بأن عمليّة الختان ليس لها فائدة طبّية». وقد طالبت تلك الشركات من الأكاديميّة الأمريكيّة لطب الأطفال وغيرها من الهيئات الطبّية أخذ موقف من الختان لتعتمد عليه في قرارها.

هذا ويلجأ الأطبّاء أحياناً للغش لتخفيف الأعباء عن الأهل. فقد أخبرني أستاذ جامعي مسلم مصري في لندن بأنه ختن أطفاله في المستشفى. وعندما سألته هل دفع تكاليف العمليّة أجاب بأن الطبيب كان متعاوناً معه فكتب أن سبب الختان كان ضيق الغلفة.

وهذا ما يجري أيضاً في فرنسا حيث لا يدفع التأمين الاجتماعي إلاّ العمليّات الضروريّة طبّياً.

6) الختان وسلاح المال

يتطلب تغيير المجتمع سواعداً ومالاً. وهناك تعبير فرنسي يقول: «المال عصب الحرب». ومثل سويسري يضيف: «من يدفع يأمر».

لقد أصبح الغرب والمنظمات الدوليّة التي تدور في فلكه مصدر رئيسي لتمويل منظمّات مكافحة ختان الإناث. وبما أن الغرب يرفض الدخول في جدل حول ختان الذكور، فإن تلك المنظمات تتفادى هذا الموضوع. ويلجأ الغرب أحياناً إلى التهديد بقطع المعونات الاقتصادية عن الدول التي لا تناهض ختان الإناث. وتشير منظمة «أرض النساء» الألمانيّة بأن أحد أهدافها حجب المعونات عن تلك الدول.

وسلاح المال ليس حكراً على الحكومات. فمؤيّدو ختان الذكور يلوّحون بالملاحقات القضائيّة لكي يستمر الأطبّاء في إجراء ختان الذكور وشركات التأمين في تغطية تكلفة هذه العمليّة. فقد كتب الطبيب «وايزفيل»، صاحب نظريّة حماية الختان من التهابات المسالك البوليّة، مقالاً يقول فيه بأنه إذا تم وضع صبي في عمليّة غسل كلى بسبب التهاب المسالك البوليّة لعدم ختانه، فإن شركات التأمين التي ترفض دفع تكاليف الختان سوف تعتبر مسؤولة عن ذلك.

هذا وتشجّع الجمعيّات المعارضة للختان رفع قضايا ضد الأطبّاء الذين يجرون ختان الذكور. ويشير محامي أمريكي دافع في قضايا ختان بأن تلك القضايا سلاح فعّال. فهي وسيلة لتثقيف الأطبّاء وردع المستشفيات وتنبيه شركات التأمين بأن الختان عمليّة خطيرة وغير ضروريّة. وهي وسيلة للربح لكل من المحامي وموكله. وكل قضيّة يتم كسبها يعني مزيد من ضغط شركات التأمين على المستشفيات والأطبّاء للكف عن هذه العمليّة المكلفة قضائيّاً. أضف إلى ذلك أن هذه القضايا سوف تثير انتباه العامّة وتثقّفهم.

الفصل الثامن
الختان والدوافع السياسيّة

1) اليهود والختان والصراع السياسي

أ) ختان الذكور والاتهام بمعاداة الساميّة

يعتبر رجال الدين اليهود ختان الذكور جزءاً هامّاً من معتقدهم الديني وعلامة لهويّتهم كما أوضحنا سابقاً. ومع تصاعد الحملة الحاليّة ضد ختان الذكور، اعتبر رجال الدين اليهود هذه الحملة تعدّ عليهم وعلى معتقداتهم، متهمين المعارضين غير اليهود بـ»بمعاداة الساميّة»، والمعارضين اليهود «ببغض الذات».

وقد أثر الخوف من الاتهام بمعاداة الساميّة في الاصطلاحات المستعملة في كتابات المنظمات الدوليّة الحكوميّة وغير الحكوميّة. فقد تخلت هذه المنظمات عن استعمال تعبير «ختان الإناث» واستبدلته بعبارة «بتر الأعضاء التناسليّة للإناث» حتى لا يكون هناك خلط بينه وبين «ختان الذكور» الذي يمارسه اليهود.

والخوف من الاتهام بمعاداة الساميّة أدّى إلى سكوت المشرّع الغربي والمنظمات الحكوميّة وغير الحكوميّة (مع بعض الاستثناءات) عن «ختان الذكور» كما سنرى في الجزء الخاص بالجدل القانوني. وقد أستبعِدت مناقشة «ختان الذكور» عند عرض «ختان الإناث» دون أن يبيّن من استبعدوه سبب التفريق بين الختانين.

وقد قاد الخوف من اتهامات اليهود بعض الحركات في الولايات المتحدة بالاكتفاء بالكلام عن «الختان الروتيني» الذي يتم في المستشفيات بعد الولادة لحجج طبّية ووقائيّة، مستثنيين الختان الديني وخاصّة الختان اليهودي. وقد انتقد هذا الموقف اليهود المعادون للختان لأنه يحرم الأطفال اليهود من الحماية.

ب) اتهام اليهود بنشر ختان الذكور وأهدافهم

لقد أثر اليهود في انتشار ختان الذكور عند المسلمين والمسيحيّين كما أوضحنا سابقاً. وتشير مؤلفة أمريكيّة أن الأصل التوراتي للختان جعل غير اليهود يتقبّلون هذه العادة. ولو مارس اليهود ختان الإناث كما يمارسون ختان الذكور، لكان ختان الإناث منتشراً مثله مثل ختان الذكور.

لقد بلور اليهود دفاعهم عن الختان من خلال ابتكارهم الآلات الطبّية لإجرائه والتي حاولوا الدعاية لها في الدول التي لا تمارسه. كما ساهموا مساهمة كبيرة في إيجاد التبريرات ذات الطابع العلمي للختان. وقد ساعدتهم في ذلك النسبة العالية للأطبّاء والباحثين اليهود في الغرب وسيطرتهم على وسائل النشر والإعلام وتحكمهم بمصادر التمويل. وقد أثارت مساهمة اليهود في الدفاع عن ختان الذكور الشكوك حول نواياهم، خاصّة وأن الختان عندهم هو أوّلاً وأخيراً قضيّة إيمان بعهد بين الله وبينهم ولا علاقة له بالصحّة. فهم يختنون حتى الذي يموت غير مختون قَبل دفنه في مقبرة يهوديّة. ويمكن تقديم أربع أسباب محتملة لموقف اليهود.

هناك أولاً الرغبة في حماية المعتقد اليهودي من الداخل. فقد شرحنا كيف أن المجدّدين اليهود حاولوا كسر حائط العزلة بإلغاء ختان الذكور. وقد رأى رجال الدين اليهود حين ذاك في تلك المحاولة خطوة لهدم صرح الكتاب المقدّس وسلطتهم المبنيّة عليه. إلاّ أن الجدل حول الختان بين المجدّدين اليهود الألمان لم يعد له مكان في الولايات المتحدة على إثر انتشار الختان هناك بين المسيحيّين. وأمام الحملة الحاليّة ضد ختان الذكور بين المسيحيّين في الولايات المتحدة، يخاف رجال الدين أن يحس اليهود أنهم معزولون، ممّا قد يحثهم على فتح باب الجدل من جديد ضد ختان الذكور. لذلك يعملون جاهدين لكي يستمر الختان بين المسيحيّين.

وهناك ثانياً الرغبة في التبشير. فهناك من يرى وراء دعم اليهود للختان الشامل في الولايات المتحدة رغبة في اكتساب غيرهم إلى ديانتهم. فإذا ما ختن الشخص صغيراً لن يكون خوفه من الختان عائقاً أمام تحوّله إلى اليهوديّة عندما يكبر. أضف إلى ذلك أنه إذا لم يتحوّل غير اليهودي إلى اليهوديّة، فإنه على الأقل لن يعترض على ختان ابنه في حال زواجه من يهوديّة، عِلماً بأن الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود واسع الانتشار في الولايات المتحدة. هذا وقد سمح رجال الدين اليهود بختان غير اليهود باعتبار أن التوراة للجميع.

وهناك ثالثاً الأسباب السياسية. فقد ساعد الأطبّاء اليهود الذين هاجروا من ألمانيا خلال الحرب العالميّة الثانية إلى الولايات المتحدة في انتشار ختان الذكور هناك لأسباب دفاعيّة. فبختان أكبر عدد ممكن من غير اليهود، لن يعود بالإمكان التمييز بين اليهودي وغير اليهودي إذا ما استهدفتهم اضطهادات كالتي مرّوا بها في ألمانيا. وهكذا يكون تعميم الختان وسيلة لحماية اليهود. فمن المعروف أن الختان في ألمانيا كان العلامة لتمييز اليهودي عن غير اليهودي. ومن كان مختوناً من بين غير اليهود، كان يحمل شهادة عمّاد لتبرئة نفسه من اليهوديّة.

وهناك أخيراً الأسباب الانتقامية. فالختان كان وسيلة للتعرّف على اليهود في الحرب العالميّة الثانية ولاضطهادهم. والمضطهد يحاول الانتقام من مضطهده بدمغه بالعلامة التي يعتبرها عاراً. وهناك من يحلل تلك الظاهرة نفسيّاً: يحس اليهودي بالخصاء، فينتقم من المجتمع بخصي غيره. وهي ظاهرة نفسيّة معروفة عند علماء النفس.

وبالرغم من دعم اليهود لختان الذكور وممارسته على الغير ومحاولة نشره في العالم، تجدر الإشارة إلى وجود تيّار يهودي متنامي يناهض ختان الذكور. لا بل إن بعض اليهود أصبحوا رأس الحربة في الحركات المعارضة للختان.

2) المسلمون والختان والصراع السياسي

أ) ختان الإناث والاتهام بمعاداة الإسلام والمسلمين

في سبتمبر من عام 1994 انعقد في القاهرة مؤتمر السكان العالمي الذي تناول ضمن موضوعاته قضيّة ختان الإناث. وبهذه المناسبة اختارت القناة التليفزيونيّة الأمريكيّة (سي إن إن) تصوير تفاصيل تلك العمليّة البشعة التي أجريت لفتاة اسمها نجلاء في أحد الأحياء الشعبيّة القاهريّة على يد حلاّق الصحّة. وقد أثار هذا الفيلم ضجّة لدى الرأي العام المصري والعالمي، ونشرت في مصر كتب ومقالات كثيرة حول ختان الإناث، تأييداً أو رفضاً. وأخذ مؤيّدو ختان الإناث بالتلويح بالمؤامرة الغربيّة صراحة. ونكتفي هنا ببعض فقرات من كتاب «نهاية البيان في أحكام القرآن» من تأليف «أبو آلاء كمال علي الجمل»، مدرّس الحديث بكلية أصول الدين والدعوى بالمنصورة، صدر عام 1995 عن مكتبة الإيمان في المنصورة:

«إن هذه الهجمة على الختان [...] يقوم بها دعاتها ومروّجوها، إمّا عن جهل أو غفلة كما تفعل الببّغاوات، وإمّا عن خبث نيّة وسوء طويّة كما تفعل الثعالب والذئاب، وإمّا عن عداوة وبغضاء، كما يفعل العملاء والأجراء من الخونة والأعداء.

[...] همّهم في الحياة إشباع النزوات، وغايتهم ارواء الشهوات، ومقصدهم الانسلاخ من جميع الضوابط والحدود، والآداب والأخلاق والتقاليد والعادات. محاولين قلب مجتمعنا إلى ما يناسب تفكيرهم الأعوج وقلوبهم السوداء، وأنفسهم الخبيثة إلى مجتمع قائم على الفساد والإباحيّة والإلحاد واللادينيّة والفوضى واللاأخلاقيّة.

وقد جنّدوا لتحقيق ذلك الأجناد، وأعدوا له العتاد، يساندهم العدو من الخارج ويدعمهم العميل من الداخل، ويتبعهم السذّج من الببّغاوات والخبثاء من أصحاب الغايات».

ب) ختان الذكور والاتهام بمعاداة الأديان

احتل ختان الإناث الصدارة في النقاش الدائر على الساحة السياسيّة في العالم الإسلامي. وقد تم السكوت عن ختان الذكور. ولكن ختان الذكور لم ينج من فكر المؤامرة.

أشرنا سابقاً إلى موقف القاضي الليبي مصطفى كمال المهدوي المعارض لختان الذكور. فقد رفعت عليه دعوى بالردّة وطالب رجال الدين في ليبيا وفي السعوديّة بقتله ومنع كتابه. وبعد محاكمة طالت سبع سنين، برأته محكمة الاستئناف الليبيّة من تهمة الردّة ولكنّها في نفس الوقت صادرت كتابه ومنعت إعادة نشره.

وقد نشرت في الملحق 24 من كتابي المطوّل نصّاً للشيخ محمود محمّد خضر يقول فيه أن وراء حملة مكافحة ختان الذكور

«مجموعة من الملحدين الذين لا مِلة لهم ولا دين ويهولهم أن يستيقظ الشعور الديني في أي مظهر من مظاهره أو أي شكل من أشكاله ومجموعة أخرى من المتعصّبين لمسيحيّة القدّيس بولس ويسوءهم العودة إلى كل ما هو شرقي حتى ولو كان هو الدين الصحيح لسيّدنا يسوع المسيح».

ويضيف: «إن الحملة ضد الختان تمثل إهانة لجميع الأنبياء والمرسلين الذين مارسوا الختان ورغبوا فيه بمن فيهم محمّد وعيسى وموسى وإبراهيم عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم». وعليه، فأعداء ختان الذكور في نظره هم «أعداء الأديان أعداء الإنسان أعداء الله أولياء الشيطان». ورغم اعترافه بأن ختان الذكور ليس واجباً في الإسلام، فإنه يرى في تحريمه محاولة لنشر الإلحاد. فحملة تحريم الختان هي مرحلة يتم الانتقال منها إلى مس جوهر العقيدة: «إذا كان من الممكن أن يتحوّل أمر من الأمور من مقدّس إلى مباح وبعد ذلك إلى محرّم أي ينتقل من النقيض إلى النقيض على مدى قرن أو قرنين من الزمان ألا يمكن أن يجرى هذا التطوّر على العقيدة نفسها؟»

3) الختان والصراع الاستعماري

في ظل تزايد الحديث عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة أصبحت قضية ختان الإناث محل بحث سنوي في المحافل الدوليّة بدعم من الدول الغربيّة والمنظمات غير الحكوميّة. وقد أصدرت عدّة دول غربيّة قوانين تمنع ممارسة ختان الإناث على أرضها، كما أنها دعمت تبنّي المحافل الدوليّة لقرارات تدين ختان الإناث، موجّهة خصّيصاً للدول الإفريقيّة. وتم إنشاء جمعيّات غير حكوميّة في الدول الغربيّة

والإفريقيّة بدعم غربي لمكافحة هذه العادة. فماذا كان رد الفعل الأفريقي أمام التدخّل الغربي في شؤون الدول الإفريقيّة؟

كتب رئيس الدولة السنغاليّة عبدو ضيوف رسالة في 5 أبريل 1984 يقول فيها:

«إن السيّد ادمون كيزر، رئيس جمعيّة Sentinelles، يقوم بحملة ضد بتر الأعضاء الجنسيّة وخاصّة تلك التي تمس بالنساء. لقد قدّم نفسه لنا ليس كرقيب يشمت بمجتمعاتنا وثقافتنا، ولكن كرجل لا يفوته شيء يخص الإنسان. فهو يكافح باسم الأخلاق والقيم العالميّة. ولكن يجب أن لا نرتكب خطأ متسرّعاً بالحُكم [على هذه الممارسات] بالوحشيّة والدمويّة. يجب الحرص على عدم وصف ما هو اختلاف ثقافي بالوحشيّة. ففي إفريقيا التقليديّة ينبع ختان الإناث من مجموعة متماسكة لها قيمها واعتقاداتها وتصرّفاتها الثقافيّة والطقسيّة. فقد كانت تجربة ضروريّة في الحياة لأنها تتمّم مرحلة دمج الطفل بالمجتمع.

وإن كانت هذه الممارسات تخلق مشكلة اليوم فذلك لأن مجتمعاتنا في تحوّل كبير وتعيش ديناميكيات ثقافيّة واجتماعيّة جديدة ليس لمثل تلك الممارسات مكان فيها أو تظهر وكأنها بقايا أثريّة. ولذلك يجب الإسراع بالقضاء عليها. إلاّ أن القسم الأهم من هذا الكفاح سوف يتم من خلال التثقيف وليس بالتكفير، ومن الداخل وليس من الخارج».

وفي بداية عام 1999 نعت الرئيس الجامبي المكافحين والمكافحات ضد ختان الإناث في بلده بأنهم أعداء الإسلام. وأضاف أن من يبشّرون ضد هذه العادة، بما فيهم الرؤساء الدينيين المسلمين، يحاولون من خلال ذلك التصدّي للدين الإسلامي لهدمه. واعتبر أن التصدّي لعادة ختان الإناث دون المشاكل الأخرى التي تمس بصحّة المرأة في إفريقيا يخفي مصالح غربيّة محدّدة. وأضاف أن الذين يلجأون إلى استعمال تعبير «بتر» لوصف ختان الإناث يكذبون إذ إنه ليس هذا ما يتم. ولذا سوف يقدّم اقتراحاً بإصدار قانون يمنع الدعاية ضد ختان الإناث لأنه يعتبرها غير عادلة ولا يمكن السماح لها بالاستمرار.

هذا ولا يكتفي الأفارقة برفض التدخل الغربي في بلادهم، بل يريدون أن يمارسوا ختان الإناث على بناتهم في الدول الغربية ذاتها باعتبارها حقاً ثقافياً. إلا أن من يتفهم رفض الأفارقة للتدخل الغربي في أفريقيا يرفض السكوت عمّا يجري في الغرب ويطالب الأفارقة باحترام القوانين الغربية. تقول «ريني سوريل» إن كان صحيحاً بأن ماضينا الاستعماري لا يسمح لنا أن نفرض أنفسنا بإعطاء الدروس للآخرين، ولكن ذلك لا يمنعنا من التدخّل إذا ما تم جرم على أرضنا في فرنسا. وقد جاء في النشرة الإعلاميّة التي توزّعها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية الفرنسيّة بهدف الحد من ختان الإناث، أن اعتقاد الأهل أنهم يعملون عمل عملاً صالحاً بمراعاتهم تقاليدهم لا يغيّر من طبيعة الجرم. فختان الإناث مخالف للقانون الفرنسي لأنه بتر للجسد. وفي فرنسا يطبّق القانون على جميع سكانها بصورة متساوية مهما كانت جنسيتهم.

وإن كان التفريق بين الدول الغربيّة والدول الإفريقيّة في مجال سن القانون يخضع لاعتبارات سياسيّة، أهمّها الخوف من الاتهام بالإمبرياليّة، إلاّ أن هناك من يبرّر هذا التفريق لاعتبارات اجتماعية. تقول أستاذة إيطاليّة تعمل في مجال مكافحة ختان الإناث أن على الدول الغربيّة اتخاذ الوسائل التي تراها الأنجع لمنع إجراء ختان الفتيات اللاتي يعشن على أرضها مثل تثقيف وعقاب الأهل والطبيب وذلك لأن الختان يؤدّي إلى نتائج وخيمة ويمنع الفتيات من الاندماج في المحيط الجديد. بينما على الدول الإفريقيّة أن تتخذ الخطوات التي تختارها لمحو هذه العادة حسب الوسائل التي تراها الأفضل لأن الختان الذي يجرى في محيطه الاجتماعي الإفريقي أقل تأثيراً على البنات من الختان الذي يجرى في المجتمع الغربي.

4) الختان والصراع السياسي على أساس الجنس

جاء «ماركس» (توفى عام 1888) وأتباعه بنظريّة تفسّر التاريخ على أنه صراع ليس بين الأديان أو الأعراق، بل بين طبقات المنتجين والعمّال المستغَلين، واقترح حل هذا الصراع من خلال الاشتراكية. وقد حوّرت بعض الحركات النسائيّة هذه النظريّة معتبرة أن الصراع هو في حقيقته بين الذكور والإناث. ففوق الدين والعرق والطبقات هناك الرجل والمرأة في صراع يجب حله من خلال نظام المشاركة بين الجنسين. والنساء، حسب تعبير «بينوات جرولت»، هن آخر مستعمرة في العصر الحديث، وعليهن أن ينلن استقلالهن من خلال تضامنهن. وتعتبر الحركات النسائيّة عامّة ختان الإناث إحدى حلبات هذا الصراع بين الرجل والمرأة، وعلى جميع النساء مهما كان انتماؤهن الديني أو العرقي أو الطبقي المشاركة في هذا الصراع.

تتهم السيّدة «هوسكن» الرجال، جماعيّاً وأفراداً، بأنهم المسؤولون عن استمرار ختان الإناث، وأنه «لو كان هناك إرادة لإيقاف ختان الإناث، فإنه كان بالإمكان الوصول إلى ذلك خلال العشرين سنة الماضية في أكثر المدن. ولكن هذا يتطلب قيادة ذكوريّة على المستوى الوطني والدولي». وهي ترى تعبيراً عن سيطرة الرجال الأحكام التي يصدرها القضاء في موضوع ختان الإناث. فالقضاء يسيطر عليه الرجال. ولذلك فإنهم يحكمون على النساء وليس على الرجال في تلك القضايا.

وترى «هوسكن» أن المنظمات الدوليّة لها مصلحة واحدة: الحفاظ على النظام الذكوري. ولذلك تحبط أي تحرّي عن ختان الإناث. وكل الهيئات الحكوميّة التي تهتم بالتنمية يديرها رجال وليس فيها إلاّ بعض السكرتيرات. فالتنمية كانت دائماً بيد الرجال الذين يقومون بالاتصال بالحكومات التي يسيطر عليها رجال. وهم لا يسألون أسئلة عن النساء لأن المسؤولين الحكوميين قد يحتجّون على ذلك. وإن كانت

الحكومات ترسل اليوم بعض النساء في مهمّات التنمية، فأن القرار يرجع في النهاية للرجال.

وتجد مواقف الحركات النسائيّة الغربيّة المتشدّدة صدى عند بعض النساء الإفريقيّات. تقول السيّدة الصوماليّة «واريس ديري» بلهجة لا تخلو من التهكم:

«إن الحروب القبليّة، مثلها مثل ختان الإناث، هي نتيجة عنف وأنانيّة الرجال. لا أحب أن أقول ذلك، ولكن هذه هي الحقيقة. فهم إنّما يفعلون ذلك لأنهم متشبّثون بأرضهم وممتلكاتهم، والنساء جزء من تلك الممتلكات ثقافيّاً وقانونيّاً. ولو أننا خصينا الرجال، لأصبحت بلدنا جنّة! فقد يهدأ الرجال ويصبحون أكثر إحساساً بما يحيط بهم. من دون دفعة التيستوستيرون المتتابعة، لن يكون هناك حروب، ولا مذابح، ولا سرقات، ولا اغتصاب. فلو أننا قطعنا أعضاءهم الجنسيّة وتركناهم يتوهون دون علاج حتى يسيل دمهم ويموتوا أو يعيشوا، فقد يفهموا لأوّل مرّة ما يفعلون تجاه نسائهم».

وترى ناهد طوبيا بأنه حتى لا يؤدّي نقد عادات الجماعات إلى تقوقعها على نفسها وعمل عكس ما يطلب منها، يجب ترك القيادة في معارك تلك الشعوب لأفرادها. وأمّا من لا ينتمون لتلك الشعوب فعليهم أن يساندوها وأن يعملوا بشراكة معها. ويجب على كل حال تقديم مبدأ الحق في سلامة الجسد، ليس كوسيلة لمعارضة ونقد تلك الشعوب، بل لصالحها.

هذا وإن كانت المنظمات النسائيّة تتهم الرجال باستمرار ختان الإناث لفرض سيطرتهم عليهن، فإن هناك نساء تتهم الرجال باستمرار ختان الذكور أيضاً، كجزء من مؤامرة الرجال على النساء. فالقصد من ختان الذكور، في نظرهن، هو فصل الطفل عن أمّه ومنعها من التدخّل لحمايته، وحرمان المرأة من اللذّة الجنسيّة. وهذا الاتهام يمتد ليصيب التوراة ذاتها. فعندما طلب الله من إبراهيم أن يختن ابنه، كلمه وكأنه هو الوحيد الذي ولده، فليس هناك أي ذكر لسارة أم الطفل. ولم يقم إبراهيم باستشارة أم الطفل قَبل ختانه. والذين قرّروا بأن الختان أمر مقدّس لأنه ضروري للسلطة الذكوريّة هم الرجال، وليس النساء أو الأطفال. لذا يجب على المرأة الآن إعادة تعريف ما هو مقدّس. وهي تعرف في قلبها أن أخذ السكين لقطع الأعضاء الجنسيّة لطفلها ليس مقدّساً، وليس مقدّساً التعدّي على ثقة الابن بأن أهله سوف يفعلون كل ما في إمكانهم لحمايته من الضرر.

الفصل التاسع
النتائج النفسيّة والاجتماعية للختان

تصوّر نفسك جالساً أو نائماً مع من تحب. ويدخل عليك فجأة أناس تجهلهم فيمسكوك بقوّة ويخلعون ملابسك ويقطعون جلد قضيبك بسكين حاد في عمليّة قد تدوم 15 دقيقة وأنت تصيح من الألم وتصارع لكي تفلت منهم. وفي حدّة الألم تكتشف أن من تحب قد تآمر عليك وساعد في تعريتك وبتر جلد قضيبك. فماذا سيكون رد فعلك؟ وهل تختلف آثار هذه الصدمة التي تصاب بها كبالغ عن آثار الصدمة التي يصاب بها من هو أصغر سنّاً؟

1) آثار صدمة الختان على الطفل

أ) آثار ختان الذكور

لاحظ علماء النفس أن الألم الذي يعيشه الشخص في وقت الولادة يؤثر على تصرّفاته مدى الحياة. وقد بنى بعض علماء طب النفس علاقة بين تجربة الولادة وما يحدث في الحياة عندما يكبر الشخص:

تجربة الولادة	عوارضها في الحياة
الولادة بواسطة ملقط الجذب	عدم الاستقلالية ووجع الرأس
ولادة متأخّرة	عدم الصبر والشعور بالوقوع في فخ
ولادة قيصريّة	عدم إحساس بالحدود وصعوبة في التعلم
ولادة مبكرة	مقاومة التغيير والتعلق بفكرة معيّنة
الاختناق في الولادة	داء الربو
ولادة مصاحبة بصدمة كبيرة	رغبة في الانتحار وقلق من الموت

وإذا كان للوالدة أثراً، فلا يمكن إنكار أن للختان أثر مماثل لا سيما لو تم بعد وقت قصير من الولادة. وقد أشار علماء النفس الأمريكيّون منذ زمن طويل إلى آثار تلك الصدمة. فقد نشر الدكتور «دافيد ليفي» بحثاً عام 1945 يقول فيه إنه تأثر بكثرة عدد الحالات التي شهد فيها الهلع والهم واضطراب البال ترتسم على وجوه الأطفال عقب إجراء الختان، ولاحظ أنه كلما كان الطفل أصغر سنّاً كان أعظم تأثراً بالألم وأشد استجابة له. وقد وجد أنه كثيراً ما ينجم عن تلك الصدمات نوبات من الفزع والرعب تنتاب الأطفال أثناء نومهم فيهبّون مولولين ثم يصمتون قانطين. كما وجد أن هذه الصدمات تتلاشى ويزول أثرها بعد فترات تتباين طولاً وقصراً، ولكن قد يحدث ألاّ تزول البتة في الطفولة فتظهر في الكبر على صورة مسلك عدائي ضد المجتمع واستجابة للنزعات الهدّامة وسقوط في حمأة الإجرام ينشد به الاقتصاص من المجتمع.

وقد شهد أطفالاً في الثالثة والرابعة من أعمارهم أصبحوا بعد جراحة الختان ذوي طباع شكسة ونزوع إلى التمزّق والتحريق والهدم والقتل والانتحار.

وهناك شهادات لأطفال عمرهم بين 3 و6 سنين تبيّن أنهم يتذكرون فعلاً ختانهم في صغرهم، وكيف أنهم سحبوا من حضن أمّهم. كما أن بعض الرجال يسترجعون في ذاكرتهم ختانهم. وقد وصف أحدهم تحت التنويم المغنطيسي بالتفصيل كل ما حدث له خلال عمليّة الختان والألم الذي تعرّض له عندما كان طفلاً. وقد عبّر آخر عن شعوره قائلاً: «الغضب تعبير لطيف شاحب لما أحس به. وقد يكون أكثر دقّة تسميته حقد ورغبة في الثأر وتعذيب وتشويه وتدمير كل شخص له أيّة علاقة بإجراء الختان أو أمر به أو طلبه». وقد قام طبيب آخر بمداواة نفسه بنفسه باسترجاع ختانه في ذاكرته. يقول: «كانت التجربة مثيرة للعاطفة ومخيفة. لقد شعرت بخوف كبير، وبدأت أصب عرقاً، وأرجف لمدّة طويلة. وفي بعض الأحيان كان ينتابني شعور بالغضب. كنت أرغب في حماية نفسي، ولكني لم أكن أستطيع ذلك. لقد شعرت بنفسي حزيناً جدّاً، مغموراً بالأسى، واليأس والإحباط».

ويرى «ايرليخ» أن الختان في الصغر لا يؤدّي إلى نتائج نفسيّة أو قد يؤدّي إلى نتائج غير هامّة، بينما يعترف بأن استئصال اللوزتين يترك أثراً في نفس الشخص يظهر عندما يتم بحث التجربة المؤلمة المُعاشة خلال الطفولة. فهناك شعور بالقلق وتشويش الشخصيّة وأن من يرعاه تخلى عنه. وقد لوحظ أنه كلما كان الطفل أصغر، كلما كان الأثر أكبر. وهذا التناقض عند «ايرليخ» قد يكون نابعاً من انتمائه لليهوديّة ودفاعه عن الختان، أو نتيجة كبته لما يشعر به.

ويرى بتلهايم أن الختان أكثر مضرّة على الصغير من الكبير لأن هذا الأخير يفهم ما يجري له. ويقارن بين الختان وبين العمليات التجميلية. فالبنت الكبيرة تخضع لتلك العملية رغم ألمها متفهمة أنها لمصلحتها.

ومن بين آثار الختان رفض المختون التفكير به أو التكلم عنه. وقد يتفادى بعض الرجال النظر إلى السكين والمقص طوال عمرهم. وهذه وسيلة لعدم تذكر الختان. وبعضهم يكره سماع كلمة الختان ويرتجف لسماعها. وبعضهم إذا وضعت كتاباً عن الختان بين يديه يصبح في حالة هستيريّة. وقد ذكر مركز مهتم بدراسات الختان أن البعض يتفادون أيضاً كتابة كلمة الختان على مغلف الرسالة. وقد لاحظ بعضهم أنك إذا وضعت على سيّارتك شعاراً ضد الختان، فإن السيّارات التي تتبعك سوف تأخذ مسافة كبيرة منك لتفادي قراءة هذه الكلمة.

ويشار هنا إلى أن الشخص يحاول أمام الألم أن يحمي نفسه بتزوير الحقيقة ونسيان الواقع. وقد أظهرت الدراسات أن الصدمة في الصغر تؤدّي إلى تغيير في الأعصاب المركزيّة وفي كيمياء الأعصاب، وأن الجزء الخاص بالذاكرة في المخ والذي يسمّى «قرن أمون» يكون أصغر حجماً عند الأطفال الذين يتعرّضون لانتهاك جنسي في صغرهم، وأن مقدرتهم على التذكر تكون أقل. وقد أكد «جيمس بريسكوت» متخصّص في أعصاب المخ أن الختان يؤثر على تطوّر المخ.

ب) تأثير صدمة الختان على الإناث

يذكر المعارضون المصريّون لختان الإناث عدداً من الآثار النفسيّة الناتجة عنه ويسكتون تماماً عن الآثار النفسيّة التي قد تنتج عن ختان الذكور.

وآثار ختان الإناث النفسيّة قد تكون سابقة له. فما أن تسمع الفتاة بما حدث لأقرانها الأكبر سنّاً حتى ينتابها القلق، وكلما اقتربت من السن المعتاد إجراء الختان فيه يتصاعد قلقها ويتحوّل إلى رعب نفسي قد يصل في بعض الحالات إلى حدوث كوابيس وتأخّر دراسي. وتزداد حدّة هذا القلق كلما كانت الفتاة معتدة بنفسها وبشخصيّتها. ولتفادي هذه الاضطرابات، تلجأ العائلة عامّة للممارسات السحرّية والدينيّة مثل التبخير ولبس الطلاسم.

ويحكى الدكتور طه باشر أن فتاة كانت تصرخ خلال نومها قائلة: «الحشرة الحشرة». ولكن الأهل لم يجدوا أثراً لمثل تلك الحشرة. ثم تبيّن أن خادمة البيت كانت قد أعادت عليها في الأيّام السابقة بأنها سوف تختن. فالحشرة التي تتكلم عنها في منامها تعبّر عند العامّة بمخالبها ومنظرها المخيف عن المرأة التي تقوم بالختان. وبعد ذلك تم التأكيد للفتاة بأنها لن تختن. وقد أدّي ذلك إلى انفعال الفتاة بشدّة وعادت إلى نومها الهادئ.

وفيما يخص الآثار اللاحقة لختان الإناث، يقول الدكتور عادل صادق أستاذ الطب النفسي:

> «إن الختان يشكل عمليّة بتر وتظل في مخيّلة الفتاة مدى الحياة [...]. إن هذا الشعور بالبتر لعضو مهم في جسم الفتاة بما فيه من معان جنسيّة يصبح شيئاً راسخاً في ذهنها. ويقولون إن هذا الجزء يبتر حتى لا تنحرف الفتاة. إذاً يصبح مفهوم الأخلاق مرتبطاً بالغريزة وأنه لا إرادة لها في ذلك. وذلك يحرمها كأنثى من الاعتزاز بذاتها الأخلاقيّة الإنسانيّة الناشئة عن قناعة وإيمان».

وخلافاً للرأي السابق، هناك من يرى في ختان الإناث آثاراً إيجابيّة. تقول «لايتفوت كلاين» أن الفتاة السودانيّة تكسب نوعاً من الكبرياء الذاتي بعد ختانها إذ إنها تشعر

بأنها أصبحت شابّة مسؤولة قابلة للزواج ومحل رضى أهلها وعرفانهم بمحافظتها على شرف العائلة. وترجع هذه الكاتبة عدم وجود أعراض نفسيّة إلى طبيعة الحياة العائليّة في السودان. فالأطفال هناك يعيشون جواً عائلياً دافئاً وودوداً يحسدهم عليه الغربيّون. وبعد الزواج يساعد الرباط القوي بين الزوجين على التخلص من تلك العوارض. وإن كانت هناك حالات نفسيّة اكتئابيّة وجنون، فإن علماء النفس لا يرجعونها إلى ختان الإناث. وقد يشجّع المجتمع عوارض الإحباط والخوف والقلق حتى تبقى المرأة تحت سيطرة الرجال.

ويقول «لانتيي» أن النساء التي تنتمي إلى مجتمع تقليدي متمسّك بعاداته ومعتقداته لا يعانين من أمراض نفسيّة أو شعور بالتعاسة بسبب ختان الإناث. لا بل قد تعتبر المرأة نفسها سعيدة في ذلك المجتمع. ولكن حيث تتفتت المعتقدات ويدخل الشك بين أفراد المجتمع الذين فقدوا المعنى الديني لهذه العادة، كما هو الأمر في المجتمع الصومالي، فإن المرأة هناك قد تصاب باضطرابات عصبيّة وتغرق في الخمول والحزن.

2) أثر الختان على العلاقة مع الأهل

يحتاج الإنسان والحيوان للحنان كما للأكل. هذه هي سُنّة الطبيعة. وعند الإنسان والحيوان يبدأ الحنان بالأم. فيتعلق الطفل بها كما تتعلق به. وهذا يؤثر على صحّة الطفل الجسديّة والنفسيّة وعلى تصرّفاته في حياته كلها.

يبدأ تأثير الختان في علاقة الأم مع ابنها منذ الحمل، فتقلق الأم بسببه. فيؤثر هذا القلق بدوره على الطفل، خاصّة إذا لم تجد الأم حلاً لهذه المعضلة مع زوجها. وقد يكون له تأثير على الولادة التي قد تطول وتصبح أكثر تعقيداً، وقد يؤثر على وزن الطفل. وقد بيّنت شهادة أن ولادة أم يهوديّة كانت مستعصية. واكتشفت القابلة أن الأم لم تكن تريد أن تختن ابنها، والأب كان برأي مخالف. عندها اقتربت القابلة من الأب وطلبت منه بأن يقول لزوجته بأنه غيَّر رأيه وأنه لن يختن ابنه. فتمّت الولادة بسهولة وبقي الطفل دون ختان.

وقد يعتبر الختان في الصغر كسراً للعلاقة بين الأم والطفل يرقى إلى درجة الصدمة. فالطفل يؤخذ من أمّه إلى غرفة أخرى والى جو آخر ممّا يسبّب له الرعب والقلق. ويفترض أن يؤدّي كسر العلاقة بين الأم والطفل بسبب الختان أو لأي سبب آخر إلى اضطرابات نفسيّة وعصبيّة بالإضافة إلى نتائج صحّية. فقد لوحظ أنه في حالة فصل الحيوان الصغير عن أمّه لمدّة معيّنة، فإن ذلك يؤثر على علاقة الأم مع ابنها إلى درجة رفضها الاعتناء به. وهذه الظاهرة تم اختبارها على الإنسان في علاقة الأم

بابنها. وهذا يؤثر على مقدرة الطفل على الكلام. وهناك أيضاً من رأى صلة بين فصل الأم عن طفلها وانتهاكه للأطفال عندما يكبر.

ونفس المشكلة نجدها في ختان الإناث. تقول الدكتورة عبد الفتاح بأنه يترتب على هذا الختان «فقد ثقة البنت في الآخرين وخاصّة وأنهم يمثلون أحب الناس إليها - وهم الوالدان ومن يحل محلهما. وهنا يرتبط الغدر والأذى الجسمي بأولئك الذين كانوا محل ثقة وحب الفتاة».

ويذكر الدكتور عادل صادق، أستاذ الطب النفسي، حالة سيّدة طلقها زوجها لأنها لم تشعر بأي متعة معه. فاتجهت بعدوانيتها نحو والدها الذي اعتبرته سبب فشل حياتها الزوجيّة، وذلك لإصراره على ختانها في طفولتها.

3) أثر الختان على العلاقة مع المجتمع

بيّنت البحوث التي أجريت على القردة أنه إذا فصل صغيرها عن أمّه وربّي مع لعبة تشبه الأم مصنوعة من قماش ناعم ودافئ تصبح عواطفه مضطربة عندما يكبر. وإذا ربّي مع لعبة تشبه الأم من المعدن البارد، فإن هذا القرد يصبح أبا متعسّفاً. والقردة الأم التي ربّيت دون أمّها تصبح أقل رأفة على ابنها فلا تستجيب لصراخه ولا تطيّب خاطره. وهذه القردة تصبح عنيفة مع أولادها. ونفس الظاهرة نجدها عند الإنسان. فالذي يعاني من الحرمان يحرم الغير من الحنان. والذي يُنتهك يكوّن شخصيّة قلقة على المستوى الجنسي ويحرم الغير من اللذّة الجنسيّة. وقد بيّنت الدراسات أن الأطفال الذين يضربون من أهلهم هم أطفال أهل ضُربوا سابقاً. وهؤلاء الأطفال سوف يضربون أولادهم بعد ذلك. وهذا لا يعني أن كل الأطفال سيصبحون عنيفين مع أطفالهم. فهنا قد يدخل في الاعتبار ما إذا كان الشخص قد حصل على تعويض عاطفي وجنسي في كبره. ونحن نقدّم هنا آثار ختان الذكور المحتملة على المجتمع بصورة مختصرة.

أ) انتقاص تقدير الذكور لأنفسهم وتقديرهم للغير

إذا ما عرف الذكور أن الختان له أثر على العلاقة الجنسيّة، فإنهم سوف ينظرون لأنفسهم نظرة سلبيّة، ممّا يحط من تقديرهم لأنفسهم، خاصّة أن العلاقة الجنسيّة لها علاقة قويّة بتقدير الذات. وهذا له أثر شخصي واجتماعي. فالذي لا يقدّر نفسه لا يقدّر الآخرين. ويؤدّي ذلك إلى الانعزالية والإحباط واستعمال المخدّرات. ولكي يعوّض عدم تقديره لنفسه، يحاول البعض اتخاذ تصرّفات خاصّة. فهو سوف يفضّل العلاقة

الجنسيّة مع الصغيرات في السن حتى يثبت سيطرته ويرفع من تقديره لنفسه. ومن المعروف أن العلاقة الجنسيّة مع من هم أصغر سنّاً ظاهرة منتشرة في العالم الأمريكي والعالم الإسلامي الذي يمارس الختان.

ب) بتر أعضاء الغير

يتساءل البعض عن نسبة أطبّاء الولادة والأطفال والمجاري البوليّة الذين اختاروا هذه المهنة مدفوعين بكرههم للختان.

ويقول «جولدمان» بأنه رغم وجود آثار ضارّة للختان، فإنه من الصعب لمؤيّدي ختان الذكور أن يغيّروا رأيهم وذلك لعوامل نفسيّة قويّة. ومن تلك العوامل ميل الشخص الذي وقع ضحيّة أمر ما أن يعيد ذلك على غيره. وهذا ما يجري في الختان: فالذي خُتن يحاول إعادة الختان على غيره. وقد بيّنت الأبحاث أن الأطبّاء الذين يدافعون عن الختان هم من المتقدّمين في السن والذكور والمختونين.

وهناك من يربط بين الختان وبين ظاهرة ارتفاع نسبة العمليّات التي تجرى على النساء في الولايات المتحدة دون ضرورة طبّية. فمن المعروف أن كل المجتمعات التي تمارس ختان الإناث تمارس أيضاً ختان الذكور. وإذا اعتبرنا أن ختان الذكور ينقص اللذّة الجنسيّة، فهذا يعني أن من يجد نفسه محروماً من حقّه في اللذّة، فهو أيضاً يرفضها لغيره تحت أستر مختلفة منها الخوف والجهل والجراحة الطبّية. والرغبة في الحد من لذّة المرأة بختانها قد تكون إحدى نتائج ختان الذكور. ولذلك يكون التعرّض لختان الذكور شرطاً مسبقاً لكي يتم القضاء على ختان الإناث.

ويلاحظ أيضاً أن النساء المختونات هن اللاتي يقمن بختان البنات، وكذلك الرجال المختونين هم الذين يقومون بختان الذكور. كما أن الرجال يؤيّدون ختان الإناث. فالمبتور يحاول دائماً أن يتصرّف مع الغير كما تصرّف الغير معه. وهكذا تدوم عادة الختان. ويؤدّي نظام العدوى هذا إلى بغض لكل من هو غير مختون. ولذا وضعت الحواجز الدينيّة والاجتماعية بينه وبين جماعة المختونين: فلا يُقبل زواجه أو شهادته أو مشاركته في العبادة أو دفنه في المقابر العامّة. ويُعتبر مسبّة كبرى القول لشخص أنه غير مختون أو ابن غير مختونة. وهنا يقارن البعض بين هذا التصرّف وبين الذين أنتهكوا جنسيّاً في المجتمعات الغربيّة. فهم يقومون بدورهم بانتهاك غيرهم.

وترى عالمة النفس «اليس ميلير» أن هناك صلة بين ختان الأهل لطفلهم، وختان هذا الطفل لابنه عندما يكبر. وهذا هو أحد أسباب دوام عمليّة ختان الذكور والإناث التي

تعتبرها هذه العالمة عمليّة انتهاك للأطفال وأبشع عمليّة إجراميّة تكرّسها البشريّة باسم الدين ولا يتدخّل القانون لمنعها، تحت دعوى أن ذلك يجري لمصلحة الطفل. وتقول هذه العالمة أن المؤرّخين وعلماء النفس سوف يستمرّون طويلاً في التحقّق من الأسباب الكامنة وراء هذه العادة الغريبة لأنهم ينسون في مناقشاتهم التفسير الوحيد الذي لا بد أن يظهر يوماً ما. فماذا عساه أن يفعل الطفل الذي عذبه أهله الجهلة؟ ألن يحاول هذا الطفل أن ينتقم عندما يكبر؟ إنه فعلاً سوف ينتقم إلاّ إذا ما تم شفاء جرحه. فالطفل الذي تم التعدّي عليه لا بد أن يتعدّى على غيره من الأطفال مؤكداً بأن ذلك لا يضرّهم ما دام أن أهله الذين يحبّونه قد فعلوا ذلك معه. أضف إلى ذلك أن الختان يصوّر على أنه مطلب ديني، ممّا يعني في عقول الناس أن الدين لا يمكن أن يكون قاسياً.

ج) العنف والتصرّف غير الاجتماعي

بدأ معارضو ختان الذكور في طرح أسئلة حول علاقة الختان بالتصرّفات غير الاجتماعية والعنف، خاصّة في الولايات المتحدة التي تعتبر المجتمع الأكثر عنفاً في العالم. فمعدّل القتل في هذا البلد يساوي 14 مرّة ما هو عليه في اليابان و 8 مرّات ما هو عليه في الدول الأوروبيّة. ويحاول البعض تفسير هذه الظاهرة بعوامل اجتماعية مثل المخدّرات، وضعف التربية الأخلاقيّة، ووجود الأسلحة بيد الناس، والعنف في التلفزيون، وغياب الأب عن العائلة، وضعف المستوى الدراسي، والبطالة، والعنصريّة، وتدنّي الشعور الديني. ولكن بيّنت دراسة أن مستوى الجريمة في هذا البلد قد ارتفع جدّاً خلال الثلاثين سنة الماضية التي شهدت ارتفاع نسبة المختونين. ممّا يوعز أن هناك علاقة بين الختان والعنف.

وأوسع أنواع العنف في الولايات المتحدة هو العنف الذي يتم داخل البيت. فتقدّر نسبة الأزواج الذين يتعدّون على بعضهم البعض بـ 12%. وفي عام 1993، وجد أن 29% من النساء اللاتي قُتِلن، قد تم قتلهن بيد أزواجهن أو أصدقائهن. فهل هناك علاقة بين كون أن كل 25 ثانية هناك طفل يختن وأن كل 15 ثانية هناك رجل يضرب امرأة؟ إن ضرب الرجل للمرأة قد يكون بقصد السيطرة عليها أو رد فعل على عدم تلبيتها لحاجته. وهذا ينبع من الاعتقاد بأن بيت الرجل هو قلعته، وأن المرأة ملكه. وهذا لا يختلف عن اعتقاد من يوافق على الختان أو يجريه على الأطفال. ففي كلتا الحالتين هناك شعور بحق فرض إرادة الشخص على الآخر. وقد أثبتت دراسات أن انتهاك الأطفال يجعل منهم أزواجاً عنيفين. والختان هو انتهاك جسدي للأطفال. وبعض المختونين يرون أن أمّهاتهم لم تحمينهم عندما تم التعدّي عليهم بالختان. ومن هنا يأتي الشعور بالانتقام من النساء دون وعي بالأسباب التي أدّت إلى هذا الشعور.

وهذا لا يعني حتماً أن كل المختونين يتعدّون على النساء. ولكن الختان قد يكون أحد عوامل العنف ضد النساء.

د) الاغتصاب

الاغتصاب هو نوع آخر من الاعتداء على النساء ويخفي رغبة في الثأر. فهناك في الولايات المتحدة مليوني حالة اغتصاب سنوياً، وأكثر حوادث الاغتصاب لا يعلن عنها. وقد بين بحث أن 15% من الطلاّب مارسوا الجنس اغتصاباً مرّة على الأقل. وقد يكون الاغتصاب من الزوج ذاته. وقد بين بحث أن 60% من الطلاّب قد يغتصبون امرأة في بعض الظروف. و46% من النساء تعرّضن لاغتصاب أو محاولة اغتصاب في حياتهن. ونسبة الاغتصاب في الولايات المتحدة تبلغ سبعة أضعاف الاغتصاب في دول المجموعة الأوروبيّة. فهل هناك صلة بين هذا الاغتصاب وما يحدث للرجال الأمريكيّين في صغرهم من خلال الختان؟

هناك تماثل بين الختان والاغتصاب. ففي الختان يتم ربط الطفل وتعريته وبتر قضيبه قصراً. وهذا لا يختلف عمّا يجري في عمليّة اغتصاب النساء. فكليهما يتم فيه التعدّي على الأعضاء الجنسيّة. والاختلاف الوحيد هو العمر وطبيعة الفعل. وقد عنون الدكتور «مورجان» عام 1965 مقاله عن الختان «اغتصاب القضيب». ويشير عالم النفس «باري وانهولد»، وهو رئيس برنامج الدراسات حول العنف في جامعة كلورادو الأمريكيّة، إلى أن المختونين يعيشون في حالة غضب. فالختان هو أوّل عمليّات اغتصاب للرجال.

والاغتصاب والختان يؤدّيان إلى نتائج مماثلة. فالختان يؤدّي إلى فقد الثقة في الغير والعزلة كما في الاغتصاب. والمرأة التي تغتصب كثيراً ما تكبت الألم وتسكت عنه رافضة التكلم عمّا أصابها. وهذا ما يحدث مع المختونين. وكما أن الخاتن يرى أن الطفل لا يحق له رفض الختان، يعتقد المغتصب أن المرأة لا يحق لها رفض العلاقة الجنسيّة. وكما أن البعض يعتقد أن المرأة المغتصبة تتمتع بالاغتصاب ولا تحس بالألم، فكذلك هناك اعتقاد بأن الطفل لا يتألم بالختان ولا يتأثر به. والذين يغتصبون النساء يظهر أنهم أنفسهم كانوا ضحايا اغتصاب. وارتفاع نسبة الاغتصاب في الولايات المتحدة يتطلب بحث الصلة بين هذه الظاهرة وظاهرة الختان.

هـ) الانتهاك الجنسي للأطفال

أحد أنواع العنف في الولايات المتحدة هو الانتهاك الجنسي للأطفال. وقد بيّنت دراستان بأن 38% من النساء تم انتهاكهن جنسيّاً في صغرهن. ودراسة أخرى بيّنت أن هذه النسبة تصل إلى 45%. وهذه الأعداد قد تكون أقل من الحقيقة لأن ليس كل النساء تقبل التكلم عن هذه المواضيع، وقد يقع الانتهاك ولا تتذكره المرأة. ولذا يمكن اعتبار هذه النسبة 60%.

وهناك من يرى علاقة بين الختان وانتهاك الأطفال. فالذين ينتهكون الأطفال يعانون من انخفاض في تقدير أنفسهم، وإحساس بعدم القدرة. وهذه العوارض نفسها تنتج عن الختان. وهم أيضاً يعانون من صعوبة في تحقيق حاجاتهم الجنسيّة، وهذا أيضاً ناتج عن الختان. وإذا أحس الطفل أنه قد أغتصِب جنسيّاً فإن ذلك سوف يقوده إلى اغتصاب غيره. وإن كان من المؤكد أن ليس كل المختونين ينتهكون الأطفال، وأن أسباب انتهاك الأطفال متعدّدة، إلاّ أن ذلك يتطلب البحث في ما إذا كان الختان هو أحد تلك الأسباب.

و) الانتحار

ارتفع معدّل الانتحار في الولايات المتحدة بصورة كبيرة خلال العقود الأخيرة، خاصّة بين الذكور. فما بين عامي 1950 و1990 أزداد معدّل الانتحار 3,4 مرّة بين الشباب الذين يتراوح عمرهم بين 13 و24 سنة. وقد كان انتحار الذكور 6,5 مرّات أعلى ممّا هو بين الإناث عام 1990. والانتحار ينتج عن الانعزالية وكبت الشعور العاطفي والخجل. وهذه كلها من مخلفات الختان.
هناك أيضاً ظاهرة وفاة الأطفال فجأة تحت عمر سنة والتي تصيب 6000 طفل سنوياً في الولايات المتحدة، من بينهم 60% ذكور. ويجب هنا دراسة مدى تأثير الختان على هذه الظاهرة. فإذا ما اعتبرنا أن الختان يشابه الاغتصاب، وأن الاغتصاب يقتل إرادة وروح الإنسان، فلا يمكن استبعاد أن يكون الختان أحد أسباب هذه الظاهرة.

ز) السرقة

تمثل السرقة مشكلة كبيرة في الولايات المتحدة. وقد تم اقتراف 12,2 مليون حالة سرقة عام 1992. ومعدّل السرقة في هذا البلد في ارتفاع.

هذا وهناك من يعتبر الختان عمليّة سرقة لأنها تجري على ممتلكات شخص دون إرادته. فالتيّار اليهودي المعارض للختان يرى فيه مخالفة للوصيّة التوراتيّة «لا

تسرق» (الخروج 20:15). ونجد تعبير السرقة في كتاب السيّدة الصوماليّة «واريس ديري». فهي تقول في كلامها عن ختان الإناث الذي عانت منه: «إني أعرف أن عدد النساء الغاضبات مثلي اللاتي لن يتمكن من الرجوع إلى الوراء أو يسترجعن ما سُرق منهن في تزايد». وتضيف في مكان آخر: «إني أعتقد أن الجسد الذي أعطاني الله إيّاه عند ولادتي كان كاملاً. لقد سرقني الرجال، وسلبوني قوّتي وتركوني مع عاهتي. لقد سرقوا منّي أنوثتي. وإن كان الله قد حكم بأن بعض أعضائي غير ضروريّة، فلماذا إذاً خلقها؟»

ويرى «جولدمان» أن هناك شبه بين الختان والسرقة. فالذي يُسرق يغضب، ويحس باليأس، ويحاول أن يقلل من أهمّية ما سُرق منه لحماية نفسه. وكثير من المختونين قد يقللوا من أهمّية ما تم سرقته منهم. وإذا ما اعتبر شخص أنه تم سرقته فإنه سوف يسرق غيره كما سُرق هو. فهل الختان هو أحد الأسباب التي تدفع الأشخاص للسرقة رداً على ما فعل ضدّهم؟ هل هناك صلة بين ارتفاع معدّلات السرقة ومعدّلات الختان؟

ح) الصراعات والحروب

يمكن للمجتمع، مثله مثل الأفراد، أن يوجّه غضبه وعنفه داخلياً وخارجياً. وكل ما يساعد في زيادة العنف الفردي يساعد في زيادة عنف المجتمع وميله لشن الحروب. فعدم الثقة، والتقدير المنخفض للذات، ونقصان التعاطف مع الغير، والرغبة في السيطرة عليهم، وكبت العواطف هي من مكوّنات النفسيّة الأمريكيّة. وهذا يؤدّي بدوره إلى الحروب. وهذا لا يعني أن المختونين هم الذين يشنون الحروب، ولكن ليس من المستبعد من أن يكون الختان إحدى المؤثرات في شنها. واستبعاد افتراض تأثير الختان على التصرّفات الاجتماعية لأنها مجرّد تخمينات يعني بحد ذاته رفض معرفة ما إذا كان هناك علاقة سببيّة بين الختان وتلك التصرّفات خوفاً من اكتشاف آثارها. وهكذا يسد الباب أمام البحوث الاجتماعية حتى لا نطرح تساؤلات حول الختان. وقد نقلنا في الفصل الثامن (تحت رقم 4) فقرة من كتاب السيّدة الصوماليّة «واريس ديري» حول علاقة ختان الإناث بالحرب في بلدها.

الفصل العاشر
الوسائل التربويّة والنفسيّة للقضاء على الختان

نقدّم هنا زبدة ما يقترحه معارضو الختان كوسائل تربويّة ونفسيّة وقائيّة حتى يتم القضاء على هذه العادة. ونحيل القارئ إلى الجزء القادم فيما يخص الوسائل القانونيّة.

1) الدراسة الشاملة وكسر حاجز الصمت

لمكافحة الختان لا بد من دراسته من جميع جوانبه التاريخيّة والدينيّة والطبّية والاجتماعية والنفسيّة والاقتصادية والسياسيّة والقانونيّة. والقصد من عمل الدراسات ونشرها هو كسر السر وحاجز الصمت الذي يحيط به ومضاعفاته.

وإن كان ختان الإناث قد أصبح حديث الساعة، إلاّ أن ختان الذكور ما زال التكلم عنه من المحرّمات. فمجرّد القول بأنني أبحث موضوع ختان الذكور يثير التعجّب والاستنكار. وعند إعلاني عن نشر كتابي الأوّل حول الجدل الديني، كتب لي أحدهم قائلاً بأن الختان أمر حسّاس جدّاً دينياً. ولذلك يجب الابتعاد عنه وعدم الخوض فيه. وقد حاول ترهيبي بأني سوف أدخل نار الجحيم، حتى قَبل أن يقرأ كتابي. وقد كتب لي أحدهم: «لماذا تهتم بموضوع ختان الذكور والإناث بينما هناك مشاكل أخرى. هل موضوع الختان يستحق كل هذا الاهتمام؟» فسألته: «هل بتر 15 مليون طفل سنوياً ليس أمراً يستحق الاهتمام؟» ولكنّه لم يرد على سؤالي.

2) التحرّك على المستوى الديني

رأينا أن الدين هو من أهم العوامل التي تتحكم بعمليّة ختان الذكور والإناث. ويلعب رجال الدين دوراً تختلف أهمّيته حسب المجتمعات. ولكن مهما يكن دورهم ضئيلاً، فإنهم يتحمّلون وزر استمرار هذه العمليّة لأنهم كثيراً ما يقومون بممارستها بأنفسهم كما هو الأمر عند اليهود، ولأنهم يبرّرون تلك العمليّة من الوجهة الدينيّة، أو يسكتون عنها. وهم عامّة متمسّكون بالتفاسير الحرفيّة للكتب المقدّسة التي تخدم مصالحهم. والناس من ورائهم يسيرون كقطعان غنم وراء راع أعمى. وهناك ثلاثة حلول للتعامل مع رجال الدين.

أ) علاج وعزل رجال الدين ومنع قراءة بعض النصوص الدينيّة

يلعب الدين دوراً كبيراً في عمليّات البتر الشاذّة. وإن كان ممكناً اللجوء إلى الأدوية الكيماويّة والجراحة لعلاج الشذوذ الفردي، إلاّ أنه من غير المتصوّر إعطاء أدوية مهدّئة لجميع اليهود والمسلمين حتى يكفوا عن ختان أطفالهم.

وقد اقترح «فولكوف» لمكافحة طائفة الخصيان في روسيا تنظيم شبكة من الهيئات السياسيّة والتعليميّة، وإرسال أشخاص للتثقيف ضد تفسيرهم للدين وأطبّاء للمناطق التي تتواجد فيها تلك الطائفة، وعمل قائمة بالخصيان المعروفين ومراقبتهم بشدّة،

وأخذ الإجراءات الإداريّة لفصل الخصيان المتعصّبين ووعّاظهم ومن يقومون بالخصي وإبعادهم عن الشعب. وهذا الأسلوب مثل سابقه لا يمكننا اللجوء إليه في مكافحة الختان دون أن يثير حركة معارضة شديدة.

وقد ذكرنا أن البعض يرى ضرورة منع الشاب الذي يبتر نفسه من قراءة النصوص الدينيّة التي قد تبرّر في عينيه تصرّفاته الشاذّة. إلاّ أنه من الصعب منع قراءة النصوص الدينيّة المتعلقة بختان الذكور خاصّة أن اليهود يعتبرونها من صميم اعتقادهم الديني.

وبدلاً من علاج وعزل رجال الدين ومنع قراءة بعض النصوص الدينيّة، يقترح البعض إشراك رجال الدين في الحملة ضد الختان ويرى البعض الآخر ضرورة تثقيف الشعب وتحصينه ضد تأثير رجال الدين والنصوص الدينيّة.

ب) إشراك رجال الدين في الحملة ضد الختان

هناك تيّار يحاول، إمّا عن جهل أو عن حيلة، كسب تأييد رجال الدين إلى صفوفهم. وبطبيعة الحال ليس من السهل الحصول على تأييد جميع رجال الدين. فالسلطات الدينيّة المسيحيّة واليهوديّة في فرنسا لم تأخذ موقفاً من ختان الإناث رغم مطالبة الحركات النسائيّة.

وإن كان من المفيد إشراك رجال الدين، فإنه يجب تثقيفهم قَبل ذلك. ففاقد الشيء لا يعطيه. ورجال الدين يجهلون أو يتجاهلون موضوع ختان الذكور والإناث حتى في مجال الجدل الديني. وعلى فرض أن رجال الدين وافقوا على تثقيفهم يبقى موضوع إمكانية جرّهم لأخذ مواقف شجاعة. وهذا أمر يكاد يكون مستحيلاً في وقت تتكلم فيه السلطات الدينية عن الحوار بين الأديان. ففتح موضوع الختان قد يعتبر نوع من التحدّي المرفوض ومعاداة للسامية.

ج) تثقيف الشعب وتحصينه ضد سطوة رجال الدين والنصوص الدينيّة

فسّر اليهود المعارضون للختان النصوص التوراتيّة بصورة تاريخيّة فأفرغوها من طابعها الإلهي واعتبروها كتباً غير منزلة. وقد حاول آخرون إبطال مفعول نص الختان باللجوء إلى نص أخرى. فبدلاً من قراءة الفصل 17 من «سفر التكوين» الذي يحتوي على أمر الله إبراهيم بختان ابنه، يقومون بقراءة الفصل 22 والذي يذكر نداء الملاك إبراهيم عندما نوى تضحية ابنه قائلاً: «إبراهيم إبراهيم [...] لا تمد يدك إلى

الصبي ولا تفعل به شيئاً» (التكوين 22:11-12). فهم يعتبرون النص الأول منسوخ بالنص الثاني.

وأمّا عند المسيحيّين، فإن كتبهم المقدّسة قد أخلت الختان من طابعه اليهودي الإجباري وأعطت القيمة ليس لختان الجسد بل لختان القلب. كما أن آباء الكنيسة اعتبروا الختان منافياً لمبدأ كمال الخلق. وأن من يختن عن اعتقاد ديني يقترف خطيئة. ولكن التيّار المسيحي المتعصّب يرفض التخلي عن النصوص التوراتيّة التي يعتبرها نصوصاً موحاة يجب تطبيقها. وقد رد عليهم معارضو الختان بإظهار تناقض تلك النصوص مع روح التعاليم المسيحيّة.

وفيما يخص المسلمين، فإن المشكلة مع النصوص الدينيّة أقل صعوبة ممّا هي عليه عند اليهود والمسيحيّين. فليس من الصعب صدّهم عن ختان الذكور والإناث إذا ما أثبتنا لهم أن القرآن لم يذكرهما، وأن الأحاديث التي تتكلم عنهما ضعيفة، وأنه من غير الثابت أن النبي محمّد قد ختن، وأن الختان في حقيقته مخالف لفلسفة القرآن الذي ينادي بكمال خلق الله وعدم التعدّي على سلامة الجسد وعدم الضرر. وتتمثل المشكلة عند المسلمين خاصّة في جهلهم لمحتوى نصوصهم الدينيّة وانقيادهم وراء رجال دينهم بصورة عمياء.

وعلى من يكافح ضد ختان الإناث والذكور أن يعي صلتهما بالكتب المقدّسة وإمكانية التعامل مع هذه الكتب. وقد يرى البعض ضرورة حذف فكرة الوحي للتخلص من سيطرة هذه الكتب كما فعل المجدّدون اليهود لفترة ما. ولكن هذا الفكر لا يمكن له أن يترعرع إلاّ في جو كامل من الحرّية الفكريّة، ولا يمكن التعاطي معه إلاّ على مستوى الطبقة المثقّفة. ممّا يعني أنه لا يستطيع التأثير على الشعب. ولذلك فإنه من الضروري استعمال منطق أقل جرحاً وحرجاً إذا ما أردنا أن نحمي أطفالنا على المدى القريب. وكما يقول المثل العامّي: «لا تعطي الجوز للي ما عندو أسنان ولا المشط للأقرع». وليس كل الناس على مستوى واحد من الثقافة ووسع الصدر.

3) أساليب توصيل المعلومات للعامّة

هناك أسلوب للكلام والتعامل مع الغير مهما كان الموضوع. هناك أولاً أسلوب الجد باتباع أسلوب «التوليد» الذي كان سقراط أكبر روّاده. فالداية لا تولد الطفل بل تنتظر ولادته. والقصد من هذا الأسلوب هو جر المستمع إلى اكتشاف مكنون نفسه والوصول إلى وحدة في الرأي. وترى ناهد طوبيا أنه من الضروري تبنّي لغة ولهجة بعيدة عن الغضب والانفعال، حتى وإن كان هناك مبرّر للغضب والانفعال. فالغضب والانفعال

غير مجديين في التعامل مع القضايا الاجتماعية. فهذه القضايا تتطلب تفكيراً وليس خصاماً.

وإن كان من الضروري اللجوء إلى المنطق والتفكير الهادئ، إلاّ أنه يجب عدم تجاهل الفكاهة والكاريكاتير لأنّهما أكثر فائدة من آلاف المحاضرات والكتب للوصول إلى إلغاء الختان. فالختان مصيبة مبنيّة على خرافات ولا يحتاج المرء إلاّ للقليل من الجهد للاقتناع بسخافتها.

ورغم إننا نعيش عصر التخصّص، إلاّ أن الإنسان يبقى محكوماً في تصرّفاته بعناصر مختلفة منها العقل والشعور والدين. وإن كنّا كلنا نتوق إلى أن تكون تصرّفاتنا عقليّة ومنطقيّة، إلاّ أننا لا نسد آذاننا للمشاعر الإنسانيّة. فالبعض يتذوّق الشعر، ويهتز لسماعه، فيؤثر في حياته. وهناك من يتأثر بالنكتة وخفة الروح أكثر من الجدل الجاد المتعب. وهناك من يقتنع بمثل عامّي. ويرى معارضو ختان الذكور أن هناك حلقة مفقودة في معركة ختان الذكور ألا وهو الأدب والإحساس. ويشدّد أحد المحامين على أهمّية أن يعتمد الدفاع في قضيّة الختان على المعطيات العلميّة كما على المشاعر.

ونحن نؤكد على أن للخطيب والشاعر والأديب وكاتب المسرحيات ومخرجي الأفلام والممثلين دور يساوي، إن لم يكن يفوق، دور المتخصّصين في الدين والقانون والطب وغيرها من العلوم، لأنهم يعرفون كيف ومتى يمكن التأثير على قلوب الناس وعقولهم. ونشير هنا إلى أن المؤتمرات التي تنظمها منظمة مكافحة الختان تلجأ إلى هذه الوسائل وتنشر ضمن أعمالها قصائد شعريّة ضد الختان.

بالإضافة إلى الأساليب السابقة، هناك من لجأ إلى المظاهرات أمام المستشفيات والهيئات الطبّية. وقد شاركت في إحدى تلك المظاهرات عام 1994 في واشنطن، قام خلالها بعض المتظاهرين بحرق وثيقة ميلادهم التي سجّل عليها اسم الطبيب الذي ختنه. كما أحرقوا وثيقة حقوق الإنسان لأنها لم تتضمّن الحق في سلامة الجسد.

وقد بدأ معارضو ختان الذكور في أمريكا ما يسمّى «اقتحام المستشفيات»، بإقامة مظاهرات صاخبة أمامها تأييداً للممرّضات التي يتعرّضن للفصل بسبب رفضهن المشاركة في عمليّات الختان. وقد ذكرنا كيف أن أحد المعارضين قام بسرقة الآلة التي يتم الختان عليها كرد على سرقة قام بها المستشفى عليه قَبل 20 سنة عندما قطع غلفته.

ويقول معارضو الختان أن الأفعال تتكلم بصوت أعلى من الكلام، وإذا اجتمعا فتكون النتيجة أيضاً أكبر. فالذين أصيبوا في جسدهم يستطيعون أن يعبّروا عن آلامهم بصورة مؤثرة أكبر من الكلام الأكاديمي البحت.

4) علاج الآثار النفسيّة للبتر الجماعي الثقافي

بالإضافة إلى الآثار الطبّية الضارّة، يترك ختان الذكور والإناث أثاراً اجتماعية ونفسيّة ضارّة تدوم مدى الحياة. ويرى معارضوه ضرورة الاهتمام بها من خلال الوسائل النفسيّة والتربويّة لمساعدة الشخص المختون والمجتمع وتفادي تكرار الختان.

يقول عالم النفس «جولدمان» عن ختان الذكور أنه إذا ما عرف الشخص بأنه وقع ضحيّة الختان وأنه يعاني من أضراره النفسيّة والصحّية، عند ذلك سوف يأخذ ثلاثة مواقف: الانغلاق على الذات، أو البحث عمّن يستمع له، أو الثورة. وأفضل أسلوب للقضاء على الختان والشفاء من آثاره هو التعبير عنه لأنه يؤدّي إلى راحة نفسيّة ويساعد على استعادة الثقة والإحساس بقوّة ذاتيّة. ولكن التعبير عن الختان ليس مقبولاً في المجتمع عامّة. لذلك قليلاً ما يبوح الشخص عن آلامه. وإذا ما اختار المرء التعبير عن مشاعره، فيجب أن يكون ضمن محيط يثق به. فليس كل مختص في مجال الطب النفسي منفتح على موضوع الختان بسبب حساسيّته. وبما أن الختان له صلة بالعلاقة الجنسيّة، فقد يكون من المهم أن يكون انفتاح المختون مع شريك الحياة الجنسيّة. وإذا كان التعبير عن الشعور ضمن العائلة، فقد يكون مفيداً أن يقدّم معلومات كتابيّة للطرف الآخر حتى يعي المشاكل التي تتعلق بالختان. وإذا عبّر الأهل عن ندمهم لإجراء الختان، فإن ذلك سوف يخفف من الغضب الذي يكنّه المختون نحوهم.

هذا وعمليّة اكتشاف الذات ومحاولة شفائها بحد ذاتها ضروريّة إذا ما أردنا أن نتجنّب الدائرة المفرغة. فقد سبق وذكرنا أن الشخص الذي يتم انتهاكه صغيراً، يقوم عامّة بانتهاك غيره كبيراً. ولكن حتى لا تستمر هذه العمليّة إلى ما لا نهاية، يجب توعية الشخص الذي أنتهك ومساعدته لكي يتغلب على مشاكله الذاتيّة. فإن كان من غير الممكن إرجاع المختون إلى حالته الطبيعيّة جسديّاً ونفسيّاً، فعلى الأقل يجب مساعدته حتى لا يقوم بدوره بانتهاك غيره. وهذا هو الدور الهام لمعارضي الختان في توعية المجتمع أمام ظاهرة انتهاك الأطفال. ونحن ننقل هنا للقارئ رأي عالمة النفس «اليس ميلير» المتخصّصة في هذا المجال.

تقول هذه العالمة بأن القاتل لم يكن ليقتل لو أنه استطاع أن يتذكر كيف أنتُهك في صغره ويعيش تلك اللحظة ويفكر فيها. لذا يجب كسر القمقم الذي كبت فيه الإنسان

تجربته في صغره، وإعادته لوعيه، حتى يستطيع أن يتخلص من رغبته في إعادة ما عاشه من ألم على غيره. ويجب لذلك التخلص من المبرّرات التي تردّد لصالح من قام بعمليّة الانتهاك.

فمثلاً يجب أن يعي المختون أنه تم بتر قضيبه والتغلب على حرّيته والسيطرة عليه بحجّة الدين أو حجج أخرى، وأن هذه الحجج لا يمكن الاستناد عليها للتصرّف معه بهذا الأسلوب الوحشي. وهكذا يستطيع أن يفلت من الحلقة المفرغة فلا يقوم بدوره بختان ابنه. وتحمل العالمة «ميلير» على استغلال الدين استغلالاً سيّئا. فالدين يعلمنا أن نحترم أهلنا ولذلك نحجم عن اتهامهم بما يفعلونه معنا. لقد تعوّدنا أن ننظر إلى أعمال القسوة وكأنها أعمال حب. لقد وقعنا تحت تأثير تعاليم التوراة التي تقول: «من لا يستعمل عصاه يبغض ابنه والذي يحبّه يبادر إلى تأديبه» (الأمثال 24:13). ولا أمل في الخروج من المأزق إلاّ بالاعتراف بالحقيقة وهو أن الختان عمليّة بتر وحشيّة مهما كانت الأسباب الدينيّة والاجتماعية. وهذا أيضاً مهم للمشرّع نفسه، فهو لن يحرّك ساكناً قبل أن يعترف بأن الختان جريمة بحق المجتمع لها نتائجها الوخيمة.

وترى هذه العالمة في ختان الإناث والذكور عمليّة انتهاك أحيطت بالقدسيّة. وللتخلص منها يجب كسر هذه القدسيّة التي تحيطها والاعتراف بأن هذا الفعل هو جريمة، أو حسب تعبيرها «أبشع جريمة تقترفها البشريّة» تم تكريسها ولا يوجد أي قانون يمنعها. وفي كل من ختان الذكور والإناث هناك شعور بأن ذلك لمصلحة الأطفال. وهذه العمليّة القاسيّة التي تتم على الصغير تقود هذا الأخير عندما يكبر إلى إجراء مماثل على الغير مع نفس التبريرات. وتضيف بأن كل مجرم كان في بداية الأمر ضحيّة. وحتى لا يكون كل ضحيّة مجرماً يجب توعيته وإشعاره بما وقع عليه في صغره. وفقط عندما يستطيع أن يحس ما أصابه يمكنه أن يرأف بالغير. ويجب في ذلك مصاحبته حتى لا يقود نفسه وغيره إلى الهلاك.

الجزء الخامس
الختان والجدل القانوني

يتم سنوياً بتر ما لا يقل عن 13 مليون طفل و 12 طفلة من خلال عملية الختان التي تعتبرها «اليس ميلير» أكبر جريمة في الإنسانية. ورغم هذه الأرقام المخيفة فإن المشرع والمحاكم ورجال القانون لا يعيرون كبير اهتمام لهذه الممارسة بسبب حساسيتها الدينية والسياسية وعلاقتها بالربح.

درسنا في الجزء الثاني موضوع الختان من وجهة نظر الشرائع الدينية اليهودية والمسيحية والمسلمة. وسوف نستعرض هنا المشاكل التي يطرحها الختان على مستوى القانون الوضعي، أي القانون الوطني والدولي.

الفصل الأوّل
منع ختان الذكور عبر التاريخ

تقول طبيبة يهوديّة معارضة لختان الذكور: «حاول مضطهدو اليهود دائماً منع الختان. وكان هدفهم القضاء على الشعب اليهودي وليس لاعتبارات إنسانيّة لصالح الأطفال». وهي تجهد نفسها لإقناع اليهود بأن معارضتها هي للختان نابعة من أسباب إنسانيّة، وتطالب ترك نقد ختان اليهود لليهود أنفسهم حتى لا يفسّر هذا النقد على أنه عداء لليهود. والقول بأن منع الختان لجأ إليه مضطهدو اليهود للقضاء عليهم هو تزوير للتاريخ.

1) منع ختان الذكور في العصور القديمة

أوّل ذكر لمنع الختان هو ما تم في عصر ملك إسرائيل آحاب (توفى عام 853 ق.م). وهذا يستشف من قول النبي إيليّا: «إني غرت غيرة للرب، إله القوات، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك» (1 ملوك 19:9-10). فعبارة «تركوا عهدك» قد تشير هنا إلى «ترك عهد الختان». وتخليداً لموقف النبي إيليّا، يضع اليهود كرسياً خلال الختان يُدعى كرسي النبي إيليّا كشاهد على إتمام العهد. والنص المذكور لا يقدّم تفاصيل هذا

المنع أو أهدافه. وإن صح هذا الخبر، فإن منع الختان نابع من سلطات اليهود ذاتها، وقد تصدّى لهذا المنع رجال الدين اليهود.

وثاني ذكر لمنع الختان هو ما تم تحت سيطرة اليونانيين. فسفر المكابيين الأوّل يخبرنا بأن يهوداً رأوا في انفصالهم عن الأمم مضرّة لهم. فذهبوا إلى الملك اليوناني «أنطيوخس»، ملك سوريا حينذاك، طالبين منه أن يعملوا «بأحكام الأمم»، فأذن لهم ذلك. فقاموا ببناء مؤسّسة رياضيّة بدنيّة في القدس وعملوا لأنفسهم غلفاً وتركوا أولادهم دون ختان. ثم أصدر الملك قانوناً يمنع الختان ويجازي المخالفين بالقتل. وعلى إثر ذلك المنع، قام رجال الدين «الحسيديون» بحملة معادية ضد من تخلى عن الختان، فختنوا بالقوّة كل من وجدوه في بلاد إسرائيل من الأولاد الغلف. ويبيّن هذا النص أن اليهود هم المبادرون بترك الختان وأن رجال الدين قد تصدّوا لهم. وليس هناك مصدر تاريخي حيادي يثبت إصدار الملك تلك القوانين الصارمة. وقد تكون من اختلاق مؤلف سفر المكابيين لتبرير تصرّفات رجال الدين والظهور بمظهر المضطهد.

وإذا ما انتقلنا إلى خبر منع الإمبراطور «هادريان» (توفى عام 138) للختان، فهو أيضاً مشكوك فيه. ولفهم ما حدث، يجب أن نشير إلى أن اليهود كانوا يمارسون الختان قَبل «هادريان» رغم أن المفكرين الرومان كانوا يستهزئون من هذه العادة ويعتبرونها علامة تعالي اليهود على غيرهم من الشعوب. وقد حاول الأباطرة الرومان اتخاذ قوانين ذات طابع إنساني بقصد الحد من التعدّي على سلامة الجسد. فقد منع قانون روماني صدر عام 97 خصي العبيد تحت طائلة مصادرة نصف أملاك من يقوم بذلك. ويشير قانون آخر بأن من يخصي رجلاً، «بهدف اللذّة أو الجشع»، يعاقب بالنفي إلى جزيرة وتصادر جميع أمواله، والذين كانوا ينتمون لطبقات فقيرة كانوا يصلبون أو يرمون إلى الوحوش لتفترسهم. وهذه القوانين لم تمس ختان اليهود. وقد قام بعض المسيحيّين بختان أنفسهم لكي يستفيدوا من امتيازات اليهود، ومن بينها عدم المشاركة في الطقوس الدينيّة تكريماً للإمبراطور الذي كان يعتبر إلهاً حيّاً في الأرض. وهكذا كان ينظر إليهم وكأنّهم يهود من قِبل الشعوب وكانوا ينجون من اضطهاد اليهود لهم.

وقد أعاد «هادريان» عام 129 أو 130 منع خصي الحر أو العبد، بإرادته أو غصباً عنه، وعاقب على هذه الجريمة بالإعدام ومصادرة الأموال. وذكر أن الطبيب الذي يجري تلك العمليّة ومن يوافق على إجراء «بتر أعضائه الجنسيّة» يعاقب بالإعدام.

وقد أثار استعمال تعبير «بتر الأعضاء الجنسيّة» في هذا القانون جدلاً كبيراً بين الباحثين، وخاصّة اليهود، معتبرين بأنه يعني الختان، وأن ذلك كان موجّهاً ضد

اليهود. وهم يشيرون إلى أن هذا المنع كان سبباً في نشوب ثورة «بار كوخبا» بين عام 132-135. فهناك نص تاريخي يذكر أن اليهود قد ثاروا لأنهم منعوا من «بتر الأعضاء الجنسيّة». فربطوا بين هذا النص وبين قانون «هادريان». كما اعتمدوا على قانون أصدره الإمبراطور «أنطونينوس» (توفى عام 161) يقول فيه بأنه يسمح لليهود ختان أطفالهم، ولكنّهم إذا ما مارسوه على غيرهم من الأمم فتجري عليهم العقوبة المطبّقة على من يمارس الخصي. فاعتبروا هذا القرار استثناءاً على المنع الذي كان سارياً في زمن «هادريان». ولكن هذا التفسير لم يلقى إجماعاً بين الباحثين. فقد استمر اليهود في ممارسة الختان في روما ذاتها في زمن «هادريان». وعلى فرض أن «هادريان» منع الختان خارج روما، فإن هذا القرار لم يكن عملاً عدائياً ضد اليهود بقدر ما هو عمل يتفق مع مبادئ هذا الإمبراطور الذي كان يرى في الختان عادة سيّئة، فأدخلها ضمن منعه بتر الأعضاء الجنسيّة. وقد يكون منعه وسيلة لمساندة أولئك اليهود الذين حاولوا استرجاع الغلفة وأبدوا رغبتهم في ترك الختان. ففي تلك الحقبة التاريخيّة، فرض رجال الدين اليهود، إضافة إلى بتر الغلفة، عمليّة سلخ بطانة الغلفة لمنع شد جلد القضيب وإلغاء علامة الختان. وهكذا يكون قرار «هادريان» موجّهاً ضد رجال الدين اليهود، وليس ضد اليهود أنفسهم.

2) منع ختان الذكور في العصور الحديثة

إذا انتقلنا إلى العصر الحديث، نجد أن اليهود المجدّدين في القرن التاسع عشر في ألمانيا قاموا بمحاولة لإلغاء الطابع الإجباري للختان وجعله أقل خطراً على الصحّة كما رأينا في القسم الأوّل. وفي فرنسا، قامت السلطات المدنيّة عام 1843 بإلغاء مص قضيب الطفل، وهي المرحلة الثالثة من ختان الذكور عند اليهود، بسبب مخاطرها الصحّية. وفي كلتا الحالتين قاوم رجال الدين اليهود هذه الخطوة مطالبين بممارسة الختان بالطريقة التي يرونها حتى وإن تسبّب ذلك في تعريض الأطفال لخطر الموت. وما زال حتى يومنا هذا رجال دين يهود وخاتنين يرفضون تدخّل السلطات المدنيّة في شؤونهم ويدافعون عن مص قضيب الطفل.

وفيما يخص الاتحاد السوفييتي، يلاحظ أنه لم يكن هناك أي قانون يمنع ممارسة الختان لا قَبل استلام الشيوعيين الحُكم ولا بعده. وتشير المصادر اليهوديّة ذاتها بأن المسلمين واليهود الذين كانوا يعيشون في وسطهم مارسوا بصورة واسعة ختان الذكور. إلاّ أن الختان تراجع بدرجات متفاوتة بين اليهود المنتشرين في المناطق الأخرى لأسباب ثلاثة:

- هناك أوّلاً موقف اليهود العلمانيين المعادي للختان.

- ثم هناك عدم وجود ثقافة روسيّة مؤيّدة للختان. وكان موقف الهيئات الطبّية الرسميّة معادياً لهذه الممارسة، كما هو الأمر في دول غربيّة كثيرة. فقد كانت تعتبر الختان ضارّاً بصحّة الطفل، يجريه أشخاص غير مدرّبين طبّياً وفي أوضاع غير صحّية، ومن مخلفات الحضارة البدائيّة، وطقساً دينيّاً يضر بالمواطنين مثله مثل باقي الطقوس الدينيّة، وعلامة تعصّب شعوبي تُخَلف شعور بالتعالي على الغير وتزرع البغضاء نحوهم.

- وأخيراً هناك موقف السلطات الحاكمة المعادي للختان. فتلك السلطات كانت تعتبره انتهاكاً للدستور السوفييتي الذي يقر بالحق في عدم الانتماء لأي ديانة. وختان الطفل اليهودي والمسلم يعتبر انتهاكاً لهذا الحق إذ يفرض عليه علامة انتماء دائمة. كما أن الختان يعتبر مخالفاً للمادّة 227 من قانون العقوبات التي تحرّم الممارسات الدينيّة التي تضر بصحّة المواطنين. وعليه، فإن الخاتن اليهودي كان يعتبر مسؤولاً عن أيّة مضاعفات طبّية تنتج عن الختان لممارسته عملاً طبّياً من اختصاص رجال الطب. والأهل الذين كانوا يخضعون أطفالهم للختان، كانوا يتعرّضون لمضايقات ويفقدون امتيازات وحقوقاً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاتحاد السوفييتي قد لاحق أيضاً أتباع طائفة الخصاة المسيحيّة بصورة أشد ممّا لاحق اليهود لممارستهم بتر الأعضاء الجنسيّة.

هذا ولا نجد أي قانون يمنع الختان في حقبة الحُكم النازي في ألمانيا. فاليهود كانوا يمارسون الختان حتى في المعتقلات. فهذا النظام لم يجرّم الختان، لا بل اعتبره حليفه إذ يُسَهِّل عليه التعرّف على من هو يهودي ومن هو غير يهودي.

وبناء على ما سبق، يمكننا القول إن الختان نادراً ما منع في التاريخ رغم أنه تعدّي صارخ على سلامة الجسد، وأن الذين منعوه لم يقصدوا من ذلك القضاء على اليهود، خلافاً لما يدّعيه بعضهم. وبدلاً من البحث عن محاولات «أعداء» اليهود لمنعهم من ممارسة الختان، على المؤرّخين البحث عن اضطهاد رجال الدين اليهود لإتباعهم وإجبارهم على ممارسة الختان، متعدّين بذلك على حقّهم في تقرير مصيرهم وحقّهم في سلامة جسدهم.

الفصل الثاني
إدانة المشرّع الدولي لختان الإناث

على العكس ممّا حدث مع ختان الذكور، فإن المشرّع والمفكرين لم يعيروا ختان الإناث في العصور الماضية أي اهتمام. وقد عرف هذا الختان انتشاراً في دول غربيّة في القرن التاسع عشر حتى أواسط القرن العشرين، تحت رعاية رجال الطب، يساندهم في ذلك رجال الدين، كوسيلة للحد من الاستمناء والأمراض التي تنسب إليه. ولكن بسبب عدم وجود أساس ديني مباشر لختان الإناث في التوراة، وبسبب تزايد فعاليّات الحركات النسائيّة الغربيّة، أخذت الدول الغربيّة قَبل وبعد الاستعمار تتصدّى له من خلال التشريعات الوطنيّة والدوليّة ووسائل الإعلام. وقد استطاعت هذه الدول في تأليب منظمات غير حكوميّة في الدول التي تمارسه، تدعمها ماليّاً وفكريّاً. وقد زادت حدّة هذه الحملة بسبب تدفق المهاجرين الأفارقة إلى الدول الغربيّة. هذا ما نود عرضه في هذا الفصل.

1) الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصّصة

نستعرض هنا بصورة مختصرة المواقف التي تبنّتها الأمم المتحدة ومنظمّاتها المتخصّصة حول ختان الإناث.

كان أوّل اهتمام للمشرّع الدولي بختان الإناث في المؤتمر الدولي الذي عقدته عصبة الأمم عام 1931 في جنيف حول وضع الأطفال الأفارقة. فقد أثارت «دوكة أتهول» خلاله موضوع ختان الإناث في قبيلة «كيكويو» الكينيّة. وقد طالب ممثلون أوروبيون المؤتمر بدعوة حكومات الدول التي تمارس هذه العادة «الوحشيّة» اعتبار من يشارك فيها مقترفاً جرماً. ولكن أكثريّة الممثلين لم يكونوا من هذا الرأي. فقد كان هناك رأي عام بأن يثقّف الشعب حتى يتمكن من الحفاظ على هذه العادة أو رفضها كما يرى.

وفي 19 يوليو 1958، دعا المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة منظمة الصحّة العالميّة «القيام بدراسة حول استمرار تقاليد تُخضِع الفتيات لعمليّات طقسيّة والخطوات التي اتخذت أو يقصد اتخاذها لوضع حد لهذه الممارسات». إلاّ أن الجمعيّة العامّة لمنظمة الصحّة العالميّة رفضت هذا الطلب في 28 مايو 1959، معتبرة أن «تلك العمليّات الطقسيّة ناتجة عن مبادئ اجتماعية وثقافيّة ليس لمنظمة الصحّة العالميّة صلاحيّة لدراستها».

وأوّل رد فعل من قِبَل منظمة الصحّة العالميّة على مطالب الأمم المتحدة لدراسة ختان الإناث جاء على شكل تقرير حول آثاره الصحيّة قدّمه في 30 سبتمبر 1976 الدكتور «روبيرت كوك»، المستشار الصحّي لمكتبها الإقليمي في منطقة شرق المتوسّط. وقد قسّم هذا الدكتور الأمريكي ختان الإناث إلى أربع فئات وهو لا يدينها جميعها. فهو لا يرى مضرّة في «ختان السُنّة» الذي يوازي ختان الذكور ما دامت الولايات المتحدة تمارسه أيضاً.

وقامت منظمة الصحة العالمية ما بين 10 و 15 فبراير 1979 بتنظيم مؤتمر في الخرطوم حول الممارسات التقليديّة المؤثرة على صحّة النساء والأطفال، من بينها عادة ختان الإناث، حيث تم جمع ممثلين عن عشر دول هي بوركينا فاسو، وجيبوتي، ومصر، والحبشة، وكينيا، ونيجيريا، وعُمان، والصومال، والسودان، وجنوب اليمن. وقد صدر عن هذا المؤتمر توصيات بتبنّي سياسات وطنيّة واضحة للقضاء على ختان الإناث دون تفريق بين أنواعه المختلفة. ويعتبر هذا المؤتمر نقطة تحوّل في النضال ضد ختان الإناث. فمنذ ذلك الحين، تزايد اهتمام منظمة الأمم المتحدة والهيئات التابعة لها بهذا الموضوع.

وفي يونيو 1982 أعلنت منظمة الصحّة العالميّة في لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة بأنها تدعم توصيات مؤتمر الخرطوم. وأضافت، متناسيّة موقفها السلبي السابق، بأنها «كانت دائماً ترى وجوب عدم إجرائه من قِبَل أصحاب المهن الصحّية في أي محيط كان بما في ذلك المستشفيات والمنشآت الطبّية الخاصّة».

وفي فبراير 1984 عقدت مجموعة العمل الخاصّة بالممارسات التقليديّة المؤثرة على صحّة النساء والأطفال بالتعاون مع منظمة الصحّة العالميّة مؤتمراً في داكار. وقد تم الاتفاق بين الحاضرين على ضرورة وضع ختان الإناث في التقرير السنوي المقدّم للجمعيّة العامّة لمنظمة الصحّة العالميّة من قِبَل جميع الدول ذات العلاقة.

وفي 1990 دخلت حيّز التنفيذ اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل التي تقول في الفقرة الثالثة من المادّة 24: «تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير الفعّالة والملائمة بغية إلغاء الممارسات التقليديّة التي تضر بصحّة الأطفال». وقد تم في ذاك العام تبنّي تعبير بتر الأعضاء الجنسية للإناث بدلاً من تعبير الختان وذلك في مؤتمر عقدته في أديس أبابا اللجنة الأفريقية الخاصّة بالممارسات التقليديّة المؤثرة على صحّة النساء والأطفال بالتعاون مع منظمة الصحّة العالميّة.

وفي سبتمبر 1994 تضمّن برنامج العمل الصادر عن المؤتمر الدولي للسكان والتنمية الذي عقد في القاهرة توصيات حول ختان الإناث مطالباً الدول باتخاذ الخطوات لإيقافه ودعم المنظمات الجماعيّة والدينيّة التي تكافح ضدّه. ويذكر التقرير بين مظاهر العنف التي تتعرّض له النساء ختان الإناث والذي يعتبر خرقاً لحقوق المرأة الأساسيّة وخطراً كبيراً ودائماً على صحّتهن، يُقصد منه كبح العلاقات الجنسيّة للنساء.

وفي سبتمبر 1995 حث برنامج العمل الصادر عن المؤتمر الخاص بالمرأة المنعقد في بكين الحكومات والمنظمات الدوليّة وغير الحكوميّة لوضع خطة للقضاء على التمييز ضد الفتيات ومن ضمنه ختان الإناث. وقد أكد المؤتمر على واجب الحكومات لمكافحة العنف ضد النساء كأولويّة، بما في ذلك ختان الإناث، من خلال تثقيف العامّة وسن القوانين ورفض ممارسته من قِبَل المهن الطبّية باعتباره خرق لحقوق الإنسان وخطر على صحّة المرأة. كما أكد على ضرورة العمل من خلال منظمات الأمم المتحدة المختلفة لتشجيع الدول الإفريقيّة لوضع خطة وطنيّة تتفق وثقافتها لإلغاء ختان الإناث.

وفي فبراير 2000 اتخذت الجمعيّة العامّة قراراً بخصوص الممارسات التقليديّة المؤثرة على صحّة النساء والفتيات معتبرة تلك الممارسات عنف ضدّهن وانتهاك لحقوقهن الأساسيّة، ومطالبة الحكومات والمنظمات المدنيّة السعي لتغيير العادات بصورة جوهريّة.

ويمكننا اختصار موقف منظمة الأمم المتحدة وهيئاتها المتخصّصة من الختان كما هو عليه الأمر اليوم في النقاط التالية:

- إدانة ختان الإناث بجميع أنواعه واعتباره مخالف للحق في سلامة الجسد والصحّة الجسديّة والنفسيّة، وتمييز وعنف ضد النساء.
- رفض إجراء هذه العمليّة في الأوساط الطبّية.
- المطالبة بوضع قوانين لمنع ختان الإناث ومعاقبة مهني الصحّة الذين يمارسونه.
- لا تدخل هذه المنظمات في التفاصيل فيما إذا كان مسموحاً ممارسة ختان الإناث على البالغين.

وكما هو واضح فإن مواقف الأمم المتحدة تقتصر على ختان الإناث دون ختان الذكور. وقد أرسلت للسيدة حليمة الورزازي، مقررة الأمم المتحدة الخاصّة بالعادات التقليدية الضارّة، عدّة أسئلة لاستشفاف موقف منظمتها. وهذا هو ردّها كما وصلني في 7 فبراير 1997 (مع تصرّف بسيط وضعته بين قوسين معكوفين للإيضاح):

1) هل تكافح الأمم المتحدة ضد ختان الذكور والإناث أم فقط ضد أحدهما؟ وفي هذه الحالة أي منهما؟ ولماذا تهمل الآخر؟

الجواب: تعتبر الأمم المتحدة فقط ختان الإناث عادة ضارّة يجب القضاء عليها. أمّا ختان الذكور فهو ليس من اهتمامات الأمم المتحدة. وأنا أعتبر أن هذه الممارسة، بالإضافة إلى كونها دينيّة عند اليهود والمسلمين، هي عادة مرتبطة بالنظافة التي يمارسها الأطبّاء الأمريكيّون حالاً بعد الولادة، مهما كان دينهم على اليهود والمسلمين والكاثوليك أو غيرهم. ولهذا أرى بأنه ليس من المناسب الخلط بين ختان الإناث الضار للصحّة وختان الذكور الذي هو، على خلاف ختان الإناث، مفيد للصحّة.

2) هل تتفق الأمم المتحدة مع القول بأن الأفراد أو المجموعات الذين لا يمارسون ختان الذكور والإناث أو أي منهما يحق لهم مكافحة هذه الممارسات؟ مثلاً هل تقبلون أن يكافح البيض ضد ختان الذكور أو الإناث الذي يمارسه السود؟ أو أن يكافح المسيحيّون ضد ختان الذكور والإناث الذي يمارسه المسلمون واليهود؟ إن كان الجواب نعم أو لا، الرجاء إعطاء الأسباب في كلا الحالتين.

الجواب: إن هذا السؤال، كما يبين لي، ذات طابع تمييزي عنصري فيما يخص اللون والدين. إن الأمم المتحدة بكفاحها ضد ختان الإناث، لا تكافح بسبب اللون أو الدين، ولكن لحماية النساء والأطفال من المضار الكثيرة لهذه الممارسة.

3) هل تقبل الأمم المتحدة ممارسة ختان الذكور أو / والإناث لأسباب دينيّة على الأطفال؟ أو على البالغين بموافقتهم؟ مهما كان ذلك الدين: يهوديّة، أو إسلام، أو ديانة تقليديّة animism؟

الجواب: إني أشارك الأمم المتحدة رأيها الطبّي فيما يخص ختان الذكور مهما كان دين الأطفال أو البالغين.

4) هل تقبل الأمم المتحدة ختان الذكور أو / والإناث لأسباب ثقافيّة على الأطفال؟ أو على البالغين بموافقتهم؟ مهما كانت تلك الثقافة: غربيّة أو غير غربيّة؟

الجواب [فقط عن ختان الإناث]: إني أرفض ختان الإناث. ورفضي لمثل هذه الممارسة لا علاقة له بالثقافة. إن الأمم المتحدة تعتبر كل خرق لسلامة جسد النساء والفتيات مع ما يلحقه من نتائج بسبب ختانهن هو خرق لحقوق الإنسان. وعليك في ذلك أن ترجع لإعلانات بكين أو القاهرة بخصوص النساء والسكان. ويمكن لمركز حقوق الإنسان أن يرسل لك التقارير الخاصّة ببتر الأعضاء الجنسيّة للإناث.

5) هل تقبل الأمم المتحدة بأن يجري الأطبّاء ختان الذكور أو / والإناث لأسباب دينيّة أو ثقافيّة (وليس لأسباب طبّية) على الأطفال؟ أو على البالغين بموافقتهم؟ لا يحق للأطبّاء بتر إصبع أو أذن سليمة حتى ولو طلبها بالغ. هل ترى منظمتكم بأن هذه القاعدة تنطبق أيضاً على ختان الذكور أو / والإناث؟

الجواب: إن جوابي لا يخص إلاّ ختان الإناث. إني أطالب بإلغاء هذه العادة تماماً. ولا يحق لأي طبيب أن يمارس ختان الإناث.

6) هل تقبل الأمم المتحدة بأن تمنع القوانين ختان الذكور أو / والإناث وأن تعاقب عليه؟ حتى وإن كان ذاك الختان لأسباب دينيّة أو ثقافيّة (وليس طبّية)؟ حتى وإن كان المختون بالغاً؟ ما نوع العقاب الذي تقترحونه؟ وهل يعاقب أهل الطفل؟ أم المختون البالغ؟ أم الذي يجري الختان؟

الجواب: [فقط عن ختان الإناث]: يجب التعامل مع ختان الإناث، بسبب علاقته بالثقافة (فهو ليس عادة دينيّة)، بكل حِكمة. فالتربية والتعليم يجب أن يسبقا القوانين الجزائيّة لأنه قد لا تؤدّي هذه القوانين للنتائج المرجوّة وقد تقود الأهل إلى ممارسة ختان الإناث في السر. أمّا الأطبّاء، فإنه يجب معاقبتهم. ويجب ملاحظة أن الحكومة المصريّة قد أخذت قانوناً في هذا

المعنى. وبخصوص المرأة التي تخضع بإرادتها للختان، وهذا لا يحدث كثيراً، فإن الأمر الوحيد الذي يمكن عمله هو تقديم المساعدة لها عند الحاجة.
7) هل تظن الأمم المتحدة بأن للأهل الحق في إعطاء الموافقة بدلاً من أطفالهم القُصّر في إجراء عمليّة ختان الذكور أو / والإناث لأسباب دينيّة أو ثقافيّة (وليس طبّية)؟ وان كان الجواب نعم، فحتى أي سن؟
8) بعض الجماعات تعتبر الكفاح ضد ختان الذكور أو / والإناث موقف إمبريالي، معادي للساميّة أو للإسلام أو للسود؟ هل تهتم منظمتكم بمثل تلك الاتهامات؟ وما هو ردكم عليها؟ وهل سبق أن أتهمتم بذلك؟ ومن قِبَل من؟
الجواب على السؤالين [فقط عن ختان الإناث]: ما دام أن مكافحة ختان الإناث هو من مجال حماية الضحايا ومناهضة ممارسات مخالفة لحقوق الإنسان، يجب أن لا نعير أي اهتمام لما قد يظنّه شخص أو مجموعة من الأشخاص. ومكافحة ختان الإناث في أيّامنا تتم في نجاح. والذي يثبت أن الجماعة الدوليّة تسير على الطريق الصحيح هو أن الكلام عن ختان الإناث لم يعد من المحرّمات (تابو).

وقد أشارت هذه المقرّرة لمرسلاتنا في تقريرها المقدّم للأمم المتحدة في 1997 إذ تقول فيه:

«لقد بدأت بعض الجامعات ببحث هذه المشكلة بعمق أكثر. ففي بداية شهر يناير من عام 1997، على سبيل المثال، قدّم مدرّس في المعهد السويسري للقانون المقارن أسئلة للمقرّرة الخاصّة يود استعمالها كأساس لكتاب حول ختان الذكور والإناث. وقد أوضحت المقرّرة أن ختان الذكور ليس موضع اهتمام الأمم المتحدة إذ إن فقط ختان الإناث يعتبر ضارّاً ويجب القضاء عليه. ولذلك ليس من المناسب عرض تحت نفس العنوان كل من ختان الإناث الضار بالصحّة وختان الذكور الذي ليس له آثار ضارّة، لا بل يعتبر مفيداً».

وفي تقريرها لعام 2000 تقول السيّدة حليمة الورزازي بأنها استلمت عدّة رسائل تدين ختان الذكور. ولكنها تأكد على أن مهمّتها تنحصر في ختان الإناث. كما تدّعي أنه لا يمكن مقارنة أو مساواة الآثار الضارّة لختان الذكور بالعنف والخطر الذي تواجهه البنات والنساء. وتضيف بأن ختان الذكور يقلل من احتمال انتقال مرض الإيدز من النساء إلى الرجال.

ومن الواضح أن الأمم المتحدة تعتمد في موقفها غير المعادي لختان الذكور على كونه مطلب ديني وغير ضار بالصحّة، لا بل قد يكون مفيداً. ولكن لا بد من الإشارة إلى أن ختان الإناث هو أيضاً مطلب ديني عند من يمارسونه. ولم تقم الأمم المتحدة ولا منظماتها المتخصّصة بأي دراسة حول مضار ختان الذكور. ونذكر هنا أن لختان الذكور أشكال مختلفة بعضها أكثر شدّة من بعض أشكال ختان الإناث. وموقف الأمم المتحدة من ختان الذكور مبني في حقيقة الأمر على اعتبارات سياسية. فقد قابلت في جنيف، في 12 يناير 1992، الدكتورة «ليلى مهرا»، رئيسة دائرة تخطيط العائلة والسكان في قسم صحّة العائلة التابع لمنظمة الصحّة العالميّة في جنيف وسألتها عن

سبب سكوت منظمتها عن ختان الذكور. وكان ردّها: «إن ختان الذكور جاء في التوراة. هل تريد أن تخلق لنا مشاكل مع اليهود؟»

2) إدانة المشرّع الوطني لختان الإناث

تكفي القواعد العامّة في قانون العقوبات لملاحقة ومعاقبة كل حالات بتر الأعضاء الجنسية التي تمارس على الذكور والإناث. ولكن بعض الدول فضّلت اتخاذ قوانين خاصّة ضد ختان الإناث بينما تسكت جميع الدول عن ختان الذكور. وسوف نستعرض هنا موقف بعض الدول الغربية ودولة مصر حول هذه الممارسات.

أ) سويسرا

تعتبر سويسرا أول دولة أخذت موقفاً معادياً لختان الإناث. فقد أثار السيّد «ادمون كيزر»، مؤسّس منظمة «أرض الناس»، هذا الموضوع على المستوى العالمي في مؤتمر صحفي عقده في جنيف في 25 أبريل 1977 دعا إليه عدد من الأطبّاء والكتاب. وقد طالب منظمة الصحّة العالميّة مناقشته في الجمعيّة العالميّة التي عقدت في شهر مايو من ذاك العام. وقد أرسل رسالة إلى كورت فالدهايم، السكرتير العام للأمم المتحدة، لكي يفرض على منظمة الصحّة العالميّة هذا النقاش. كما أبلغ اتحاد الأطبّاء السويسريين بأن عمليّات ختان إناث تتم في المستشفيات الأوروبيّة. فرفع الاتحاد طلب إلى اللجنة المركزيّة للأخلاق الطبّية التابعة للأكاديميّة السويسريّة للعلوم الطبّية التي أصدرت بلاغا عام 1983 قرّرت فيه ما يلي:

- كل شخص يجري عمليّات بتر جنسيّة طقسيّة على إناث صغار أو صبيّات، حتى وإن كان طبيباً يمارس ضمن شروط صحّية لا غبار عليها، يقترف جرحاً جسديّاً خطيراً ومتعمّداً حسب المادّة 122 من قانون العقوبات. ولذلك يجب ملاحقته تلقائيّاً.
- ينتهك هذا الشخص حق أساسي بإجرائه تلك العمليّة الوحشيّة والمذلة على قاصرة غير قادرة على الوعي ولا تستطيع التمسّك بحقّها الشخصي في سلامة الجسد.
- كل شخص يتعاون مع مثل هذه العمليّة يعتبر شريك في الجريمة حسب قانون العقوبات وينتهك حقوق الإنسان.
- الذين يقترفون مثل هذه الجريمة وشركاؤهم بصفتهم أطبّاء أو ممّن يمارسون مهنة العلاج يخالفون بصورة خطيرة جدّاً مبادئ الأخلاق التي تحكم مهنتهم.

وقد ذكرت هذه اللجنة بمحتوى المادّة 122 من قانون العقوبات والتي تقول: «كل من يبتر جسم شخص، أو أحد أطرافه أو أعضائه المُهمّة أو عطل وظيفتها [...] يعاقب بالسجن لمدّة أقصاها عشر سنين أو بالحبس من ستة أشهر إلى خمس سنين».

ورداً على استجواب رفعه أعضاء من المجلس الوطني في 7 أكتوبر 1992، أشار المجلس الفدرالي في 1 مارس 1993 إلى قرار الأكاديميّة السويسريّة للعلوم الطبّية وأكد على أن «قانون العقوبات يعتبر بتر البظر جرحاً جسديّاً خطيراً. وبما أن سلامة الجسد أحد أثمن الأشياء التي يحميها القانون السويسري، فإن أي شخص يجري عمليّة بتر طقسيّة للأعضاء الجنسيّة، خاصّة على الإناث الصغيرات، يعتبر مقترفاً جريمة تلاحق تلقائياً». وأضاف: «في سويسرا وباقي الدول الأوروبيّة، يعتبر بتر البظر معاملة غير إنسانيّة حسب المادّة 3 من المعاهدة الأوروبيّة لحقوق الإنسان. ولذلك، فإنه في حالة قرار إبعاد امرأة أجنبيّة ووجود خطر حقيقي لتعرّضها لمثل هذه المعاملة غير الإنسانيّة، فإن قرار الإبعاد يجب أن يوقف ويستبدل بقرار بقاء مؤقّت».

وقامت سيّدتان من الإعلام معارضتان لختان الإناث بتشجيع أم صوماليّة لطلب اللجوء السياسي حتى تتفادى ابنتها الختان. وقد صاحبتاها في الإجراءات. إلاّ أن السلطات السويسريّة رفضت منح اللجوء السياسي، مكتفية بمنح إذن الإقامة المؤقّتة. وقدّم البرلماني «جان زيجلير» في 21 يونيو 1996 طلباً بإعطاء اللجوء السياسي للنساء المهدّدات بالختان، كما في فرنسا. فرد المجلس الفدرالي بأن فرنسا لا تمنح اللجوء السياسي لهذا السبب وأنه يكتفي بإذن الإقامة. وأشار بأن تعديل قانون اللجوء السياسي يأخذ بالاعتبار خطر الختان. والقانون المذكور دخل حيّز التنفيذ في 1 أكتوبر 1999 وتقول المادّة الثالثة في فقرتها الثانية من هذا القانون بأنه يجب الأخذ بالاعتبار الأسباب الخاصة بهرب النساء عند فحص طلبات اللجوء السياسي. ويقول كتاب إجراءات اللجوء كما تم تحديثه في ديسمبر 2000 بأن تعتبر النساء التي تخاف من الختان «فئة اجتماعية معيّنة» ولكن لن تمنح اللجوء السياسي النساء التي تأتي من دول مثل ساحل العاج أو الكميرون التي تنشط أو تأخذ إجراءات قانونية لمنع ختان الإناث لأن النساء يمكنهن الحصول على حماية من قِبل تلك الدول. وهذا يعني أننا أمام تطوّر جديد في سياسة اللجوء السياسي بخصوص ختان الإناث.

ورغم هذا الموقف الشديد، لم يتم في سويسرا ملاحقة أي شخص قام بهذه العمليّة.

ب) فرنسا

هذه هي الدولة الوحيدة التي حكمت محاكمها على ممارسي ختان الإناث رغم أنه لا يوجد فيها قانون خاص في هذا المجال. وقد اعتمدت المحاكم على المادّتين التاليتين من قانون العقوبات الجديد الصادر في 1 فبراير 1994:

المادّة 222-9: العنف الذي ينتج عنه قطع أو عاهة مستديمة يعاقب بالسجن لمدّة عشر سنين وبغرامة قدرها مليون فرنك.

المادّة 222-10: الجناية المذكورة في المادّة 222-9 تعاقب بالسجن لمدّة خمس عشرة سنة إذا جرت على
1) قاصر عمره أقل من خمس عشرة سنة...
ويمكن رفع العقاب إلى السجن لمدّة عشرين سنة عندما تتم الجناية المذكورة في المادة 222-9 على قاصر عمره أقل من خمس عشرة سنة وكان الجاني هو الأب أو الأم الشرعيين، أو غير الشرعيين، أو المتبنّي أو أي شخص له سلطة على المجنى عليه...

ولكن يجب ملاحظة أن عدد القضايا التي رفعت للمحاكم الفرنسية قليل جدّاً إذا ما قارنّاه بعدد حالات ختان الإناث التي تتم في فرنسا. ونعرض هنا واحدة من تلك القضايا.

في فبراير 1999 مثلت 26 عائلة إفريقية مع ختانة أمام محكمة الجنايات في باريس للاشتراك في عنف على قاصرة عمرها أقل من خمس عشرة سنة. وقد رفعت القضيّة المجني عليها، شابّة عمرها 24 من أصل مالي تحمل الجنسيّة الفرنسيّة. وكانت قد أبلغت قاضي الأطفال في عام 1994 بختانها مع أربع أخوات عندما كان عمرها ثماني سنين. وقد أدّت التحرّيات إلى توقيف الختانة التي كانت قد أجرت الختان على 48 فتاة وحُكم عليها سابقاً بالسجن مع وقف التنفيذ في قضيّة مشابهة. كما تم توقيف أهالي الفتيات المختونات. وقد قضت المحكمة بالسجن لمدّة ثماني سنين ضد الختانة، والسجن لمدّة سنتين ضد والدة الشابّة، والسجن لمدّة خمس سنين ضد الأهالي الباقين من بينهم والدتان مع وقف التنفيذ لمدّة ثلاث سنين. كما قضت بتغريم الختانة والأهل جميعاً بمبلغ 80.000 فرنك متضامنين كتعويض لكل من الـ 48 ضحيّة. ويشار هنا إلى أن الفتيات التي أستدعيت للشهادة أمام أمّهاتهن لم تتضامن مع الشابّة المشتكية، لا بل غضبن عليها.

ج) بريطانيا

أصدرت بريطانيا في 16 يوليو 1985 قانون حظر ختان الإناث بعد نقاش حاد دار في البرلمان واقتراحات معارضة قدّمتها مجموعات الأطبّاء. وهذه ترجمتنا للقانون:
(1) باستثناء الفقرة (2) يقترف جرماً كل شخص
أ) يختن أو يرتق الشفرين الكبيرين أو الصغيرين أو البظر جزئيّاً أو كلياً لشخص آخر
ب) أو يساعد وينصح ويسهّل إجراء تلك الأعمال بواسطة شخص آخر على جسم شخص آخر.
(2) كل من يعتبر مرتكباً لتلك الأعمال ومسؤولاً عنها:
أ) يلاحق و / أو يعاقب بالسجن لمدّة لا تزيد عن خمس سنين
ب) في الحالات الخفيفة يعاقب الشخص بالسجن لمدّة لا تزيد عن تلك المذكورة في المادّة 78 من قانون العقوبات لعام 1982 و/ أو في كل حال لمدّة لا تقل عن ستة أشهر.

2) (1) لا تعتبر وفقاً للفقرة (1، أ) من المادّة 1 إجراءاً جراحيّاً مخالفاً للقانون في الحالات التالية:
أ) إذا كانت تلك العمليّة ضروريّة للصحّة الجسدية والنفسية للشخص الذي تتم عليه، وتجرى على يد طبيب مسجّل، أو
ب) إذا تمّت تلك العمليّة على شخص في مرحلة المخاض أو بعد الولادة لأسباب طبّية لها علاقة بالمخاض والولادة بواسطة
- طبيب ممارس أو قابلة مسجّلين
- أو شخص يتبع تعليماً للحصول على لقب طبيب أو قابلة مسجّلين.
(2) في إطار هذه المادّة لمعرفة ما إذا كانت العمليّة الجراحيّة ضرورية للصحّة النفسيّة لا يؤخذ بالاعتبار تأثير أي اعتقاد كان على هذا الشخص يقوده أو يقود غيره للتفكير بأن تلك العمليّة ضرورية كطقس أو عرف.

وقد سمح قانون صدر عام 1989 بالقيام بالتفتيش في حالة خرق هذا المنع وأخذ البنت من بيت أهلها عندما يكون ذلك هو الأسلوب الوحيد لتأمين سلامتها. ويمنع هذا القانون الأهل أخذ البنت خارج بريطانيا لإجراء عمليّة الختان عليها دون موافقة المحاكم.

د) الولايات المتحدة

أصدرت الحكومة الفدراليّة عام 1995 قانون حظر البتر الجنسي للإناث الفدرالي. وهذه ترجمتنا للقانون المذكر:

باستثناء الفقرة (ب) كل شخص متعمّد يختن أو يخفض أو يرتق الشفرين الكبيرين أو الصغيرين أو البظر جزئيّاً أو كلياً لشخص آخر لم يبلغ سن الثامنة عشر يعاقب بغرامة أو بالسجن لمدّة لا تزيد عن خمس سنين أو بكليهما.
ب) لا تعتبر العمليّات الجراحيّة خرقاً لهذا القانون في الحالات التالية:
(1) إذا كانت تلك العمليّة ضروريّة لصحّة الشخص الذي تتم عليه، وتجرى على يد شخص مخوّل لإجرائها في المكان الذي يجريها فيه كطبيب ممارس، أو
(2) إذا تمّت تلك العمليّة على شخص في مرحلة المخاض أو بعد الولادة وتجرى على يد شخص مخوّل لإجرائها في المكان الذي يجريها فيه كطبيب ممارس أو قابلة أو متمرّن ليصبح طبيباً أو قابلة.
ج) لتطبيق الفقرة (ب، 1) لا يؤخذ بالاعتبار تأثير أي اعتقاد كان على هذا الشخص يقوده أو يقود غيره للتفكير بأن تلك العمليّة ضرورية كطقس أو عرف.
د) يعاقب بغرامة أو بالسجن لا تزيد عن سنة أو بكليهما كل شخص يرفض متعمّداً تقديم علاج أو خدمات طبّية أو يتخذ إجراءاً تمييزيّاً ضد أي شخص في مجال العلاج أو الخدمات الطبّية لأن
ذاك الشخص تم عليه الختان أو الخفاض أو الرتك، أو
لأنه طلب إجراء الختان أو الخفاض أو الرتق على أي شخص كان.
تعريف: في إطار هذه المادّة، تعني عبارة البتر التناسلي للإناث بتر أو/ و رتق البظر والشفرين الصغيرين والكبيرين كليّاً أو جزئيّاً.

هـ) مصر

أوّل نص صدر في مصر حول ختان الإناث هو القرار الوزاري رقم 74 لعام 1959 الذي تقول المادة الثانية منه:

- يحرّم بتاتاً على غير الأطبّاء القيام بعمليّة الختان وأن يكون الختان جزئيّاً لا كلياً لمن أراد.
- منع عمليّة الختان بوحدات وزارة الصحّة لأسباب صحّية واجتماعيّة ونفسيّة.
- غير مصرّح للدايات المرخّصات بالقيام بأي عمل جراحي ومنها ختان الإناث.
- الختان بالطريقة المتبعة الآن له ضرر صحّي ونفسي على الإناث سواء قَبل الزواج أو بعده. ونظراً لأن الفقهاء استناداً إلى بعض الأحاديث الصحيحة قد اختلفوا في أن خفاض الإناث واجب أو سُنّة ومنهم من ذهب إلى أنه مَكرُمَة إلاّ أنهم قد اتفقوا جميعاً على أنه من شعائر الإسلام والشريعة الإسلاميّة تنهى عن الاستئصال الكلي.

وفي 7 سبتمبر 1994، عرضت قناة التلفزيون «سي إن إن» فيلم يصوّر ختان فتاة اسمها نجلاء على يد حلاّق صحّة في مدينة القاهرة خلال اجتماع مؤتمر السكان العالمي هناك. فأحدث الفيلم ضجّة ضخمة هزّت جميع الأوساط المصريّة والعربيّة والعالميّة. وعلى أثره أرسل وزير الصحّة تعليمات في 1994/10/19 لمديري الشئون الصحّية في المحافظات باتخاذ الإجراءات التالية:

1) منع إجراء عمليّة الختان بغير الأطبّاء وفي غير الأماكن المجهّزة لذلك بالمستشفيات العامّة والمركزيّة وتنفيذ قانون مزاولة المهن الطبّية، وأن يتم اتخاذ الإجراءات القانونيّة تجاه المخالفين لهذا القانون بكل الحسم والسرعة.
2) أن يقوم كل مستشفى تعليمي أو مركزي بتحديد يومين أسبوعياً لإجراء عمليّة ختان الذكور، ويوم آخر لاستقبال الأسر الراغبة في ختان الإناث.
3) في اليوم المخصّص لاستقبال الأسر التي ترغب في إجراء عمليّة ختان الأنثى، يتم في كل مستشفى تشكيل لجنة لاستقبال أولياء الأمور الذين يبدون الرغبة في ذلك من أخصّائي نساء وتخدير ومشرفة اجتماعية، وممرّضة عمليّات، وأحد رجال الوعظ والإرشاد. تقوم هذه اللجنة بإيضاح الأضرار الصحّية والنفسيّة الناجمة عن إجراء هذه العمليّة وموقف الدين منها، ومراجعة الأسرة أكثر من مرّة قَبل إجرائها، وعدم التسرّع في الاستجابة لهذه الرغبة قَبل اتخاذ كافة السبل للإقناع، الأمر الذي يساعد على الحد تدريجيّاً من انتشار هذه الظاهرة تمهيداً للقضاء عليها.

وقد أثار قرار الوزير ضجّة كبيرة من قِبَل معارضي ختان الإناث في مصر وفي العالم. فطالبوا الوزير منع إجراء ختان الإناث في المستشفيات. وقد هدّدت أمريكا بقطع معونتها عن مصر إن لم تفعل ذلك. وأمام الضغوط المتزايدة، أصدر هذا الوزير تعليمات في 1995/10/17 لمديري الشئون الصحّية في المحافظات جاء فيها:

يتم إيقاف إجراء عمليّات ختان الإناث في المستشفيات العامّة والمركزيّة ويقتصر دور أقسام النساء والتوليد بهذه المستشفيات وأقسام رعاية الأمومة والطفولة على التوعية والتوجيه والإرشاد للحد من هذه الظاهرة.

وقد تغيّر الوزير في 1996 وحل محله الدكتور إسماعيل سلام. فأصدر الوزير الجديد بتاريخ 1996/7/8 القرار رقم 261 لسنة 1996 الذي يقول:

«يحظر إجراء عمليّات الختان للإناث سواء بالمستشفيات أو العيادات العامّة أو الخاصّة، ولا يسمح بإجرائها إلاّ في الحالات المرضيّة فقط والتي يقرّها رئيس قسم أمراض النساء والولادة بالمستشفى وبناء على اقتراح الطبيب المعالج».

مما يعني اعتبار قيام غير الأطبّاء بهذه العمليّة جريمة يعاقب عليها طِبقاً للقوانين واللوائح. وقد أثار هذا القرار غضب مؤيّدي ختان الإناث في مصر. فرفع الدكتور منير فوزي والشيخ يوسف البدري قضيّة أمام المحكمة الإداريّة لكي تحكم بأن قرار الوزير يخالف الإسلام والدستور الذي يعتبر مبادئ الشريعة الإسلاميّة المصدر الرئيسي للتشريع. وقد قضت المحكمة لصالحهم باعتبار أن البرلمان هو وحده المختص بوضع عقاب. وقد استأنف الوزير وانضم إليه رئيس نقابة الأطبّاء ورئيس الوزراء وبعض الجمعيّات غير الحكوميّة. وقد قُبِل الاستئناف وقرّرت المحكمة الإداريّة العليا في 28 ديسمبر 1997 أن الوزير عمل ضمن صلاحيّاته. وأضافت أن قانون العقوبات ينطبق على التعدّي على جسم الإناث لأنه تعدّي لا مبرّر له على جسد الإنسان. وقد أشارت المحكمة أن «ليس في ختان الإناث حُكم شرعي قطعي الثبوت والدلالة يوجبه القرآن الكريم أو مستمدّاً من سُنّة نبيّه (ص)، ولقد اختلف أئمّة المذاهب الأربعة وأهل الفقه المحدّثين في شأنه وجوباً أو ندباً أو أقل من ذلك». ولهذا السبب رأت المحكمة أنه لا يمكن اعتبار قرار الوزير مخالفاً للدستور. و «طالما أن الختان عمل جراحي خلت أحكام الشريعة الإسلاميّة من حُكم يوجبه فالأصل ألاّ يتم بغير قصد العلاج». «فالجراحة أيّاً كانت طبيعتها وجسامتها التي تجرى دون توافر سبب الإباحة بشروطه كاملة تعتبر فعلاً محرّماً شرعاً وقانوناً التزاماً بالأصل العام الذي يقوم عليه حق الإنسان في سلامة جسمه وتجريم كل فعل لم يبحه المشرّع يؤدّي إلى المساس بهذه السلامة».

3) إدانة المنظمات غير الحكوميّة لختان الإناث والذكور

تكاد لا تخلى دولة في العالم من منظمة تدين ختان الإناث. ولكن هناك أيضاً بعض الجمعيات التي تدين كل من الختانين. وقد اخترنا تقديم واحدة من التيارين.

أ) اللجنة الإفريقيّة

الاسم الكامل لهذه المنظمة هو: «اللجنة الإفريقيّة حول الممارسات التقليديّة المؤثرة على صحّة النساء والأطفال» وتضم هذه اللجنة لجان وطنيّة في دول إفريقيّة تمارس

ختان الإناث عددها اليوم 27 لجنة، يضاف إليها أربع مجموعات تعمل بين المهاجرين الأفارقة في كل من بلجيكا وفرنسا وبريطانيا والسويد.

وتقوم اللجنة الإفريقيّة بتنظيم مؤتمرات في الدول الإفريقيّة، يتم نشرها بالفرنسيّة والإنكليزيّة، كما أنها تصدر كتيّب دوري بهاتين اللغتين يتضمّن معلومات حول نشاطاتها ونشاطات اللجان الوطنيّة وأخبار متنوعة. وتتضمّن نشاطات هذه اللجنة، بالإضافة إلى ختان الإناث: الزواج والحمل في سن مبكر، وإنجاب الأطفال دون مباعدة زمنيّة بينهم، وسبل التوليد البدائيّة، والمحرّمات الغذائيّة، وعادة تسمين النساء، وتبدية الأطفال الذكور على الإناث. وتتمتع اللجنة الإفريقيّة بدور استشاري في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة منذ عام 1993، وبدور مراقب في منظمة الوحدة الإفريقيّة منذ عام 1994. وهي التي طرحت تبنّي المادّة 24 فقرة 3 في معاهدة حقوق الطفل. وقد أوكل لها مهمّات في دول إفريقيّة كثيرة لدراسة مدى انتشار ختان الإناث ولبدء الحوار مع مواطني تلك الدول لمحو هذه العادة. وقد اشتركت في اجتماعات مع منظمات مثل منظمة الصحّة العالميّة واليونيسيف ولجنة حقوق الإنسان ولجنة حالة المرأة. وهي تعمل حالياً مع المقرّرة الخاصّة للأمم المتحدة السيّدة حليمة مبارك الورزازي. كما تشارك منظمة الصحّة العالميّة ومنظمة اليونيسيف في نشاطاتها حيث لهما دور مراقب. وهناك مشروع مشترك بين هذه اللجنة وهيئة الأمم المتحدة للاجئين في مخيّمات اللاجئين في الصومال.

وقد طرحت على رئيسة هذه اللجنة، السيّدة «برهان راس ويرك»، في 12 يناير 1992، سؤالاً حول سبب سكوت لجنتها عن ختان الذكور، فكان ردّها: «إن ختان الذكور جاء في التوراة. هل تريد أن تخلق لنا مشاكل مع اليهود؟» وهو نفس الرد الذي تلقّيته من منظمة الصحّة العالميّة في نفس اليوم. وقد أعدت عليها السؤال في مؤتمر عام 1996، وكان جوابها: «إن ختان الذكور مذكور في التوراة وقد قمت بختان أولادي». وقد جاء في النشرة الإخباريّة لهذه المنظمة حول هذا المؤتمر:

«بيّنت رئيسة اللجنة الإفريقيّة في كلمتها أمام المؤتمر أنواع ختان الإناث وعواقبها الخطيرة على صحّة النساء. ثم بيّنت نشاطات اللجنة الإفريقيّة وما حقّقته. وأوضحت بأن الاعتقادات الدينيّة الخاطئة الخاصّة بختان الإناث قد تم توضيحها من قِبَل المختصّين في الدين الإسلامي والرؤساء الدينيين. أمّا فيما يخص ختان الذكور، فإن له أساس ديني لا جدل فيه. وقد يؤدّي خلق تشابه بين الممارستين بلبلة ويعيق نجاح الحملة التي تقوم بها اللجنة الإفريقيّة ضد ختان الإناث».

ب) المنظمة القوميّة لمراكز المعلومات بخصوص الختان

هذه أكبر وأنشط منظمة معارضة لختان الذكور (والإناث) في الولايات المتحدة. وقد بدأ اهتمام المؤسّسة الأولى «مارلين فاير مايلوس» بالختان بعد مشاهدتها ختان طفل خلال عملها كممرّضة. وقد غيّرت هذه الحادثة حياتها بالكامل، فأخذت تجمع المعلومات حول الختان. وفي ذاك الوقت التقت بزميلتها «شيلا كارين» التي كانت تعد فيلم تعليمي لصف كانت تديره تلك الزميلة تحت عنوان «الموافقة المستنيرة». وقد استجوبت لجنة المستشفى الممرّضتين حول أسباب إجراء هذا الفلم، بناء على شكوى من الطبيب اليهودي «بلوم». وكان جواب الممرّضتين: «حتى نفهم الأهل ونحمي الطفل من جراحة غير ضروريّة». وقد قدَّرت اللجنة عملهما ووعدتهما بعرض الفيلم على كل الأهل الذين ينتظرون طفلاً. إلاّ أن مسئولي المستشفى والأطبّاء وبعض الممرّضات منعوا ذلك. ولم يمضي وقت طويل حتى طُرِدَت «مارلين فاير مايلوس» من عملها. فقامت بتأسيس المنظمّة مع زميلتها الممرّضة عام 1985. وتعقد هذه المنظمّة مؤتمرات دوليّة حول ختان الذكور والإناث تضم نخبة من المتخصّصين في الطب والطب النفسي والقانون والدين والاجتماع: الأوّل (1989) والثاني (1991) والثالث (1994) في الولايات المتحدة، والرابع (1996) في سويسرا، والخامس (1998) في بريطانيا، والسادس (2000) في أستراليا، والسابع في الولايات المتحدة (2002). وقد صادق المؤتمر الدولي الأوّل للختان، المنعقد في مدينة «أناهايم» (كاليفورنيا) في 3 مارس 1989، على إعلان يعبّر عن فكر هذه المنظمة نقتبس منه الفقرات التالية:

- نعترف بأن لكل إنسان حق طبيعي في سلامة الجسد، ونؤكد على هذا الحق الإنساني دون تمييز ديني أو عنصري.
- نعترف بأن الغلفة والبظر والشفر أعضاء طبيعيّة ذات وظائف عضويّة.
- لا يحق لأهل الأطفال أو أوصيائهم السماح بإزالة أو تغيير أعضائهم الجنسيّة السليمة جراحيّاً.
- على الأطبّاء وموظفي الصحّة مسؤوليّة رفض إزالة أو بتر أعضاء الجسد السليمة.
- يحق السماح بإجراء عمليّات جراحيّة غير لازمة على أنفسهم فقط لمن هم في سن البلوغ، وذلك بعد إعلامهم بمخاطر وفوائد هذه العمليّات.
- إن الأطبّاء الذين يجرون عمليّات الختان بصورة روتينيّة يخالفون القاعدة الأولى للعمل الطبّي وهي «عليك أوّلاً أن لا تضر»، كما أنهم يخالفون المادّة الخامسة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تقول: «لا يُعَرّض أي إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسيّة أو الوحشيّة أو الحاطة بالكرامة».

الفصل الثالث
الختان وحقوق الإنسان

كل من ختان الذكور والإناث تعدّ على الحقوق الفرديّة، وخاصّة الحق في سلامة الجسد والحياة، والحق في عدم التعسّف وعدم التعذيب، والحق في العرض، والحق في حرمة الميّت. ولكن المشرّع الوطني والدولي لم يتعرّض إلاّ لختان الإناث منتهكاً مبدأ عدم التمييز.

1) الختان ومبدأ عدم التمييز

أ) مبدأ عدم التمييز

إدانة ختان الإناث والسكوت عن ختان الذكور دون تقديم تبرير علمي له يعني:

- الاعتراف للنساء بحق لا يُعترف به للذكور.
- إدانة ثقافة الأفارقة التي تتبنّى ختان الإناث، والقبول بالثقافة الغربيّة التي تتبنّى ختان الذكور.
- رفض حماية أطفال اليهود الذكور خوفاً من العواقب السياسيّة.

وبهذا يقوم المشرّع الدولي والوطني، ومعه المنظمات غير الحكوميّة، بانتهاك مبدأ أساسي في حقوق الإنسان، وهو الحق في عدم التمييز، الذي تنص عليه الوثائق الدوليّة ودساتير الدول الغربيّة والإفريقيّة. ونذكر هنا على سبيل المثال مادتين من الوثيقة العالميّة لحقوق الإنسان:

> المادّة 2، فقرة 1: لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحرّيات المذكورة في هذا الإعلان دونما تمييز من أي نوع، ولا سيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الرأي السياسي، أو الأصل الوطني، أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أو أي وضع آخر.
> المادّة 7: الناس جميعاً سواء أمام القانون، وهم يتساوون في حق التمتع بحماية القانون دونما تمييز، كما يتساوون في حق التمتع بالحماية من أي تمييز ينتهك هذا الإعلان ومن أي تحريض على مثل هذا التمييز.

ب) عدم وجود سبب للتمييز

قد يكون لموقف المشرّع الدولي والوطني والمنظمات غير الحكوميّة تبرير في إدانة ختان الإناث والسكوت عن ختان الذكور لو كان هناك فرق جوهري بين هذين الختانين. وحقيقة الأمر أن لا خلاف بينهما. فكل منهما هو تعدّي على سلامة جسد شخص قاصر سليم دون رضاه ودون سبب طبّي يبيحه.

وقد يكون للتمييز بين ختان الذكور والإناث مبرّر لو كان هناك مصلحة مشروعة. فمن المعروف أن المشرّع قد يأخذ موقفاً متحيّزاً لفئة هضمت حقوقها في السابق إلى أن يصل بهذه الحقوق إلى مستوى حقوق طبقة أخرى. وهذا ما يسمّى بـ»التمييز الإيجابي». ولكن لا يمكن قبول هذا التمييز في مجال الختان لأن كل من الأطفال الذكور والإناث هم ضحايا.

هذا ومن الخطأ اعتبار ختان الإناث أكثر خطراً من ختان الذكور، إذ إنه يجب المقارنة بين أنواع الختانين المختلفة. فهناك أنواع ختان ذكور أكثر خطراً من بعض أنواع ختان الإناث. ولكل منهما مضاعفاته التي قد تؤدّي إلى الوفاة. وعلى كل حال، فإن حقوق الإنسان عامّة تحمي الشخص مهما كانت قساوة الخرق الذي يتعرّض له. فما هو محرّم لا يقاس بمدى قساوته. فكل تغيير للأعضاء الجنسيّة دون سبب طبّي هو خرق للحق في سلامة الجسد. وعلى سبيل المثال القتل أشد من الاغتصاب، ولكن هذا لا يعني أنه يجب أن نترك الاغتصاب ونهتم فقط بالقتل. ولا يمكن تبرير ختان الذكور في المجتمع الأمريكي بحجّة أن ختان الإناث قاص في مجتمعات أخرى.

كما أنه من الغلط القول بأن فتح معركة ضد ختان الذكور الآن قد يعرقل معركة ختان الإناث. فكلا المعركتين مرتبطتان ولا يمكن إلغاء ختان الإناث دون إلغاء ختان الذكور في المجتمعات التي تمارس الختانين. وإذا ما بدأنا بتقسيم المجتمع بين نساء لا يحق التعدّي عليهن، ورجال يحق انتهاك حقوقهم، فإننا نخلق عداءاً بين الفئتين. فإذا وجد الرجال أن النساء يرفضن الدفاع عن ضحايا العنف بين الرجال، فإن الرجال سوف يتخلون عن الدفاع عن الضحايا بين النساء.

ج) النساء ترفض التفريق بين الختانين

إن التمييز بين ختان الذكور والإناث مرفوض حتى من قِبَل كثير من النساء. فالنساء تلعب دوراً قياديّاً في حملة مكافحة ختان الذكور. وقد يكون سبب ذلك كون النساء أكثر حساسيّة من الرجل أو لشعورهن بالذنب لعدم تمكنهن من حماية أطفالهن من سطوة الرجال الذين قاموا بختانهم. كما قد يكون رد فعل على علاقة جنسيّة تعيسة مع مختون. والرجال يعلمون أن دون مساعدة النساء لن يتمكنوا من القضاء على ختان الذكور. يقول الدكتور «دينستون» بأن أحد مفاتيح إلغاء هذا الختان في الولايات المتحدة بيد نساء ذلك البلد. فإذا ما فهمت النساء أن الختان يؤدّي إلى ألم كبير وكسر رابطة الأمومة ويشوّه بصورة دائمة جسم الذكر، فإنهن سوف يقفن لحماية أطفالهن. وإذا ما تعلمت النساء أن الختان يحرم الرجل من مقدرته الجنسيّة الكاملة وبهذا يحرم المرأة من شريك كامل يتمتع بكل إمكانيّاته، فسوف يعملن لإيقاف ختان الذكور.

ونشير هنا أن النساء اللاتي لا تدافع عن أولادهن ينتهكن غريزة الأمومة التي وضعتها الطبيعة فيهن.

د) أسباب سياسية لاأخلاقية

السبب الحقيقي وراء التفريق بين ختان الذكور والإناث هو سبب سياسي: الخوف من الاتهام بمعاداة السامية (أعني معاداة اليهود). وإذا كان ذلك صحيحاً فهذا يعني إن المشرّع الدولي قد وقع في فخ تسييس حقوق الإنسان مع ما يتضمنّه من مخاطر أهمّها فقد المصداقية. فبينما هو يخاف من مواجهة اليهود، يطالب حكومات الدول التي تمارس ختان الإناث مواجهة شعوبها معطياً لها الدرس بعد الآخر في الأخلاق. أضف إلى ذلك أن المشرّع الدولي يتبنّى سياسة التعالي الثقافي الغربي على حساب الثقافات الأخرى. وكان حري بهذا المشرّع الدولي والمشرّع الغربي ترك روح التعالي تلك واعتماد مبادئ يتمكن من خلالها الحُكم على تصرّفاته وعلى تصرّفات الآخرين بروح العدل. فما كان ضارّاً من العادات، يجب عليه أن يرفضها ويدينها بشدّة، مهما كان أتباعها، مسيحيّين أو يهود أو مسلمين أو قبائل بدائيّة في أعماق أدغال إفريقيا. وهذا التمييز بين الختانين قد ينظر إليه بأنه غطاء لمصالح أخرى تزرع الشك حتى عند النساء التي تكافح ضد ختان الإناث. فقد حضرت طبيبة مسلمة مصريّة اسمها «أمال شفيق» عام 1998 مؤتمراً في جنيف عقدته منظمة «اليونيسيف» التي تعمل معها. وعندما قدّمت الطبيبة نفسها قالت بأنها تعارض كل من ختان الإناث والذكور، ظانّة بأن وجودها في جنيف يسمح لها بالتعبير عن آرائها بكل حرّية. ولكن فوجئت بإحدى السيّدات السويسريات المسيحيّات تقول لها: إن منظمة «اليونيسيف» لا تتبنّى قضيّة ختان الذكور، ولذا عليها التخلي عن هذه القضيّة. فصدمت الطبيبة المصريّة التي كانت جالسة بقرب يهوديّة من إسرائيل لم تعترض على كلامها. وقد سألتني الطبيبة المسلمة: لماذا تدافع مسيحيّة عن ختان الذكور بينما اليهوديّة تسكت؟ هل الكنيسة تلعب دوراً كبيراً في سويسرا؟ وأجبتها لتعزيتها بأن المسيحيين في هذا البلد باعوا أنفسهم للشيطان.

2) ختان الذكور والإناث والحقوق الدينيّة والثقافيّة

أ) مطالب الطوائف

الحق في الحرّية الدينيّة وفي ممارسة العادات الثقافيّة هما حقان تعترف بها المواثيق الدوليّة والقوانين الوطنيّة. فالمادة 18 من الوثيقة العالميّة لحقوق الإنسان تقول

لكل شخص حق في حرّية الفكر والوجدان والدين. ويشمل هذا الحق حرّيته في تغيير دينه أو معتقده، وحرّيته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبّد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.

وتضيف المادّة 27، فقرة 1: «لكل شخص حق المشاركة الحرّة في حياة المجتمع الثقافيّة... »

والفقرة الأولى من المادة الأولى من العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافيّة والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنيّة والسياسيّة تقول:
لجميع الشعوب حق تقرير مصيرها بنفسها، وهي بمقتضى هذا الحق حرّة في تقرير مركزها السياسي وحرّة في السعي لتحقيق نمائها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

ويرى «فريمان»، وهو أستاذ قانون يهودي في جامعة لندن، أن للطفل حق في الختان. فحرمان الطفل اليهودي والمسلم من هذا الحق هو «نسف لحقّه في الانتماء الثقافي وإلى هويّة». وهو يبني هذا الحق على حق الشعوب في تقرير مصيرها كما جاء في الفقرة الأولى من المادّة الأولى من العهدين الدوليين السابقة الذكر. ويضيف هذا الأستاذ بأن للأهل الموافقة على ختان ابنهم القاصر إذا كان ذلك في «المصلحة الفضلى» للطفل التي تقاس ضمن محيطه الديني. وعلى القاضي الأخذ بالاعتبار فلسفة القانون المتعلق بالأطفال والتي تؤكد على سلامة واستقلال العائلة كبنية أساسيّة للمجتمع الحر والديمقراطي. ولكنّه يستدرك قائلاً بأن ليس كل ممارسة دينيّة يمكن السماح بها باسم التعدّد الثقافي. فهو يرفض ختان الإناث بسبب أضراره الكبيرة، بينما يؤيّد ختان الذكور لأن أضراره لا تذكر. وهذا القول يبرهن على جهل كبير.

ولكن إذا ما أردنا أن نعطي أهمّية للاعتبارات الدينيّة والثقافيّة في قرار ختان الذكور، فإنه سيكون من واجبنا أيضاً، أخذاً بمبدأ عدم التمييز، أن نعطي أهمّية لمثل تلك الاعتبارات في قرار ختان الإناث. فرئيس كينيا«جومو كينياتا» (توفى عام 1978) يرى أن «عمليّة بتر البظر، مثلها مثل عمليّة الختان عند اليهود، هي عمليّة بتر جسديّة تمثل شرطاً لا بد منه للحصول على تربية دينيّة وأخلاقيّة كاملة» في قبيلته.

ب) الحقوق الفرديّة والحقوق الطائفية

لا شك في أن من يقوم بختان الذكور والإناث يعتبر هذه الممارسة جزءاً من الاعتقاد الديني والهويّة الثقافيّة، وهما أمران يصعب عامّة الفصل بينهما. ورفض هذا الاعتقاد الديني والهويّة الثقافيّة له عواقبه الاجتماعية الخطيرة. ولكن هذه الممارسة تصطدم

بحق فردي وهو الحق في سلامة الجسد والحق في الحريّة الدينية. فكيف يمكن التوفيق بينهما؟

القاعدة الأساسية هي أن الحقوق الفردية الأساسية تبدّى على الحقوق الطائفية. ونشير هنا إلى إعلان المبادئ الخاص بالتسامح التي تبنّتها الدول الأعضاء في «اليونيسكو» في 16 نوفمبر 1995 والتي تقول في مادتها الأولى، الفقرة الثانية: «لا يحق في أي حال التذرّع بالتسامح لتبرير انتهاكات قيم أساسيّة». وقد اعتبرت لجنة حقوق الإنسان في قرارها رقم 49/1996 ختان الإناث عنفاً واقعاً على النساء وطالبت الدول بإدانة العنف ضد النساء وعدم التذرّع بالعادات والتقاليد أو الممارسات باسم الدين لعدم الوفاء بالتزاماتها للقضاء على مثل هذا العنف.

وعليه فإنه في حالة تصادم معتقدات الأهل أو الجماعة مع مصلحة الطفل، يجب أن تعطى الأوّليّة لمصلحة الطفل. فليس كل ما تنص عليه الأديان أو الثقافات يتفق مع مفهومنا اليوم لحقوق الإنسان. والمشكلة الخطيرة في هذا الموضوع تكمن في رفض المشرّع الدولي والوطني والمنظمات غير الحكوميّة تطبيق هذا المبدأ على ختان الذكور كما على ختان الإناث، دون تبرير لهذا التمييز بينهما.

هناك من يقول بأن الأهل يفرضون التعليم المدرسي على أطفالهم. فلماذا لا يمكنهم أيضاً فرض الختان عليهم؟ ولكن هناك فرق بين فرض التعليم، الذي سيساعدهم في المستقبل حتى يكونوا أعضاءاً مساهمين في المجتمع. وعدم فرض التعليم على الأطفال سوف يؤدّي إلى كارثة جماعيّة. بينما تأخير الختان ليس فيه مثل تلك المضرّة على المجتمع، لا بل إن المضرّة في ممارسته في صغره إذ يعرّض الطفل لمخاطر صحّية. صحيح أن بعض المجتمعات تنظر لغير المختون نظرة سيئّة وأن هذا هو السبب وراء خضوع الأهل لختان أولادهم وبناتهم. ولكن هنا يجب التدخّل لفضح وتغيير عادات المجتمع وليس لبتر الأفراد.

3) الحق في سلامة الجسد والحياة

ختان الذكور والإناث هو تعدّ على سلامة الجسد ينتقص من وظائفه الطبيعيّة ويؤدّي إلى مضاعفات صحّية وفي بعض الأحيان إلى الموت، وله مضار نفسيّة وجنسيّة. وبهذا يكون مخالفاً للحق في سلامة الجسد والحياة.

الحق في سلامة الجسد والحياة هما من أهم حقوق الإنسان. وقوانين كل دول العالم تعاقب التعدّي على هذين الحقين. وكان من البديهي أن يعترف المشرّع الدولي بهما.

إلاّ أن الحق في سلامة الجسد لم يُذكر إلاّ في نصّين دوليين، هما المعاهدة الأمريكيّة لحقوق الإنسان، والعهد الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب. فالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهدان الدوليان لحقوق الإنسان، ومعاهدة حقوق الطفل، والمعاهدة الأوروبيّة لحقوق الإنسان خالية من هذا الحق. والغريب في الأمر أن هذا النقص الخطير يجهله حتى أساتذة القانون ولا يعرفون له تفسيراً.

وتبيّن الأعمال التحضيريّة للإعلان العالمي لحقوق الإنسان بأنه تم اقتراح نص يتضمّن هذا الحق، ولكنّه أستبعد بحجّة أنه يدخل ضمن المادّة الثالثة التي تقول: «لكل فرد حق في الحياة وفي الأمان الشخصي». ويشار هنا إلى أن أهم شخصيّة لعبت دوراً في تحرير هذا الإعلان هو الأستاذ اليهودي «ريني كاسان»، ممثل فرنسا. ونحن لا نستبعد أن يكون سبب سكوت الإعلان (والوثائق الأخرى) عن هذا الحق هو عدم الرغبة في المس بمعتقدات اليهود، خاصّة وأن هذا الإعلان قد جاء كرد فعل على الجرائم التي اقتُرفت في الحرب العالميّة الثانية ضدّهم. وقد رأينا أن سكوت المشرّع الدولي والمنظمات غير الحكوميّة عن ختان الذكور تحكمه اعتبارات سياسيّة أهمّها الخوف من الاتهام بمعاداة الساميّة.

4) الحق في عدم التعسّف وعدم التعذيب

تمنع نصوص دوليّة كثيرة التعسّف والتعذيب. فالوثيقة العالمية لحقوق الإنسان تقول في المادة 5: «لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسيّة أو اللاإنسانيّة أو الحاطة بالكرامة». وتكلف المدة 37 من اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل الدول الأعضاء «ألاّ يتعرّض أي طفل للتعذيب أو لغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسيّة أو اللاإنسانيّة أو المهينة [...]».

وقد اعتبرت لجنة حقوق الإنسان في قرارها رقم 49/1996 ختان الإناث عنفاً واقعاً على النساء وطالبت الدول بما يلي:

- إدانة العنف ضد النساء وعدم التذرّع بالعادات والتقاليد أو الممارسات باسم الدين لعدم الوفاء بالتزاماتها للقضاء على مثل هذا العنف.
- سن القوانين وتطبيقها لحماية الفتيات من جميع أنواع العنف، بما في ذلك قتل الفتيات واختيار الجنس قَبل الولادة وختان الإناث والعلاقة الجنسيّة بين المحارم والانتهاك الجنسي والاستغلال الجنسي واستعمال الأطفال في الدعارة والخلاعة.

ووضع الفقرة الأخيرة ختان الإناث سويّة مع استعمال الأطفال في الدعارة والخلاعة يعطي فكرة واضحة عن الإدانة القطعيّة لختان الإناث من قِبَل المشرّع الدولي.

كما أصدرت اللجنة الفرعيّة الخاصّة بالوقاية ضد التمييز وحماية الأقليّات القرار رقم 8/1997 حول العادات التقليديّة الضارّة بصحّة النساء والأطفال. وقد أشار هذا القرار في ديباجته أن ختان الإناث هو ممارسة ثقافيّة ذات أثر سلبي عميق على الصحّة العقليّة والنفسيّة للفتيات والنساء. ويذكر في هذا المجال المادّة 5 من وثيقة حقوق الإنسان السابقة الذكر لتطلب من الدول اتخاذ الإجراءات الضروريّة للقضاء على هذه الممارسة.

ويسكت المشرّع الدولي تماماً عن ختان الذكور، ممّا يعني أنهما لا يعتبرانه تعسّفاً وتعذيباً كما هو الأمر مع ختان الإناث. وهذا ما يثير غضب معارضي ختان الذكور الذين يرون في سكوت المشرّع الدولي تمييزاً لا مبرّر له ضد الذكور. فهم يعتبرون ختان الذكور أيضاً عمليّة تعذيب. فمثلاً يقول «سفوبودا» بأنه من غير الممكن لأحد شَهِد عمليّة ختان أن ينكر بأنها عمليّة تعذيب. وهو يرى أن الدول التي تسمح بالختان وتدفع لإجرائه ولا تعاقب عليه تخرق المعاهدة التي تمنع التعذيب.

5) الحق في العرض

كل قوانين العالم تمنع التعدّي على العرض. وقد جاء منع التعدّي على العرض في النصوص الدوليّة. فالمادّة 34 من معاهدة الطفل على سبيل المثال تقول:

تتعهّد الدول الأطراف بحماية الطفل من جميع أشكال الاستغلال الجنسي والانتهاك الجنسي. ولهذه الأغراض تتخذ الدول الأطراف، بوجه خاص، جميع التدابير الملائمة الوطنيّة والثنائيّة والمتعدّدة الأطراف لمنع:

أ) حمل أو إكراه الطفل على تعاطي أي نشاط جنسي غير مشروع؛

ب) الاستخدام الاستغلالي للأطفال في الدعارة أو غيرها من الممارسات الجنسيّة غير المشروعة؛

ج) الاستخدام الاستغلالي للأطفال في العروض والمواد الداعرة.

وفي عملية ختان الذكور والإناث يقوم رجل الدين أو الطبيب أو الحلاّق أو الداية ليس فقط بملامسة الأعضاء الجنسيّة للطفل، ذكراً كان أو أنثى، بل أيضاً ببترها. وعند اليهود تطلب القواعد الدينيّة من الخاتن مص قضيب الطفل عدّة مرّات. كل هذا تحت غطاء الطب أو الدين، دون سبب طبّي لمثل هذه العمليّة. ولا شك في أن مثل هذه التصرّفات تدخل ضمن التعدّي على عرض الأطفال. وقد أخذ القضاء المصري قرارات في هذا المعنى بخصوص كل من ختان الذكور والإناث.

6) الحق في حرمة الميّت

قام المشرّع في جميع دول العالم بمعاقبة التعدّي على جثة الميّت أو قبره. ولكن لا نجد في النصوص الدولية ما يبين اهتمامها بحقوق الإنسان بعد الوفاة إلاّ إذا اعتبرنا التعدّي على الميت هو نوع من التعدّي على كرامة الإنسان.

وقد رأينا أن رجال الدين اليهود يقومون بختان من يتوفى غير مختوناً في طائفتهم، قَبل دفنهم. وقد أحدث هذا ضجّة في إسرائيل، حتى داخل الكنيست. إلاّ أن رجال الدين يمعنون في إجرائهم مهدّدين من لا يُختن بعدم دفنه في مقابر اليهود. وهناك بعض الفقهاء المسلمين الذين يرون أيضاً ختان المسلم الذي يموت غير مختوناً، وقد يكون ذلك نقلاً عن اليهود. ومثل هذا التصرّف في حقيقته هو انتهاك لحرمة الأموات. فحتى وإن تسكت القوانين الوضعيّة عنه، فإن مثل هذه الأفعال تدينها مكارم الأخلاق، وعلى أصحاب النخوة من المفكرين التصدّي لها وتأليب الرأي العام ضدّها.

الفصل الرابع
ختان الذكور والإناث والإباحة الطبّية

لإباحة عملية تمس بسلامة الجسد وتعرض الشخص لمخاطر يجب وجود ضرورة طبّية، وموافقة المريض أو وليّه في حدود القانون، وإذن ممارسة المهنة الطبّية ضمن أصولها. وهذه الشروط لا تجتمع في ختان الذكور أو الإناث إلاّ نادراً.

1) الضرورة الطبّية

حتى تعتبر العمليّات الجراحيّة ضروريّة، ومن ثم مباحة، يجب
- أن يكون هناك حاجة لهذه العمليّة، إمّا وقائيّة أو علاجيّة.
- أن تكون فائدتها تربو على ضررها.
- أن لا يكون هناك بديل أخف من العمليّة الجراحيّة.
- أن يكون الهدف من العمليّة علاج المرض أو الوقاية منه. فلا يحق للطبيب التدخّل بهدف انتهاك عرض المريض.

وحقيقة الأمر أن الأكثريّة الساحقة من عمليّات ختان الذكور والإناث تجرى لأسباب دينيّة وثقافيّة، دون سبب طبّي. فهي تتم على عضو سليم، وليس فيها أيّة فائدة علاجيّة أو وقائيّة، وحتى في حالات الإصابة بمرض ما، مثل ضيق الغلفة، فإنه يمكن علاج هذا الداء بدواء أخف من العمليّة. ولهذه العمليّة مخاطر تعلوا على فوائدها التي يتذرّع

بها كثير من رجال الطب لتبرير تدخّلهم. ولهذا كل من يمارسها يقترف تعدّي على سلامة الجسد وعلى العرض.

ما زال مؤيّدو ختان الذكور والإناث يدعون بأن للختان فوائد أخلاقيّة مثل الحماية من العادة السرّية والانزلاق في الرذيلة التي تؤدّي بدورها إلى مضار على الصحّة الجسديّة والنفسيّة وعلى العلاقة العائليّة والمجتمع. فيدخل ختان الذكور والإناث، في نظرهم، ضمن حق التأديب الذي يملكه الأب على أولاده بصفته صاحب الولاية عليهم. ويرد صلاح محمود عويس، نائب رئيس محكمة النقض المصريّة:

«إن ولاية الولي سواء كان أبا أو أمّاً أو جدّاً أو وصيّاً على الصغير تتحدّد في أموال له. فهو يتصرّف فيها طِبقاً لضوابط معيّنة. أمّا بالنسبة لنفس الصغير أو الصغيرة فإن ولايته هي حقّه في التأديب والتعليم. وحق التأديب ومصدره الشريعة الإسلاميّة ينحصر في توجيه سلوك الصغير أو الصغيرة إلى السلوك القويم وتعليمها العادات الحسنة. وحقّه أيضاً الترغيب بالضرب الغير مبرح للعادات السيّئة. فهل من المنطق والعقل يعتبر حرمان الصغيرة من جزء من عضو فطري خلقه الله بجسدها من باب التهذيب والتأديب؟ وقد يقال إنه تهذيب نفسي لأن هذا الاستئصال من شأنه أن يقلل من رغبة الأنثى في العلاقة الجنسيّة. والرد على ذلك أنه ثابت علميّاً وطِبقاً لما أجمع عليه علماء النفس أن الشذوذ الجنسي يبدأ من العقل والنفس وليس من الجسد. فلو أنه انصرف إلى تهذيب نفس وعقل الصغيرة لكان ذلك - في حدود قدرته البشريّة - عاملاً هامّاً في ابتعادها عن ذلك الشذوذ. وقد ثبت من الأبحاث العلميّة أن أكثر النساء اللاتي يمتهن الدعارة مختتنات. وحق التعليم بالنسبة للولي ينحصر في زيادة القدرة العلميّة للصغير أو الصغيرة ولا يمكن عقلاً إدراج تلك العمليّة السيّئة تحت نطاق هذا الحق».

ويشير البعض أنه يمكن اعتبار الختان عمليّة تجميليّة. فالدكتور «نيجل زولتي»، وهو خاتن يهودي وعضو في جمعيّة تدريب الخاتنين، يقول:

«يستعمل منتقدو عمليّة الختان كلاماً انفعالياً مثل البتر، ويتحجّجون بمضاعفات الختان. غير أن البتر هو في نظر من يقول ذلك. فما يعتبره البعض بتراً هو عمليّة تجميل حسب الغير، مثل عمليّة ثقب أعضاء الجسم. فهل الأهل الذين يثقبون أذن أطفالهم يلقون مثل هذا الهجوم الشديد ضد الختان؟ إن عمليّة الختان في أساسها عمليّة تجميليّة ولا يحق للمجتمع إيقاف الناس عن إجراء عمليّات التجميل».

ونجد مثل هذه الأقوال عند مؤيدي ختان الإناث. ويرد عليهم القاضي صلاح محمود عويس:

«عمليّات التجميل التي أصبحت ضمن الجراحات الطبّية يقصد بها إصلاح عضو أو تقويمه أو إزالة زائد فيه، أو بمعنى آخر محاولة إعطاء عضو من أعضاء الجسم أو جزء منه الشكل الطبيعي الفطري. وهذه هي الغاية من عمليّة التجميل. فهل يتفق ذلك مع عمليّة الختان وهي في كل صورها تعتبر تغييراً للشكل الطبيعي للعضو التناسلي للأنثى حسب فطرته التي خلقه

الله عليها. بالطبع لا. ومن ثم فلا تكون هذه العمليّة بمثابة تجميل بل هي في حقيقتها انتهاك لجسد الأنثى».

2) الموافقة المستنيرة للمريض أو وليّه

الشرط الثاني للإباحة الطبّية هو حصول الطبيب، قَبل إجراء العمليّة، على موافقة المريض، أو وليّه إذا كان قاصراً. ولا تستثنى من ذلك إلاّ حالة الضرورة القصوى والخطيرة التي لا يمكن معها الانتظار. ومثل هذه الحالة لا تتحقّق مع الختان.

وحتى تكون الموافقة على عمليّة الختان صحيحة يجب أن تكون حرّة، دون غش أو إكراه، ودون أن يشوبها الغلط. ولذلك يجب أن تكون مبنيّة على علم بفوائد ومخاطر العمليّة، وما إذا كان هناك بدائل لها، وأن يكون هناك متسع لطرح أسئلة واستفسارات من قِبَل المريض أو أوليائه. وهذا يفترض أن يقوم الطبيب بتقديم شرح يمكن فهمه. وهذا بدوره يفترض أن يكون الطبيب ذاته عالماً بما يقول. فالمثل يقول: «فاقد الشيء لا يعطيه». وحقيقة الأمر أن الختان من المحرّمات التي قليلاً ما يخوض فيها الأطبّاء، وليس هناك إحصائيّات حول مخاطر هذه العمليّة، وما يُعلم في كليات الطب ليس بالكافي. كما أنه يُفتَرض أن يكون الطبيب حراً في إعطاء المعلومات. وهذا لا يتحقّق دائماً، خاصّة إذا كان الطبيب متدرّباً تحت إشراف طبيب أو يعمل في مستشفى يؤيّدان الختان.

يجب أن تُعطى الموافقة قَبل العمليّة وفي وقت مناسب يسمح فيه للذي يعطي الموافقة التفكير فيما يوافق عليه. يبيّن طبيب أمريكي بأن سبب ختان 90% من الأطفال في الولايات المتحدة هو أن موظف الاستقبال أو الممرّضة كانت تطلب من الأم أن تمضي على موافقة الختان عند قبولها في المستشفى حتى قَبل معرفة جنس الطفل. وكان الطبيب يقوم بالختان في غرفة الولادة بعد الولادة مباشرة أو في غرفة حضانة الطفل. وكان لدى الأطبّاء تعليمات بالقيام بتلك العمليّات خلال 24 ساعة بعد الولادة عند مرورهم في غرف الحضانة إذا لم يكونوا مختونين. فكانت الممرّضة تضع الأطفال بالصف فيختنون بالجملة. ولم يكونوا يعطون أهمّية ما إذا كان هناك موافقة من الأهل أم لا. وإذا ما نُسي إمضاء الأم، فإنه يُطلب منها بعد الختان.

وإن تم الحصول على موافقة المريض تبقى مشكلة شرعية مثل هذه الموافقة ما دام أن الختان يتم على عضو سليم. فلا يحق لطبيب أن يقطع يد سليمة وافق صاحبها أو وليّه على قطعها. ففي السويد لا تكفي موافقة الفتاة البالغة لإباحة ختانها في حالة عدم وجود سبب طبّي. أما المشرع الأمريكي فإنّه يقبل موافقتها دون حاجة لسبب طبّي إذا كانت بالغة. وتفريق المشرّع الأمريكي بين البالغ والقاصر نابع من افتراضه في أن للبالغ

إمكانيّة التفكير وحرّية الإرادة. إلاّ أن هذا الافتراض لا يتحقّق في جميع الأحوال، خاصّة عند الشابّات التي لا تملك استقلالاً ماليّاً عن عائلاتها وليس في يدها تقرير مصيرها. كما إنه لا يمكن اعتبار اليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفييتي إلى إسرائيل أحراراً في قرارهم حتى وإن كانوا بالغين إذا ما اعتبرنا أن رفضهم الختان له عواقب وخيمة في حياتهم ومماتهم كما ذكرنا سابقاً.

ووضع ختان الذكور أخطر من وضع ختان الإناث لأنه يتم على قاصرين دون سبب طبّي. فالأولياء هم الذين يقرّرونه. ويطرح هنا مدى سلطة الأولياء على القاصرين.

تقول الفقرة الأولى من المادّة 18 من اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل:

«تبذل الدول الأطراف قصارى جهدها لضمان الاعتراف بالمبدأ القائل إن كلا الوالدين يتحمّلان مسؤوليات مشتركة في تربية الطفل ونموّه. وتقع على عاتق الوالدين أو الأوصياء القانونيين حسب الحالة، المسؤوليّة الأولى عن تربية الطفل ونموّه، وتكون مصالح الطفل الفضلى موضع اهتمامهم الأساسي».

وهذا يعني أن مصلحة الطفل العليا تعلو على سلطة الأهل وتحد منها. وما هو من مصلحة الأهل ليس دائماً من مصلحة الطفل. فإذا لم يكن للعمليّة فائدة مباشرة وضرورة طبّية، فإنه يجب تأخير إجراء تلك العمليّة حتى يتمكن هو ذاته أن يعطي الموافقة عليها.

وإن كان المشرع الوطني والدولي قد رفضا ختان الإناث على القاصرين مع أو بدون موافقة الأهل، فإنّه تغاضى عن ختان الذكور. وقد قامت الأكاديميّة الأمريكيّة لطب الأطفال عام 1995 بوضع قواعد فيما يخص الموافقة المستنيرة عندما يتعلق الأمر بالأطفال. فموافقة الأهل المستنيرة يمكنها أن تحل محل موافقة الطفل فقط للتدخّل الطبّي في الحالات الواضحة والعاجلة مثل حالة خطر الإصابة بمرض أو التعرّض لصدمة أو تشويه. أمّا فيما يخص العلاج الغير ضروري الذي يمكن تأجيله دون خطر، فإنه يجب الانتظار حتى يكبر الطفل ليعطي موافقته بذاته. وعلى الطبيب أن يحمي الطفل من رغبات الأهل التي قد تضر به. والمشكلة مع هذه الأكاديميّة أنها تسمح للأهل اختيار إجراء ختان الذكور مع علمها بأنه لا ضرورة طبّية لإجرائه. وهذا مخالف لإعلان جنيف الصادر عن الرابطة الطبّية العالميّة الذي يقول في إحدى فقراته: «لن أسمح أن تؤثر على واجبي تجاه المريض اعتبارات العمر أو المرض أو الإعاقة أو المعتقد أو الأصل العرقي أو الجنس أو الجنسيّة أو التحزّب السياسي أو المستوى الاجتماعي». مما يعني بأنه لا يحق للطبيب إجراء ختان إلاّ إذا كان هناك سبب طبّي، مستثنياً الأسباب الثقافيّة والدينيّة.

وهناك من يدّعي بأن الأهل يقومون بإعطاء موافقة عن أطفالهم كان الأطفال سيأخذونها لو أنهم كانوا بالغين. وحقيقة الأمر أنه من المشكوك في أن يقوم هؤلاء الأطفال عند بلوغهم باتخاذ قرار بختانهم في هذه النسبة الكبيرة. فمن المعروف أن فقط 0,3% من الأمريكيّين الذين تركوا غير مختونين طلبوا ختانهم كباراً. وهذا يعني أن الأهل الذين يقرّروا بدلاً عن أطفالهم إنّما ينتهكون مبدأ الوكالة في الأكثريّة الساحقة من عمليّات الختان.

تقول الفقرة الأولى من المادّة 18 من اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل السابقة الذكر أن «كلا الوالدين يتحمّلان مسؤوليات مشتركة في تربية الطفل ونموّه». وهذا يعني أنه يجب أخذ قرار من الأب والأم معاً في إجراء الختان على الطفل. وإذا لم يتفق الأب والأم على عمليّة الختان، يجب على الطبيب رفض إجراء تلك العمليّة دون موافقة المحكمة. وبما أن الختان ليس ذو طابع طبّي ضروري، لذلك على المحكمة تأجيل عمليّة الختان إلى أن يكبر الطفل فيتخذ القرار بنفسه. وهذا هو الاتجاه الذي أخذت به المحاكم الغربية.

وإذا رفض الأهل ختان ابنهم، هل يحق لطائفتهم فرضه عليهم؟ وهذا الأمر له أهمّيته لأن الطوائف الدينية تفرض الانتماء الديني على أفرادها ولا تترك لهم ولا لأهلهم حرّية الاختيار. ونشير هنا إلى أن الدول العربيّة والإسلاميّة تحفظت على نصوص المعاهدات الدوليّة التي تمنح الفرد حرّية تغيير العقيدة، والتي تمنح الأهل حرّية اختيار ديانة أطفالهم. فالشريعة الإسلاميّة تفرض الدين الإسلامي على الأطفال إذا كان أحد أبويهما مسلماً. وبما أن الختان هو علامة انتماء ديني، فإن على الأهل ختان أطفالهم المسلمين. وقد جاء في فتوى الشيخ جاد الحق «لو اجتمع أهل البلد على ترك الختان قاتلهم الإمام لأنه من شعائر الإسلام وخصائصه إذ مقتضى هذا لزوم الختان للذكر والأنثى».

ونجد موقفاً متشدّداً مماثلاً عند اليهود. فتذكر التوراة أنه بعد ترك بعض اليهود ختان أطفالهم، قام رجال الدين «الحسيديون» بحملة معادية ضدّهم، فختنوا «بالقوّة كل من وجدوه في بلاد إسرائيل من الأولاد الغلف» (1 المكابيين 45:2). وبعدما أصدرت إحدى المقاطعات الألمانيّة قراراً في القرن التاسع عشر يترك للأهل اختيار ختان أطفالهم، ثارت ثائرة رجال الدين اليهود وطالبوا من السلطات إلغاء هذا القرار. وقد رفض طبيب يهودي من «فينا» في القرن التاسع عشر ختان ابنه لأنه اعتبر الختان عمليّة ذات مخاطر ووصفها بالعمل الإجرامي. فقام حاخام برفع دعوى إلى «محكمة طبّية» معتمداً على معطيات طبّية طالباً منها إعطاء الطائفة اليهوديّة الحق في ختان الطفل دون موافقة أبيه. وقد نشر الحاخام مقالاً في هذا المعنى عام 1857. وفي فيلم

«فيكتور شونفيلد» المعنون «إنه صبي»، حول ختان صبي انتهى في غرفة العلاج المكثف، قال الخاتن: «على الأب أن يقرّر ختان الصبي. وإذا لسبب ما لم يقم بذلك، فإن لبيت الدين، أي المحكمة الدينيّة اليهوديّة، الحرص على إتمام الختان. واليوم، بما أن الأب غير يهودي، فإني أتصرّف كممثل عن بيت الدين». وقد نشرت صحيفة «معاريف» بتاريخ 1993/9/24 خبراً يقول إن خاتنين قاما بخطف طفل من أمّه وختناه دون موافقتها. هذا وقد أشرنا سابقاً إلى أن رجال الدين اليهود يختنون من يموت غير مختوناً قَبل دفنه، وذلك دون طلب موافقة أهله. وقد أثار ذلك ضجّة في الكنيست الإسرائيلي.

وهذا يبيّن أنه بالإضافة إلى رفض إبقاء الطفل غير مختوناً حتى يبلغ فيقرّر بذاته، يرفض رجال الدين اليهود والمسلمين ترك الأهل أحراراً في ختان أطفالهم أو عدمه. وهذا لا يختلف عمّا يتم في القبائل البدائيّة في أدغال إفريقيا. ففي قبيلة «كسهوسا» في جنوب إفريقيا، إذا ما مضى الوقت الذي يجب فيه الختان، تقوم مجموعة من الرجال بالسيطرة على غير المختون بالقوّة وتختنه غصباً عنه. وهذا يحدث ليس فقط مع أعضاء تلك القبيلة، بل أيضاً مع من ينتمون للقبائل الأخرى. فقد أمسكوا بمديري المدارس والمفتشين وغيرهم في مدينة «ليبوا» وختنوهم بهذه الصورة.

3) إذن ممارسة العمل الطبّي ضمن أصول القواعد والأخلاق الطبّية

حتى تكون عملية الختان مباحة يجب أن يقوم بها طبيب مرخص من قِبل الدولة ومسجل في نقابة الأطبّاء. إلاّ أن عمليّة الختان بقيت مشاعاً. وما زال رجال الدين اليهود يرفضون تدخّل السلطات المدنيّة في تنظيم مهنة الخاتن حتى لتفادي حدوث وباء طبّي بسبب مص قضيب الطفل بفم الخاتن. فهم يخافون بأن يكون التدخّل الحكومي خطوة أولى لإلغاء الختان.

ولهذا السبب، ليس هناك تشريع يقنّن الختان في إسرائيل رغم المحاولات الكثيرة خلال السنين العشرة الأخيرة بسن مثل هذا التشريع. وفي هذا البلد لجنة مشتركة لمراقبة الخاتنين مكوّنة من وزارة الصحّة ووزارة الأديان ورئاسة الحاخامات. وهذه اللجنة تضم رجال دين وأطبّاء، وتقدّم شهادات للخاتنين ونصائح فنّية للعمليّة ولكنّها لا تستطيع أن تمنع غير المصرّح لهم من ممارسة الختان ولا تستطيع فرض نصائحها الفنّية. ولكل خاتن طريقته للختان التي لا يعرفها إلاّ هو، ومنهم من يعرّض الأطفال إلى خطر باستعماله مواد خطرة، مثل مادّة الأدرينالين الممنوعة. وقد نشرت مجلة يهودية أمريكيّة عام 1995 خبر إجراء الختان في إسرائيل من قِبل ولد عمره 13 سنة وهو ابن لخاتن. وردّاً على احتجاج المجلس الوطني لرعاية الطفل أجابت وزارة

الشؤون الدينيّة بأن الابن يرث مهنة الخاتن عن أبيه وليس هناك أية دراسة لمثل هذه المهنة. وإن كان من الضروري الحصول على إذن السلطة الحاخامية إلاّ أن للأب الحق في السماح لأبنه ممارسة الختان. وأضافت بأن من يتضرّر له الحق الاشتكاء للشرطة. وجاء في خبر آخر عام 2000 بأنه تم إجراء عملية في مستشفى العفولة لطفل قطعت حشفته أثناء ختانه على يد خاتن. ورفض الأهل إعطاء اسمه أو رفع قضيّة عليه. وتقول كاتبة المقال بأن ليس هناك ما يمنع في إسرائيل بأن يشتري أي شخص مشرطاً ويعلن عن نفسه خاتن وليس هناك من يجبره للاستقالة من عمله حتى ولو كان عجوزاً ويداه ترتجفان ونظره ضعيف.

ونفس الإهمال نجده عند المشرّع الغربي. فهو لم يخضع الختان لنفس النظام الذي تخضع له باقي العمليّات الجراحيّة. لا بل استثنت بعض المقاطعات الأمريكيّة عمليّة الختان من الشروط العامّة التي تفرض على ممارسة العمل الطبّي. والمقاطعات الأخرى التي لم تشرّع في هذا المجال تعتبر ممارسة الخاتن ختان الذكور خاضعاً لسماح ضمني. وتضم بعض المستشفيات الأمريكيّة إلى طاقمها رجال دين يهود يوكل لهم إجراء عمليّة الختان رغم أنهم لا يحملون شهادة طبّية وليس لديهم إذن بممارسة الطب أو الجراحة والتخدير. وكثيراً ما يضطر الأطبّاء إلى إصلاح ما عبث به الخاتن اليهودي دون كشف الأمر لتفادي الملاحقات القضائيّة ضدّهم. ويحاول مؤيّدو ختان الذكور الغربيّون تبرير إجراء عمليّة الختان على يد غير طبيب باعتبارها عمليّة صغيرة. وقد رفض هذا الإدّعاء معارضو الختان لأنه مبني على جهل في حقيقة عمليّة الختان وأخطارها. وهم يرون أن الختان دون سبب طبّي يعتبر تعذيباً. والتعذيب ممنوع في الوثائق الدوليّة.

وفي تطوّر جديد تم تبنّي قانون دخل حيّز التنفيذ في السويد في 1 أكتوبر 2001 بعد أن توفى طفل مسلم بسبب ختانه. ويطلب هذا القانون من الخاتن اليهودي أو أي ختان غير طبيب بأن يسانده طبيب أو ممرّضة عند إعطاء المخدّر. وقد قامت ضجّة حول هذا القانون في الأوساط اليهودية في السويد وخارجها معتبرة هذا القانون حد غير مبرّر لديانتهم. وقد قارنت هذه الأوساط هذا القانون بالقوانين النازية المعادية لليهود. وهذا يُظهر أن القواعد اليهودية في نظر هذه الأوساط أهم من مصلحة الطفل. وللعلم فإن السويد تمنع ختان الإناث مع أو بدون مخدّر بينما تسمح بختان الذكور مطالبة فقط بإعطاء مخدّر. وهذا تمييز ضد الأطفال الذكور.

وفي مصر يمنع القانون 415 لعام 1954 في مادّته الأولى مزاولة الأعمال الطبّية بما في ذلك العمليّات الجراحيّة إلاّ لمن كان اسمه مقيّداً بسجل الأطبّاء بوزارة الصحّة العموميّة وبجدول نقابة الأطبّاء.

يقول القاضي صلاح محمود عويس في كلامه عن ختان الإناث:

«إذا قام بهذه العمليّة غير الطبيب سواء كانت داية أو حكيمة أو تومرجي أو غير ذلك فقد توافرت بذلك جريمتان: جرح عمدي، وممارسة مهنة الطب بدون ترخيص. ويعاقب بأشد العقوبتين في هذه الحالة».

وقد قضت محكمة النقض المصريّة بمسؤوليّة القابلة جنائيّاً لإجرائها الختان لإحدى الفتيات. وقد جاء في الحُكم:

«أن من لا يملك حق مزاولة مهنة الطبيب يسأل عمّا يحدثه بالغير من جروح وما إليها باعتباره معتدياً - أي على أساس العمد، ولا يعفى من العقاب إلاّ عند قيام حالة الضرورة بشروطها القانونيّة».

هذا ونجد تناقضاً بين القوانين والواقع. فحلاّق الصحّة أو الداية يضعان فوق محلهما إعلاناً بالخط العريض بأنهما يمارسان الختان. ولكن عندما تحدث مضاعفات بسبب عمليّة الختان، يتذكر القضاء والفقه أن الحلاّق والداية قد خالفا القواعد العامّة الخاصّة بممارسة الطب. فيعاب عليهما إجراء عمل طبّي غير مرخّص به.

ونشير هنا إلى أن مؤيدي ختان الإناث يرون أن للطبيب الحق في إجرائه دون سبب طبّي معتبرين الشريعة الإسلامية فوق القانون الوضعي. وهذا هو السبب الرئيسي للتناقض بين الواقع والقوانين.

الفصل الخامس
منع الختان بين المُثُل والإمكانيّات

إن كنّا نريد أن نسير وفقاً للقانون ونحترم حقوق الإنسان، فإنه يجب معاملة الختان كأي عمليّة جراحيّة، دون تمييز بين ختان الذكور والإناث. ممّا يعني منع إجرائها والمعاقبة عليها إذا لم تتوفر فيها شروط الإباحة الثلاثة: وجود ضرورة طبّية، وموافقة المريض أو وليّه، وممارسة العمليّة من قِبَل شخص مرخّص له ضمن أصول القواعد والأخلاق الطبّية. وحقيقة الأمر أن هناك تسيّب واضح من قِبَل السلطات التشريعيّة والقضائيّة والتنفيذية والهيئات الطبّية في مجال الختان، وخاصّة ختان الذكور. فالختان يتم يومياً دون أن تتوفر فيه شروط الإباحة. ونادراً ما يلاحق من يقومون به. وهنا تطرح مشكلة لماذا لا يتفق الواقع مع القواعد المثاليّة، وكيف يمكن الوصول إلى ذلك.

1) القانون والعادات الواسعة الانتشار

تقول محامية مصريّة دافعت في قضايا ضد ختان الإناث أنه رغم وجود قانون في مصر، فإن هذا القانون لا يطبّق

«لأنه لا يتصوّر أن يتم إدانة وعقاب معظم أفراد المجتمع، الذين يحرصون على هذا الفعل ويمارسونه على سند من مرجعيّات مختلفة! ولأن القانون لا يطبّق جبراً على كل الخاضعين له، بل هو يطبّق جبراً فقط على قلة قليلة لا تحترم القانون ولا تخضع له طوعاً. لكن يساعد الناس على الخضوع الطوعي للقانون، تنقية وعي الناس من الزيف والخرافات التي تسيطر على طرق تفكيرهم، وتوهّمهم وتدفعهم إلى ممارسة ما هو بالضبط عكس مصالحهم. توعية الناس بأن القانون في تجريمه لمثل هذا الفعل يعبّر عن مصالحهم ويدافع عنها، بأن يوضّح لهم الآثار السلبيّة التي تعاني منها الزوجة وبالتبعيّة الزوج نتيجة لهذا الفعل. وهذا واجب ضخم ملقى على أكتافنا جميعاً».

2) العادات الاجتماعية لا تلغى بجرّة قلم

إن كنّا نفهم أنه من الصعب تنفيذ قانون يحرّم عادة تتبنّاها أغلبيّة السكان، إلاّ أننا نلاحظ أن القانون لا ينفذ حتى في الدول الغربيّة حيث تمارس أقلية ختان الإناث. فالعادات الاجتماعية لا تلغى بجرّة قلم. فهناك عوامل تمنع صدور القوانين. وإن صدرت، فإنها تمنع تنفيذها.

فالمشرّع الدولي ترك ختان الذكور مشاعاً بين يدي رجال الدين ورجال الطب خوفاً من اتهامه بمعاداة اليهود والمسلمين. أمّا فيما يخص ختان الإناث فقد تبدّل موقفه. ففي المرحلة الأولى، تغاضى عن ختان الإناث معتبراً ذلك من الأمور الثقافيّة الخاصّة بمن يمارسونه. ثم بعد ذلك قرّر منع جميع أنواع ختان الإناث وطالب الدول التي تمارسه بسن قوانين ضدّه ومعاقبة أصحاب المهن الطبّية إذا ما اشتركوا به. وبهذا ميّز بين ختان الذكور وختان الإناث دون وجه حق. إلاّ أن الغرب ذاته لم يتمكن من إلغاء ختان الإناث على أرضه لأسباب مختلفة.

تتم عمليّة الختان في محيط العائلة على قاصرين، وأفراد العائلة يعتقدون بأن ما يقومون به هو لمصلحة الطفل أو الطفلة. ولذلك ليس هناك شعور بالجريمة في تلك العائلة، وليس هناك من يشتكي. وعندما يكبر الطفل، فإنه قد ينسى ما جرى عليه، وقد ينسجم مع مجتمعه فيمارس الختان بدوره على غيره. وعلى كل حال، من الصعب عليه أن يرفع دعوى على أهله إذا ما اعتبر أن أهله لم يفعلوا إلاّ الخضوع لعادة متوارثة ولم يقصدوا الضرر به. وقد يكون الذي أجرى عمليّة الختان قد توفى أو ضاع أثره. وهناك مشكلة التقادم. فبعد مرور وقت طويل على ارتكاب جريمة، لا يحق

للضحيّة رفع دعوى على الجاني لفوات الوقت. ولذلك يرى البعض ضرورة إعطاء الشخص بعد البلوغ الحق في رفع دعوى لجرم اقتُرف بحقّه عندما كان صغيراً.

وهناك موضوع سر المهنة. فقد جاء في قسم أبقراط (توفى عام 377 ق.م): «كل ما يصل إلى علمي أثناء ممارسة مهنتي أو خارجها أو في اتصالي اليومي للناس ممّا لا يجوز إذاعته فإني أحتفظ به سرّاً مكنوناً». فهل يحق للأطبّاء أو الممرّضات أن يبلغوا المدّعي العام عن عمليّات الختان التي تصل إلى علمهم من خلال ممارستهم مهنتهم الطبّية؟ وهل لهم أن يبلغوا فقط عن الختان الذي يتم في بلدهم أم أيضاً عن جميع حالات الختان مهما كان مكان إجرائها؟ وإلى أي حد يمكن مساءلة الطبيب الذي لم يبلغ عن ذلك؟ هذا مجال يصعب تحديده. ونشير هنا إلى أن بعض القوانين، مثل القانون الألماني، تعاقب الجرائم التي تقترف في الخارج، مثل الإنتاج التجاري للصور الخلاعيّة للأطفال. وتطالب محامية ألمانيّة تكميل هذا النص ليتضمّن ختان الإناث.

هذا ورفع الدعوى بحد ذاته لا يضمن الملاحقة القضائيّة حتى في الدول المتقدّمة. ففي عام 1980 قام طبيب في فرنسا بتبليغ المحكمة عن وفاة بسبب ختان إناث. ثم ذهب الطبيب إلى هيئة حماية القاصرين وتم فتح تحقيق في هذه الدعوى. وقد دام التحقيق لمدّة ثمانية أشهر، والمحقّق يتنقّل بين المدرسة والهيئة الاجتماعية والمستشفى حيث اكتشف حالات ختان أخرى ولكن الكل يسكت ولا يعطي المعلومات الضروريّة. وفي هذه الأثناء وقَّع أكثر من 80 طبيباً على عريضة ترفض إجراء ختان الإناث في المحيط الطبّي. ولكن وزيرة شؤون المرأة السيّدة «ايفيت رودي» أسكتتها. هناك إذن اعتبارات سياسيّة ومهنيّة تمنع سير العدالة في مجال الختان.

وبالإضافة إلى تلك الاعتبارات هناك من يتخوّف من أن يؤدّي رفع دعوى على الأهل إلى تعريض حياة الطفلة إلى خطر الموت. فالأهل قد يرفضون اللجوء إلى الطبيب لمعالجة طفلتهم خوفاً من الملاحقة القضائيّة. كما أنه ليس من السهل على الأهل رفع دعوى على من قام بالختان حتى عندما تحدث مضاعفات لتلك العمليّة لأنهم أنفسهم شركاء في الجريمة. والخاتن، طبيباً كان أو حلاّق صحّة أو داية، يتمتع بنوع من العصمة في المجتمع يصعب التصدّي لها. فله من يحميه في محيطه. كما أن حدوث مضاعفات، مثل قطع حشفة الطفل في الختان، يحدث خجلاً كبيراً يُفضّل السكوت عليه.

ولنفرض أن قضيّة رفعت إلى القضاء، عند ذلك تطرح مشكلة المسؤوليّة. من هو المسؤول عن هذه العمليّة جنائيّاً ومدنيّاً؟ أي من هو الذي يجب عقابه وتغريمه تعويضاً عن الضرر الناتج عن عمليّة الختان؟ هل هم الأهل؟ أو من قام بهذه العمليّة؟ أم رجال

الدين الذين يروّجون لها؟ أم المنظمات الطبّية التي لم تأخذ موقفاً صارماً بخصوصها؟ أم الدولة التي لم تفعل شيئاً للكفاح ضدّها وتركت الختان مشاعاً دون تنظيم شروط إجرائها؟ ونشير هنا أنه في قضيّة الطفلة الماليّة «تراوري» التي توفت في فرنسا بعد ختانها عام 1983، قال محامي العائلة الماليّة: «يقال لنا أن الأفارقة الذين يمارسون ختان الإناث على أرضنا يخالفون القانون الفرنسي. ولكن لماذا لم تطبّق السلطات الفرنسيّة القانون الفرنسي عندما كانت السلطة المستعمرة في مالي؟ لأنها لم ترد أن تصطدم بالعادة مباشرة».

وتوسيع نطاق المسؤوليّة نجده خاصّة عند السيّدة «فران هوسكن». فهذه السيّدة ترى أن الدول الغربيّة مثل فرنسا لم تفعل شيئاً في مستعمراتها، وتسكت عن ختان الإناث الذي يتم على أرضها، ولا تدعم الحركات المعارضة له. وعند إصدار حُكم ضد ختان الإناث، فإن النساء تعاقب وتسجن، أمّا الرجال فيتركون أحراراً رغم أنهم هم الذين دفعوا تكاليف الختان. ولم يتم سجن إلاّ رجل واحد، وهو الذي ختن الفتاة، ضمن 18 قضيّة. فالقضاء الفرنسي الذي يسيطر عليه الرجال يرفض معاقبة الرجال الأفارقة. وما دام أن الرجال لا يُعاقبون، فإن ختان الإناث سوف يستمر في فرنسا وفي إفريقيا وتتحمّل فرنسا وقضاؤها مسؤوليّة ختان الإناث.

ويتحجّج المهاجرون الذين يختنون فتياتهم في فرنسا بأنهم يجهلون أن القوانين الفرنسيّة تمنع ختان الإناث رغم إثارة وسائل الإعلام هذه القضيّة على نطاق واسع. ومثل هذه الحجّة نجدها أيضاً في مصر. فالحلاّق الذي صوّرته شبكة التلفزيون الأمريكيّة «سي إن إن» وهو يجري عمليّة ختان الإناث قال عندما ألقى البوليس القبض عليه بأنه كان يجهل أن هذه العمليّة ممنوعة قانوناً، فكثيرون مثله يجرونها يومياً. ولتفادي اللجوء لمثل هذه الحجّة، تحاول الدول الغربيّة إبلاغ المهاجرين الذين يأتون من دول يمارس فيها ختان الإناث بمحتوى القانون. وهناك من يتذرّع ليس بالجهل بالقانون، بل بالجهل بحدوث العمليّة. فكثيراً ما يقول الآباء بأن ختان الإناث هو قضيّة بين النساء فلا يتدخّلون فيها. وعليه فإن النساء هي التي تتحمّل العقاب.

3) الختان بين التدرّج والتسرّع

إن تغيير المجتمع يمكن الوصول إليه عن طريق الثورة التي تقلب الأوضاع والأفكار رأساً على عقب بين ليلة وضحاها، أو عن طريق التدرّج والتطوّر، بحمل المجتمع على التغيير درجة درجة. وهذه المشكلة طرحت مع الختان.

بعد أن كانت منظمة الصحّة العالميّة ترفض التدخّل في ختان الإناث، جاء في تقرير 1976 لمستشارها الصحّي الدكتور «روبيرت كوك»، وهو من أصل أمريكي، بأنه لن يهتم إلاّ بالختان الفرعوني، تاركاً الأنواع الأخف من ختان الإناث، خاصّة أنها كانت تمارس في بلده. وقد حاول بعض المتدخّلين الأفارقة في مؤتمر الخرطوم لعام 1979 إباحة ختان الإناث الذي يتم طبّياً. إلاّ أن هذا الاقتراح تم رفضه. وقد أكدت على هذا الرفض منظمة الصحّة العالميّة عام 1982 معلنة بأنه يُحرَّم على المهن الطبّية إجراء ختان الإناث. كما أكد مؤتمر داكار لعام 1984 على هذا المنع لأن الطب لن يحل المشكلة بل سوف يكون مجرّد غطاء تمويه لها موضّحاً بأن «كل عمليّة جراحيّة لا ضرورة لها وتتضمّن مخاطر للمريض تعتبر مخالفة للأخلاق الطبّية».

ونشير هنا أن المشرّع السوداني، ومن بعده المشرّع المصري، قد حاول إتباع قاعدة التدرّج مانعاً الختان الفرعوني ومبيحاً الختان الذي يتم على يد الأطبّاء. وهذا الاتجاه نجده في القرار الوزاري الذي صدر بعد مؤتمر السكان في القاهرة لعام 1994 والذي يسمح للمستشفيات بإجراء هذه العمليّة. ولكن هذا القرار أثار ضجّة كبيرة. وقد أيّده البعض ورفضه آخرون، نذكر منهم الدكتورة نوال السعداوي في ردّها على اقتراح طبيبة مصريّة بأن يسمح بختان الإناث في المستشفيات العامّة وذلك للتقليل من الأضرار التي تنتج عن إجرائه خارجها بشرط أن يسبق ذلك تدريب الأطبّاء على كيفيّة إجراء عمليّة الختان بالشكل الذي أباحه الإسلام. ورفض نوال السعداوي يعتمد على الأسباب التالية:

«1) ليس هناك شكل لختان الإناث أباحه الإسلام. هذه العمليّة لا علاقة لها بالإسلام بدليل أن أكثر البلاد الإسلاميّة والعربيّة لا تمارس هذه العادة [...].
2) من المفروض أن تبذل وزارة الصحّة الجهود لتوعية الأطبّاء وجماهير الشعب بمضار الختان وأن تصدر قراراً يحرّم هذه العادة باعتبارها جريمة في حق الإنسان. فهل كون الختان يمارس خارج وزارة الصحّة مبرّر مقبول كي نمارسه في الوزارة نفسها؟ هل كون المخدّرات تباع في السوق خارج وزارة الصحّة مبرّر معقول كي تصدر الوزارة قراراً ببيعها داخل مؤسّساتها؟
3) بدلاً من تدريب الأطبّاء على إجراء هذه العمليّة لماذا لا يتدرّبون على مقاومته».

وتقول الأستاذة «جالو» بأنه رغم عدم دفاعها عن عادة الختان في الصومال، فإنها لا ترى كيف يمكن حذف هذه العادة بصورة كاملة لأنها عادة تمد جذورها في أعماق الثقافة الصوماليّة. وهي ترى بأن تطوّر هذه العادة يجب أن يمر في مجرى التطوّر الطبيعي. فليس هناك أي دليل بأن هذه العادة سوف تختفي بصورة كاملة. ولكن هناك أدلة بأن هذه العادة تتطوّر نحو تخفيفها. ولا يمكن اليوم الذهاب إلى أماكن الرعاة والطلب منهم أن لا يختنوا أو أن يختنوا بصورة مختلفة عن الختان الفرعوني. فهذا يخالف تماماً نظرتهم للحياة. ولكن هناك إمكانيّة في تحويل الختان الفرعوني إلى ختان

سُنّة مع تحوّل الرعاة إلى حضر وسكنهم البيوت. فالتحوّل يجب أن يكون تدريجيّاً ويتطلب عدّة أجيال ويجب أن يصاحبه تغيير في النظام الاجتماعي ووضع المرأة. وقد بيّنت في مقال لها كتبته مع باحثين بأن هناك حاليّاً في الصومال استبدال للختان الفرعوني بالختان البسيط أو حتى الرمزي بسبب الوضع المأساوي الذي يعيشه هذا البلد حيث تشح الوسائل العلاجيّة فلا يمكن معالجة مضاعفات الختان الفرعوني.

هذا ونجد نقاشاً مشابهاً حول ختان الذكور. فمعارضو هذا الختان عند اليهود يرون إمكانيّة الاكتفاء بقطع جزء بسيط من الغلفة دون اللجوء إلى السلخ، المرحلة الثانية في الختان اليهودي. أو يمكن الاكتفاء بإنزال نقطة دم من حشفة القضيب ما دام أن الدم هو المحور الرئيسي في الختان. ومنهم من يقترح قص جزرة بدلاً من قص غلفة القضيب، مع الاحتفاظ بالتقاليد والعادات التي تصاحبه إذ يصعب خلق فراغ تام وإخلاء المجتمع من جميع الطقوس. وهناك أيضاً من يقترح إجراء الختان تحت التخدير لتفادي الألم والصدمة النفسيّة عند المختون. وهذا الإجراء قد يكون له أثر سلبي إذ يستبعد حجّة ألم الطفل كسبب لإلغاء الختان. فما دام الطفل لا يتألم ولا يصرخ، يظن الأهل أن لا ضرر يقع على الطفل. وإذا كان معارضو ختان الإناث يرفضون إجراءه في الأوساط الطبّية خوفاً من إعطائه شرعيّة في أعين الناس، فإن رجال الدين اليهود يعترضون على إجراء ختان الذكور على يد الطبيب لأنهم يرون في ذلك حيلة من قِبَل معارضي ختان الذكور بقصد التدرّج في إلغائه. فإجراء ختان الذكور على يد طبيب يعني أن الختان سوف يصبح مجرّد عمليّة جراحيّة مفرغة من الطقس الديني الذي يصاحبه. ولذلك هم يرفضون تدخّل الدولة في تقرير من يستطيع أو لا يستطيع إجراء هذه العمليّة.

4) هل هناك ضرورة لقانون؟

يقول الحاخام اليهودي «موشي روتينبيرج» - وهو معارض للختان رفض ختان ابنه - إن إنهاء الختان عند اليهود أو غيرهم من المجموعات الثقافيّة لا يمر من خلال الفرض، إن كان بقانون أو بأي وسيلة أخرى، حتى وإن كان الختان في حقيقته تعسّف نحو الطفل. فلإنهائه يجب اللجوء إلى المحبّة والتعليم، وجعل العالم أكثر أماناً لليهود على جميع الجبهات، والإحساس باحتياجات الطفل حديث الولادة: «أصبح صديقاً لليهود وللأقليّات الأخرى، فمن خلال الحرص العميق يمكن فقط حل هذا الموضوع».

وترى ناهد طوبيا أنه يجب التفكير مرّتين قَبل اقتراح قانون للوصول إلى إلغاء ختان الذكور والإناث. فرغم أهمّية القوانين، إلاّ أنها ليست كفيلة لوحدها لحصول تغيير

اجتماعي. فد يكون القانون أو الحُكم القضائي وسيلة كفاح جيّدة، ولكن قد يؤدّي إلى عداء وإلى معارك قضائيّة لا نهاية لها.

والقانون، حتى وإن لا ينفذ، وسيلة لإفهام العامّة بأن هناك سيف معلق فوق رؤوسهم، وأن عادة الختان مرفوضة، فلا يتذرّع الناس بعدم وجود القانون لتبرير عملهم. تقول الدكتورة سهام عبد السلام: «طبعاً القانون لن يحل المشكلة. لا بد من التوعية. لكن بالقياس هناك قوانين كثيرة لا يلتزم بها الناس بسبب عادات سائدة مثل قوانين حظر المخدّرات. ومع ذلك فهذه القوانين موجودة لأن هذا حق المجتمع. القانون وحده لن يحل، لكنّه سيكون عاملاً مساعداً لمن يحاولون الحل». ويرى البعض في وجود مثل هذا القانون مرتكزاً يعتمد عليه الأهل في قرارهم بعدم ختان ابنتهم. فيستطيعون من خلاله التهديد باللجوء إلى المحاكم في حالة عدم احترام إرادتهم من قِبَل الجيل الأقدم سنّاً الذي يأخذ عامّة على عاتقه إجراء الختان.

وترى عالمة النفس «اليس ميلير» أن القانون وسيلة لحماية الناس من أنفسهم ولتوعيتهم. فسن تشريع يمنع الأهل من ختان أطفالهم يقود الأهل إلى اكتشاف ما مرّوا به من انتهاك هم أنفسهم. وهذا ضروري حتى ينهوا تصرّفهم المشين نحو أطفالهم. فالقصد ليس عقاب الأهل، بل السماح لهم لكي يكتشفوا نفسهم. وتذكر مثلاً على ذلك القوانين الاسكندنافيّة التي تفرض علي الأطبّاء أن يبلغوا عن حالات انتهاك الأطفال. فهذا يساعد في تفهيم الشعب أن الأطفال لهم حقوق يحميها القانون. وهكذا فقط يمكن التخلص من ظاهرة انتهاك الأطفال. والأهل سوف يجدون أنفسهم أكثر راحة لو أن المشرّع ساعدهم في رؤية الطريق الذي يجب أن يسلكوه.

5) القانون جزء من خطة شموليّة

لا يكفي العقاب بحد ذاته للحد من تصرّف اجتماعي يحرّمه القانون. وليس من العدل وضع الناس بين خيار العقاب وخيار ترك تصرّف ما دون أي تفسير أو تبرير. فلا بد من مصاحبة العقاب بالتثقيف لتوضيح السبب الذي من أجله حرّم ذاك التصرّف والفوائد التي يمكن أن يجنيها الفرد من الابتعاد عنه. وهناك قول بليغ في القرآن الكريم: «وما أهلكنا قرية إلاّ لها منذرون ذكرى وما كنّا ظالمين» (الشعراء 208:26-209). والختان موضوع معقّد ومتشعّب، ولذلك لا يمكن إيجاد حل بسيط له. ومن هنا تأتي ضرورة فهم هذا الموضوع بصورة شموليّة وطرح حل شمولي له. وقد قامت المنظمات المختلفة بوضع خطط شموليّة للقضاء على ختان الإناث، يمكن تطبيقها على ختان الذكور. والمتمعّن في هذه الخطة يجد أنها تجمع بين ضرورة دراسة ظاهرة الختان لمعرفة أسبابها، ونشر التوعية على المستويات المختلفة، وتعاون

المنظمات الأهليّة والهيئات الحكوميّة والدوليّة، وسن قوانين تمنع ممارسته وتمنح اللجوء السياسي. وهذه النقطة الأخيرة هي آخر ما نبحثه في هذا الكتاب.

الفصل السادس
الختان واللجوء السياسي

1) النصوص الدوليّة والتصريحات المعلنة

يعتبر المشرّع الوطني الغربي والمشرّع الدولي ختان الإناث تعسّفاً يرقى إلى درجة التعذيب. ومعارضو ختان الذكور يعتبرونه أيضاً عمليّة تعذيب. وبما أن التعذيب ممنوع من قِبَل المشرّع الدولي والوطني، لذلك يجب منع كل من ختان الإناث وختان الذكور دون تمييز. ولا يكتفي المشرّع الدولي بإدانة التعذيب، بل يطالب الدول بتجريمه ومعاقبة مقترفيه، كما جاء في المادّة الرابعة من اتفاقية مناهضة التعذيب لعام 1984. وتضيف الفقرة الأولى من المادّة الثالثة من هذه المعاهدة:

> لا يجوز لأيّة دولة طرف أن تطرد أي شخص أو أن تعيده أو أن تسلمه إلى دولة أخرى، إذا توافرت لديها أسباب حقيقيّة تدعوا إلى الاعتقاد بأنه سيكون في خطر التعرّض للتعذيب.

من جهة أخرى تعطي الاتفاقية الخاصّة بوضع اللاجئين لعام 1951 حق اللجوء السياسي لمن قد يتعرّض للاضطهاد بسبب عرقه أو دينه أو جنسيته أو انتمائه إلى فئة اجتماعية معيّنة أو آرائه السياسيّة.

وبناء على هذه النصوص وغيرها من النصوص الدوليّة، يرى معارضو ختان الإناث ضرورة إعطاء حق اللجوء السياسي للنساء (وفتياتها) التي تهرب من بلادهن خوفاً من إجراء الختان عليهن (أو على فتياتهن). وإذا لم تتحقّق شروط اللجوء السياسي، فعلى الأقل يجب إعطاء تلك النساء وفتياتهن حق الإقامة (الإنسانيّة) وعدم الطرد إلى بلدهن الذي يمارس ختان الإناث. إلاّ أن أكثريّة الدول ترفض إعطاء اللجوء السياسي على أساس الخوف من ختان الإناث، معتمدة في ذلك على فهمها للاضطهاد وأسبابه كما جاء في الاتفاقية الخاصّة باللاجئين.

2) تعريف الاضطهاد

لم يقدّم واضعو الاتفاقية الخاصّة باللاجئين تعريف «للاضطهاد» وذلك لصعوبة تحديد كل أشكال المعاملة السيّئة التي تعطي للشخص حق طلب اللجوء السياسي. وقد عرّفه

مؤلف بأنه «الخرق الطويل المدى أو المنهجي لحقوق الإنسان الذي يشير إلى فشل حماية الدولة».

إلاّ أنه ليس كل خرق لحقوق الإنسان، مهما كانت شدّته، يعتبر اضطهاداً بمعنى الاتفاقية الخاصّة باللاجئين. فالاضطهاد يجب أن يكون من فعل السلطات الشرعيّة. إلاّ أنه تم التوسّع في هذا المفهوم. فأعتبر رفض الدولة حماية مواطنيها من التعدّي عليهم أو عدم إمكانيّة تدخّلها لحمايتهم نوع من الاضطهاد غير المباشر من قِبَل تلك الدولة. ومهما يكن، فإن النساء التي يمكن أن تستفيد من اللجوء السياسي هن تلك التي لم تختن بعد، أو لديهن فتيات مصاحبات لهن لم يتم ختانهن. ممّا يعني أن النساء المختونات لا يمكنها أن تتذرّع بالختان. ولكن قد تستفيد من اللجوء السياسي النساء التي قد يفرض عليهن إعادة شبك الفرج في حالة الولادة. وقد رُفض طلب لجوء سياسي لامرأة لأنه سبق أن ختنت جزئيّاً.

3) هل النساء فئة اجتماعية معيّنة؟

لا يكفي الخوف من الاضطهاد للحصول على اللجوء السياسي وفقاً للاتفاقية المذكورة، بل يجب أيضاً أن يكون الشخص مضطهداً «بسبب عرقه أو دينه أو جنسيته أو انتمائه إلى فئة اجتماعية معيّنة أو آرائه السياسيّة». والمشكلة مع ختان الإناث إنه لا يتم لأحد هذه الأسباب، حتى وإن عرّفناه بمعنى الاضطهاد.

وقد اقترحت مفوّضيّة الأمم المتحدة للاجئين عدم تفسير هذه الاتفاقية تفسيراً حرفيّاً. فكثير من النساء يهربن من بلدهن لأسباب خاصّة مثل الاغتصاب، والتعذيب الجنسي، وختان الإناث، والتمييز الجنسي، والإجهاض والتعقيم الإجباريين. وعندما وضعت القواعد بخصوص اللاجئين، فقد وضعت بنظرة ذكوريّة آخذة بالاعتبار الأسباب التي من أجلها يهرب الرجال عامّة من بلادهم أي الاضطهاد بسبب الانتماء العرقي والديني وغيره. وهذه الأسباب تختلف عن الأسباب التي من أجلها تهرب النساء من بلادهن. ولذلك فإن تلك الاتفاقية لا تذكر الانتماء الجنسي. فيجب التخلي عن النظرة الذكوريّة للجوء السياسي. وتقترح هذه المفوّضيّة إعطاء اللجوء السياسي للنساء المضطهدات على أساس انتمائهن إلى «فئة اجتماعية معيّنة»، أي بسبب «انتمائهن الجنسي».

إلاّ أن أكثر الدول الغربيّة ترفض هذا التفسير. فهذه الدول، إن قَبلت بفكرة أن النساء تكوّن «فئة اجتماعية معيّنة»، تتطلب وجود سبب إضافي مع هذا السبب. فاغتصاب النساء بحد ذاته لا يعطي الحق في اللجوء السياسي. أمّا اغتصابهن بسبب انتمائهن إلى مجموعة عرقيّة أو دينيّة أو سياسيّة كما جرى في حروب البلقان فيعطيهن مثل هذا

الحق. وهذا المنطق ينطبق على ختان الإناث. إلاّ أنه لا يحدث أن يتم ختن امرأة لهذه الاعتبارات. غير أن بعض الدول تغاضت عن مطلب الانتماء الإضافي هذا ومنحت اللجوء السياسي لمجرّد الخوف من التعرّض للختان في حالات نادرة كما هو الأمر في الولايات المتحدة في قضيّة الشابّة فوزية كاسينكا. وهناك من اعتبر تلك السيدات «فئة ترفض الختان». هذا وإن كانت الدول الغربيّة تتردد في منح اللجوء السياسي للنساء التي يخشين إجراء ختان الإناث عليهن أو على فتياتهن، إلاّ أن هذه الدول عامّة تمنحهن حق الإقامة لأسباب إنسانيّة.

4) معارضة ختان الإناث كحيلة للبقاء في الغرب

حتى وإن اعتبرنا ختان الإناث اضطهاداً بمعنى الاتفاقية الخاصّة بوضع اللاجئين، وأن النساء تنتمي إلى «فئة معيّنة»، يبقى موقف التي تطلب اللجوء السياسي من هذه الممارسة. فكثير من النساء التي تم ختانهن أو ختن فتياتهن يدافعن عن ختان الإناث ويعتبرن التعرّض له تعدّي على ثقافتهن. إلاّ أنه في حالة فشل تلك النساء في الحصول على اللجوء السياسي، تتذرّع بخوفها من ختان الإناث على بناتها إذا ما أعيدت إلى بلدها. ومن الواضح أن موقفها هذا نابع ليس عن اقتناع بأن ختان الإناث ضار، بل لأن تلك هي وسيلتهن الأخيرة للحصول على اللجوء السياسي أو البقاء في الغرب. وقد تكون هذه الحجّة من إيعاز المحامين.

وبطبيعة الحال لا يمكن للسلطات التحقّق من نيّة طالبات اللجوء السياسي، ولكنّها تلجأ إلى البحث عمّا إذا يأتين فعلاً من منطقة تمارس ختان الإناث، وإذا لم يكن هناك إمكانيّة لهن الذهاب إلى مكان آخر داخل بلادهن. وليس من السهل التحقّق من هذين الأمرين. فكثير من اللاجئين يفقدون عمداً هويّاتهم ويدَّعون أنهم يأتون من مناطق غير التي هم منها. ومن جهة أخرى ليس من السهل التعرّف على الجماعات التي تمارس ختان الإناث. كما تستطيع السلطات الشك في نوايا تلك النساء إذا ما تم تقديم حجّة ختان الإناث في مراحل متأخّرة من طلب اللجوء السياسي، أو إذا تبيّن أن النساء قَبل تقديم تلك الحجّة قمن بختان فتياتهن أو لم يعترضن على ذلك. ولنفرض أن السلطات لم تتمكن من التشكيك في نوايا طالبة اللجوء السياسي، فإنها قد تلجأ إلى سحب اللجوء بعد منحه إذا ما تبيّن لها أن تلك السيّدة قامت بختان ابنتها بعد حصولها على اللجوء أو دافعت عنه بصورة أو بأخرى.

5) التمييز بين ختان الذكور والإناث في مجال اللجوء السياسي

تجري المعاهدات والقوانين التي تتكلم عن اللجوء السياسي وحق الإقامة وعدم الطرد من البلد على كل من الذكور والإناث. لذا يطرح إدخال عنصر ختان الإناث كسبب للحصول على اللجوء السياسي مشكلة التمييز بين الذكور والإناث. فيرى معارضو ختان الذكور، عملاً بمبدأ عدم التمييز، ضرورة الاعتراف بنفس الحقوق للرجال (وأبنائهم) الذين يهربون من بلدهم خوفاً من إجراء الختان عليهم (أو على أبنائهم).

ونشير في هذا المجال أن المحكمة الإداريّة العليا في ألمانيا منحت اللجوء السياسي لمسيحي تركي على أساس خوفه من الختان. فقد تبيّن للمحكمة بأنه في حالة إعادته إلى تركيا، سوف يُجبر على الالتحاق بالخدمة العسكريّة في الجيش التركي. وهذا الجيش يقوم بفرض الختان على جميع المجنّدين، مهما كانت ديانتهم. وقد قالت المحكمة بأن الختان الذي يفرض على شخص يعتبر سبباً للجوء السياسي لأنه خرق لحقوق الإنسان.

ونحن لا نستبعد إمكانيّة منح اليهود غير المختونين من أصل سوفييتي اللجوء السياسي في الغرب مثلاً لأنهم فعلاً ينتمون إلى فئة معيّنة يفرض عليها الختان. ومن يرفض ذلك الختان فإنه يحرم من كثير من المساعدات الحكوميّة لا بل يحرم من حقّه في الزواج الديني والدفن في مقابر اليهود. ولذلك يمكن اعتبار فرض الختان عليهم في إسرائيل نوع من الاضطهاد وفقاً للاتفاقية الخاصّة باللاجئين.

خاتمة الكتاب

«يسكن الذئب مع الحمل، ويربض النمر مع الجدي، ويعلف العجل والشبل معاً، وصبي صغير يسوقهما [...]، لا يسيئون ولا يفسدون» (أشعيا 6:11 و9).

لا يستطيع المجتمع أن يعيش في فوضى تاركاً أفراده يتصرّفون كما يشاؤون ليس فقط في علاقتهم مع المجموعة بل أيضاً في علاقتهم مع أفراد العائلة أو حتى في تصرّفهم الذاتي. فالإنسان لا يعيش منعزلاً عن مجتمعه وعليه أن يخضع لقواعد تضمن التعايش السلمي داخل هذا المجتمع. وإلاّ فأن هذا المجتمع يتعرّض للتحلل الداخلي.

وتفادياً لهذا التحلل الداخلي، قام المجتمع بسن قواعد ذات طابع قانوني أو طابع أخلاقي تفرض احترام حياة الفرد وسلامة جسده، وتحدّد الحالات التي يمكن فيها التعدّي على هذا الحق المقدّس، إذا كان ذلك لصالح الفرد، كقطع يد مريضة للحفاظ على باقي الجسد، أو كإعدام مجرم اقترف ذنباً خطيراً يهدّد الأمن العام. وضمن هذا الإطار منعت القوانين الضحايا البشريّة كقرابين للآلهة، كما حدَّت من حق رب البيت في التعرّض لحياة أو سلامة جسد أبنائه أو حتى عبيده. ويدخل في ذلك الحق في سلامة أعضائه الجنسيّة. فتم منع الخصي في العصر الروماني.

إلاّ أن البشريّة ما زالت متمسّكة بعاداتها وغرائزها القديمة، بشكل أو بآخر. فرغم تقدّم العقل البشري في مجالات جمّة حتى استطاع أن يصل إلى القمر، ويخترق الذرَّة، ويحوّل العالم إلى قرية صغيرة من خلال نظام شبكة الانترنيت العملاقة، إلاّ أنه ما زال مُصِرّاً على التعدّي على الأعضاء الجنسيّة للأطفال، ذكوراً كانوا أو إناثاً. فشرعة الغاب التي كانت تتحكم في المجتمعات الهمجيّة في العصور الغابرة ترمي بظلالها على عصرنا هذا، فتذهب ضحيّتها ما لا يقل عن خمسة عشر مليون طفل سنوياً، منهم ثلاثة عشر مليون ذكر، ومليوني أنثى. وكما يذكر المثل: «الطبع غلب التطبع». فلك أن تعلم القط القراءة والكتابة وركوب المركبات الفضائيّة والتحكم في أكثر الآلات تعقيداً، إلاّ أنك لن تستطع أن تمنعه من أكل الفئران. وما زال حتى يومنا هذا قول النبي أشعيا السابق الذكر حلماً صعب المنال.

إلاّ أن البشريّة لا يمكنها أن تعيش بلا أحلام، ولا أحد يستطيع أن يمنعها من أن تحلم بعصر يعيش فيه أطفالها ذكوراً وإناثاً في سلام، دون تعدّي على أعضائهم الجنسيّة، رافضة التحجّج بيهوه أو بالله، برجال العلم أو برجال الطب. وقد بدأ فعلاً بعض ذلك الحلم يتحقّق، خاصّة فيما يتعلق بالإناث. إلاّ أن الطريق إلى تحقيق هذا الحلم ما زال طويلاً فيما يتعلق بالذكور. فختان الذكور تحيط به أسوار منيعة من الكذب والتدجيل والتحايل والمصالح الماليّة والدوافع السياسيّة التي لا يمكن كسرها إلاّ بعد جهد جهيد.

وإذا ما قَبلنا بحق البشريّة في الحلم، فلا بد من أن نعترف بأن حركة معارضة ختان الذكور والإناث دون تمييز تعتبر إحدى قوى الإصلاح الاجتماعي في عصرنا، إن لم تكن أهمّها على الإطلاق. والمشاركون في هذه الحملة يعرفون ذلك حق المعرفة. ففي المؤتمر الثالث الدولي للختان الذي عقد في جامعة ماريلاند عام 1994، وقف القس «جيم بيجلو» خاطباً: «نحن الروّاد. من قَبلنا الهمجيّة، ومن بعدنا تبدأ الحضارة». فالهمجيّة تتصدّى للأطفال الأبرياء وتبتر أعضاءهم الجنسيّة، أمّا الحضارة فترفض مثل هذا التصرّف.

ولا تتخيّل هذه الحركة الإصلاحيّة بأنها سوف تغيّر الوضع بين ليلة وضحاها. فنظام العبوديّة تطلب مئات السنين لإلغائه، وما زال له بعض الرواسب في دول مثل موريتانيا والسودان، إضافة إلى بعض مظاهر الرق في الدول المتقدّمة ودول العالم الثالث. وإلغاء ختان الذكور أكثر صعوبة من إلغاء نظام العبوديّة لأن وراءه قوى دينيّة كبرى متمثلة في اليهود والمسلمين والمتعصّبين بين المسيحيّين، كما وراؤه المستفيدون ماليّاً بين الأطبّاء. والأطفال الذين يجرى عليهم الختان لا يمكنهم أن يثوروا كما ثار العبيد. فهم لا يملكون إلاّ الصراخ أمام أهلهم والجماعات الدينيّة وأصحاب المهن الطبّية. ولا بد لهم من مدافع جسور لا يلعب الدين في دماغه، ولا ينبهر بهالة الأطبّاء، ولا يدخل مال الختان وثمن الدم في حسابه.

إن كل شخص يقوم بمجهود يأمل أن يتوّج مجهوده بالنجاح. والأمل الذي أود أن أعبّر عنه في نهاية هذا الكتاب أن يؤدّي مجهودي ومجهود المناضلين قَبلي وبعدي في القضاء على كل من عادة ختان الذكور وختان الإناث. ولكن متى يمكن الوصول إلى مجتمع يحترم أطفاله ولا يعرّضهم للبتر نتيجة الهوس الديني والطبّي والاجتماعي؟ الجواب سهل: بقدر الجهد والمجاهدين يتحقّق الهدف. لذا أهيب بالقارئ الكريم إلى ضم صوته إلى صوتي هذا. ولنتذكر أن رحلة ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة. ومهما طالت الرحلة ومهما طغت القوى الظلاميّة، فإن الأجيال اللاحقة سوف تحتفظ في ذاكرتها في أن هناك من لم يوافق على ما يتعرّض له الأطفال من معاملة سيّئة فرفع صوته عالياً لكي تكف تلك المعاملة.

كامل محتويات الكتاب

يجد القارئ مختصر المحتويات في أول الكتاب

مختصر محتويات الكتاب 7
تقديم الدكتورة نوال السعداوي 9
المقدّمة 15
تنبيه 17
الجزء الأول: تعريف الختان وأهمّيته العدديّة وتوزيعه 19
الفصل الأول: تعريف الختان 19
1) الختان أحد أساليب التصرّف بالجسد 19
2) الكلمة ومدلولها الاجتماعي والسياسي 19
3) أنواع عمليّة ختان الذكور 20
4) أنواع عمليّة ختان الإناث 22
الفصل الثاني: الأهمّية العدديّة والتوزيع الجغرافي 22
1) إحصائيّات ختان الذكور 22
2) إحصائيّات ختان الإناث 23
الجزء الثاني: الختان والجدل الديني 25
الفصل الأول: الختان في الفكر الديني اليهودي 25
1) نصوص الكتب المقدّسة اليهوديّة عن الختان 25
2) وجوب ختان الذكور عند اليهود 26
أ) ختان الذكور في الشرق الأوسط قديماً 26
ب) الختان وأسطورة العهد بين الله واليهود 28
ج) الختان علامة انتماء وتمييز وخلاص 29
د) الأغلف يقطع من الشعب اليهودي 29
هـ) الأغلف نجس 30
و) الأغلف لا يُقبل زواجه من يهوديّة ولا يناسب 31
ز) الأغلف لا يعاشر لا في الحياة ولا في الموت 32
ح) المبالغة في أهمّية الختان 33
3) التيّار اليهودي الناقد لختان الذكور 34
أ) لم يمارس اليهود دائماً الختان 34
ب) الجدل ضد الختان عند المجدّدين اليهود الألمان 35

ج) الجدل الحالي حول الختان في الولايات المتحدة 37
د) انتقال نقد الختان إلى إسرائيل 38
4) عمليّة الختان عند اليهود 40
أ) الأشخاص الذين يخضعون للختان 40
ب) القائمون بالختان ومن يحضره 43
ج) تنفيذ الختان 46
د) الانتقال من الطقس الدموي إلى الطقس غير الدموي 49
5) ختان الإناث عند اليهود 50
أ) ختان الإناث في الشرق الأوسط قديماً 50
ب) ممارسة اليهود لختان الإناث وإنكارهم ذلك 50
ج) إشراك الإناث في طقس الختان الرمزي 51
الفصل الثاني: الختان في الفكر الديني المسيحي 52
1) الختان في نصوص الكتب المقدّسة المسيحيّة 52
أ) موقف المسيح من الختان 52
ب) موقف رسل المسيح من الختان 53
2) موقف آباء الكنيسة واللاهوتيّين من الختان 56
أ) انتصار التيّار الرافض للختان 56
ب) رأي يوستينوس (توفى حوالي عام 165) 57
ج) رأي كيريلوس الكبير (توفى عام 444) 58
د) رأي توما الأكويني (توفى عام 1274) 59
3) الجدل الديني حول الختان عند مسيحيّي مصر 61
أ) ختان الذكور عند مسيحي مصر 61
ب) ختان الإناث عند مسيحيّي مصر 64
4) الجدل الديني حول الختان عند المسيحيّين الأمريكيّين 65
أ) التفسير الحرفي للتوراة عند الأصوليّين المسيحيّين 66
ب) رفض معارضي ختان الذكور للتفسير الحرفي 68
الفصل الثالث: الختان في الفكر الديني الإسلامي 69
1) الختان في القرآن 69
أ) سكوت القرآن عن ختان الذكور والإناث 69
ب) تفسير آيات من القرآن لتأييد ختان الذكور 70
ج) تصادم الختان مع فلسفة القرآن 72
2) الختان في السُنّة 74
أ) أحاديث الختان 75
ب) المشككون في أحاديث الختان 80

3) الختان وشرع من قَبلنا 82
أ) إنجيل برنابا 82
ب) رواية ختان هاجر 83
4) الختان في سُنّة السلف 83
أ) ليس للسلف موقف ثابت من ختان الذكور 84
ب) ليس للسلف موقف ثابت من ختان الإناث 86
5) آراء الفقهاء القدامى في الختان 87
أ) قلة اهتمام الفقهاء القدامى بموضوع الختان وتناقض مواقفهم 87
ب) نبذات من آراء الفقهاء القدامى 88
6) الحجج الدينيّة الفرعيّة التي يرتكز عليها الفقهاء والمفكرون 89
أ) التطهير من النجاسة 89
ب) شعار المسلمين ومخالفة لشعارات الكفر 90
ج) العُرف 90
7) النتائج المترتبة على عدم الختان في الشريعة 90
أ) الختان بين المباح والمستحب 91
ب) الختان واجب يجبر ويقتل تاركه 91
ج) القدح في صلاة وإمامة وحج وشهادة وذبيحة الأغلف 92
د) القدح في زواج الأغلف 92
هـ) حالات تجريم الختان 93
8) عمليّة ختان الذكور والإناث 93
أ) الشخص الذي يتم الختان عليه 93
ب) القائمون بالختان 98
ج) تنفيذ الختان 99
د) مصير الغلفة في الحياة وبعد الموت 100
هـ) صلاة الختان 102
الجزء الثالث: الختان والجدل الطبّي 103
الفصل الأول الآلام الناتجة عن ختان الذكور والإناث 103
1) عدم إحساس الطفل بالألم أو عدم إحساس الغير بألمه؟ 104
2) لماذا إنكار ألم الطفل؟ 104
3) التخفيف من الألم 106
الفصل الثاني: الأضرار الصحّية لختان الذكور والإناث 107
1) أسباب تتفيه أو تجاهل الأضرار الصحّية للختان 108
أ) الأسباب الدينيّة 108
ب) جهل أو تجاهل العلاقة بين تلك الأضرار والختان 108

2) الأضرار الصحّية لختان الذكور 109
3) الأضرار الصحّية لختان الإناث 113
الفصل الثالث: المضار الجنسيّة لختان الذكور والإناث 117
1) ختان الذكور واللذّة الجنسيّة 117
أ) مؤيّدو ختان الذكور قديماً يرون فيه إضعاف للذّة 117
ب) معارضو ختان الذكور في أيّامنا يرون فيه أيضاً إضعافاً للذّة 118
ج) مؤيّدو ختان الذكور في أيّامنا يرون فيه تقوية للذّة 119
2) ختان الإناث واللذّة الجنسيّة 122
أ) مؤيّدو ختان الإناث قديماً يرون فيه إضعافاً للذّة 122
ب) معارضو ختان الإناث في أيّامنا يرون فيه أيضاً إضعافاً للذّة 122
ج) مؤيّدو ختان «السُنّة» في أيّامنا يرون فيه تعديلاً أو تقوية للذّة 123
3) الختان وتعاطي المخدّرات 125
أ) ختان الذكور وتعاطي المخدّرات 125
ب) ختان الإناث وتعاطي المخدّرات 125
4) الختان والشذوذ الجنسي 126
أ) ختان الذكور والشذوذ الجنسي 126
ب) ختان الإناث والشذوذ الجنسي 127
5) تأثير الختان على الزواج 128
أ) تأثير ختان الذكور على الزواج 128
ب) تأثير ختان الإناث على الزواج 129
الفصل الرابع: الفوائد الصحّية المزعومة لختان الذكور والإناث 129
1) ختان الذكور والإناث للحفاظ على النظافة 129
أ) الختان والنظافة في الكتابات القديمة 129
ب) الختان والنظافة في المصادر الإسلاميّة والعربيّة 130
ج) الختان والنظافة في المصادر الغربيّة 130
2) ختان الذكور والإناث لمكافحة الاستمناء وعواقبه 131
أ) الاستمناء في المصادر العربيّة 131
ب) الاستمناء عند اليهود والمسيحيّين الغربيّين 132
3) ختان الذكور والإناث للوقاية من الأمراض الفتاكة 137
أ) الختان والوقاية في الكتابات القديمة 137
ب) الختان والوقاية في الكتابات الغربيّة 137
ج) الختان والوقاية في الكتابات العربيّة والإفريقيّة 138
4) ختان الذكور والإناث للوقاية من الأمراض الجنسيّة 138
أ) المصادر العربيّة 138

ب) المصادر الغربيّة 139
5) ختان الذكور والإناث للوقاية من السرطان 140
أ) المصادر العربيّة 140
ب) المصادر الغربيّة 140
6) الختان لعلاج ضيق الغلفة وضيق الغلفة الخلفي 143
أ) المصادر العربيّة 143
ب) المصادر الغربيّة 144
7) الختان لعلاج التهاب المسالك البوليّة 146
أ) المصادر العربيّة 146
ب) المصادر الغربيّة 146
8) ختان الذكور والإناث للوقاية من الإيدز 147
أ) المصادر العربيّة 147
ب) المصادر الغربيّة 148
9) موقف المنظمّات الطبيّة 149
الفصل الخامس: المعالجة الطبّية لآثار الختان الضارّة 150
1) عمليّة استرجاع الغلفة في التاريخ 151
2) كيفيّة استرجاع الغلفة بأسلوب غير جراحي 152
3) موقف مؤيّدي الختان من استعادة الغلفة 153
الجزء الرابع: الختان والجدل الاجتماعي 155
الفصل الأول: الختان من بتر الذات الشاذ إلى التصرّف الجماعي الثقافي 155
1) بتر الذات الشاذ من الجن إلى علم الطب النفسي 155
2) دور الدين والجنس 156
3) تأثير المازوشيّة 156
4) غريزة الحياة والموت 157
5) تأثير المحيط 157
6) الحيلة والصوريّة 157
7) التحليل النفسي لختان إبراهيم 158
8) وسائل معالجة بتر الذات الشاذّة 159
9) تحوّل الشذوذ الفردي إلى تصرّف جماعي ثقافي 160
الفصل الثاني: الختان وتأثير المحيط 160
1) الختان والتأثير العائلي 160
2) الختان والتأثير الاجتماعي 161
3) الختان والتأثير المهني 162
4) الختان وتأثير الثقافة الغالبة 162

الفصل الثالث: الختان والدين **163**
1) الأساطير الدينيّة كمفسّر لنشأة الختان 163
2) الختان أحد التضحيات للآلهة 163
3) الدين عامل مساعد لمبرّرات الختان 164
الفصل الرابع: الختان وكبح النزوات الجنسيّة والأعداد للزواج **165**
1) ختان الذكور وسيلة من وسائل الكبح الجنسي 165
2) ختان الإناث وسيلة من وسائل الكبح الجنسي 165
3) الختان كعمليّة تمييز بين الذكور والإناث 166
4) الختان كعمليّة تجميليّة جاذبة جنسيّاً 166
أ) الختان كتجميل للأعضاء التناسليّة الذكوريّة 166
ب) الختان كتجميل للأعضاء التناسليّة للإناث 167
5) الختان كإعداد وشرط للزواج 167
أ) ختان الذكور كإعداد وشرط للزواج 168
ب) ختان الإناث كإعداد وشرط للزواج 168
الفصل الخامس: الختان والنظام القَبلي والطائفي **169**
1) الختان كعلامة انتماء وتمييز وتعارف 169
2) الختان كعلامة عهد وتضامن 169
3) الختان كمرحلة تدريب وامتحان 170
أ) طقس تدريب وختان الذكور 171
ب) طقس تدريب وختان الإناث 171
4) الختان كوسيلة لدفع العنف وحماية المجتمع 172
5) من سيطرة القبيلة إلى سيطرة الأطبّاء والجيش 172
الفصل السادس: الختان وغريزة التسلط **173**
1) الختان وعقدة أوديب وعقدة الخصي 174
2) الختان بين المحبّة والعنف والساديّة 175
3) الختان والحيلة والصوريّة 175
الفصل السابع: الختان والعوامل الاقتصادية **176**
1) الجذور الاقتصادية لنشوء وتطوّر الختان 176
2) الختان مصدر ربح للأطبّاء والخاتنين وغيرهم 178
3) الختان وتجارة الآلات الطبّية 179
4) الختان وتجارة الغلفة 179
5) الختان والتأمين 180
6) الختان وسلاح المال 180
الفصل الثامن: الختان والدوافع السياسيّة **181**

1) اليهود والختان والصراع السياسي 181
أ) ختان الذكور والاتهام بمعاداة الساميّة 181
ب) اتهام اليهود بنشر ختان الذكور وأهدافهم 182
2) المسلمون والختان والصراع السياسي 183
أ) ختان الإناث والاتهام بمعاداة الإسلام والمسلمين 183
ب) ختان الذكور والاتهام بمعاداة الأديان 184
3) الختان والصراع الاستعماري 184
4) الختان والصراع السياسي على أساس الجنس 186
الفصل التاسع: النتائج النفسيّة والاجتماعية للختان 187
1) آثار صدمة الختان على الطفل 187
أ) آثار ختان الذكور 187
ب) تأثير صدمة الختان على الإناث 189
2) أثر الختان على العلاقة مع الأهل 190
3) أثر الختان على العلاقة مع المجتمع 191
أ) انتقاص تقدير الذكور لأنفسهم وتقديرهم للغير 191
ب) بتر أعضاء الغير 192
ج) العنف والتصرّف غير الاجتماعي 193
د) الاغتصاب 193
هـ) الانتهاك الجنسي للأطفال 194
و) الانتحار 194
ز) السرقة 195
ح) الصراعات والحروب 195
الفصل العاشر: الوسائل التربويّة والنفسيّة للقضاء على الختان 196
1) الدراسة الشاملة وكسر حاجز الصمت 196
2) التحرّك على المستوى الديني 196
أ) علاج وعزل رجال الدين ومنع قراءة بعض النصوص الدينيّة 196
ب) إشراك رجال الدين في الحملة ضد الختان 197
ج) تثقيف الشعب وتحصينه ضد سطوة رجال الدين والنصوص الدينيّة 197
3) أساليب توصيل المعلومات للعامّة 198
4) علاج الآثار النفسيّة للبتر الجماعي الثقافي 199
الجزء الخامس: الختان والجدل القانوني 203
الفصل الأول: منع ختان الذكور عبر التاريخ 203
1) منع ختان الذكور في العصور القديمة 203
2) منع ختان الذكور في العصور الحديثة 205

الفصل الثاني: إدانة المشرّع الدولي لختان الإناث **206**
1) الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصّصة 206
2) إدانة المشرّع الوطني لختان الإناث 210
أ) سويسرا 211
ب) فرنسا 212
ج) بريطانيا 213
د) الولايات المتحدة 213
هـ) مصر 214
3) إدانة المنظمات غير الحكوميّة لختان الإناث والذكور 215
أ) اللجنة الإفريقيّة 216
ب) المنظمة القوميّة لمراكز المعلومات بخصوص الختان 216
الفصل الثالث: الختان وحقوق الإنسان **217**
1) الختان ومبدأ عدم التمييز 218
أ) مبدأ عدم التمييز 218
ب) عدم وجود سبب للتمييز 218
ج) النساء ترفض التفريق بين الختانين 219
د) أسباب سياسية لاأخلاقية 219
2) ختان الذكور والإناث والحقوق الدينيّة والثقافيّة 220
أ) مطالب الطوائف 220
ب) الحقوق الفرديّة والحقوق الطائفية 221
3) الحق في سلامة الجسد والحياة 222
4) الحق في عدم التعسّف وعدم التعذيب 222
5) الحق في العرض 223
6) الحق في حرمة الميّت 224
الفصل الرابع: ختان الذكور والإناث والإباحة الطبّية **224**
1) الضرورة الطبّية 224
2) الموافقة المستنيرة للمريض أو وليّه 225
3) إذن ممارسة العمل الطبّي ضمن أصول القواعد والأخلاق الطبّية 228
الفصل الخامس: منع الختان بين المُثُل والإمكانيّات **230**
1) القانون والعادات الواسعة الانتشار 231
2) العادات الاجتماعية لا تلغى بجرّة قلم 231
3) الختان بين التدرّج والتسرّع 233
4) هل هناك ضرورة لقانون؟ 235
5) القانون جزء من خطة شموليّة 236

الفصل السادس: الختان واللجوء السياسي **236**
1) النصوص الدوليّة والتصريحات المعلنة 236
2) تعريف الاضطهاد 237
3) هل النساء فئة اجتماعية معيّنة؟ 237
4) معارضة ختان الإناث كحيلة للبقاء في الغرب 238
5) التمييز بين ختان الذكور والإناث في مجال اللجوء السياسي 239
خاتمة الكتاب **241**
كامل محتويات الكتاب **243**

ختان الذكور والإناث

عند اليهود والمسيحيّين والمسلمين
الجدل الديني والطبّي والاجتماعي والقانوني

يعرض هذا الكتاب الجدل الديني والطبي والاجتماعي والقانوني حول ختان الذكور والإناث عند اليهود والمسيحيين والمسلمين.

يواجه ختان الإناث في أيامنا حملة على مستوى الدول والمنظمات الدولية تهدف إلى إلغائه. أما ختان الذكور فقد تم قبوله ويكاد لا يجرأ أحد على نقده. فهناك ظن أنه أقل ضرراً من ختان الإناث وقد يكون مفيداً للصحّة.

والقصد من هذا الكتاب فضح هذه الأسطورة الكاذبة التي تغذيها الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية. فهو يبين أن التفريق بين الختانين لا أساس له من الصحة. فكلاهما تعدي صارخ على سلامة الجسد دون أي مبرر يقبله العقل. وهذا التفريق هو السبب الرئيسي وراء فشل الحملة ضد ختان الإناث. فلا يمكن ضمان الحق في سلامة الجسد للبنت إن كنا نحرم أخيها من هذا الحق.

نبذة عن المؤلف

سامي عوض الذيب أبو ساحلية، مسيحي من أصل فلسطيني وحامل الجنسيّة السويسريّة. ولد عام 1949 في الزبابدة، فلسطين.

أتم دراسته الجامعيّة في سويسرا حيث حصل على ليسانس ودكتوراه في القانون من جامعة فريبورغ، ودبلوم في العلوم السياسيّة من معهد الدراسات الجامعيّة العليا في جنيف. يعمل في المعهد السويسري للقانون المقارن في لوزان كمستشار قانوني مسؤول عن القسم العربي والإسلامي منذ عام 1980. له عدة مؤلفات ومقالات في الشريعة والقانون العربي والسياسة في عدّة لغات. وألقى محاضرات عدّة في جامعات ومراكز عربيّة وغربيّة. ويجد القارئ قائمة منشوراته وبعض مقالاته على موقعه على الانترنيتhttp://go.to/samipage

مغلف الكتاب: نحت مصري يرجع إلى حوالي عام 2300 قبل الميلاد.